سفيتلانا بونوماريوف

نيكولاي بونوماريوف

مدينة بلا حرب

رواية للفتيان

مكتبة
Telegram Network

ترجمة : كرم رستم

سفيتلانا بونوماريوف   نيكولاي بونوماريوف

مدينة بلا حرب

رواية للفتيان

ترجمة: **كرم رستم**

مراجعة: **د. نوفل نيُّوف**

© مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.

PZ10.731 .P66 Mad 2021

Ponomaryov, Svetlana

مدينة بلا حرب: رواية للفتيان / تأليف سفيتلانا بونوماريوف ونيكولاي بونوماريوف؛ ترجمة كرم رستم؛ مراجعة نوفل نيّوف. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.

ترجمة كتاب: Gorod bez voyni تدمك: 978-9948-33-194-0

1- قصص الأطفال الروسية- مترجمات إلى العربية- القرن 21. 2- قصص الأطفال العربية- مترجمات من الروسية- القرن 21. أ- Ponomaryov, Nikolay. ب- رستم، كرم. ج- نيّوف، نوفل. د- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

Original title: Gorod bez voyni

Text © Svetlana and Nikolay Ponomaryov, 2019

Published with the permission of KompasGuide Publishing House in Russia صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب MC-03-01-5005357.

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220

مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي غير مسؤول عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المركز.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطيّ من الناشر.

«مكتبة ♔ النخبة»

«الجيلُ الراهن من السوفييت سيعيش الحِقْبةَ الشيوعية».

مَقُولةٌ قديمة

1

«بُم... بُم... بُم... ـم... ـم..». دويٌّ مزَّقَ حُجبَ الصمت الجاثم، وغشاوةٌ بيضاءُ انْداحَت أمامَ الأَعيُن، سابحةً كالدُّخَان تارةً، دافِقةً كما يَنساب الحليب تارةً أخرى. الرأسُ مُثقَلٌ بطنينٍ ضاغطٍ مِلْحاح.

«أينَ أنا؟» سؤالٌ يَجُوب ساحةَ الإدراك.

ما حدث عَصِيٌّ على الذاكرة. حاوَلَ ساشكا [1] جاهِداً الاستعانةَ بحواسِّه البصرية. انقطَعَ الطنينُ بغتةً، وبدأ الضباب يَنقشِعُ وبَدَا عبْرَه سقفٌ ممتدٌّ، في إحدى زواياه بقايا بيتِ عنكبوتٍ ضاعَت مَعالمُه، ظنَّ أنه الثُّكْنة. وسرعانَ ما انقشَعَ الضباب تماماً.

تَراءَتْ لساشكا غرفةٌ متوسطةُ الحجم؛ على مَقرُبةٍ من السرير خِزانةٌ بأدراج، وعلى مسافةٍ منها طاولةٌ وكُرسيٌّ بغير مَسنَد، وسريرٌ آخَر شاغر.

خلفَ الطاولة جلسَتْ سيدةٌ سمينة برِداءٍ أبيضَ، انحنَتْ فوقَ صحيفةٍ بيدها. في البداية، بدَتِ المرأةُ والغرفةُ ورائحةُ الكلور العابقة، كل هذه المكونات بدَتْ غريبةً ومُتنافِرة، لا جامعَ يَربطُها ولا معنى لها. ثم تَبيَّنَ أنه جناحُ الإسعاف في فيلقٍ عسكري؛ هذا يعني أن أمراً جَلَلاً حدث، هو جريحٌ إذن.

بعدَ جُهدٍ تمكَّنَ ساشكا من إزاحةِ رأسه عن الوسادة. تبيَّنَ أن العُصابةَ على رأسه هي ضِمادٌ من الشاش. خلف النافذة كانت تَغرُب الشمس ويَعلو عويلُ الريح.

أرهَقَه الاستلقاء، فحاوَل ساشكا تعديلَ وَضعيَّتِه، إلا أن ألماً شديداً عصفَ برأسه. كاد ساشكا يصرخ، وتعالَتْ أنَّاتُ سريره اللَّوْلبيِّ. التفتَتِ المرأةُ نحوَه.

تساءَلَ ساشكا بصعوبة: «معذرةً، لماذا أنا هنا؟ أجَرِيحٌ أنا؟ لا أتذكَّرُ شيئاً».

أجابته على مضض: «سَلِ الطبيبَ عندما يأتي، سأخبره أنكَ أفَقْتَ».

أغمَضَ ساشكا عينَيْه. كان رأسُه لا يزال يُؤلِمه. تسلَّلت إليه ذكرياتٌ مختلِفة؛ راح يَتذكَّر تدريباتِ فِرْقتهم في البَرِّيَّة، التدريبات الخامِسة هذه السنةَ. لماذا يتذكَّرها؟ فكلُّ تلاميذ المدرسة الحربية [2] يَتدرَّبون، كلُّهم يَجْرِون كيلومتراتٍ طويلةً تحت المطر وفي لهيب الشمس. يَجْرُون خِفَافاً أحياناً، أو مُثقَلِين بأعباءِ حُمولةٍ أحياناً أخرى. يُنهَكون ويُرهَقون ويكادون يزحفون عند وصولهم إلى الموقع المطلوب حراسته. وهذا أمرٌ طبيعي، طالما كان كذلك، وقد اعتادَ ساشكا عليه. إذاً، ما سببُ وجودِه هنا؟ هل حدَثَ شيء أثناء التدريبات وهو لا يَتذكَّره؟ لقد ارتطَمَ رأسُه بشيء. لكنْ كيف حدَثَ ذلك؟ ليس لديه أيُّ تصوُّر. لا بأسَ، فلا بدَّ أن يأتيَ أحدُهم ويشرح له كلَّ شيء. سيأتي إيليا. طرد ساشكا النعاسَ الذي كاد يغلبه. لماذا لم يَتذكَّرْ على الفور؟ لقد هبَّتْ عاصفة؛ عاصفةُ أَتْرِبةٍ ورياحٌ جافَّةٌ آتية من صحاري الجنوب. لقد ابتعَدَ هو وصديقُه إيليا عن المتاريس. كان من الصعبِ الاهتداءُ وسطَ رياحِ الأَتْرِبة. الْتَوَتْ قدَمُ إيليا وراح يَعرج؛ هذا يعني أنه هنا، في غرفةٍ أخرى. سيخبره غداً بكلِّ شيء. بعثَتْ هذه الأفكارُ الارتياحَ في نفْسِ ساشكا.

ظلَّ ساشكا راقداً في هذه الحالة طوالَ الليل، يصحو تارةً ويَغِيبُ عن الوَعْي تارةً أخرى. خلفَ النافذة كانت تَهبُّ الريحُ كما في البَرِّيَّة. وكان مِصباحُ السقف في زجاجةٍ سخيفة، وأخَذَ يُومِض بسببِ التَّفاوُت في شِدَّة التيارِ الكهربائي، فيتوَهَّج تارةً ويَخفُتُ تارةً أخرى.جاءه مرتَيْن رجلٌ يرتدي معطفاً أبيضَ، ليَحْقنه في الوريد ثم يُغادِر دون أن يكلِّمَه، بالرغم من مُحاوَلات ساشكا للاستفسار عن جُرْحِه، وعن إيليا. بعدَها، بزَغَ الصبح. هدَأتِ الريحُ خلف نافذةِ القِسم الطبي، وتوقَّفَ معها الدُّوَار المُضْنِي الذي أخذ برأس ساشكا. ظلَّ يحدِّق في السقف منتظراً ما سيأتي بعدُ. عادةً، بعد إصابةِ أحدهم بجِراحٍ في الفيلق، كان يحصل تلميذُ المدرسة الحربية على إجازة؛ أيْ أنه ستُتاح له الفرصةُ لزيارةِ المنزل لمدةِ أسبوعٍ أو أسبوعَيْن، ما يُعتبَر بمثابةِ هديةٍ مُفاجِئة.

قُرِعَ الجرسُ في الخارج ليُعلِن عن موعدِ الاجتماع الصباحي. وبعد قليل، دخلَتِ الغرفةَ مُمرِّضةٌ سمينة نَعِسة ومُتجهِّمة، وانهمكَتْ في تبديلِ عصابةِ رأس ساشكا.

تساءل ساشكا: «إلى متى سأظلُّ مُستلقِياً هنا؟»

«يُمكِنُك النهوضُ، إن شِئتَ».

«تُرى، في أيِّ غرفةٍ يَرقدُ ڤـيتروف؟»

أجابت المرأة بنزقٍ: «لا أعرف اسمَ أيٍّ منكم هنا! إنهم يُحضِرون الكثيرين منكم. ابحثْ عنه بنفسك. ولكن، ليس الآن. عليك ألَّا تُغادِر الغرفةَ».

نهض ساشكا واقترب من النافذة مُستنِداً إلى الحافة، يبدو أن غرفتَه في الدور الثاني. في الأسفل تراءَتْ له فسحةٌ من الفِناء مَكسُوَّةٌ بطبقةٍ من الأعشاب المُغبرة، وشُجَيْراتٌ من العُلَّيْق، وسياجٌ خشبيٌّ يُؤطِّر بناءَ الفيلق من كل صَوْب. كان فيلقُ الحراسة يُعَد أرقى مؤسَّسةٍ تعليمية في المدينة، وكان مَعزولاً كلياً عن المدينة، ليس فقط بأسواره العالية، وبافطاتِه التحذيرية: «قِفْ! منطقةٌ عسكرية. ممنوع الدخول!» وإنما أيضاً بالعُرْف العام أيضاً؛ فهو فيلقُ النُّخْبة، وداخلَ هذا السور فقط، يُمكِن أن تعيشَ حياةً حقيقية وتَبْني مستقبلاً واعداً وتخدم الزعيم.

أطفالُ المدينة تُداعِبهم الأحلام، بأن يُصبِحوا ضباطاً في هذا الفيلق. الخيارُ هنا وَقْفٌ على المُميَّزين، وفي حال اقترافهم أيَّ جُنْحة، يُسْتغنَى عن خدماتهم. يُتابِع ساشكا تدريباتِه في هذا الفيلق للعام الثاني، وقد خَبِر كلَّ حُفنةِ ترابٍ هنا؛ ساحة الاستعراض، الثُّكْنات، المُستودَعات، والمُلحَقات... والآن ها هو ذا الجناحُ الطبي، الذي لم يَزُرْه من قبلُ.

جُهِّز هذا المبنى منذ زمن طويل جداً، وخُصِّص لتقديمِ الخدمات للوَحدات الاستعراضية التابعة للقائد الذي كان في ذلك الحين رئيساً لفيدراليةٍ شاسعة. وهو بِناءٌ شَادُوه بأمانةٍ؛ لم يهترئ، وظلَّ مُحافِظاً على هيبته. غرَسَ طلَبَتُه الأوائلُ ساحاتِه بأشجارِ حَوْرٍ وسَرْوٍ أزرقَ غَدَتِ الآن أشجاراً جميلةً عملاقة. حقاً، كان كل شيء هنا يبدو مختلفاً عما في المدينة التي استنزفَتْها الحربُ.

أحسَّ ساشكا بخيبةِ أملٍ؛ لأن نافذتَه لا تُطِلُّ على الجهة الأخرى، حيث يُمكِنه النظرُ إلى ساحةِ الاجتماع الصباحيِّ ومَسارِ السَّرِيَّة المناوِبة، وإلى الطلابِ المتقدِّمين وهم يُمارِسون تدريباتهم على قتالِ الشوارع.

تنهَّدَ ساشكا وعاد إلى سريره. تراءى له الرمزُ العسكريُّ المطبوع على وسادته الرمادية. لربما تُتابِع سَرِيَّتُه الآن تدريباتها. ورِفاقُه هناك لربما يَحلُّون مسائلَ الجبر أو يُترجِمون مَقاطِعَ من كِتابِ أساطيرَ خطَّه نُسَّاكٌ يَسْكنون البراري، في حين سيظلُّ هو راقداً هنا، إلى أجلٍ غيرِ معلومٍ بسببِ إصابةٍ في رأسه مجهولةِ السبب. ربما غادَرَ زميلُه إيليا المشفى، وعاد إلى سَرِيَّته بعد أن عالَجُوا خلْعاً في أحدِ أطرافه وعاد إلى السَّرِيَّة. تُرَى هل سيَتماثَلُ ساشكا

للشفاء قبل نهايةِ سبتمبر؟ نحن اليومَ في الثامن عشر من سبتمبر، وسيبدأ الفصل الدراسي الجديد في أكتوبر. لقد وعدوهم بالتدريب على القَنْص وفنون الرماية من البندقية، وتعليماتِ التخفِّي والتمويه، وقريباً سيحلُّ وقتُ اختبارِ مادةِ فقه اللغة. تذكَّرَ ساشكا أنه أعارَ صديقاً له في سَرِيَّةٍ أخرى كتابَ لغةِ النُّسَّاك في البراري؛ إنه كتابٌ جيِّد، ليس للمِنْهاج العادي، بل هو مُخصَّصٌ للمِنْهاج الجامعي. اشترَتْه له أمُّه. مهما يكن، فإن المَشْفى العسكري مكانٌ مُوحِش، لا سيَّما أن الخروج إلى الرَّدْهة ممنوعٌ.

سُمِعت جَلَبةٌ خلفَ الباب، ودخَلَ رجلٌ قويُّ البِنْية أشيبُ، متوسطُ القامة، ذو شاربَيْن مُضحِكَيْن. إنه أحدُ أفضلِ مُدرِّبي الفيلق؛ النقيب كرايف. كان في العادةِ منتصبَ القامة، حسَنَ الهِنْدام، لكنه بدا اليومَ قَلِقاً، ومتوتراً.

بادَرَه ساشكا رافعاً يده بالتحية: «احترامي، سيدي».

أمَرَه كرايف: «استرِحْ». جلس ساشكا على سريره، وجلس الضابط على كرسيٍّ مجاور.

«لدينا بضعُ دقائق. أسألُكَ وَتُجِيب».

- «هل حدث شيء؟ هل سيَقْتادوننا إلى الحرب؟»

قال كرايف: «ما كنتُ لِآتِيَ من أجل ذلك». وشبَّكَ أصابعَه بعصبيةٍ كمَن يقرِّر؛ أيَجدُر به الحديث، أم الانسحاب فوراً. «هل جاءك أحدٌ من الأجهزة الأمنية؟ كلا؟ إذن سيأتون فورَ إعلامِهم بأنك تَماثَلتَ للشفاء. قد يَحضرون، أو تُستدعَى، لا أعلم. إذن... عليَّ إبلاغك. لا يهمني ما اتَّفقتَ عليه مع ڤـيتروف! على أية حال، ما فعلتماه عبَثٌ وصبيانية. المهمُّ ألَّا تعترف بشيءٍ».

ظلَّ ساشكا يحدِّق، لا يَعِي شيئاً. لاحَظَ الضابط ذلك.

- «عامةً، هل تَذكُر يومَ أمسِ؟ التدريبات؟»

- «أجل، لقد ضلَلْنا الطريقَ أنا وإيليا. داهَمَتْنا العاصفة... أُصِيبت ساقه..». حاوَلَ ساشكا أن يَتذكَّرَ شيئاً ليكتشفَ ما يرمي إليه كرايف، لكنه لم يفلح. «ثم أصاب رأسي شيءٌ..».

- «ليس شيئاً، بل ڤـيتروف. لقد ضرَبكَ وولَّى هارباً إلى الجنوب. جارٍ البحثُ عنه الآن، ما زال طَلِيقاً. هذا يَعْني أنه فارٌّ من التجنيد وخائنٌ لمدينته. أفهمتَ؟»

- «إيليا؟» ارتعدَت فرائصُ ساشكا. «مستحيل! لا يُمكِنه الهرب. رِجلَه مُصابة».

تَضاحَكَ كرايف بحزن قائلاً: «أنت لم تَعُد طفلاً، إيليا أضحى خائناً. الآن سيبحث عنه المكتب، أتَعرفُ ذاك الجهاز؟ لا أنصحُكَ بزيارته. سيَجِدونه، وسيُعدَم رَمْياً بالرَّصاص. لكنها مشكلتُه وحْدَه، أمَّا أنا فقَلِقٌ عليك الآن».

لاذ ساشكا بالصمت. الهروبُ عبرَ الصحراء، خلالَ العاصفة، وإلى مدينةٍ أُخرى، ليس مجرَّدَ خيانة؛ إنه انتحارٌ! ما الذي دفعه للهروب؟

- «لديك تبريرٌ واحد فقط». ومسح كرايف بيده عِصابةَ رأسِ ساشكا. «كنتَ تحاول القبضَ عليه فشَجَّ رأسَكَ بحجرٍ. ستَغسل الشكَّ بالدَّمِ».

- «أنا لم أحاوِلِ القبضَ عليه!» تنهَّدَ ساشكا بوَجَل. «لم يَكُن ينوي الذهابَ إلى أيِّ مكان، حقاً! لقد تخلَّفْنا عن المجموعة بسببِ إصابته! وفيما بعدُ..».

قال كرايف جازماً وهو يتأهَّب للخروج: «فيما بعدُ ضرَبكَ، لكيلا تمنعَه من الفرار. لن يكون بمقدورك مُساعَدته الآن. اهتمَّ بنفسك. التحقيقُ في المكتب لن يكون نُزهةً».

غادَرَ الضابط وكأنه يَتفادى أن يراه أحدٌ في جناح المرضى، وظلَّ ساشكا وحيداً يَجترُّ كلماتِ كرايف الغريبة والمُرعِبة بخصوص الخيانة.

ما أدلى به النقيبُ كان صاعِقاً، كما لو أنهم أخبروه بأن العالَمَ من حوله انقلَبَ رأساً على عَقِب، أو أنه ليس ألِكساندر يرخوف بل هو شخصٌ آخَر! نهض ساشكا واقترب من النافذة مترنِّحاً، كأنَّ النظر عبر النافذة سيوضِّح له شيئاً مما يحدث. وفي الحقيقة كان ذلك ممكناً. كلُّ الأشياء في أماكنها المعهودة، حقاً ليست نهايةَ العالَم. إذاً لا يُمكِن أن يكون إيليا فاراً من الخدمة بالفعل. لماذا يجزمون بأنه هربَ إلى مكانٍ ما؟ ربما ظلموه. ضلَّ إيليا الطريق. مَن يعرف ما يُمكِن أن تسبِّبَه العاصفة؟ مَنْ قال إن إيليا ضرَبَ رفيقَه؟

لا يتذكَّر ساشكا شيئاً. هو ليس مجنوناً ولا أعمى، لكيلا يذكر أنه تعرَّضَ للضرب. تحسَّسَ ساشكا رأسَه المعصوب. لم يَعُد يؤلمه تقريباً؛ وهذا تأكيدٌ آخَر لبراءة إيليا، فلو أنه ضربه بحجرٍ على رأسه لَكان أودى بحياته.

- «ساشكا!»

استند ساشكا إلى حافةِ النافذة ونظر إلى أقرانه هناك في الأسفل؛ فـاسيل، وماكار، وڤـوڤـكا [3]. فتح النافذةَ على مِصراعَيْها وأطلَّ برأسه.

صاح ڤـوڤـكا: «لقد طردونا! كل أفرادِ مجموعتنا، سنلتحقُ بالمقاتلين في القطاع الجنوبي. الأمورُ في الفيلق ليسَت على ما يُرام! طالت التحقيقاتُ حتى الضباط، والتفتيشُ في كل مكان!»

أضاف ماكار: «كلُّ ذلك بسبب ڤـيتروف!»

- «وأنا؟ هل نَقَلوني إلى مكانٍ آخَر؟»

- «لم يقولوا شيئاً عنك. قد تَظلُّ مع الأغرار. لقد تعرَّضْتَ للضرب! هل تتألَّم؟»

تمتم ساشكا هامساً: «أتألَّم! تُرى، ألَمْ يَجِدوه بعدُ؟»

- «كلا. بالأمس لم تتمكَّن الحوَّاماتُ من التحليق بسببِ شدة الرياح، عاوَدُوا الأمرَ اليومَ. لكنَّ الليلَ طويلٌ بما يكفي لأن يفرَّ بعيداً! سانيوك، هل تسمعني؟»

لم يَعُد ساشكا يسمعهم. جلس على سريره، واحتضَنَت يداه ركبتَيْه وأغمَضَ عينَيْه. أيُعقَل... أن يكون كلُّ ذلك حقيقةً، وقد اختفى إيليا؟

اقتحمَتِ السمينةُ الغرفةَ قائلةً: «مَنْ سمَحَ بفتحِ النافذة؟» وراحت تقذف الفِتْيانَ في الخارج بسيْلٍ من السباب: «هيا ابتعدوا! مكتوب هناك: «يُرجى الهدوء»!» وأغلقَت النافذةَ بعُنفٍ تعالى معه رنينُ الزجاج.

- «ستغادر اليومَ. بزَّتُكَ في قاعة الاستقبال، الدور الأول».

هناك، في حجرةٍ صغيرة أعاد له الطالِبُ المناوِب من السنة الأولى بزَّتَه العسكرية. ارتدى قميصَه الملطَّخَ بالدم، ونظر إلى نفسه بالمرآة. شكله لا يُوحِي بأنه من جنودِ الفيلق؛ وجهٌ شاحب، وعينان سوداوان غزاهما توهُّج لاهب، وكذلك عِصابةُ رأسه الحليق. تنهَّدَ ساشكا، وبحركةٍ معتادة من يده أدَّى التحيةَ العسكرية لصورته المنعكِسة بالمرآة. بَدَتِ الحركةُ فاشلةً لدرجةٍ تثير الاشمئزاز. في قاعة الاستقبال طلب إليه الطبيبُ المناوِب، دون أن ينشغلَ عن توقيعِ أوراقٍ مهمة، مُراجَعةَ مكتبِ قائدِ الفيلق فوراً.

- «عموماً، كان يجب أن تظلَّ في المَشْفى، لكنها الأوامر». وضع القلمَ من يده، وقدَّمَ لساشِكا زجاجةَ دواءٍ صغيرة. «تناوَلْ حبَّتَيْن يومياً، واحدةً صباحاً

والثانيةَ مساءً، وغداً تستبدل الضِّمَاد. من الأفضل الاستلقاءُ والراحة، لكن ما دام الأمرُ كذلك... فتَماسَكْ».

دسَّ ساشكا الدواءَ في جيبه وخرج إلى الشارع. هل من المعقول أن ينقلوه هو أيضاً إلى سلاح المدرَّعات؟ بالأمسِ كانوا عشرةَ أفرادٍ في المجموعة. كيف يُمكِن طرْدُهم جميعاً؟!

يوم من أيام سبتمبر يلفُّ دِفْؤُه الأُفقَ في الخارج، ويحمل الهواءُ بقايا خيوطِ العناكب، وعبق المكانُ برائحةِ أوراق الصنوبر. واصَلَ ساشكا خطواته الوئيدة نحوَ الإدارة العامة؛ يضرب حذاؤه العسكري الشارعَ الأسفلتيَّ، وياقةُ قميصه تعتصر رقبتَه بعنف. أحسَّ فجأةً بالتعبِ وتصبَّبَ منه العرق. كان واثقاً من أنه لن يُصاب بمكروه؛ فهو لم يَرتكب خطأً. إذاً، كل شيء سيكون على ما يُرام.

2

مبنى الإدارة خانقٌ ومزدحم. يَجُوبه الموظفون في بزَّاتهم المختلفة الألوان، والضباط في زيِّهم العسكري يحملون وثائقَهم.

جلس ساشكا في إحدى الزوايا وأغمَضَ عينَيْه، نائياً بنفسه عن الجَلَبة المحيطة. تذكَّرَ أنه جلس في ذات المكان قبل أكثرَ من عامٍ، جاء به صديقُ والده. ترَكَه عند النافذة ودلف إلى مكتبِ القائد. كان ساشكا لا يزال يافعاً، يذهب يومياً إلى المدرسة، ويصنع قصوراً من الطين. لم يَحلُم يوماً بالالتحاق بالجيش. حتى والدتُه كانت تعتقد بأن هناك ما يَكْفي من أسرتهم في عِداد المقاتلين، ويجب على ولَدِها أن يَدرُس في الجامعة ويتخرَّج في كلية الطب. لم يَعترض، فَلْتَكُن كلية الطب. ذاتَ يوم، وفي يومٍ خانق من شهر مايو، كانت تغطي المدينةَ سُحبٌ رمادية كالحة، وليس في الجو نسمة هواء. لم يَعُد والِدُه من عمله. جاءتهم مجموعةٌ من الضباط بالزيِّ الرسمي، فدخلوا إلى المطبخ وتحدَّثوا مطولاً إلى أُمِّه، بينما وقف ساشكا قُرْبَ الباب نهباً للمجهول. لقد استُشهِد والده دفاعاً عن قائده.

لوحةٌ حجرية باردة، رماديةٌ، تنتصب في ساحةِ مقبرة الشهداء، أضحت هي البديلَ لوالد ساشكا. لقد قُبِض على القاتل فوراً، لكن ذلك لم يغيِّر شيئاً. لم يَبْقَ لساشكا إلا أن يفكِّر محتاراً: هل يُعقَل، في مدينته الرائعة، أن يظهر فجأةً قاتلٌ مجنون أرعنُ؟! حصد والده باستشهاده إكليلاً من الزهور وضَعَه

القائدُ فوقٍ مَثْواه، وقبولاً لوَلَده ساشكا في عِداد المدرسة الحربية. وهكذا، انطفأ نهائياً الحديثُ عن الجامعة.

فتح ساشكا عينَيْه فرأى امرأة عجوزاً تنحني فوقه.

- «هل أصابك شيء؟ مَن ستُقابِل هنا؟»

- «جئتُ إلى سيادة العقيد. أنا تلميذُ المدرسةِ الحربية يِرخوف ألِكساندر».

- «سأُعلِمه حالاً». ثم راح ساشكا مجدَّداً في دوَّامةٍ من الذكريات.

قبل عامٍ أيضاً، خرجَت من المكتب امرأة، قالت وكأنها تنظر إلى دمية: «صبيٌّ رائع!» أحسَّ بشيءٍ من الغثيان. يبدو أنها كانت على حق، فقد قُبِل في سَرِيَّة الانضباط. بادَرَه صديق والده: «لقد قُبِلتَ. لا تَخذُلْنا!» ولم يَخذُلْهم.

ناداه أحدهم من الغرفة: «يرخوف، ادخل!»

فضلاً عن قائد الفيلق العقيد بيلوف، كان جالساً خلف الطاولة كرايف، ورجلٌ نحيل بثيابٍ رمادية، وجهُه شاحبٌ مُصفَرٌّ، راح يحدِّق إلى ساشكا وكأنه عَدوُّه اللدود، وأنه المسؤولُ عن كل كوارث الدنيا.

أشار العقيد إلى مقعدٍ فارغ قُربَ الحائط قائلاً: «اجلس، يِرخوف».

امتثَلَ ساشكا وجلس.

قال الرجل الشاحب بصوت ممطوط: «نعم... ـم. تَعمُّ كُلِّيتَكم فوضى كبيرةٌ، يا سيد بيلوف. والأخطر أنها فوضى مُرِيبة. لقد أثار هذان الوَلَدان الفارَّان استنفارَ إدارة المخابرات بأسرها». سعل كرايف بصوت لا يكاد يُسمَع.

قال الرجل الغريب: «فَلْنُباشِر العمل». ونظر مجدداً إلى ساشكا. «أنا محقِّق من فرع الاستنطاق في وكالة الاستخبارات. أنت ألِكساندر؟»

أجاب ساشكا بصوتٍ مبحوح، وهو لا يَعِي حقيقةَ ما يحدث: «نعم».

غاص المحقِّق داخل محفظةٍ بُنيَّـةِ اللون كانت أمامه، وراح يقرأ:

- «العُمْر خمسة عشر عاماً. الأبُ يِرخوف ألِكساندر، نال شرف الشهادة في أيار السنة الفائتة دفاعاً عن حياة قائده. الأمُّ معلمةٌ في المدرسة الابتدائية، تُقِيم في شارع براتسكايا، البِناء رقم 8، شقة رقم 6. أهذا صحيح؟»

أشار ساشكا بالإيجاب.

- «جَدُّك أيضاً كان بطلاً؟»

- «أجل».

- «هكذا إذن... وأنت خائن!»

غطَّت غمامةٌ سوداء عينَيْ ساشكا.

- «لستُ خائناً! هذا خطأ».

جأر المحقِّق: «حتى الآن، لم أسألك عن شيء!» ونقل ناظِرَيْه إلى كرايف قائلاً: «لقد تراخَيْتم كثيراً مع مَرْؤوسيكم. هل جئتُ إلى هنا لأسمعَ تبريراته؟ كلُّ هذا العار على الفيلق، والجميع يتصرَّفون وكأنَّ شيئاً لم يحدث».

راح ساشكا يَنقل ناظِرَيْه بين كرايف والعقيد، وهما صامتان كأنهما غير مَعْنيَّيْن بالدفاع عنه.

كان كرايف يجلس هائماً، يشبك أصابعَ يدَيْه تارةً، ويَبسطها تارةً أخرى. انتصَبَ المحقِّق واقفاً، ثم اقترب من ساشكا وانحنى متسائلاً:

- «أنت، يا ابن البطل، هل تفهم ما تورَّطْتَ فيه؟»

اعتصر ساشكا نفسَه فوق الكرسي.

- «متى قرَّر ڤـيتروف الهروبَ؟»

- «لا أعرف شيئاً».

- «تلك ليسَت إجابةً».

حدَّق ساشكا برعبٍ في وجه المحقق: «أُقسِم إنني لا أعرف شيئاً! لم يُخبِرني إيليا بشيء!»

قال المحقق بغضب وهو يكزُّ على أسنانه: «مفهوم. قرَّر الصبيُّ مُراوَغةَ الرجال الثلاثة. يظنُّ أنه سيكذب ويَعْفُون عنه. يظن أنه سيُتابِعُ الدراسةَ في الفيلق، وأن شرَفَ مَن سيصبح ضابطاً هو كلام فارغ، على ما يبدو!»

- «كلا، لا أظن ذلك على الإطلاق!»

- «كلا؟» واقترب المحقِّق بحيث أحسَّ ساشكا بدبيبِ أنفاسه العابقة برائحةِ سجائر رخيصة وشيءٍ حلوٍ. «هل تعلم ما الذي كان سيفعله إنسانٌ يُقدِّر الشرفَ العسكري، إذا كان يجلس في مكانك؟» صمت برهةً ثم أضاف: «كان سيُطلِق رَصاصةً على جبينه!»

خيَّمَ في المكتب صمتٌ يُنذِر بالشؤم. أحسَّ ساشكا فجأةً بألمٍ في رأسه؛ الألم نفسه الذي شعر به ساعةَ إفاقته في المشفى، وتَراءى له، لثوانٍ، أنه سيُفِيق ويرى السقفَ الأبيض. هنا تعالى صريرُ الكرسي تحت المحقِّق، فغامت الرؤية.

- «إذن ستخبرني الآن، بما هو أكثر نفعاً من قولك «أنا بريء»». وعاد المحقِّق إلى مكانه خلف الطاولة. «حسناً، مَن هم أكثر الأصدقاء قُرْباً إلى ڤـيتروف غيرك، ولمَن قد يكون باح بمُخطَّطاته؟»

أطبَقَ على حنجرة ساشكا توجُّسٌ مُمِيت. أحسَّ بصداعٍ مُؤلِم، فاختلطَت أفكاره وتشوَّشَت.

نطق العقيد: «يرخوف، لقد طُرِح عليك سؤالٌ!»

تَلعثَم ساشكا: «هو... لم يكن لـڤـيتروف صديقٌ غيري. لقد تربى في دارٍ للأيتام، وهنا لا يحبون القادمين من مَيْتَم».

سأل المحقق: «الطلَبةُ فقط، أم المدرِّبون أيضاً؟ مثلاً، مُدرِّب الإرشاد والتوجيه، ها هو ذا أمامك. أخبِرْنا، كيف تعامَلَ مع ڤـيتروف؟ هل أساء مُعامَلته؟»

- «عامَلَه بشكلٍ جيد».

- «ولماذا بشكلٍ جيد؟ هل ميَّزَه عن الطلاب الجُدد الآخرين؟»

هزَّ ساشكا رأسَه مُوافِقاً، ثم لوَّح برأسه نافياً، ونظر إلى كرايف محتاراً.

- «أجل، كنتُ أميِّز ڤـيتروف، وكذلك يِرخوف؛ فقد كانا من الطَّلَبة المجتهدين، ومن الصعب تجاهُلهم».

قال المحقق: «السيد النقيب، إنني أطرح الأسئلةَ على يِرخوف، لا عليك. ولا أدري لماذا لا يَتكرَّم بمُساعدتي. ينتظر منك الإيحاءَ بالإجابة. يُمكِن اعتباركما مجموعةً تخريبية. يبدو أن هناك مَن يَدفع الطَّلَبة للانتقال إلى مدينة الأعداء. هم ليسوا أصحابَ قرارٍ كهذا، أليس كذلك؟»

أجاب كرايف: «ليس لدينا مُخرِّبون في الفيلق».

زأر المحقق: «هذا يعني أنهم موجودون خارجَ الفيلق! هل كان ڤـيتروف يأخذ إجازات؟»

- «مثل الآخرين. مرَّةً في الشهر، ولمدة يومَيْن».

- «إلى أين كانت وجهته في المرَّة الأخيرة؟»

أجاب كرايف: «في المرَّة الأخيرة، كما في سابقاتها هذا العامَ، رافَقَ يِرخوف إلى بيته».

- «أجل. يِرخوف! كلُّ الدلائل تشير إليك!» وأخرج المحقِّق من جيبه مفكِّرةً صغيرة وقلماً، وراح يُدوِّن شيئاً ما. «التهمة مُؤكَّدة، ولا تحتاج إلى إثبات».

اعترَضَ كرايف: «انتظر. ما ذنبه؟ ضربه ڤـيتروف بحجرٍ حتى لا يَمْنعه من المغادَرة. لو كان يِرخوف مُذنباً لَذهب الاثنان معاً».

حدَجَه المحقِّق بنظرةٍ كالجليد.

- «أنت لستَ محققاً. أنت مُرشِد طبوغرافي، مدرِّبٌ سابق. أما عن ضربة الرأس، فذلك حديثٌ آخَر. إنه لم يَقصد قتلَه، بل أبعَدَ عنه الشكوكَ، كما أنه ليس مَنطقياً أن يخطِّطَ شخصٌ لشيءٍ دون أن يَعرف خُطتَه أحدٌ. ڤـيتروف ليس جاسوساً محترفاً، وليس بمجنونٍ حتى يختفي فجأةً ومن دون تحضيرٍ مسبق. أمَّا عن يِرخوف، فإذا كان صديقُه الخائن أغلى عليه من مستقبله وواجبه العسكري، فذلك اختيارُه هو. كان يُمكِن تنفيذُ عقوبةِ سجنه لدينا في الفيلق، لكن الأدِلَّة غير كافية. على أية حال، آمل ألَّا يَطُول مكوثُه في وَحْدة الحراسة».

قال ساشكا بصوتٍ خفيض: «لا تطردوني، لست مذنباً أبداً».

- «قد تكون كذلك، ولكنَّ صديقَك عدوُّ المدينة. تلك هي المشكلة». نهض المحقِّق ودسَّ مفكِّرته في جيبه، وأومأ برأسه للعقيد: «سنكتفي اليومَ بهذا القَدْر. سنلجأ إلى استدعاء الطلبة إذا اضطُرِرنا لذلك. دمتم بخير».

خرج المحقِّق، وخيَّمَ على الغرفة صمتُ القبور. تناوَلَ العقيد الملفَّ الذي خلَّفَه المحقِّق، قائلاً:

- «وثائقك يا يِرخوف! لقد طَرِدت. حاجاتك العسكرية تُسلَمها في المُستودَع».

سأله كرايف: «ألَنْ تنقلوه إلى وَحْدةٍ أخرى؟»

- «هذه بصمةٌ سوداء في سجلِّكَ الشخصي. في الجيوش المحترمة، لا مكانَ للخَوَنة. لربما تُقبَل في وَحدات الدفاع الوطني، أو وَحدات الاقتحام».

غاب ساشكا وكل ما يحيط به في دُوَارٍ محموم. تشبَّثت يداه بحواف الكرسي. تناوَلَ كرايف الملفَّ من يد العقيد وسحَبَ ساشكا إلى الممر.

قال: «لم تخسر شيئاً بعدُ. النقطةُ السوداء للترهيب فقط. بعد عامَين اثنَين يُمكِنك أن تحاول الانتسابَ إلى سلاحِ المدرَّعات أو الحوَّامات». ثم راح ينظر بإمعانٍ إلى ساشكا. «ولربما واتَتْكَ فرصةٌ في قطاعٍ مَدني. ذلك أفضل. أنت وحيدُ أمِّك. لماذا تتطلَّع إلى مكانٍ قد تُقتَل فيه في أي لحظة؟»

نظر ساشكا في عينَي كرايف، وقال: «أُقتَل؟! يجب أن أَقتُلَ نفسي. أنا الآن خائنٌ في نظر الجميع».

- «ليس الجميع، المركز فقط. لو أقدَمَ كلُّ مُشتبَهٍ فيه على قتلِ نفسه، لَخلَتِ المدينةُ من ساكنيها. أفهمتَ؟ فَلْنَذهب».

خرج الاثنان إلى الشارع. بدَت مواقعُ الفيلق كما هي عادةً؛ أشجار التنوب، ودُروب المشي، ويافطة «نحن حُمَاة المدينة». الحياةُ هنا مستمرةٌ كالعادة بدِقَّتها وقواعدها. كان الطَّلَبة الصغار يمرون بجوارِ كرايف وساشكا، وفي كل مرة يحيِّونهما بحركةِ اليد، ثم يُتابِعون طريقَهم. ينظر ساشكا إلى الطَّلَبة والأشجار والأبنية ويفكِّر كيف أنه لا يتخيَّل حياةً لنفسه غير هذه! كيف سيجد نفسَه بغتةً في بيته الذي لم يَزُرْه تقريباً خلال سنةٍ ونصفِ سنة؟ ماذا سيفعل هناك؟ الدراسةُ الجامعية تحتاجُ إلى المال، وهو لم يتعلَّم أيةَ حِرفة أخرى. حتى مَعاهِدُ الحرفيين لن تَقْبله. وما مصيرُ والدته؟ قلْبُها ضعيف، قد تقتلها صدمةُ خبرِ طرْدِه.

تناهى إليه صوت كرايف: «هل تسمعني؟ عليك أن تتماسك. في الحياة يحدث كلُّ شيء. قد يكون هذا أفضل لك، مَنْ يدري؟!»

وصل ساشكا إلى البيت عند حلول المساء. حين سلّمَ أمتعتَه في مقَرِّ الفيلق وودَّعَ رِفاقَه، كانت وطأةُ الأسى خفيفةً. لكنْ بعدَها، أحسَّ باعتلالٍ في أعماقه، كما لو أن شظايا تناثَرَت بها. كان يدرك أن عليه ألّا يعود إلى البيت. يجب أن يموت، لكَيلا يجلبَ العارَ لأمه، غير أن رجلَيْه قادتاه عُنوةً إليها. تسمَّرَ لحظاتٍ، ثم اقترَبَ وطرَقَ البابَ باستحياءٍ، ثم بشكلٍ أقوى. تناهَت إلى مَسامِعِه خطواتُ أمه. هو ذا حفيفُ جواربها الصوف فوق الأرضية الخشبية، باتَ يُميِّزه الآن أكثرَ من ذي قبل. وقفت الأم عند الباب وسألت:

«ساشكا، أهذا أنت؟»

تَفاجَأَ ساشكا بسماعِ صوتها. سؤالُها القديم بدا له هذه المرَّةَ لا مُبالِياً، كما لو أن ولَدَها انتحر منذ زمنٍ ولم تَعُد تنتظر أحداً. تسمَّرَ ساشكا أمام الباب، وسألت الأم ثانيةً، وخيَّمَ صمتٌ طويل وثقيل.

سُمِعت أصواتٌ هامسة خلف أحدِ الأبواب المجاوِرة؛ همساتٌ غيرُ مهمةٍ لكنها قَلِقة. ومن خلفِ بابٍ آخَر خُيِّل إلى ساشكا سماعُ مواءِ قِطٍّ. غدا الظلامُ مُخِيفاً، وخطر لساشكا أن يُولِّي هارباً بعيداً عن الباب، بعيداً عن البيت، وحتى عن المدينة.

فُتِح الباب. أغمَضَ ساشكا عينَيْه تحت وهَجِ مصباحِ الجاز الذي حملَتْه أمه بيدها. بدا وجهُها شاحباً، وكئيباً.

صاحت ملهوفة: «أوه! ساشِنكا». وسحبَتْه بيدها نحوها. البيتُ عابقٌ برائحةِ الدواء الكريهة، وتراكَمَت على الأرض أشياءُ خُلِعت عن العَلَّاقة في الممر. أوضحت أمُّه: «جاؤوا من المكتب. كانوا مُخِيفين، أجلافاً».

غالَبَها النَّشِيج، فتناوَلَ ساشكا المصباحَ من يدها، ودلف إلى المطبخ، حيث كانت تعمُّ الفوضى أيضاً.

قالت وكأنها رأته بوضوحٍ للتوِّ: «ساشنكا، ماذا أصاب رأسَك؟»

تمتم: «لا بأسَ يا أمي». يبدو أن مَن جاؤوها اليومَ لم يُخبِروها بكلِّ ما حدث. «هيا، حدِّثيني، ماذا أرادوا؟ هل سألوكِ عن شيءٍ؟»

- «كانوا يبحثون عن شيءٍ ما. سألوني عن إيليا، وعن زياراتكما في الإجازات. قالوا إن إيليا ارتكَبَ حماقةً ما..». حاوَلَت الأم أن تستذكر ما حدث. «عزمتُ أن أذهب إليك غداً. يا لها من مصيبة! إيليا، كم هو ولدٌ لطيف! ماذا فعل؟ قد يُطرَد الآن أيضاً. صحيح؟»

قاطَعَها ساشكا: «أمي، ماذا قالوا بشأني؟»

- «لا شيء. عبثوا بأمتعتِكَ فقط».

جلس ساشكا على كرسيٍّ صغير، وأسنَدَ مرفقَيْه إلى الطاولة. لا تعرف أمه شيئاً عن طرده، ولا عن إيليا أيضاً، ومع ذلك فهي مُستاءةٌ جداً. تُرى، ماذا بعدُ؟!

- «بُنَيَّ، ما الذي أصاب رأسَك؟ هل إصابتك خطيرة؟»

- «كلا». رسم ساشكا ضحكةً يائسة وانخرط في اعترافٍ كاذب: «أثناء التدريب قفزتُ من العَرَبة، فأُصِيبت رأسي، وهكذا منحوني إجازةً. سأبقى لأسبوع فقط».

انهمكت أمُّه في إشعال الموقد. أدرك ساشكا أنها تتحرَّك بإعياء، وأطلق العِنانَ لتأمُّلاتٍ حَرِجة. لن يعود المكتبُ لمُلاحَقته، ماذا يريدون منه؟ فقد طردوه من الفيلق ونسوا أمرَه. «يُمكِنني إخفاءُ كلِّ شيءٍ عنها. ذلك أفضل. لا بُدَّ أن أهتديَ إلى مَخْرجٍ خلال الأسبوع، وسأدَّعي أنني عائدٌ إلى الفيلق. سأحاول العملَ في أحدِ المصانع هناك. يُوفِّرون أَسِرَّةً للعمَّال في برَّاكات [4]، أو في إحدى شركات الحراسة... سأجِدُ مَخْرجاً».

- «بُنَيَّ، هل احتجزوا إيليا؟ لربما يحتاج وساطةً؟ لا يُمكِن أن يكون مذنباً».

- «لا حاجةَ إلى ذلك، يا أمي! لا تذهبي إلى المكتب!» نهض ساشكا واقفاً. «بالتأكيد هو مُذنِب، ونحن لم نَعُد صديقَيْن!»

ظلت والدةُ ساشكا تتحدَّث عن أشياءَ أخرى، لكن ساشكا دلف إلى الغرفة وانشغل بتسويةِ فراشه على الأرض. عليه أن ينام هَرَباً من أسئلتها المتلاحِقة. لربما ساعَدَه الاستلقاءُ على التفكيرِ بعقلانيةٍ تُرِيحه من آلام رأسه المُبرِّحة.

أعدَّت له الشاي واقترحَت تقديمَ بعضِ الطعام، ثم انصرفَت لتدقيقِ دفاترِ التلاميذ وهي تتنهَّد وتقلِّب الأوراق. انطرَحَ ساشكا أرضاً، وأطلَقَ لتفكيره العِنان. يبدو أنه لم يَعرف إيليا حقَّ المعرفة؛ ذاك الذي وقَف إلى جواره في الرَّتَل لمدةِ عامٍ، ونام بقُرْبه على سريرٍ بطابقَيْن، وجلس إلى جانبه على مَقاعدِ الدراسة. لم يَتخاصَما يوماً.

وتذكّرَ ساشكا كيف أن صاحبه أمسَكَ ذاتَ مرَّةٍ بقِطَ صغير قُرْبَ السور الخارجي وحمله إلى ساحة الاجتماع، وعُوقِب بالسجن. وحاوَلَ ساشكا التوسُّطَ من أجله لدى الضابط، فألحقه به في السجن هو الآخَر.

قال حينها إيليا: «أرأيت؟ نحن دائماً معاً في ذات المكان في الفيلق؛ ذاتِ السَّرِيَّة، وذات السجن. أتظن أن هذا يحدث صدفةً؟ كلا، نحن مُتلازِمان أبداً».

قال ساشكا: «أجل، بالطبع. دَعْنا نُقسِم على ألَّا نفترق أبداً، حتى لو بعثوا بنا إلى الحرب».

أكَّد إيليا: «هيا، لكنَّ القَسَم لا بُدَّ أن يُعمَّد بالدم، حتى يصبح جِدِّياً». جرحا إصبعَيْهما بمسمارٍ وجداه في الجوار، ومزجا قطراتِ دمِهما.

قال إيليا وهو يَلعَق الدمَ عن إصبعه: «هكذا إذن، سنظل معاً إلى الأبد».

أخيراً، أطفأَت أمُّه المصباحَ ونامت. ظلَّ ساشكا يعضُّ شفتَيْه إلى أن انفجَرَ باكياً بصمت.

لم يكن يعتقد أن لديه مِثلَ هذا الفائض من الدموع؛ بكى وبكى مطولاً وظلَّت دموعُه تتوارد. في الخارج خيَّم ظلامٌ مُطبِق، وخارَت قُوَاه أخيراً، فاختطفه النُّعاس، ولربما ألَمَّت به غيبوبة.

بدا الصباح كئيباً؛ راحت حَبَّات المطر تَقْرع السطح، وأخذت الريح تُراقِص أوراقَ شجرِ القيقب المُصْفرَّة. استفاق ساشكا عاجزاً عن استيعابِ ما حدث له، ولماذا هو في البيت. وحين تَذكَّر، ساء حاله. كانت أمُّه قد غادَرَت المنزل إلى عملها. نهض وقرَّرَ أن يغتسل. عبْرَ المرآة صفعَتْه نظراتُ صبيٍّ ناحلٍ شاحب لا يُشبِه ساشكا الحقيقيَّ. وانزاح الضِّماد عن رأسه أثناء النوم، فبدا نتوءُ جُرحِه الدامي. أشاح ساشكا بوجهه ووقف على رؤوسِ أصابعِ قدمه وتناوَلَ علبةً من الصيدلية القديمة. لحُسْن الحظ، وجد فيها شاشاً. لفَّ الضِّمادَ على رأسه بشدة، ثم تناوَلَ حَبَّتَيْن من دواءِ المشفى، وغسل يدَيْه وأقفل الباب وخرج. دنا من باب الجيران وقَرَعه ببطء؛ فالعمةُ ليزا والعمُّ ڤـيتيا هما فقط مَن يَملكان هاتفاً في هذا المبنى.

بادَرَته السيدة ليزا: «مرحباً أيها الجندي، يا لها من عِصابةٍ جميلة على رأسك!»

قال ساشكا باستحياء: «أستميحكم في استخدام الهاتف».

تناوَلَ الدليل، ووجد رقمَ وكالةِ قوافلِ النقل البري، وسأل إن كانوا بحاجةٍ هناك إلى حرَّاسٍ للقوافل. جاءه الردُّ سريعاً: «يُمكِنك مُعاوَدةُ الاتصال بعد شهر». في الوكالة الوطنية للخدمات أخبروه أنهم ليسوا بحاجةٍ إلى عمَّالٍ في سِنِّه. شركة الحراسة «سيروس» لم تُجِب على اتصاله. أمَّا موظفٌ استعلامات المصنع، فأخبره على الفور: «لا وظائفَ شاغرةً لدينا، لا تتَّصِلْ بنا مرةً أخرى». آنذاك قرَّرَ الاتصالَ بمؤسسةِ «شتورم» شبهِ العسكرية.

أجاب أحدهم عبر السماعة بصوتٍ حادٍّ: «ماذا تريد؟»

- «هل أنتم بحاجةٍ إلى مُتطوِّعين في وَحداتكم؟»

- بادَرَه المتحدِّث: «يبدو أنك في مأزق؟»

- «لا يخلو الأمر من ذلك».

- «راجِعْ مكتبَ التجنيد: شارع الجنرال بيوتكوفسكي. رقم 6. على الرَّحْب والسعة. ستعبُّ لدينا رائحة البارود. السكن والطعام والكساء، كلها مجانيَّة، والنساء أيضاً. خِي... خِي..».

- «أيُمكِنني مُراجَعتُكم خلال أيام؟»

- «لكَ ما تريد يا صديقي. آمل أن تكون مُعافى كالحصان؟ وإلا فستَفطس قبل أن تصلَ إلى الوجهة المطلوبة».

أوضح ساشكا وهو يتنهد: «أنا طالبٌ سابق في كلية القائد الحربية!»

- «من الواضح أنهم أَشْبَعوك ضرباً هناك، فآثَرْتَ اللجوءَ إلينا. خِي... خِي..».

وضع ساشكا سمَّاعة الهاتف. كانت وَحدةُ المغاوير آخِرَ ما يُفترَض التفكيرُ به. يَسُودُ في المدينة اعتقادٌ راسخ بأن كلَّ العاملين في هذه الوحداتِ لصوصٌ ومَارِقون. لكنهم هناك يُقدِّمون المسكن. وإن ساءَتِ الأمورُ في نهاية الأمر، يُمكِنني المغادَرةُ فوراً. أعرَبَ عن شُكْره للعَمَّة ليزا، وخرج.

حاوَلَ ترتيبَ البيت، جمع أمتعتَه وحاجاته المُلْقاة على الأرض. كانت العَتَمةُ والهدوءُ يُخيِّمان على الغرفة. يُوحِي الهدوء بالكآبةِ. لحظاتٍ وسيُطبِق الهدوء على أنفاسِه فيَخْنقه ويحمله على البكاء. يجب ألَّا يسمحَ بذلك. أدار ساشكا مِفتاحَ جهاز الراديو، فصدح بالنشيد المألوف. هذا أفضل. عجباً، ما أكثرَ ما تجمَّعَ عنده من خردةٍ مختلفة! لقد احتفظ بكل الأشياء التي لا حاجةَ لها،

والتي حملها من شقتهم السابقة التي عاشوا فيها مع والده. حينها خُيِّل إليه أنه إذا احتفظ بدفاتره المدرسية وعُلَب الصمغ والأصبغة لتصاميمه ومِفكَّات ألعابه التركيبية، فسيكون كلُّ شيء على ما يُرام، وسيعيش كما في السابق، باستقرار ووضوح. والآن، بدا كل ذلك مُضحِكاً. أحضَرَ سلةَ المهملات من المطبخ وأودَعَ فيها الدفاتر. كان أولَّها دفترٌ خاص بالكلية الحربية، وليس بالمدرسة. فتحه ساشكا بحذَر؛ إنه دفترُ الهندسة الفراغية. رأى في آخِر صفحاته مربعاتِ لُعْبةِ المتاهة التي طالما تَسلَّى بها هو وإيليا بحثاً عن الكنز. ألقى ساشكا الدفتر جانباً. إيليا خائن. إنه واحدٌ من هؤلاء الذين يَسْعَوْن لتسليمِ مدينتهم لأعدائهم قُطَّاع الطرق في إينسك؛ أمثال مَن أطلقوا النار على القائد. إيليا ليس أفضلَ من النَّذْل الذي قتل والِدَه.

تناوَلَ ساشكا قطعةً قماشية مسح بها الرفوفَ الخشبية ووضع فوقَها بعضَ الكتب، وصورتَين بإطارٍ خشبيٍّ؛ صورةً لوالده وهو بلباسه العسكري، والأخرى لأمِّه وهي تحمله في صِغَره. أضاف أيضاً ناباً متصلِّباً لأحدِ الوحوش أهداه إياه أبوه. أمَّا القَصْر الفَخَّاري الصغير الذي كسروه أثناءَ التفتيش، فقد جمَعَ ساشكا حُطامَه ورماه في سلة المهملات. ما نفْعُ القصر حين تنقلب حياتُكَ رأساً على عَقِب؟!

عبْرَ الراديو أعلنوا عن بدْءِ بَرْنامجٍ حول أبطالِ حربِ الاستقلال، فرفع ساشكا وتيرة الصوت.

بعد أن فرغ من حملةِ التنظيف حاوَلَ أن يقرأ شيئاً. لكن التيارَ الكهربائي مقطوع، وما بقي من الكيروسين في المصباح لا يكفي. تناوَلَ ساشكا وعاءً معدنياً وخرج إلى السوق. كان عليه المرور عبر ساحة الحرية. فيما مضى، حين كان تلميذاً، اعتاد أن يَقْصدها هو وصَحْبُه لِلَّعِب هناك. يُقال إن نافورةَ ماءٍ كانت وسط الساحة في الماضي، ثَمةَ بقايا من أنابيبَ صَدِئة تدلُّ عليها، وتتدلى من الحوض قِطَعٌ إسمنتيةٍ مهشَّمة. من قبلُ كان ساشكا يصل إلى هنا في دقائقَ معدودة، لكنه اليومَ سار ببطءٍ وهو يَعُدُّ البيوتَ القرميدية الثلاثية الأدوار: البيت الأول، الثاني، الثالث... كانت الساحة في الجهة المقابِلة للبيت الخامس. تخطَّى ساشكا سوراً معدنياً واطئاً وصَدِئاً، ثم جلس فوق مقعدٍ خشبيٍّ، وعلى مَقْرُبةٍ منه كان بضعةُ صِبْية بلباسهم المدرسيِّ يتبادلون لفافاتِ الحلوى الفارغة. على المقعد الآخَر جلس عجوزٌ يُغالِبه النعاس، وفوق المقعد الأبعد تَعانَقَ عاشِقان.

خلف الساحة بدَتْ بيوتٌ من الحديد والبلاستيك. بدا غريباً غيابُ انعكاسِ أشعة الشمس التي أطلَّتْ بغتةً من خلف الغَيْم. ربما يكون الزجاج وسِخاً. سرعانِ ما أحْيَتْ ذاكرةُ ساشكا ذِكرى قيامه مع إيليا وماكار بتنظيفِ

زجاجِ نوافذ الثّكْنة. ليس ذلك ببعيد. لوَّحَ برأسه وحثَّ ذاكرته على إقصاء إيليا. نقل ناظِرَيْه إلى اليسار؛ هناك يشمخ نُصبٌ تذكاريٌّ لأحد القادة؛ ضابطٍ مُتجهِّم يرتدي قُبَّعة وسروالاً عريضاً وجزمة، ويَشهَر سيفَه. طالما اعتقد ساشكا أنها هيئةُ فُرسانِ القصص في الكتب، لكن تبيَّنَ له فيما بعدُ أنهم كانوا يرتدون الدروعَ. غابَت مَعالِمُ الكلمات فوق النُّصب، غير أن النَّظْرة الجَسُورة أوحَتْ بأنه من أبطالِ الحروبِ القديمة. خلفَ النُّصب ثَمةَ مَعالِمُ حديقةٍ صغيرة فيها أشجارُ حَوْر وبتولا هزيلةٌ ومقاعدُ خشبيةٌ.

تعالَت الشمس أكثر، وتعاظَمَت حرارتُها. نهض ساشكا وتابَعَ طريقَه. كلُّ بيتٍ من البيوت التي مرَّ بها تربطه به ذكرى خاصة؛ يَسكُن بعضَها أصحابُ الدراسة، وفي بعضها الآخَر رِفاقُ المدرسة الحربية أو أصدقاءُ والدته. لقد جاب أغلبَ المناطق بصُحْبة إيليا الذي كان يَعشق التَّجْوالَ في المدينة، ولطالما قَضيَا الإجازات وهما يتراكضان عبر أزِقَّتها.

«فَلْتَتصوَّر، يا ساشكا، أنك هنا لأول مرَّة، وأننا نطارد جاسوساً». كان ساشكا يتخيَّل كل ما كان يخطر ببال إيليا. كَمْ كان سعيداً بصُحْبته. كانا يَتعقَّبان الجواسيس. الآن إيليا نفسه جاسوس، وساشكا يُعَد شريكَه. توقَّفَ فجأةً وهو يحاول تَفادي دُوارٍ مفاجئ، وأدرك أنه بلَغَ السوق. أحسَّ بوخَزِ الجوع، فابتاع شطيرةً بالبطاطا من امرأةٍ عجوز، واشترى من شاب قليلاً من الكيروسين. جلس ساشكا على دفَّةٍ مُثبتةٍ على قُرْمتَيْن. فاحت من الشطيرة رائحةُ مطاط يحترق. فَلْيكن، راح ساشكا يَمْضغ الشطيرةَ ويتأمل الجهةَ المقابلة من الشارع الذي امتدت خلفَه مساكنُ عمَّاليةٌ من الآجُرِّ المتهالِك وبيوتٌ صغيرة خاصة، وبرَّاكات من الصفيح التي تقشَّرَ طلاؤها. كانت تلك الأحياء تعجُّ بالسكارى والبلطجية والمشرَّدين. بعدها، كان يقع رُكام القسم الجنوبي من المدينة، وهو مقرُّ جماعةِ «المغاوير»؛ المكان الذي قد يحتضنه مستقبلاً. لقد سبَقَ له أن زار هذا المكانَ صغيراً، حيث طارَدَه صبيان سكارى، فقرَّرَ ألَّا يعود إليه، ومنعته أمُّه من ذلك أيضاً. حمل وعاءَ الكيروسين وقفَلَ عائداً.

لم يغادر العاشقان الساحةَ بعدُ، لكنَّ الشاب راح يصيح فجأةً بصاحبته: «حمقاء أنتِ! دائماً أنتِ هكذا، يا بهيمة!» وانخرطَت الفتاةُ في البكاء، وراحت تمسح دموعَها بأكمامها. وقف ساشكا متأملاً: سلوكٌ غير لَبِقٍ إزاء فتاة.

استند إلى النُّصب. تَنسَّمَ بعضَ الهواء، وتابَعَ سيرَه بجوار الأبنية الثلاثية الطوابق، وهو يَعُد بشكلٍ تنازليٍّ هذه المرَّة: البيت الخامس، الرابع، الثالث... وعلى مَقْربةٍ من البيت تعالى الطنينُ في رأسه مثل جرس الفيلق. دخل مترنحاً إلى المطبخ، وضع الوعاء فوق الطاولة واستلقى على أريكةِ والدته.

للمرَّةِ الأولى لا يشعر بالراحة في البيت. الكذبُ صعبٌ، والأصعب هو الاستمرار فيه من دونِ أن تَفضح نفسَك.

4

مرَّتْ خمسة أيام. ظلَّ ساشكا يتحاشى مُحادَثةَ أمه، مُتظاهِراً بالنوم أو الانشغال، في حين بدَتِ الأمورُ مألوفةً لدى الأم، لا سيَّما أنه قام بتبديلِ ضِماده بإتقان، وتناوَلَ الدواءَ في موعده المحدَّد، وشعر بأنه على ما يُرام. هجَرَتْه الكآبةُ وبات ساشكا يفكِّر بحيوية في أيامه القادمة في وَحْدة المغاوير [5]، يَحْدُوه أملٌ بأن يتدبَّرَ أموره. هناك أيضاً بشرٌ يعيشون حياتَهم.

أخيراً، قرَّرَ أن يَقصِد مكتب التجنيد. استيقظ باكراً، ووضع ثياباً إضافية في حقيبةٍ صغيرة، وسكِّيناً وعلبةً كبريت ومَطَرةَ ماءٍ. ارتدى البنطلون والقميص والكنزة، وتلفَّتَ حوله مُفكِّراً فيما إن كان يعوزه شيء بعدُ. ثم تناوَلَ ما لديه من قِطَعٍ نقدية معدنية في حصَّالته الكرتون، فوجد ما لا يزيد عن ثمانية ماركات. وزَّعَ القِطَعَ النقدية في جيوبه، وشدَّ حقيبةَ ظهره وفتح الباب. فاجأته أمُّه عند عتبة الباب. تُرَى، لماذا عادت فجأةً على غير عادتها؟!

- «ساشِنكا، انتابني إحساسٌ بأنك ستغادر. هل حان مَوْعدُ عودتِكَ إلى الفيلق؟»

- «نعم، حان الوقت، أخشى أن أقصِّر في واجباتي، فأواجه مشاكلَ في الامتحانات».

- «يبدو وكأنك لا تريد مُحادَثتي قبل رحيلك؟»

- «لا أنوي إزعاجك، يا أمي. فأنتِ تكونين دائماً قَلِقةً حين أغادر. كنت سأترك لك قصاصةً صغيرة».

احتضنته الأم: «ساشا، ساشا... لَكَمْ كبُرت يا بُنَيَّ!»

كتم ساشكا تنهيدةً وابتسم.

- «سأتصل بكِ، إن استطعت. سأحاول».

- «حَذارِ هناك من العربات». دلفَت الأم إلى المطبخ، وعادت تحمل ورقتَين صغيرتَين بلونٍ سماويٍّ. «خذ هذين الماركين. قد ترغب في شراءِ

شيءٍ لنفسك».

أخذ ساشكا النقود ولوَّحَ بيده مُغادِراً. لم يَعُد هناك أيُّ مجالٍ لجلْبِ حقيبةِ الظهر.

غير بعيدٍ عن ساحة الحرية، انتصبَت مِظَلَةٌ معدنية، وعلى مَقرُبةٍ منها تجمَّعَت حافلاتُ النقل الداخلي إلى مختلِف الجهات. كانت الحافلة التي ستَقِلُّ ساشكا قديمةً، كانت تَرتجُّ ومعظم نوافذها من دونِ زجاج، وحلَّتْ مَحلَّ مَقاعِدها عوارضُ خشبية. وعلى جانبَيْها تَتأرجَح يافطةٌ كُتِب عليها: «النقلُ على حسابِ وَحْدة المغاوير. انتسِبْ لوحداتِ المغاوير، إنها مصنعُ الرجال!» وفي الأسفل كُتِب بخطٍ مائل: «ناقِلة الجَثامين». كانت الحافلةُ تُوصل الركّابَ حتى الطرفِ الجنوبي للمدينة. يجلس داخلَها بضعةُ عمَّالٍ بثيابهم المُتَّسِخة، وبائعٌ جوَّال يَحمِل عربةً مَطْوية، ودزينةٌ من نساءٍ مُسِنَّات مَقِيتات، تَفُوح منهن، كالعادة، رائحةُ البصلِ ودُهْن الخنزير. حشَرَ ساشكا نفسَه على المقعد الخشبي في الزاويةِ. انطلقتِ الحافلة، وراحَت البيوتُ تعبر بجانبه بسرعة ليزدادَ مَظْهرُها فَقراً كلَّما توغَّلَت باتجاهِ الجنوب. عند التوقُّف في مَحْطاتٍ نادرة على الطريق يَصْعد رجالٌ بملابسَ وَسِخةٍ وذقونٍ نابتة، وفي المحطة قبل الأخيرة صعد إلى الحافلة ما يُقارِب عشرين شاباً، يَصِيحون ويَضْحكون بصوتٍ مرتفع. تَوتَّر ساشكا، لكنهم لم يُعِيروه أيَّ اهتمام.

سرعانَ ما وصلَتِ الحافلةُ إلى ساحةٍ تَكْسُوها أعشابٌ بَريَّة، وتتفرَّع عنها عدةُ شوارعَ متعرجةٍ في اتجاهاتٍ مختلفة، فيها بيوتٌ قليلة غاصَت إلى مستوى نوافذها تقريباً في طبقةٍ من التراب والغبار والنُّفايات. قرأ ساشكا بصعوبةٍ على اللوحة المعدنية المهترئة: «بيوتكوفسكي. المبنى رقم 6»، كان هذا المبنى مختلفاً بعضَ الشيء عن البيوت التي بجواره. خلف سوره الخشبي المرتفع ظهرَت ساحةٌ صغيرة أنيقة. كانت جدرانه مَطْلِية، وبابه مُغلَّفاً بقطعةِ بلاستيك جديدة.

دفع ساشكا الباب، ليَجِدَ نفسَه في مكانٍ ضيِّق. كان واقفاً هناك ثلاثةُ شبَّان بلباسهم الرسميِّ الأسود أمام مِنْضدة كتلك التي في الحانات.

سأله أحدُهم: «ماذا تريد، أيها الحليق؟» بينما لم يُعِرْه الباقون أيَّ اهتمام.

- «أريد الالتحاق بالخدمة».

يبدو أنَّ أطولهم هو الأقدم هنا، غاص خلف المنصَّةِ وناوَلَه ورقةً رمادية. «خُذْ، عليك تَعْبئتها. هل لديك وثائق؟ لا؟ لا حاجة إذاً».

جلس ساشكا وراح يُدوِّن المعلوماتِ المطلوبة.

سأله مِغْوارٌ يحمل على صدره شارة «الجميعُ تيوسٌ»: «هل فكَّلتَ جيداً يا لفيقي؟» كان يَلثغ بطريقةٍ مضحكة جعلت ساشكا يبتسم.

- «نعم، فكَّرتُ جيداً».

أردف طويل القامة: «أهلاً بك في وحدتنا. إليك «النظام الداخلي» هدية التطوُّع، وانتظر لنجِدَ لك غرفةً تسكنها».

أخذوه إلى غرفةٍ صغيرة مجاورة، كان جالساً فيها شابان من عمره على أريكةٍ تغطِّيها تواقيعُ أسماءٍ مختلفة، ويُدخِّن أحدهما سيجارة ملفوفةً كريهةَ الرائحة. أشاح ساشكا بوجهه مُحاوِلاً عدمَ استنشاق دُخانها، وأحسَّ بغثيان. وبعد دقائق دخلَ طويلُ القامة.

- «هناك ثلاثة أماكن؛ أحدها في الفوج 45 التابع لـڤـورونتسوف، المبنى العالي رقم 31، الطابق 5. أنت، أيها الحليق ستذهبُ إلى هناك. والفوج 88 التابع لتشيرنوف في المبنى رقم 14، الدور 3، ستذهبان أنتما الاثنان إلى هناك. ستَسْتلمون لِباسَكم من المستودَع، وسيُرافِقكم إلى هناك إيديك الأرنب [6]. إليكم «بطاقة المُداهِم»، وحَذارِ من مُغادَرة الموقع باللباس الرسميِّ، وإلَّا أدَّبْناكم بطريقةٍ تجعل أمهاتُكم عاجزاتٍ عن التعرُّف عليكم».

تبيَّنَ أن المُرافِق إيديك الأرنب يَلْثَغ بحرف الراء واللام [7] فيَنطقهما ياءً، ويحمل شارة. شرح للشابين على عَجَلٍ أين يَجِدان القائدَ تشيرنوف، فكِلاهما من أبناء المنطقة، ولا يحتاجان المرافَقة. ثم توجَّهَ إلى ساشكا.

- «ساقَكَ حظُّكَ إلى مجموعةٍ جيدة، يا لفيقي. الشابُّ ڤـيتكا لا بأسَ به. باللَّغْمِ من أن دماغَه مَضْلُوب، وكنَّا نسمِّيه ڤـيتكا شيز [8]».

- «ما الذي أصابه؟»

- «لا أَعْلِف، قد يكون وقَعَ على لَأْسِه ذاتَ يوم. يظنُّ دائماً أن أحداً يُلَاقِبُه».

- «كيف يُلَاقِبُونه؟»

- «يُلاقِبُونه مُلَاقَبة. هو مشعوذٌ، فِصاميٌّ بكل معنى الكلمة. لكنَّ شبابَ هذه المجموعة جيِّدون». وأشار إيديك إلى أحد الأبواب قائلاً: «هنا المستودَع، ستأخذ منه أمتعتَك ونذهب».

تسلَّمَ ساشكا من المستودَع بنطلوناً أسودَ اللون، وفانيلا، وكنزة وسترة من لون واحد، وجزمةَ لبادٍ مُستعمَلة وعلى نَعْلها حدوةٌ معدنية، وتسلَّمَ كذلك قبعةً باهتةَ اللون، عليها شارة «المغاوير»، بالكاد مقروءة. استلم هذه الأشياء ملفوفةً بورقٍ سميك.

سأله المرافِقُ بسخرية: «كيف وجدتَ اللِّباس اللَّسْمِي؟ لا بُدَّ أنه أفضلُ مما كان عندك؟»

- قال ساشكا: «لا بأسَ به. وهل نحن مُلزَمون بارتدائه طوالَ الوقت؟»

تَضاحَك الأرنب ساخراً: «طبعاً لا! هذا لِباسٌ حَلْبِي فقط. وإلَّا، فإنه سيَهْتَلِئ، ولا تَنْتَظِل أن يُعْطوك لِباساً جديداً إلَّا بعد عامَيْن، تقريباً. هل تنوي أن تعيش مدة أطول؟»

قال ساشكا متجهماً: «أرجو ذلك».

نصَحَه الأرنب: «مَن يتمنى أن يعيش طويلاً، فَلْيَبْقَ بعيداً عن مواقعنا!»

عبَرَ الاثنان منطقةَ الأملاك الخاصة الجنوبية ليصلا إلى الأطلال. هنا، فيما مضى، كانت هذه منطقةً سكنية راقية، لكنَّ القَصْفَ نال منها في بدايةِ هذه الحرب التي لا نهايةَ لها. بينما باتت الحربُ مختلفةً اليومَ، ولا أحدَ يملك قاذفاتِ صواريخَ. لم يَبْقَ سوى الأبنيةِ المتهدمة التي تنظر إلى المدينة نظرةَ شُؤْمٍ بفجواتِ عيونها الفارغة. انقبض ساشكا.

أردف إيديك: «هذه البيوت كلُّها مُلقَّمة. ليسَ كلها، وإنما بيوتُ السكن الآمِنة. ابتعِدْ عن باقي البيوت، إلَّا عند الضَّلُولَة».

حاوَلَ ساشكا تذكُّرَ الطريق التي يَسْلكها، لكنْ بَدَا ذلك غيرَ واقعي، كان عليه أن يَنظر أين يضع قدمَه وهو يسير مع مُرافِقه على حُطام الزجاج المتناثِر، وحين الْتَفَّا حول رُكام الإسمنت الذي تتراءى منه قضبانُ الأساسات الحديدية، وتحيط به أَجَماتٌ من العُلَّيق الشوكي. كان يَتناهى إلى مسامعه أحياناً صراخٌ بعيد؛ سِبابٌ وشتائم، ونُباحُ كلابٍ، وكان يمرُّ بهما أحياناً فِتْيةٌ في ثيابٍ رثَّة.

نصحه الأرنب: «كُن حَذِلاً، السكان هنا كلّهم مَشْبوهون. معك سَجَائِل؟ أحدهم مُتعفِّن هنا منذ ثمانيةِ أيام. يبدو أن التدخين هنا أحسن، أليس كذلك؟ من دون سَجَائِل؟ الحَلَالَة تحبس النَّفَس. إذاً، أفْضَلُ لنا أن نحبس أنفاسَنا».

بالفعل فاحَت روائحُ تَحلُّل جُثثٍ كريهةٌ جداً من صَوْب الخرائب، دفعت بساشكا وإيديك إلى أن يُتابِعا طريقَهما عَدْواً.

- «قد يكون عَبَدَة الشياطين يمرحون هنا. نصَبْنا لهم كميناً، لكن من المستحيل أن يُقبَض عليهم جميعاً. يوجد هنا أوغادٌ بما يكفي. هنا لا أحدَ منَّا يمشي وحده إلَّا في النَّهَال وبحَذَلٍ شديد. من الأفْضَل أن يكون معك سلاحٌ خاص بك. وهم، على أية حال، سيُوزِّعون عليكم أسلِحةً للمَعَالِك. هل تُحسِن اللِّـمَـاية؟ نسيتُ! أنت خدمتَ في الفيلق».

أخيراً، توقَّفا أمام ما تبقى من مبنى كان مُؤلَّفاً من اثني عشَرَ طابقاً، كُتِب عليه بالطلاء الأحمر الرقمُ واحد وثلاثون. هُدمت طوابقُه العليا من جرَّاء القَصْف، وظلَّ القِسْم السفلي من البناء صالحاً للسكن.

قال الأرنب: «من هنا. مكان جيد، يعيش هنا خمسةُ أفواج معاً. يعني لن يتمكَّنَ أحدٌ من ذبحكم وأنتم نائمون».

ولَجَ ساشكا الثغرة خلفَ الأرنب طائعاً. بدا المدخلُ أشبهَ بمِتْراسٍ آمِنٍ ومرحاضٍ عمومي في الوقت نفسه. عند السُّلَّم كان مستلقياً فوق أكياس القمامة شابٌّ طويلٌ ناحل، يرتدي خوذةً ونظارةً سميكة. ما إن رأى الشاب ساشكا والأرنب، حتى صوَّبَ بكسلٍ بندقيتَه المتَّسِخة نحوَهما.

- «إلى أين؟»

قال الأرنب ضاحكاً: «أَمَا عَلَفْتَني يا بُلْغُوث المُدَلَّعات؟ جئتُكم بوافد جديد».

- «الآن عرفتك، أَمَا زِلتَ تتقافز حياً؟!»

أجاب وهو يدفع ساشكا أمامه: «بل أزحف. ادخل بين الأكياس».

كان النور يتسلَّل عبر النوافذ الخالية من الزجاج، فيُضِيء السُّلَّم والجدران المكتظة بكتابةِ الشتائم والأسماء المُرفَقة بتواريخ الولادة والموت. كان الطابقان الرابع والخامس خالِيَيْن تقريباً من الخردة، ومعظمُ الأبواب فيهما سالمة. فوق أحدها كُتِبت العبارةُ التالية: «هنا يُقِيم كوزيا». وعلى بابٍ

آخَر رُسِمت أعضاءٌ من الجسم كُتِب تحتها بخط جميلٍ مزخرفٍ كلامٌ بذيء. اقترب إيديك من بابٍ لا يلفت النظر وقرَعه بقوة.

صاح أحدهم من الداخل: «انصرِفْ من هنا!»

- «افتح، يا أحمق، جئتُكَ بساكنٍ جديد!»

فتح البابَ شابٌّ أصهب، كثيفُ الشعر، بارزُ الأُذنَين.

قال الأرنب متباهياً: «هذا ليوڤـا».

صحَّح له الأصهبُ عبارتَه بصوتٍ أجشَّ، وهو يهرش صدرَه تحت قميصٍ داخلي كان لونه أبيضَ في يومٍ من الأيام، قائلاً: «ليوڤـا، وأنتَ لكَ أن تناديني ليف. ادخلوا، أيها الأوغاد، فقد أيقظتموني».

بدا المكان واسعاً ونظيفاً مُقارَنةً بالمَدْخل. وعلى بقايا من أوراق الجدران رسومٌ هندسية رائعة ما زالت تَلوح هناك. وغطّى ساكنو المكانِ مواضعَ الورق الممزَّق بصورِ شبابٍ مشاكسين وفتياتٍ عاريات. تنهَّدَ ساشكا؛ لو تجرَّؤوا على فِعلِ هذا في الفيلق، لَطردوهم فوراً. غرفةٌ فسيحة، كانت تُعَد في الأحياء العادية غرفةً للاستقبال، أُحِيلت إلى غرفةِ طعامٍ، فيها طاولةٌ كبيرة شغَلَت نصفَ المساحة، وكانت إحدى قوائمها مصنوعةً من جِذع شُجَيْرة. تناثَرَت حولها عدةُ كَرَاسٍ مختلفةِ الأحجام، ومقاعدُ صغيرة وصناديقُ خشبية غطَّتْها بقايا طعامٍ وأعقابُ سجائر، وتكدَّست عليها أطباقٌ قَذِرة وبعض الأقداح.

سأله الأرنب: «هل أَلْقيتَ نَظْلَةً على المكان؟ اجلس. الآن سآتيك بقائد المجموعة».

جلس ساشكا بحذَرٍ فوق أحد الصناديق، واختفى ليوڤـا في إحدى الغرف المجاورة؛ فلم يَبْقَ أحدٌ يهتم لأمر ساشكا.

علا صوتُ الأرنب عبر الممر: «كلُّ شيءٍ على ما يُلَام. انْتَظِلْ، سيهتمون بك حالاً، وأنا سأعود أَدْلَاجي».

أجاب ساشكا: «شكراً لك».

بعد قليل، دخل الغرفةَ على حينِ غِرَّةٍ شابٌّ أشقرُ ضخمٌ لامعُ الشعر، يرتدي سترةً رماديةً أنيقة، وبنطلوناً مثلها. وقف قبالةَ ساشكا ومدَّ له يده.

- «أنا أوليغ. هاتِ أمتعتَكَ واتبعني». اصطَحَب ساشكا عبر مَمرٍّ ضيِّق خلف غرفة الصالون، وفتح أحدَ الأبواب الخشبية الأربعة.

«يُقِيم في كل غرفة شخصان. زميلُك بالغرفة يُدعى كيشا [9]؛ شابٌّ عاقل، ستتَّفِقان. في الغرفة المقابِلة يسكن القائد، وأنا بالجوار. هيا استَرِح».

اقْتِيد ساشكا إلى غرفةٍ بها سريران خشبيان، وخِزانةٌ صغيرة، ومِنْضدةٌ بقوائمَ مُزخرفةٍ أنيقة، فوقها مُسجِّلة، وإبريقٌ وَسِخ وبضعة مفاتيح، الجدرانُ مُغطاةٌ بصورِ دبَّاباتٍ وناقلاتِ جُندٍ، والأرضيةُ من اللينوليوم المزركَش. على السرير المقابل، كان يستلقي غافياً شابٌّ تلفَّعَ بغطاءٍ صوفي، وعلى رأسه قبعةُ سائقِ دبَّابةٍ قماشية.

ألقى ساشكا الكيسَ الذي فيه اللباس الرسمي على الأرض، وتمطَّى في المكان الشاغر. بدأت الآن حياةٌ جديدة، وفي جيبه عشْرُ وُرَيْقات نقدية فقط.

سأله الشاب المستلقي وهو يستدير نحوه: «مَنْ أنت؟»

- «أنا ساشكا».

- «وأنا كيشا. إنوكينتي يانسِن. كنتُ طالباً في وَحدات المُدرَّعات». نظر الشاب إلى ساشكا بعينَين عسليتَين متطاولتَين وهو يبتسم بتَرْحاب. كان وجهُه بارزَ الوجنتَيْن، لوَّحَته الشمس، وبدا لساشكا أنه طيِّب.

- «هل طردوك؟»

- «أجل، فقد حاوَلْتُ نقْلَ القسم الحركي المُثبت أسفلَ الدبابة إلى والدي في المزرعة. وبالصُّدْفة قبضوا علَيَّ مُتلبِّساً ومعي البطاريات».

سأله ساشكا: «أيُّ بطارياتٍ هذه؟»

- «كنت أنوي بيعَ عددٍ منها، فهي غاليةُ الثمن. ثم ارتكبتُ خطأً؛ كان عليَّ أن أكتفيَ بخَمسِ بطاريات، لكنني أخذتُ عشرين منها. لم تتَّسِع لها الخِزانة. في الصباح اكتشفوا الكيسَ تحت سريري؛ فطردوني». أردف كيشا مُشِيراً إلى المنضدة الصغيرة: «لكني، بالرغم من ذلك، سرقتُ طقمَ المفكَّات منهم. وأخذت القبعةَ للذِّكرى فقط؛ فهي دافئةٌ وتَحمي أُذنَيَّ».

يبدو أن القبعةَ لم تَكُن وَحْدها ما أخَذَه كيشا للذِّكرى من لِباسه الرسمي؛ حيث كان يرتدي سترةً من الجلد، وجزمةً من الجلد أيضاً، وهو ما

يَتباهى به كلّ سائقي الدبابات.

- «لا تَخَف، فأنا لا أسرق رفاقي».

- «وأنا ليس لديَّ ما يُسرَق».

- «سيكون لديك». وقف كيشا وانشغل بآلة التسجيل.

سأله ساشكا من دونِ كبيرِ أمل: «وهل عندكم كهرباء هنا؟»

- «أي كهرباء!» ونفض كيشا يده بقوةٍ جعلت قبعته تغطي عينَيْه «إلا أننا نَنْعَم بقليلٍ من الماء، ولكن قبل شربه عليك بجُرْعةٍ من الكحول، وإلَّا ٱلمَتْك أمعاؤك».

وسرعانَ ما وصل أوليغ وفي يده علبةٌ معدنية ناوَلَها لساشكا.

- «هذه عُدَّة المستجدِّين».

فتح ساشكا العُلْبةَ فوجد في داخلها قِسمَيْن؛ في القِسْمِ الأيسر فرشاةُ أسنانٍ وحُزْمةٌ صغيرة تضمُّ أرخصَ أنواعِ البودرةِ لتنظيفِ الأسنانِ، وقطعةُ صابونٍ رمادية، وعلبةُ ثِقَاب، ووَاقٍ ذَكَري في مُغلَّف ورقي مُجعَّد. أمَّا القِسمُ الأيمن فكان أكبرَ حجماً، وفيه بعضُ القطن والشاش، وعددٌ من الحُقَن البلاستيكية المجهولة المحتوى، وبِضعُ مَحاقِن للاستعمال مرةً واحدة.

قال كيشا: «كنتُ مثلك. في البداية لم أفهم ما هذا، لكن أخيراً عرفتُ أنها كلها مُتشابِهة، فيها مادةٌ مُسكِّنة ممزوجة بالكحول. لكنَّ الشبابَ يستخدمون هذه الأشياءَ التافهة؛ بعضهم يشربونها، وآخَرون يَحقنون أنفسَهم بها من باب المزاح».

أغلق ساشكا العلبة، وهزَّ رأسَه وهو يشير إلى مُسجِّلة على الطاولة.

- «هل هذا الجهاز لك؟»

- «كلَّا! إني أُصلحها لقائد المجموعة. وهل تحبُّ الموسيقى؟»

- «بحسب نوعها».

- «لا بأس، رأيتُ في مكانٍ قريب مهجور قِطَعَ غيارٍ لأجهزة كهربائية ليس لها صاحب، سنذهب مساءً ونفتِّش فيه». أردف كيشا وهو يزمُّ عينَيْه حالماً: «كان زميلي في الغرفة قبلَك شخصاً شبهَ ميت؛ يرتمي على السرير

وينام. لا يبالي بأي شيء. أقول له: «أندريه، دَعْنا نجمع ألواحَ الكرتون لنسدَّ بها النوافذَ في الشتاء». ولكنه لا يهتم بشيء. وأنتَ، ما رأيك في الشتاء؟»

اعترف ساشكا: «أنا لا أحبُّ البرد».

فرح كيشا كثيراً: «هذا صحيح!»

5

ما إن حلَّ المساء حتى كان ساشكا قد تعرَّفَ إلى الشباب الستة في مجموعته. أحياناً يخرجون من غُرَفهم لتَجْمعهم طاولةُ الطعام، وأحياناً يَخْتفون. قائدُ المجموعة، ذاك الشابُّ الطويل، النحيل، ذو الشعر الذي بهت لونُه بفعلِ أشعةِ الشمس، بدا شارداً أو لا مبالياً، وعندما قدَّموا له هذا الفتى الجديد ساشكا، اخترقه بنظرة من عينَيْه دون أن يراه، ثم أشاح نظره عنه. حرَّك كيشا إصبعَه قُربَ صدغه بإشارةٍ كثيرةِ الدلالات، قائلاً: «الجميع هنا ينادونه شيز».

في الحقيقة، كان أوليغ مُكلَّفاً بقيادة المجموعة هنا، يُوزِّع للأفراد المعلَّبات والجريش في أكياسٍ ورقية. كما كان حُرَّ التصرُّف في ماء المَطَرة التي يَمْلؤها المُناوبون. وتُحفَظ كلُّ المواد الغذائية في غرفته. أوضح كيشا: «وإلا، فعند مَن؟ الآخَرون كانوا سيشربونها فوراً، أو يُقايِضونها بالفودكا، أمَّا أنا فكنت سأبيعها للقطاع الخاص».

أمضى ساشكا يومَه الأول في عالَمٍ ضبابي؛ يَلِج ذاكرتَه شخصٌ ما، ويَستمع إلى ثرثرةِ كيشا، ويَجُوب بعض الأماكن. بل إنه تناوَلَ أيضاً لحماً مُجمَّداً من علبة معدنية. كان يتخيَّل دائماً أنه في حُلمٍ، وأن مكانه ليس هنا، وخيرٌ له أن يرحل دون إبطاء.

سرعان ما حلَّ المساء، وتسرَّبَ الهواء البارد عبر النافذة المكسورة. جلس ساشكا على كرسيٍّ صغير، وشبك يدَيْه حول ركبتَيْه وراح يتساءل: هل سيستطيع قضاءَ ليلته هذه، أم أنه سيَتجمَّد. سُتْرتُه السوداء الخفيفة لا تُدفِئ جسمَه. كان كيشا يدخل الغرفةَ تارةً، وتارةً يتسكَّع في مكانٍ ما. ثم عاد إلى الغرفة وحزَمَ أمرَه أخيراً. نظر إلى ساشكا المرتجِف وسأله بشفقة:

- «أليس معك ثيابٌ أخرى؟»

- «كلا!»

- «هل أنت يتيمٌ؟ نعم؟ حسناَ، لا تهتم. غداً سنذهب ونشتري لك من «الجيفيِّين» بعضَ الثياب».

تساءل ساشكا فاغراً فاه: «ثياب الموتى؟ يبيعون الثياب أيضاً؟ لكنهم يَنزعون الثيابَ عن الجثث ويعرضونها للبيع. لا أريد الذهابَ إليهم!»

تضاحك كيشا ساخراً: «نعم، عن الجثث. وماذا في ذلك؟! كلُّ ما عليهم نظيفٌ، أمْ أنك تُفضِّل الموتَ من أجلِ مبادئَ سخيفةٍ؟ دَعْ عنك هذا! إن معظمَ ما يبيعونه مسروقات. مَن هم الموتى الآن؟ المشرَّدون بلا مأْوى ليس عليهم ما يُنزَع».

بدا وكأن المدينةَ بأكملها مِلكٌ لوكالة قوافل «الأخويَّة الحمراء»، أو ببساطةٍ للجيفيِّين. لكن، في الحقيقة، كان القائد العام هو مَن يُدِير المدينة، وهذا ما كان يُؤمِن به ساشكا تماماً. هذا صحيح، ولكن قَلَّما يراه أحد، بينما تنتشر محلَّات «أخويَّة الحُمْر» وأسواقهم في كل زاوية. والعملُ عند «الجيفيِّين» مُربِح، فهم يَدْفعون مبالغَ جيدةً، ولكنه محفوفٌ بالخطر؛ لأنهم مكروهون ومُعرَّضون للقتل في أي لحظة. بالطبع، زعماءُ هذه الجماعة لا يَعترِض سبيلَهم أحدٌ، ويُقِيمون في مناطقَ ريفيةٍ منيعة، ولا يدخلون المدينةَ إلَّا تحت حراسةٍ مشدَّدة يقوم بها مُرتزقةٌ من الأرياف. إنهم القادة، أمَّا صغارُ الجيفيين فهم مُعرَّضون للخطر دائماً، ولا خيارَ لديهم؛ لأن «الأخوية الحمراء» تختار عملاءَها من أشدِّ الأُسَر فقراً، ممَّن ليس أمامَهم إلا الموتُ جوعاً. لم تَأنَف هذه الأخوية من فِعلِ أيِّ شيء. كان الأكبر سناً بينهم يَعملون في التجارةِ ونقْلِ البضائع بين المُدن، بينما يَنشغل الصغارُ بالتفتيش عن أغراضٍ قابلةٍ للاستعمال، يَسْلبون ما على جثثِ القتلى بعد المعارك، ويُنقِّبون في حُطام الأحياء الفقيرة بالمدينة، ببساطةٍ يمارسون السرقةَ.

كان ساشكا، مثل زُملائه في الفيلق، يحتقر الجيفيِّين، لكنهم جميعاً كانوا يُدرِكون أن هؤلاء مثلاً، لو كَفُّوا عن تجارة الأدوية، لَعجزَتْ والدتُه عن مُعالَجة أزماتها القلبية؛ فصيدلياتُ المدينة لا تبيع سوى القطنِ ولِفافات الضِّماد.

قال كيشا بعد بضعِ دقائق: «على أية حال، أنت بحاجةٍ إلى الثياب. لا يجوز التجوُّلُ باللباس الرسميِّ، لا سيما إذا عزمنا على أمرٍ ما، كما تَنْوي الآن. احمل المصباحَ لأُعالِج وضْعَ النافذة، وسننطلق على الفور».

تناول كيشا لوحَ خشبٍ مضغوطاً وغطَّى النافذةَ وعمَّ الظلام، فشغَّلَ ساشكا المصباح، ودسَّ كيشا يدَه في الخزانة الصغيرة وتناوَلَ مسدسَه.

تَفاخَرَ كيشا: «انظر إليه! مسدسٌ جيد. جمعتُ أجزاءَه كلها تقريباً بنفسي. الحقيقة، ليس فيه إلا طلقتان».

سارا طويلاً في منطقةِ أنقاضٍ تعود إلى القرن الماضي. هنا، قبل الحرب كان يعيش أناس، كانت تَصطفُّ سيارات، ويتراكض الأولاد. لا شيءَ الآن سوى الحجارةِ الخرساء والجرذان.

الأهالي يَجْتنبون الإقامةَ على مَقرُبة من هذا المكان الخطير. جَلَبةُ أفراد «المغاوير» تَهدَأ مع حلول الظلام، فتبدو سَكِينةُ الليالي هنا خاليةً من أيِّ أثرٍ للبشر. الآن فقط، تأكَّدَ ساشكا أن الحرب قد دارت رَحَاها فِعلاً على هذه الأرض، ولم تكن حَرْباً خاملة كما هي اليوم. بالطبع، هناك صِدَاماتٌ بين المدن حتى الآن، بل كثيراً ما تَنشب بين العِصابات، فيذهب ضحيتَها مئاتٌ من الشبان. أمَّا هنا فقد قضى الآلافُ من البشر نَحْبَهم، ولم تقتصر الضحايا على العسكريين الذين في نهاية المطاف يَتوقَّعون نهايةً كهذه، بل كانت كثيرةً بين السكان البسطاء أيضاً. لقد وُلِد ساشكا وترعرع في وسط المدينة التي لا يشعر كثيرون فيها بأن الحربَ مستمرةٌ؛ أعني أنهم يَعْلمون، ولكنهم يَعِيشون بأمانٍ. تعمل المدارسُ والمطاعم والمصانع والعمال... والجامعة أيضاً والفيلق.

أحسَّ ساشكا بالخوف، وفجأةً توقَّفَ كيشا الذي ظلَّ صامتاً طوال الطريق.

- «أُســ... ســ... ســ... هنا بُؤرةُ «الهيبيِّين [10] الأشرار»».

- «مَنْ؟»

- «المعتوهون الذين ينادون بالسلام في كل العالَم. إذا صادَفونا فسيُشبِعوننا ضرباً بالتأكيد. هم طبعاً ضعفاء، لكنهم يتجوَّلون دائماً في جماعات، إن رأيتَهم فعليك بالفرار. يَنْفعون إذا كنتَ تبحث عن حشيش؛ فهم يَزْرعونه بأنفُسِهم في مكانٍ ما. ليتنا نجد هذا المكان».

انسلَّ كيشا وساشكا بهدوءٍ بجوارِ مبنى من خمسة أدوار، يُضِيئه عددٌ كبير من المصابيح، وتترامى من داخله صيحات «الحرية»! وزعيق نساء وضحكاتهن.

همس كيشا: «ها هم ينصرفون. مخبولون، إنهم أغنياءُ جداً! لن تجد في الأنقاض كهرباءَ مُضاءةً بهذه الكثافة، كما هي عندهم».

تقدَّمَ الاثنان كشبحَيْن بين الرُّكام. تصدمهما بين الفينة والأخرى أصواتُ سكارى نادرة.

- «في مكانٍ ما هنا..». توقَّفَ كيشا فجأةً، كمَن يحاول أن يشمَّ رائحةً ما. «كان في هذا القبو قبلَ القَصْف متجرٌ لبيع أجهزة الراديو. لقد غطَّتْه الأنقاضُ، لكننا سنحاول الاهتداءَ إليه. الجيفيون [11] هم مَن بَدَؤوا التنقيبَ عنه، ما زالوا يَحْفرون هنا. بالطبع، ليس هناك أجهزةٌ كاملة صالحة للاستخدام، لكن لا يخلو الأمر من شيء نافع». انحنى كيشا، فأضاء المصباح، وانسلَّ عبر مَعْبرٍ ضيِّق، فتبعه ساشكا. فجأةً ضاق المكان حتى بات التنفُّسُ صعباً.

دعاه كيشا: «هنا، هنا. ها قد وصلنا. ها هو ذا القبو».

تابَعَ ساشكا زحفاً ليجِدَ أمامه سُلَّماً يُفضِي إلى الأسفل. كان كيشا يتقدَّم أمامه يتلمَّس طريقَه بصعوبة، إلى أن وقفا أخيراً في نهايةِ القبو أمام كومةٍ من القرميد.

- «هنا، لقد بقِيَ بعض الدارات ومكبِّرات الصوت. اللعنة! أين هي؟» وراح كيشا ينبش الأحجارَ على عَجَلٍ. «ها هو صندوق، لكن لا يوجد غيره. لقد شمَّ الجيفيُّون الطفيليون الرائحة». وفجأةً أطلق شتيمة. «المرة الماضية قلت للشكَّاء النذل: دَعْنا نأخذ كميةً أكبر، فرفض. عندما أصل سأقتله».

بصق كيشا وتأبَّطَ الصندوقَ وصعد غاضباً.

- «لا بأس، سنأخذه. وفي البيت نتأكَّد إن كانت ثَمة فائدةٌ منه أم لا».

شرع الشابَّان في الصعود. ازداد الجوُّ برودةً، وهبَّت من السهوب ريحٌ قارسة، وحجبَت السُّحُبُ القمرَ. رفض كيشا تشغيلَ المصباح رفضاً قاطعاً، فاضطرا للبحث عن الطريق بأيديهما في الظلام. وما هي إلا مائة مترٍ حتى ظهرت غير بعيد عنهما مجموعةٌ تُضِيء طريقَها بمصابيحَ كبيرةٍ.

همس كيشا واندفع جانباً على الفور: «أوه! إنه فصيلُ الحراسة لجماعة الجيفيين». لكن المجموعة كانت قد رأتهما.

صاحوا بهما: «قِفَا! وإلَّا فسنُطلِق النار!»

اختبأ ساشكا وكيشا خلفَ أقربِ كومةٍ من الحجارة.

ناشَدَهم ساشكا: «لا تُطلِقوا النار، يا شباب».

- «هذه منطقتُنا! لا يجوز لكما عبورُها!»

- «إننا لا نريد شيئاً!»

وخيَّمَ الصمت، يبدو أن الجماعةَ كانت تفكِّر كيف تتعامَل معهما.

صرخوا: «نحن لا نصدِّقكم!» وبدؤوا فوراً بإطلاق النار في الظلام، عشوائياً وفي جميع الاتجاهات، وهم لا يعرفون أين يختبئ عدوُّهم. تكوَّرَ ساشكا خلفَ كومةِ الحجارة ومدَّ يده.

- «أَعطِني المسدس!»

- «هل جُنِنت؟ ليس معنا إلا طلقتان. اهدأ. قد ينصرفون الآن».

كفَّ المُهاجِمون عن إطلاق النار، كانوا يَتشاوَرون. هذه السَّكِينة لم تَرُقْ لساشكا.

همس ساشكا: «الآن سيَبْدؤون البحثَ عن جثتَيْنا، وإذا وجدونا أحياء فسيُجهِزون علينا. هيَّا، أَعطِني المسدس».

ناوَلَه كيشا المسدس. انقسم الجيفيون إلى مجموعتَيْن؛ ذهب اثنان باتجاه المخزن المطمور بالرُّكام، و تَوجَّه اثنان صوْبَ كومة الحجارة.

ظل ساشكا ورفيقه مُستلقِيَيْن دونَ حَراكٍ يَحْبسانِ أنفاسَهما. أدرك كيشا الآن أنه لا مَفرَّ من إطلاق النار، وبات يخشى أمراً واحداً؛ أنْ يُضيِّع ساشكا الطلقتَيْن الثمينتَيْن سُدى. لكن ساشكا كان مُصمِّماً ألَّا يُخطِئ الهدف. وما إن وازى الخصمُ مَخْبأهما، حتى أطلق رصاصةً على رأسه وأَرْداه قتيلاً فوق كومة الحجارة.

تحمَّس كيشا قائلاً: «عليك بالآخر، سوف يهرب!»

وهرب الآخر، فعلاً. راح يَعْدو كالأرنب، عبرَ أكوام النُّفايات باتجاهِ جماعته وهو يَصِيح بأعلى صوته.

اختطف ساشكا سلاحَ القتيل من يدَيْه بسرعة، وقال: «هيَّا بنا». ثم انحنى وانطلق راكضاً صوْبَ بِنايتهما العالية، يَتْبعه كيشا وهو يَلْهث بقوةٍ تحت ثقل الصندوق، الذي لم يَتخلَّ عنه.

وصلا مَسْكنهما مُبلّلين بالعَرَق، فانطرح كيشا على أرض الغرفة الكبيرة وهو يَئِنُّ على مهل. جلس ساشكا على مَقرُبةٍ منه، وراح يُقلِّب الغنيمةَ بين يدَيْه على ضوءِ القنديل الشاحب. إنه مسدسٌ رشَّاشٌ جيد، نظيفٌ ومشطه مليء بالرصاص. نُقِش في وسَطِه الحرفان «P.B»، وكانا يُومِضان بأمواج خضراء تقريباً، جعلت ساشكا يظنها ناتجةً عن ارتجاجٍ في دماغه.

نطق كيشا أخيراً: «يا لك من عَدَّاءٍ جيد! كدتُ أموت».

تناهى إلى سمعهما صوتٌ من الممر: «مَن الذي كاد يموت؟»

دخل أوليغ الغرفةَ وبيده شمعة، فتفحَّصهما من الرأس إلى أخمص القدمَيْن وقال آمِراً: «هيا أَخبِراني».

أطرق كيشا وغضَّ طرفه وهو يشعر بالذنب، وتمتم بكلماتٍ مبهمة، فنفض أوليغ يدَه واستدار نحو ساشكا.

- «جاء دورك».

اجتمع الشباب في الغرفة.

نطق ساشكا: «لقد هاجَمَنا الجيفيون. هم مَن بدؤوا بإطلاق النار، وأسلحتهم جيدة».

قال أوليغ مستاءً: «هكذا إذن! تريد القول إنك تورَّطْتَ، وأنت بلباسِكَ الرسميِّ، في معركةٍ مع الجيفيِّين؟!»

نظر ساشكا مَلِياً إلى ثيابه الملطَّخة ولاذ بالصمت. تذكَّرَ قول كيشا إن التجوُّلَ باللباس الرسميِّ ممنوع.

استشاط أوليغ غضباً: «هل قرأتَ التعليمات أيها الأحمق؟»

- «كلا، لم أقرأها».

- «اذهب واقرأها في غرفتك، أمَّا أنت، يا يانسِن، فانتظِرْني، سيكون لي معك حديثٌ آخَر».

نهض ساشكا واتجه إلى غرفته، وعيونُ الحاضرين تُلاحِقه باستهزاء. السلاح الذي غنمه ظلَّ فوق الطاولة. فكَّر ساشكا بمرارة: «لا يَنقصني إلا أن أُطرَد من هنا أيضاً». كان الظلام في الغرفة دامساً لا يَحُول دون القراءة فقط،

بل دون إمكانية الاهتداء إلى كُتَيِّب التعليمات أيضاً. صعد إلى حافة النافذة، وخلع اللوحَ الخشبيَّ، فصدم القمرُ بضوئه الباهت عينَيْه، فنظر إلى الأسفل بوَجَل، بدا له الارتفاع مُرعِباً، ولسببٍ ما بدا مُغرِياً أيضاً. انحناءةٌ خفيفة وينتهي الأمر. نظر ساشكا إلى القاع المُظلِم، وأسعَفَه عقلُه بالتحليل الفوري لكلِّ ما حدث: ما المكتوب في التعليمات، ما الخطأ الذي ارتكبه... لا شيء، كل شيء كان كما يجب. حتى مدرِّبُ الرَّمْي ما كان ليَعترض عليه بشيء. طلقة في الليل، على هدفٍ متحرِّك على مسافةٍ حوالي خمسة أمتار. ساشكا لم يُخطِئ الهدف. أصاب الهدف كما علَّموه تماماً.

- «ما الخطأ إذاً؟» تذكَّرَ أزيزَ الطلقة القصيرَ، وحركةَ المسدس في يده. «المسدَّس؟!» سحب ساشكا من جيبه سلاح كيشا، وأخرج الطلقةَ الباقية آلياً. ليس من السهل الحصول على طلقات (عيار 10.4مم) في المدينة؛ إذ غالباً ما يُستخدَم العيار 9مم. كانت الطلقة في راحةِ يده صغيرة ولا ضيْرَ فيها، إلا أنها تكفي لإنهاء حياة ساشكا. لم يَسْبق له أن تفحَّصَ الطلقات؛ فأثناءَ التدريبات كانوا يُوزِّعونها في عُلَب. تَتناول الطلقةَ من العُلْبة، تضعها في المخزن، ثم تُطلِقها. كانت الأهدافُ المرسومة على ألواحِ الخشب المضغوط الملوَّن تُربَط بالحبال وتبدأ بالظهور بغتةً على يمينِ الرامي ويسارِه. تَتَّجِه بعض الأهداف نحو الرامي مُباشَرة؛ قطعة خشبية تتَّجِه نحوَك بسرعة، مُجسَّم رجل يعتمر خوذة طوله مائة وسبعون سنتيمتراً. أمَّا ذاك الجيفي... سرى عبر ظَهْر ساشكا تيارُ برودةٍ مزعِج. كان الجيفي أقصرَ من ذلك، أقصرَ بكثير، حتى لو كان يسير مُنحنِياً. فكَّر ساشكا: «ليس مهماً طول قامته!» لكنَّ الفكرة التي راوَدَته لم تَخْبُ. كان الصبيُّ صغيرَ السن، لم يَتعدَّ الثانيةَ عشرةَ. سقط كما يسقط الأطفال، تكوَّم وكأنه يَرُوم الراحة.

أصاب ساشكا رعبٌ يجعل كلَّ شيء في داخلك يتجمَّد وترتجف يداك. لم يكن قد استوعب بعدُ ما الخطأ الذي ارتكَبَه؛ فهو لم يَسْبق له قَطُّ أنْ أطلَقَ النارَ على إنسان!

فكَّر ساشكا: «كان يجب التسديد على القدمين؛ على قَدَمِ أحدهما، وعلى قدَمِ الثاني، وكنا استطعنا أن نلوذ بالفرار». واجَهَتْه الخرائبُ كما في اليَقَظة، وتبيَّنَ أنه لم يكن مضطراً لإطلاق النار. كان بإمكانهما الاختباءُ وراء كومةٍ أخرى من الحجارة، ثم الانعطافُ قليلاً إلى اليسار، أو إلى اليمين. كان يُمكِن أن يُحاوِلا فِعلَ ذلك؛ فرماياتُ الجيفيين كانت طائشةً وعشوائية، ما كانت لتُلحِق بهما أيَّ أذى. إطلاقُ النار لم يكن ضرورياً، لم يكن ضرورياً. وإذا كان لا بُدَّ من ذلك، فَلْيُصوِّب على الأرجُل.

نقل ساشكا ناظِرَيْه بصعوبةٍ إلى أعلى، أحسَّ بدُوَار، وبأنه قد يَسقط من النافذة في أية لحظة. بسط كفَّه التي تحتضن الطلقة، فسقطَت في الظلام. ورمى ساشكا المسدسَ وابتعد عن إطار النافذة ورقد في فراشه وهو يعتصر رأسَه بيدَيْه.

ظلَّ مشهدُ إطلاقِ النار يتراقص أمامه مرةً تِلو الأخرى، وكأنه يحلُّ مسألةً، وفي كل مرةٍ يجد لها حلاً جديداً؛ كلها بدائل افتراضية غير مُجدِية، ومع ذلك بَدَت أكثرَ نجاعةً مما حدث على أرض الواقع.

دخل أوليغ، وجلس فوق طاولة السرير الصغيرة وقال على عَجَلٍ:

- «أحسنت! لكن حاوِلْ أن تستبدلَ السلاحَ الذي جئتَ به، فقد يكون موسوماً، واطَّلِعْ على النظام الداخلي فهذا خيرٌ لك من أن تتورَّطَ مرةً أخرى».

انصرف أوليغ، وظلَّ ساشكا مستلقياً يحدِّق عبر الظلام. ما زالَت يدُه تُحسُّ بحركة المسدس الارتدادية. عاوَدَته كلماتُ المدرِّب في الدرس الأول: «أهم مميزاتِ المسدس هي الجاهزيةُ الدائمة للإطلاق، ولا حاجةَ لأيةِ حركةٍ إضافية؛ فقط إشهار وإطلاق فوري». أحسَّ بوضوحٍ كيف يشدُّ المقبض الخشبي الكف للأسفل «لن تتمكَّن من إصابةِ الهدف من أول مرة، المسدسُ وزنُه قرابة كيلوغرامٍ، بالإضافة إلى قوة الدفع. ستشعر أثناء الرمي بارتدادِ السبطانة، وتعتاد ذلكً لاحقاً».

وقف ڤـيتروف بجانبه وبيده مسدس مماثِل. كان إيليا الفائزَ الأول بالرمي في التدريب الأول. فماذا همس كرايف في أذنه مساءً: «هذا غيرُ مهم، إلا إذا كنتَ لا تنوي الالتحاقَ بالقناصة. فاستعمالُ الرشاش لا يصعب حتى على الأغبياء. أما أنتم فحرَسٌ ولستم قَتَلة. الأهم في حالتكم، هو الرأس».

لماذا تَعُود به الذكرى الآن؟ يبدو أن القواعدَ هنا مختلفة. ها هو ذا أوليغ يمتدحه: «أحسنتَ». وإن كانت المواساة ضعيفةً. حدَّث ساشكا نفسه: «أي شخص في مكاني كان سيُطلِق النار». ولم يُصدِّق. كان خائفاً. حتى الظلمةُ في الغرفة تُرعِبه. استند ساشكا إلى الحائط البارد. سمع حفيفاً خلف الباب، وأحسَّ بشيءٍ سقط، لكنْ بعيداً في مكانٍ ما. أما هنا، فلا أحدَ سواه مع ضوء القمر الشاحب، مثلما كان القمرُ يُضِيء في مركز المدينة، ومثلما كانت أشعتُه تتسلَّل عبر الستائر الخفيفة على نوافذ الشقة التي كان يسكن فيها ساشكا مع والِدَيه. أحياناً، عند انقطاع التيار الكهربائي مساءً، كانت والدة ساشكا تجلس وتصحِّح دفاترَ التلاميذ قُربَ سريره، حيث يتعانق بريقُ أشعة مصباح الكيروسين مع وميضِ القمر الناعس، ويُغالِب النعاسُ أجفانَ ساشكا الصغير.

يحسُّ، قبل أن تسرقه الأحلام، بيدِ والدته تَمسَح شعرَه وتشدَّ حوله الغطاء. كان ذلك منذ زمن بعيد، لن يتكرر؛ فقد كَبُر. أمَّا بعد ما فعله اليومَ، فستَشعر والدته بالاشمئزاز إن لمسَتْه، فطالما حلمَت بأن يصبح طبيباً يُنقِذ الأرواح.

أحسَّ ساشكا بإرهاق شديد هذه الساعة. شعاع القمر يتراقص على الجدران باهتاً واهياً كوجوهِ الأموات. زمَّ ساشكا عينَيه، لكنَّ الوجوهَ لم تَختَفِ بل راحَت تدور أمامَ عينَيْه في حلقةٍ راقصة. كان دماغ ساشكا يتابع حركاتها بدقة: المسافة، والسرعة، ومسار الرصاصة، وقوة الاختراق... وكأنه لم يَبْقَ في داخله شيءٌ سوى تعليماتِ الفيلق الصارمة. ضحك ساشكا؛ ضحك ضحكةً خفيفة خافتة، ثم بصوت أعلى فأعلى وهو يضرب الحائطَ برأسِه وكوعه. كأنَّ نابضاً خَفِياً انْفَلَت بداخله فجأةً وقذف بضحكاته تلك إلى الخارج.

تعالى صريرُ الباب، وتقطَّعَت سُحبُ الظلام وتَراجَعت مذعورةً. غير أن ساشكا لم يَسمع ولم يَلحظ شعاعَ الشمعة. كان يرتعش دون توقُّف. الوجه... مسار الطلقة... ارتداد اليدِّ... انتابت ساشكا نوبةٌ من السعال، فاختنق بالضحك والبكاء. قرَّبَ أحدهم الشمعةَ من وجهه، فاتضح لساشكا أنه ڤيتكا شيز.

قال قائد المجموعة هامساً: «يجب أن تتأقلم».

6

أيقَظَ البردُ القارس ساشكا؛ تعكَّرَ الطقس ليلاً بشكلٍ ملحوظ، وتدافَعَت أمواجُ الريح عبر النافذة المسدودة كيفما اتفق، مُحمَّلةً بقطراتِ المطر. خَلَد كيشا للنوم مُولياً وجهَه صوْبَ الحائط. لم يتجمَّد من البرد، كان يرتدي سترةً سميكة ويفترش بطانيةً عسكرية مَطْوية مرتَيْن، وبطانيةً أخرى مُخطَّطة ممزَّقة، ربما جاء بها من منطقةِ الأنقاض. كانت الشقة غارقةً في الهدوء.

نهض ساشكا، وجال بناظِرَيْه في الغرفة الكبيرة. لا أحد هناك. فوضى عارمة. تكوَّرَ على نفسه، وزمَّ سترته وسحب يدَيْه إلى عمقِ أكمامه. لم يشعر بالدفء. صقيعٌ جاثم في المكان، صقيعٌ مُقِيم في القلب. حتى رأسُه أضحى فارغاً وبارداً. أفكارُه تتقلَّب فيه مثل حجارة متجمِّدة تهدر. لا بُدَّ من القيام بشيءٍ؛ أن يتحرك، أن يعيش حياةً عادية؛ حينها ستستقيم الأمور.

أعادَتْه الذاكرةُ إلى يومِه الأول في الفيلق، بالطبع بدءاً من الزحام عند المغسلة، سار باتجاه الزاوية الضيِّقة حيث تَدلَّتْ من الجدار أنابيبُ المياه الصَّدِئة، وفتَحَ الصنبور، فسال إلى الوعاء تحتَ المغسلة خيطٌ دقيق من الماء العَكِر. لامَسَه ساشكا بإصبعه فأحسَّ به جليداً، ولم يغسل يدَيه أو ينظِّف أسنانه. في المكان الذي كان في الماضي حمَّاماً، اهتدى إلى بقايا مِرْحاضٍ مُتَداعٍ وحوضِ استحمامٍ مُتهالِك تتخلَّل آثارَ طلائه السماوي بُقَعُ صَدَأ وأوساخٌ تغطيه. كلاهما ليسا صالِحَيْن للاستخدام. كان الشباب يَلْجؤون إلى الأنقاض المجاوِرة لقضاءِ حاجاتهم. جلس ساشكا على حافةِ الحوض وراحَ يحدِّق أمامه ببلاهةٍ. مُنِيت حياتُه السابقة بالفشل جملةً وتفصيلاً. لعلَّه لا يصلح للخدمة في وحدات المغاوير؟ ولا في القوات المسلَّحة عموماً؟ فِيمَ يَصْلح إذاً؟

- «هل تريد أن تستحمَّ، أيها الصغير؟»

ارتعد ساشكا، والتفت. كان ليوڤا [12] واقفاً عند الباب وبيده زجاجةٌ فارغة.

قال بتفاخُر: «أمشي دائماً بلا ضجيج، حين أكون صاحياً».

كان ليوڤا قبيحاً؛ ذا شعر أحمر وَسِخ مُتكتِّل، ويدَيْن طويلتَيْن نحيلتَيْن تَبْرزان من أكمامِ معطفه القَذِر، وبدا وجهه ترابيَّ اللون، مُجعَّداً. لا شكَّ في أنه رجلٌ خطير، وهو ما لاحَظَه ساشكا بالأمس.

حدجه ليوڤا بعينَيه الخضراوَين العَكِرتَين، قائلاً: «لماذا تنظر إليَّ شزراً؟»

ثم أردف: «لربما لم يَنَل إعجابَك الأصدقاءُ الجُدد هنا؟!»

قال ساشكا هامساً: «دَعْنا نتحدَّث لاحقاً. سأذهب الآن».

غيرَ أن الأَمْغَر اعترض طريقه.

- «إلى أين؟ لا يجوز الأمر هكذا. لا بدَّ من..». ونقر حنجرته بإصبعه. «أن تقدِّمَ لأصدقائك زجاجةً. ما دمتَ أجهزْتَ بالأمس على جيفيٍّ، فدَعْنا نُودِّعه».

نهض ساشكا مُحاوِلاً تَنْحيةَ ليوڤا عن طريقه، لكن ذاك تشبَّثَ بأكمامه.

- «هل أنت أصمُّ، يا أحمق؟ أقول لك قُمْ بالواجب وأَحضِر زجاجة. لستَ مُميَّزاً هنا، ولستَ في بيتك».

أجابه ساشكا بخشونة: «انصرفْ».

لم يتوقَّع ليوڤـا هذا الجوابَ من ساشكا، فأسرَعَ بيده اليسرى فشَدَّه من سُتْرته، ورفع باليمنى زجاجة. لكن ساشكا قبَضَ بقوةٍ على يده المرفوعة فأنزلها، ووجَّهَ ضربةً قوية برُكْبته إلى بطن ليوڤـا جعلته يختنق ويحاول أن يستنشق كَمِّيةً من الهواء. ثم سحب ساشكا الزجاجةَ من يده وضربَ بأسفلها طرفَ حوضِ الحمَّام، وأدار ظهره مُتجنِّباً ضربةً من خصمه، ودخل الغرفة الكبيرة.

صرخ ليوڤـا أخيراً: «سأقتلك يا قملة!» ولم يَجرُؤ على مُواجَهة الزجاجة المكسورة في يد ساشكا. وعلى صرخة ليوڤـا اندفَعَ خارجاً من غرفته كلٌّ من أوليغ وزميله اليافع الشكَّاء، وكيشا. استرخى ساشكا، لعل أوليغ سيحلُّ المشكلة. وهذا ما حدث فعلاً، فما هي إلا ثانية واحدة، حتى كان أوليغ واقفاً خلف ساشكا، يَلْوي ذراعَه بشدة أدمعَت عينَيْه ألماً، فأسقَطَ ما بقي في يده من الزجاجة وتناثر، ثم أشهَرَ أوليغ مسدسَه في وجه ليوڤا.

صاح آمِراً: «اهدأ. اهدؤوا واطمئِنُّوا جميعاً».

حدَّق بهم ليوڤـا متعجِّباً: «ماذا أصابكم! أنا حاربتُ، أمَّا هو فمِن الفيلق! ما إنْ يُهدِّدهم شيءٌ حتى يَخْتبِئوا خلفنا. هم ليسوا قادرين إلا على لعْقِ حذاء القائد فقط! هل تُشفِقون على هذا التافه؟»

أرخى أوليغ قبضته قائلاً: «هل قلتَ كل ما لديك؟ لن أناقش الآن مَن منكما التافه، تكفي مُخالَفةٌ جديدة واحدة للنظام كي أخبر المكتبَ الخاصَّ. مفهوم؟»

عبس ليوڤا ولم يعترض، فأنزل أوليغ مسدسَه ببطء والتفت نحو كيشا.

- «اشرح لزميلك العصبيِّ ما هو المكتب الخاص».

خرج أوليغ، ودعَكَ ساشكا مِعصَمه المنتفخ وهو يفكِّر كم هو قويٌّ أوليغ.

تمتم ليوڤـا وانصرف إلى غرفته: «مهما يكن فسأقتلك، يا حشرة!»

نظر ساشكا تحت قدمَيْه وداس على قطعةٍ من الزجاجة، فانسحقَت بصوتٍ كريه.

سأله كيشا بحذر: «هل نذهب؟»

دخلا الغرفة، وسرعان ما لفتَت انتباهَه كدَمةٌ زرقاءُ كبيرة على وجه كيشا.

- «مَنْ فعل ذلك؟»

أجاب كيشا بلا اكتراث، كأن شيئاً لم يكن: «ضرَبَني الشباب». وراح يُصلِح خَرْقاً في قبعته القماشية. «تَصوَّر! تخفَّيتُ أمسِ خلفَ كومةِ الحجارة، بل تمزَّقت قبَّعتي أيضاً، لكني ما زلتُ حياً!»

همس ساشكا: «إنهم وحوش».

تبسَّمَ كيشا قائلاً: «ليسوا وحوشاً، هم على حق». وتغضَّنَ وجهه ألماً. «لقد اصطحبتُكَ باللباس الرسميِّ. ماذا لو رآك الجيفيون؟ إنهم يعرفون مواقعَنا، كانوا سيَلْحقون بنا ويُمطِرون نوافذَنا بالقنابل، ولَهلَكْنا جميعاً، ولَكنتُ وحدي المذنِب. ما كان ينبغي أن نذهب إلى المتجر في منطقتهم؛ فأيُّ شيء مُلقى هناك أو مُتعفِّن هو مِلكٌ لهم. ولو عرف أوليغ بوجهتنا، لَضرب كلاً منا، ولَمَا كنا وجدنا حتى فرصةً للمثول أمام المكتب الخاص. بالمناسبة، المكتبُ الخاص بقيادة رئيسنا «توفِّلْت»، المُخوَّل بتنفيذِ أحكام الإعدام. من المفترَض أنهم يُحقِّقون في الجرائم والخروج على القانون، لكن هذا مجرَّدُ كلامٍ فارغ؛ فكلُّ مَن يصلهم تبليغٌ عنه، يُعَد في عداد الأموات».

- «كيشا..».

قطع كيشا الخيطَ بأسنانه ونظر خلسةً إلى ساشكا مُترقِّباً. نهض الأخير واقفاً وقال:

«سأتمشَّى قليلاً». وأضاف: «وحدي. لا تَتْبعني».

تنهد كيشا قائلاً: «نعم! حسناً. بالمناسبة أين أخفيتَ مسدَّسي بالأمس؟»

كذب ساشكا: «لقد أضعتُه».

في الخارج، كان يتساقط مطرٌ خريفي مقيت، وتهبُّ ريحٌ شمالية مُحمَّلة بروائح كربون المصانع، وعلى خلفية الغيوم الشبيهة بقماشِ بَدلاتٍ مُمزَّقة تناثَرَت بفعل انفجار، بدا منظرُ المبنى شديدَ الكآبة، كأنه كيسٌ حجري بثقوبٍ مختلفةِ الأحجام تغطيها قِطَعٌ من النايلون، وألواح خشبية، تَبرز من بعضِها قِطَعٌ من زجاج. وكان ينبعث من إحدى النوافذ دُخَانٌ رمادي مثل كلِّ شيء هناك. كان الكيس الحجري ميِّتاً، لا أنفاسَ فيه ولا حَرَاك. حتى الحارسُ الذي يُفترَض أن يكون موجوداً عند الباب، اختفى. فجأةً خطر لساشكا أن يُغادِر المكان إلى الأبد، وينسى هذه الخرائبَ والأنقاض الجاثمة كحُلمٍ مَقِيت، وأن يبتعد نهائياً عن كل ما له علاقةٌ بالحرب؛ إذ ليس بمقدور أي إنسانٍ طبيعي أن يعيش عيشةَ عناصرِ وحداتِ المغاوير. ربما ليس من صفات الإنسان أن يُطلِق النارَ على إنسانٍ مثله! توقَّفَ ساشكا؛ بَدَت له فكرة غريبة. «المدينةُ محاطةٌ بالأعداء. يجب قتلهم جميعاً». لعله فِعلٌ بديهي، صحيح وواضح. وإلَّا قتَلَك العدو. ظهر صبيُّ الأمس من جديدٍ أمامَ عينَيْ ساشكا، فشعر بغثيانٍ مُؤلِمٍ. فكَّر بحرقة: «لا أصلح أن أكون جندياً. لماذا لم أَعِ ذلك من قبلُ، في الفيلق؟»

تابَعَ تقدُّمَه عبر الخرائب في نفس الاتجاه الذي قاده فيه إيديك الأرنب أولَ مرَّة. لم يتذكر الطريق جيداً، فكان دائماً يتعثَّر ويغوص في أكوام النُّفايات. اشتدَّتْ غزارةُ المطر، وسرعانَ ما شعر ببِرَك الماء العَكِرة تُرغِي تحت قدمَيْه. في مثل هذا الطقس يُفضَّل البقاءُ في البيت بجوار الموقد، أو في ثُكْنةِ الفيلق الدافئة. الْتَفَت ساشكا وراءَه. لا يريد العودةَ. لم تحرِّك الأنقاضُ في نفسه إلا رغبةً واحدة، هي أن يغادر حالاً؛ هذه الرغبة التي كان من المستحيل أن تَخطِر على باله في الفيلق. ما كانت رغبةٌ كهذه لتُراوِدَه وهو في الفيلق؛ فلم يُفكِّر ساشكا في مُغادَرته يوماً، حتى في ساعات التدريب المُضْنِي، والمُناوَبات الليلية، والجَرْي يومياً عشرات الكيلومترات تحت المطر أو في القيظ. ولا حتى حين كانوا يَحرمونهم من إجازاتهم النادرة ويحبسونهم في زنزانات. لم يكن لمثلِ هذه الرغبة أن تَنتابك هناك في الفيلق، كالهرب والتخلِّي عن كل شيء.

وعادت تدقَّ بابَ ذاكرته صورةُ إيليا الذي كان بارعاَ، أثناء التدريب والدراسة والالتزام بالنظام والانضباط، ربما لأنه كان يكبر ساشكا بضعَ سنوات، ولربما أيضاً لأن عيشَه في الملجأ مدةَ عامَيْن أكسَبَه مزيداً من الخبرة والقدرة على صقل شخصيته، واعتماده على نفسه. لعلَّ إيليا تأقلم حتى مع الحياة في الأنقاض. على أية حال، قد يكون الآن في مدينةٍ أخرى؛ في إينسْك التي كان ينوي الوصول إليها. ذلك ممكن، والأقرب إلى الواقع شيءٌ آخَر: أن يكون إيليا قد مات؛ تاه أثناء العاصفة ومات عطشاً، أو أن قُطَّاع الطرق قطعوا رأسَه وعلَّقوه على قارعةِ الطريق لترويعِ الآخرين، أو عَثر عليه أنذالٌ من الفيلق وقتلوه رَمْياً بالرصاص، وقد يكون عاد بعد أن عجز عن الذهاب إلى أي مكان، وهو يختبئ الآن في مكانٍ ما في منطقة الأنقاض. يختبئ! قِفْ! توقَّفَ ساشكا، وتلفَّتَ حوله.

تبيَّنَ أنه وصل إلى محطةِ الحافلات؛ نفسِ المحطة التي بلغها أمسِ بسببِ طيشه وحماقته. تمعَّنَ ساشكا بَرْنامجَ حركةَ الحافلات المكتوبِ بالفحم على شاخصةٍ خشبية. رحلةُ النهار تنطلق الساعة 14:40. إذا استقلَّ الحافلةَ فسيَصِل البيت بعد نصف ساعة.

- «إي! إي! هل تسمعني؟!»

التَفَت ساشكا، وتحت شرفةِ بَرَّاكةٍ خشبيةٍ في الجهة المقابِلة من الساحة، رأى شاباً يُلوِّح له بيده مُحيِّياً.

- «تعالَ إلى هنا!»

تسارَعَت خطوات ساشكا، وما إن اقترب حتى عرفه. إنه جينكا [13] كونكوف من وحدته؛ بشَعْره الأشقر، وعينَيْه الزرقاوَيْن، وغمَّازتَيه؛ كان يَصْلح لأن يُمثِّل في المسرح دورَ مراهقٍ مهذَّب من عائلةٍ محترمة، لولا نَدْبةٌ على ذِقنه أفسدَتْ مَظْهرَه قليلاً. وتذكَّرَ ساشكا أن جينكا ظلَّ بالأمس طول الوقت قريباً من ليوڤـا، لعلهما صديقان.

سأله جينكا: «ماذا بك؟ هل ضَلَلْتَ الطريق؟ أراك تتسكَّع هنا مثلَ قملةٍ على صلعة. إلى أين أنت ذاهب؟»

هزَّ ساشكا كتفَيْه.

- «دَعْنا ندخل إذاً. هذا المكان لنا فقط، نحن المتطوِّعين في وَحْدة المغاوير «شتورم». يمكننا أن نتدفَّأ بشيءٍ نشربه. ما رأيك؟»

في الداخل عمَّ ظلامٌ ورائحةُ عفونة. النوافذُ مُوصَدة، وعلى الأرض نُقراتٌ مُرِيبة، وتتدلَّى من السقف بضعُ فوانيس تُضاء بالكيروسين، وبالكاد تُنِير نفسها. وثَمة عددٌ من رجال الوحدات بثيابٍ مختلفةِ الألوان يجلسون حول طاولاتٍ في زاوية بعيدة، يشربون بهدوء مُستغرَب. خمَّنَ ساشكا: «ربما هم في ذكرى وفاةِ صديقٍ لهم». وتوجَّهَ جينكا نحوَ نضد عليه أقداحٌ فارغة، يقف خلفه رجلٌ تَخطَّى سِنَّ الشباب، يرتدي كنزةً من الصوف رمادية، ويَعُدُّ بكَسَلٍ قِطَعاً نقدية.

خاطَبَهما الرجل: «أيَّ شرابٍ تريدون، يا أولاد؟» خلف ظهره لمح ساشكا هاتفاً، فتساءل:

- «أمسموح لنا الاتصال؟»

- «مقابل نصف مارك».

- «هذا كثير! ولكن، لا خيار». وضع ساشكا القِطَع النقدية على النضد، واقترب من الهاتف.

بدا الهاتف قديماً وضخماً، وحوافُّه المطلية تشعُّ لامعةً. تناوَلَ ساشكا السمَّاعة وطلب رقمَ جارةِ أمِّه. لماذا قرَّر الاتصال؟! من الصعب التخمين. ولكن لو اشتبهَتْ والدته بشيء، وطلبت منه العودة، لَمَا تردَّدَ في الهرب من هنا بالتأكيد.

ردَّ صوت نسائي: «أنا أسمعك».

- «أنا ساشكا يِرخوف». ولعق ساشكا شفتَيْه اللتين جفَّتَا فجأةً. «أُريد أن أكلِّمَ أمي».

- «ساشا! ارفع صوتَك! هل تتكلَّم من الفيلق؟ أمك ذهبَت إلى المشفى، ساءَت صحتُها على إثرِ ما حدث في الفيلق. هل تريد أن أبلغها شيئاً؟»

أجاب ساشكا بصوت واضح: «كلا. أقصد، أَبلِغيها أنني بخير، وسأحصل على إجازة قريباً. طَمْئِنِيها».

أعاد سماعةَ الهاتف. لا يُمكِنه العودة، حالياً على الأقلِّ. خرج إلى القاعة حيث ازداد الحضور، وتعالى الضجيج. يحمل جينكا بيده زجاجةَ مشروبٍ رَدِيء، ويجلس عند طاولةٍ بعيدة. اقترب ساشكا وجلس بجواره.

سأله جينكا وهو يُومِئ برأسه إلى الزجاجة: «هل تريد؟»

- «كلا».

- «إذاً، دَعْنا نثرثر. بَلَغني أنك تَشاجَرتَ مع ليوڤـا؟ الكلُّ يتحدَّث عن ذلك. أَخبِرني بما حدث، إن لم يكن ذلك سراً».

قال ساشكا: «هو يريد الكثير مني. لستُ موظفاً عنده لأشتري له المشروب».

صفَّر جينكا بشرود.

- «وهل لديك أصدقاءُ أقوياء؟ أم تظن أنك قادرٌ بمفردك على حلِّ مشاكلك؟»

- «أي مشاكل؟»

أوضَحَ جينكا: «يجب أن تعيش حسب القواعد. وتبعاً لتلك القواعد يجب على الوافِد الجديد أن يَنال إعجابَ الآخرين. وأنت لم تَنَلْ إعجابَ ليوڤا..».

قاطَعَه ساشكا: «لستُ فتاةً لأنال إعجابَه».

هزَّ جينكا رأسه قائلاً: «أوه! إياك أن تظن أنكِ وَحْدك ستكون قوياً وقادراً على فعلِ ما تشاء. هنا ليس الفيلق، إذا أرادوا قتْلَك فسيفعلون قبل أن تَنبس ببنتِ شَفةٍ».

نهض ساشكا: «فهمتُ. أنت تريد أن تُخِيفني، لكنْ لا وقتَ عندي لذلك».

خرج ساشكا إلى الشارع. حاوَلَ تجنُّبَ البِرَك المائية أمامه، وقفل عائداً إلى المبنى. العودة إلى البيت باتَت مستحيلة. إذاً، يجب تحمُّل كل شيء؛ الليالي الجليدية، ووجبات الطعام الكريهة، والزميل ليوڤـا الذي لن يُفوِّت فرصةً للثأر منه بسببِ ما حدث اليوم.

لكن ربما يعتاد ساشكا على الأمر؛ فقد اعتاد عليه الآخَرون. قد تكون الأمورُ أبسطَ ممَّا تخيَّلَ. لقد تغيَّرَ العالَمُ بسرعة فائقة، ولم يَتَسنَّ له أن يَألفه. كل شيء بحاجةٍ إلى وقت. تساءَلَ ساشكا برعب: «أحقاً يمكنني أن أعتادَ على ما فعلتُه أمسِ؟»

اهتدى إلى البناية العالية رقم 31 بسرعةٍ مدهشة. في المدخل رأى الحارسَ؛ وهو مُراهِق شاحب، ناحلٌ، ضئيلُ القامة، بمِعطَفٍ واسعٍ قصيرٍ مُتهدِّلٍ على جسدٍ كأنه مِشجَب.

سأله الحارس بغير اكتراث: «إلى أين؟»

أجاب ساشكا: «أنا من وَحْدة ڤـورونتسوف». ومرَّ عبر الأكياس نحو السُّلَّم.

- دوَّت صرخة خلفه: «قِفْ!» خرج من زاويةٍ مُظلِمة رجلٌ جسيم، قويٌّ، حليقُ الرأس، وبيده رشَّاش. «دَعْني أتأمَّلك».

سأله ساشكا بحذر: «ومَن أنت؟»

- «أنتَ مَن؟ أنا سيريوغا فولكوف، المسؤول عن هذه البناية، نَادِني باسم ڤـولك [14]». وتفحَّصَ الرجلُ العملاقُ ساشكا من جميعِ الجهات باهتمام، فبدا راضياً، وأردف قائلاً: «مقبول، إنهم في الفترة الأخيرة يرسلون لنا مُعوَّقين». وبضحكةٍ ساخرة أشار برأسه إلى الحارس الهزيل الجسم. «أليس كذلك، يا جَقَل [15]؟»

هزَّ النحيلُ كتفَيْه، وأشاح بوجهه.

- «إذاً أنتَ الذي انقضَضْتَ صباحاً على ليوڤا وبيدك زجاجة؟»

توتَّرَ ساشكا مُحرَجاً: «لقد بالَغوا اليومَ بالحديث عن هذه الواقعة». لكن الذئب ختم حديثَه:

- «لقد أحسنتَ التصرُّف. لا تَخَف. لقد حذَّرْتَ الأمغر؛ إذا حاوَلَ مُضايقتَك فسيدفع الثمن كاملاً. نحن قِلَّةٌ هنا، لن يَقتلَ بعضُنا بعضاً لأسبابٍ تافهة. عموماً، ليوڤا جبانٌ وضعيف. لقد أخبرته بذلك سابقاً، فَلْيذهب إلى الشيطان، أو إلى الجيفيين. لقد كان فيما مضى شاباً عادياً، لكنه انكسر مؤخراً؛ أدمَنَ الكحول. يحدث ذلك أحياناً. عموماً، الناس هنا في «شتورم» مختلفون. بعض المجموعات، كل عناصرها أنذال. لو كنتَ هناك، لكانوا اليومَ قد دفنوك. لكننا في وَحْدتنا متفقون على كل شيء. إنني لا أزال حياً، والشبابُ كلهم لا بأسَ بهم. الجقل، على سبيل المثال، أنا مَن جئتُ به إلى هنا؛ وجدتُه ينبش في المزابل، وها هو الآن يدافع عن الوطن بصدره العاري! أليس كذلك يا جقل؟»

أجاب الجقل وهو يبصق على الأرض من ثغرة سنه الأمامي المكسور: «أجل، يا ذئب، هذا صحيح».

ختم الذئب كلامه: «فلا تَخْشَ ليوڤـا، لكِنْ لا تقترِب منه أبداً. وإيَّاك أن تقتل أحداً من الوحدة هنا. وإذا حدث ذلك، فسيُقضَى عليك».

عبقت الغرفة برائحة كيروسين؛ فقد كان كيشا ينظِّف المسدس الذي غَنِماه أمسِ.

قال لساشكا: «أنتَ أضعتَ مسدَّسي، لذا سآخذ هذا. وشيز يريد أن يكلِّمك. عن الروح، أفهمتَ؟ وقد حدَّثني عن ذلك أيضاً، وكان دائماً يُلهِيني إلى أن يتسبَّبَ في تخريب الدارة، فأبعدتُه. أحاديثه هذرٌ لا طائلَ منها».

دخل ساشكا إلى غرفة القائد عند حلول المساء، بعد أن أمضى النهارَ كله على فراشه وهو يحاول ألَّا يُفكِّر بشيء، وألَّا يُنصِت لثرثرة كيشا، لكنَّ أفكاراً حول الروح ظلت تشغل دماغَه حتى من دون حديث شيز. بل هي ليست أفكاراً، وإنما نُتَفٌ منها غامضة؛ تشعر بأن هناك خطأ، لكنك لا تعرف ماهيتَه. وتنبش في أعماقك، آمِلاً أن تحدِّدَ منبعَ هذا الألم وتتخلَّص منه. كان في داخله شيءٌ ليس أقلَّ تعذيباً مما كان بالأمس.

أخيراً أخذ كيشا يُسخِّن لحماً مُعلَّباً، وأرسَلَ ساشكا لإحضارِ الماء من غرفة أوليغ، فلم يجد أوليغ في غرفته، لكن باب غرفة شيز كان مُوارَباً. قرَّر ساشكا الدخول؛ فربما كان قائد المجموعة يريد استجوابَه بخصوصِ شجارِ أمسِ، وعدم حضوره يعني اعترافاً بالذنب.

كان في غرفة القائد كثيرٌ من الأشياء الغريبة التي لا تُعرَف الغايةُ منها؛ أجراس تتدلَّى فوق الجدران الملطَّخة بالسُّخام، وصور عديدة مُؤطَّرة بالخشب، وحصير مجدول من القشِّ على جدارٍ بالقرب من سريرٍ يُغطِّيه لحافٌ مُزركَش بعِدَّة ألوان، وسرير آخَر خشبي شاغر.

دائرة صغيرة مرسومة على الأرض بالطباشير، على حوافِّها شموعٌ دهنية. داخل الدائرة كتابٌ سميك بغِلافٍ بُنِّيِّ اللون. شيز جالس على حافةِ النافذة يُحدِّق عبر النافذة المشرعة.

تخطَّى ساشكا الدائرةَ حريصاً على ألا يَلْمس أو يُفسِد أيَّ شيء.

- «سيِّدي».

قال شيز دون أن يلتفت: «أخيراً جئتَ! أردتُ أن أُرِيك شيئاً. هيا اقترب».

اقترب ساشكا من شيز وهو يحدِّق إليه خائفاً. كان وجه ڤـيتكا نحيلاً، يشبه في الظلام جمجمةً مَحجِرا عينَيْها أسودان فارغان. كان جالساً على حافة النافذة المفتوحة ينظر إلى الخارج، وكأنَّ قطراتِ المطر التي تتناثر في الغرفةِ عبر النافذة لا تعنيه.

قال القائد بصوتٍ يُسمَع بالكاد: «من هنا يُرَى العالَم بشكلٍ جيد جداً. انظر بنفسك، هذا مهم».

أطلَّ ساشكا عبر النافذة فرأى بضعةَ مبانٍ مجاورة ومداخنَ مصنعٍ على بُعْد حيَّيْن اثنين من هنا.

هزَّ ساشكا كتفَيْه.

أومأ شيز: «لم تفهم شيئاً! لا عجبَ في ذلك. إنك لم تَنظرْ إلى العالَم من قبلُ قَطُّ، ولو نِصفَ نظرة. خسارة! كلانا الآن معاً في مكانٍ فريد. هنا، من السهل أن يأتيَك الإلهام. هذا مستحيل في المدينة، أمَّا هنا فأينما شئتَ. هنا، يَتحرَّر الإنسان من كل القِيَم البالية. ثَمة شيءٌ يُقرِّب الإنسانَ الحُرَّ بحقٍّ إلى الله. هل تعلم أن الله موجود؟»

هزَّ ساشكا رأسه.

- «لم يَعُد يذكر هذه الكلمةَ إلا قليلون. مصيبة، لكني لا أتحدث الآن عن هذا. إني أُشفِق عليك، أنت لا تَعِي ما تفعل. ما تفعله ليس من أجل روحك، وإنما لأنك فعلتَه. أنت لستَ روحانياً».

لاذَ شيز بالصمت، كأنه فقَدَ كلَّ رغبةٍ في هذا الحديث. ظلَّ ساشكا واقفاً إلى جواره حائراً، لا يعرف إن كان الحديث قد انتهى أم لا.

فجأةً سأله شيز: «كنتَ تريد أن تهرب من هنا، إلى مركز المدينة، أليس كذلك؟ عبثاً فعلتَ! لن تغيِّر بذلك شيئاً، لن تهرب من ذاتك. لقد أدركت بالأمس واليوم مَن أنت. يتحكَّم بك عقلٌ أسوَد».

اعترض ساشكا: «لا يتحكَّمُ بي أحد. صحيحٌ أني كنتُ أريد الهرب، ولَكنتُ هربت لو استطعتُ..».

- «ولماذا؟»

قال ساشكا بعد تأملٍ: «هناك المدينة. هناك أمِّي، وهناك البيوت عامرة».

قال شيز بين تنخُّعٍ وضحكة ساخرة: «بيوت! هل البيوت هي العالَم؟! أيُعقَل هذا؟! يا لكَ من أحمق! الأنقاضُ هُراء، العالَمُ هو الأرواح! تفتُّتُ الحجر شيءٌ سخيف، أما تفتُّتُ الروح فهو النهاية! من الجيد أن تفهم ذلك».

ظلَّ ساشكا صامتاً. لم يسمع يوماً هذه التأويلات لجَوْهر العالَم.

أخيراً أَذِن له شيز: «اذهبْ. أنت تَحمل مصيبة؛ لنفسك وللآخرين. ستبقى هنا إلى الأبد، ولكني سأصلّي من أجلك».

7

ظلَّ ساشكا يتقلَّب طوالَ الليل في فراشه في الغرفة الباردة وهو يتذكَّر كلامَ شيز؛ الكلامَ الذي ظلَّ يَطْفو في رأسه رغماً عنه، ويتسلَّل إليه في أحلامه ويَقَظته. «ستبقى هنا إلى الأبد»، «أنت تَحمل مصيبة»، «العالَم أرواح». وكأنَّ ڤـيتكا [16] يقف إلى جواره ويبتسم ابتسامتَه الغريبة تلك. كان ذلك مُخِيفاً. وما إن بدأ ضوءُ الصباح ينبثق في الغرفة، حتى جلس ساشكا على سرير كيشا وربَّتَ على كتف زميله يسأله:

- «اسمع، لماذا ڤـورونتسوف هو قائد المجموعة؟ إنه معتوه، ومَن يدري...؟»

أجاب كيشا بخمول: «المحسوبية جعلَت منه قائداً. لديه شخصٌ ذو نفوذ. أجل، كما أنه مُتعلِّم؛ درس الفلسفةَ سنتَيْن في الجامعة».

- «وما الذي جاء به إلى هنا؟»

- «عقله المريض. وماذا سواه؟! ما لك تفكِّر به في تلك الليالي، ذلك العجوز!»

- «عجوز؟!»

قال كيشا موضِّحاً: «أجل. هنا، قِلَّةٌ هم مَن يَبْقون على قيْدِ الحياة حتى الثامنة عشرة. لقد صمد أوليغ لأنه ذكي. أما شيز، فلأنه أحمق. الأسهلُ ألَّا يَفْهم المرءُ شيئاً. وأنتَ، إن كنتَ بدأت تَتجمَّد، فبوُسْعك الاستلقاءُ إلى جانبي. ننام قليلاً، ثم نذهب لشراء ملابس لك. هذا خيرٌ من أن أستيقظَ في يومٍ من الأيام لأجِدَك جثةً هامدة. هل تدري كَمْ هو مقرفٌ أن تنام إلى جانب جثة!»

أصرَّ الصبيُّ المتَّسِخ، الشكّاء الذي يسكن مع أوليغ، على مُرافَقة ساشكا وكيشا إلى مكانِ الجيفيين. كان يريد إجراءَ مُقايَضةٍ ليحصل على سكينِ جيبٍ وزوجٍ من الجوارب الدافئة، ولهذه الغاية كان لديه قارورةُ مشروب منزلي سرَقَها من بائعةٍ عجوز في سوق الضاحية. خلال النهار، هبَّت ريحٌ شمالية بعثَرَت أفواجَ الغيوم، وانخفضت درجاتُ الحرارة إلى ما دون الصفر. تكوَّرَ الشباب على أنفُسِهم وراحوا يَنْفخون في أَكُفِّهم طلباً للدفء. لم يَكُفَّ كيشا عن الثرثرة؛ كل حكاياته تدور حول أحداث ومجريات حياة المباني المجاوِرة، المُفجِع منها والفاحش. ظلَّ الشكَّاءُ صامتاً، تكلَّمَ مرةً واحدة فقط وهو يحدِّق في وجه ساشكا مُتزلِّفاً بعينَيْه الصفراوَيْن الداكنتَيْن.

خطر في بال ساشكا، منذ اليوم الأول، أن عينَي الشكَّاء تُذكِّرانه بلون الشاي المخفَّف. أمَّا الآن فقد بَدَت نظرتُه كنظرةِ جَرْوٍ.

قال الشكَّاء: «أنت رامٍ بارع. طلقةُ مسدَّسِك تُصِيب الجبينَ مُباشَرةً. قلائلُ يُتقِنون ذلك. أنا لا أَجْرُؤ».

قاطَعَه كيشا: «ذلك لأنه تلقَّى تدريباته في الفيلق؛ هناك يُعلِّمون الرمايةَ والقتال».

أحسَّ الصبي بفرحٍ غامر إذ تغيَّرَ مسارُ الحديث: «أنا أيضاً تدرَّبت على العِراك في صغري؛ كان لي عمٌّ اسمه كوستيا [17] مثلي، كان بارعاً في القتال. علَّمَني حركاتٍ مختلفة».

تضاحك كيشا: «لا تكذب، أنت تعرف حركةً واحدة؛ ما إن تتلقى الضربةَ الأولى حتى تصيح يائساً: «رِفْقاً بالصبيِّ اليتيم». لن تصدِّق يا ساشكا؛ لقد اختلس ذاتَ مرة بعضَ أمتعةِ امرأةٍ عجوز، هناك في مركز المدينة، فأمسكوا به، وقبل أن يضربوه راح يَنُوح مُتوسِّلاً حتى أشفقَتْ عليه تلك الحمقاء، وأطلقَت سراحَه، بل وزوَّدَته ببعض الطعام».

قال الصبي حالماً: «لقد أرادَت أن تَتبنَّاني ابناً لها، ولكن ليس لديَّ أوراقٌ ثبوتية».

قَهقَهَ كيشا عالياً: «تَتبنَّاك أنت؟! يا إلهي! دعوني أموت! الكتكوت الشكَّاء وأمُّه الدجاجة!»

قال الشكَّاء من غير انزعاج: «لا تُصدِّقاني إن شِئتُما! أنا مرتاح هنا، ولم أذهب إلى تلك المرأة! لا يُقِيم في مركز المدينة إلا المجانين!»

كان متجرُ جماعةِ الجيفيين في قبْوٍ لبناءٍ من خمسة أدوار، مسكونٍ، ونوافذه مُغطَّاة بورقٍ أبيض، أو عليها ستائر سميكة، وقد نُشِر غسيلٌ فوق إحدى الشرفات. وعلى رأسِ ساريةٍ عالية راحَت تخفق رايةٌ حمراء. وفي أعلى المبنى عِدَّةُ لوحات دعائية.

كان المدخل مُحصَّناً، لدرجةِ أن سـاشكا، الخبير بحيثياتِ الدفاع، فغَرَ فاه مندهشاً؛ كانت الفُسْحة التي أمـام المدخل مُنظَّفةً بعناية، وعلى الجانبَيْن أكياسٌ من الرمل، ولاحت عبر النافذة فوق بـاب المدخل فُوَّهةُ رشَّاش. يبدو أن السطح كذلك، لم يَخْلُ من المُناوِبين. عند الباب، يقف رجالٌ أشِدَّاء يحملون أسلحةً رشَّاشة جديدة، ويرتدون اللباسَ المموَّه، وعلى أكمامهم شرائطُ حمراء.

ناح الصبيُّ: «أنا أخاف هؤلاء. سأتقدَّم مرعوباً؛ إنهم أشِدَّاء».

سارَعَ «رجالٌ أشاوس» بتفتيش ساشكا، وكذلك كيشا، وحتى الصبي المرتعد خوفاً. بعدَها تمكَّن الشُّبَّان من ولوج القَبْو. كان المكانُ حسَنَ الإنارة ودافئاً، وتناثَرَت على الأرض، من الجدار إلى الجدار، أكوامٌ من الصناديق والأكياس والعلب. وسطَ هذا الرُّكام، جلسَ القُرْفصاءَ رجلان في مَعاطِفَ جلديةٍ فاخرة يَقْضمان بذورَ عبَّاد الشمس.

تساءَل أحدهما: «شراء أم مُقايَضة؟»

أجاب ساشكا: «بل شراء».

قال الشكَّاء: «ومُقايَضة أيضاً».

وقف الاثنان، وتناوَل أحدهما زجاجةً من يَدِ الصبي، واقتاده إلى خلف الصناديق، في حين اقترب الآخَر من كيشا.

- «أتريد ثياباً؟»

أومأ كيشا برأسه مُوافِقاً.

- «جديدة، أو ما كان على جثةِ ميت؟»

أجاب كيشا، وهو يرنو مسرعاً إلى ساشكا: «بل ملابس جثة. لديه عشرة ماركات».

صحَّح ساشكا قولَه: «تِسعة ماركات ونصف».

هزَّ الرجل رأسه، وأشار إلى كومةٍ من الثياب المُهترِئة في زاويةٍ بعيدة.

- «هيا بنا إليها، يا صديقي».

بدَت الثيابُ نظيفة، لكنَّها رثَّة. ونظر ساشكا إلى كيشا متسائلاً.

قال كيشا ناصحاً: «اختَرْ بسرعة؛ لسنا ضيوفاً هنا».

لم يَرغب ساشكا بالاستعجال؛ فالمكان دافئٌ هنا، والصقيع القابع في الأعماق بدأ يُغادِر أجسادَهم. حبَّذا لو كان بالإمكان الاضطجاع قليلاً خلف هذه الأكياس، وعدم المغادَرة لأيِّ مكان. طرد ساشكا بصعوبةٍ ما تملَّكَه من رغبةٍ في أن يستلقي على الأرض ويستسلم، وانطلق باتجاهِ الثياب يَنبش فيها، وسرعان ما اهتدى لمِعطَفٍ مقاسه مناسب له، سميك ودافئ. أشاح ساشكا بنظره عن رقعةٍ على الصدر فوق القلب، وقال في سرِّه إن من الحماقة إشغالَ الفكر بمصدر هذه الرقعة؛ فالأفكار لن تمنحك الدفءَ.

طلب البائع: «ثمانية ماركات».

أومأ كيشا موافقاً: «لا بأس. وهل يكفي الباقي لشراء حِرام؟ فَلْنتَّفِق.

غاص البائع في أحد الأكياس، وانتشَلَ منه شيئاً رماديَّ اللون.

- لقد أصابَت قذيفةٌ شخصاً وهو تحت هذا الغطاء؛ لذا فثمنه بَخْس. لا يرغب أحد في شرائه، صار الجميع مُوَسوسين. لا تكفي دراهم لشيءٍ آخَر.

عند إحدى حوافِّ الغطاء فتحةٌ كبيرة تناثَرَت خيوطُها إثرَ الاشتعالِ الذي لحق بها. وتخيَّلَ ساشكا لدقيقةٍ ما عساه تَبقَّى من ذاك الجسد الذي كان راقداً تحت هذا الغطاء! وخارت قواه. اقتحمت ذاكرتَه كلماتُ كيشا: «قِلَّةٌ هنا مَن يبقون أحياء حتى الثامنة عشرة من العمر». إذاً، لم يَبْقَ له من الحياة إلا سنَتان ونصف سنة في أحسن الأحوال، وأقلُّ من ذلك لكيشا.

في هذه الأثناء كان الجيفي قد لفَّ الغطاء كيفما اتفق وناوَلَه لساشكا.

تساءل كيشا، عندما توارى مقرُّ «الأخوة الحُمْر» خلف الأنقاض: «هل شعرتَ بالدفء، يا سانيوك؟ أنت سعيدُ الحظ، فبمثلِ هذا المبلغ يَصعب اقتناءُ شيءٍ مناسب».

أطرق ساشكا؛ ترك ذلك المتجرُ أثراً مزعجاً في نفسه. كومة كاملة من أمتعة القتلى الشباب أمثاله. هناك مَن كان يرتدي هذا المِعطَف الذي حماه من

البرد والريح. تُرَى مَن هو؟ لا أحدَ يعلم، وليس ذلك مهماً. المهمُّ شيءٌ آخَر؛ هذا المِعطَفُ الذي يَحمِيك من البرد لن يَحمِيك من غيره؛ من طلقةٍ في القلب، فهو لم يَحْمِ صاحبه.

تنهَّدَ الشكَّاء قائلاً: «هؤلاء الجيفيون طمَّاعون! زوجٌ من الجوارب فقط مقابل زجاجةٍ مشروب. هما فعلاً زوجان، ولكنِّي كنتُ أتطلَّع لامتلاكِ سكِّين!»

نصحه كيشا: «يُمكِنك أن تعود وتَطلب منهم ذلك. ربما يقدِّمونه لك هدية، وقد يَعرضون عليك التبنِّي».

قفز الشكَّاء مبتعداً لمسافة آمنة، وقال: «دَعْني وشأني». وأشاح كيشا بيده.

- «حتماً لولا أوليغ لَكان كوستيك واحداً من الأخوة الحُمْر. فأين المفرُّ! ولَكان الآن يُمشِّط الصحراء زحفاً على بطنه».

رسم الشكَّاءُ من بعيد شارةً ماجِنة لكيشا، وتوارى عن الأنظار.

- «آخ!» داس كيشا بأقدامه زجاجةً بلاستيكية، صادفته في طريقه، ثم فكَّرَ قليلاً والتقطها. «عموماً لا ضيْرَ في الانتماء إلى جماعة الأخوة الحُمْر، طبعاً ليس برُتْبة عبد. ليعمل بالتجارة مثلاً، أو للالتحاق بجماعة القوافل. في الحقيقة، هم لا يُرحِّبون إلَّا بالمقرَّبين منهم؛ أولئك الذين يَتفانَوْن في خدمتهم. لا بُدَّ من مُمارَسة ذلك منذ نعومة الأظافر. أنا أخاف الجثثَ. هل تخافها أنت؟»

اعترف ساشكا: «لستُ أدري؛ لم أشارك في المعارك بعدُ. رأيت فيلماً وثائقياً، ذات مَرَّة، هناك في الفيلق، حيث أُعدِمَ الأسرى من مدينة أنسك رَمْياً بالرصاص. كان ذلك مقرفاً حقاً».

- «وهل يرسلون أفرادَ المغاوير إلى المعارك عادةً؟»

تضاحك كيشا: «كلَّا، المعارك مكلِّفة، والمسؤولون بخلاء. فمثلاً، في شهر مايو الماضي، وقعت معركة، قُتِل فيها عددٌ لا يُحصى من جنود إنسك. كنَّا حوالي مئتَيْ مُقاتِل، مائة منَّا من المغاوير.

ظلَّت وَحْدتُنا في حالةِ احتياطٍ تحسُّباً لاحتمالِ الخرق. مرَّ يومان ونحن رابضون في الخنادق نُطلِق نيراننا باتجاه العصافير فقط. تولَّت وَحْدةُ الدبابات مهمةَ صدِّ الأعداء. حينها، بِعتُهم قارورةَ كحولٍ بثلاثةِ أضعاف ثمنها».

- «مهما يكن، فسرقةُ القتيل نذالة. لو كنتُ مكانَ القائد الأعلى لَمنعتُ ميليشيا الجيفيين. إنهم يَجْلبون العارَ للمدينة».

قال كيشا ضاحكاً: «وكان سيهلك الجميعُ جوعاً في مدينتك. لا حاجةَ لأن تُثقِل رؤوسَنا بهذه التُّرهات، فلدينا منها ما يكفي! سنصل قريباً، ونبدأ بتقطيعِ الخشب للموقد. فهناك، في الدور الرابع، مَن وعدنا بتقديمه. القطعة الواحدة بخمسة قروش. ستدفع لي نصفَ المبلغ لاحقاً. يدفعون ثلاثين ماركاً في الشهر للشخص الواحد، بالإضافة للمُعلَّبات، تبعاً للأنظمة. الإقامة مجانية، لست إذاً بحاجةٍ إلى مصاريفَ إضافية. لقد وفَّرتُ أربعمائةَ مارك خلال عامٍ ونصف. عندما أوفِّر ضِعفَ هذا المبلغ، سأعود إلى مزرعة والدي، أو أتابع دراستي في مكانٍ ما. وأنت، هل ستُكمِل دراستك؟»

- «بالتأكيد».

- «أين؟»

قال ساشكا بعد تفكُّر: «في كلية الطب. اختصاص أمراض قلبيَّة. أعالج مرضى القلب».

قال كيشا: «جيِّد، فَلْتَعمل وتجمع المال مثلي».

أومأ ساشكا برأسه موافقاً. لكنه في حقيقة الأمر لم يفكِّر بعدُ في المستقبَل، لقد تكاثرت عليه المشاكل في الآونة الأخيرة، لكن بقاءَه في الوحدات لن يكون أبدياً، صدَق كيشا. إذاً، لا بُدَّ من الاستعداد لمغادَرة هذا المكان.

وسرعانَ ما تناسى خواطرَه تجاه المستقبل؛ فليس لديه وقتٌ لهذا الآن، يجب أن يعالج المسائل اليومية؛ كيفية توزيع التموين اليومي، وتأمين الحَطَب اللازم للتدفئة، وغَسْلِ وجهه بالماء المثلج، أو تأجيل ذلك لأوقاتٍ أفضل. بات الظلام يخيِّم باكراً، والصقيع يشتدُّ من يومٍ لآخر؛ لذا فقد حان الوقت لتدبير الحَطَب اللازم للتدفئة. كان الشباب يمضون أياماً بطولها في نَبْش الأنقاض بالمناطق التي لا تحيط بها أسوارُ الجيفيين، لا يجمعون سوى سَقَط المتاع الذي كان يصلح أحياناً لإشعال النيران، حيث يُسحَب بعد ذلك إلى داخل النار. في إحدى جولاتهم في القِطاع المدني لاحَظ ساشكا أن هناك مَن سحَب اللائحة الخشبية التي كان يُعلَّق عليها بَرْنامج سَيْر الحافلة، ولاحَظ أيضاً، أن المكان يكاد يخلو من الأشجار، عدا الضئيل منها، مع جذامير تَلُوح هنا وهناك. يبدو أن السكان المحليين أيضاً كانوا يعانون لتأمينِ موادِّ التدفئة.

كان نقْلُ الخردة المتنوعة من الأنقاض يستنزف القوى، ولكنه، في الوقت ذاته، لم يترك مجالاً للتفكير في شيءٍ آخر. كان ساشكا يُخرِج من جيبه كلَّ صباحٍ تقويماً صغيراً عليه شعارُ الفيلق -هو كل ما تبقَّى له من الدراسة هناك- ويشطب اليومَ المنصرم. حتى اعتاد، كما يفعل كيشا، أن يحسبَ كَمْ تبقى من الأيام لاستلامِ مُرتَّبه الشهري في الخامس من كل شهر. كان راتب ساشكا اثنَي عشَرَ ماركاً، وبفضله سيكون بوُسْعه أن يزورَ أمَّه وكأنه في إجازة، وأن ينام في فراشٍ طبيعي، وربما يقرأ في ضوءِ مصباحٍ كهربائي كتاباً، أو واحدةً من تلك القصص الساذجة المُشوِّقة التي كان يعشقها من قبلُ.

لقد اعتاد ساشكا التسكُّعَ، غالباً برفقةِ كيشا والشكَّاء قُربَ محطة الحافلات. كان ذلك المكان بمثابةِ المركز في منطقةِ الأنقاض. فهناك البار، ومركز التجنيد مع المستودَع، والحمَّام العمومي، حيث كان بمقدورِ عناصر الوحدات الاستحمامُ لقاءَ أجرٍ رمزي يساوي نصفَ مارك. ويقع على مَقرُبةٍ من المستوصَف أيضاً. وبعيداً عنه قليلاً تقع قيادة وحدة «المغاوير» وساحة الاجتماع، حيث لم يَسْبق لساشكا أن يكون هناك.

يَجُوب الساحةَ جموعٌ من الشباب بلباسهم المدنيِّ وبزَّاتهم السوداء، قُربَ الموقف من الصباح حتى حلول المساء، بعضُهم ينتظر حافلةً تُقِلُّهم إلى المدينة، والبعض الآخَر يتسوَّق لدى الباعة الجوَّالين الذين يبيعون الموادَّ الغذائية والسجائر والمشروبات الكحولية الرائجة هنا. كثيرون من عناصر الوحدات كانوا يُنفِقون كلَّ أجورهم على المشروب، ولم يكن الكحولُ من أولوياتِ ساشكا وكيشا. أما الشكَّاء، فكان بعض الشباب يُقدِّمون له المشروبَ من أجل التسلية، لكن بكمياتٍ قليلة جداً؛ إذ كان يَترنَّح ثَمِلاً بعد الجرعة الأولى من الكحول، ويندفع يهذر بكلامٍ لا يقبله عقل، مُتباهِياً ببطولاتٍ خارقةٍ، وبنجاحاته مع الفَتَيات.

ذات مرَّة، بعد أن خرج ساشكا وكيشا من البار، حيث كانا يَتدفَّآن قبل الانطلاق لجمْعِ الحَطَب كعادتهما، وصلت إلى المحطةِ الحافلةُ «ناقلة الجثامين»، التي جاء فيها ساشكا إلى هذا المكان قبل فترةٍ وجيزة. اليومَ، لم يكن عددُ الراغبين في السفر إلى المدينة كبيراً، كانوا ثلاثة شبَّان فقط وزوجاً من سكان المنطقة.

نظر ساشكا إلى الحافلة، خطا بِضعَ خطواتٍ وفجأةً دونَ أن يَعِي سبباً لذلك، وفي اللحظة الأخيرة، قذَفَ بنفسه داخل الحافلة. وصاح كيشا باستغرابٍ في إثره، غير أنه لم يسمع الصراخَ. تحرَّكت الحافلة مُرتجَّةً عبر الشوارع، زاحفةً باتجاه مركز المدينة الذي لا يجوز لساشكا أن يزوره، وهو في غنى عنه. انزوى في إحدى الزوايا، مُتَّكئاً على الجدار، عاجزاً عن تبريرِ وجوده

هنا. لقد خرج بصحبةِ كيشا، وفي هذا الوقت كان من المفترَض أن ينبش مع كيشا فُتات الإسمنت البارد بحثاً عن الخشب. يا للحماقة! كان عازماً على فعل شيء، وإذا به يفعل عكسَه. أحسَّ بغيبوبةٍ مُباغِتة. تنهَّدَ ساشكا. لا بأسَ، إنها ستأخذ الخطَّ الدائري وتعود إليه في المحطة.

لكن الحافلة ما إن بلغَت نهايةَ الخط، على مَقرُبةٍ من الفيلق، حتى تبيَّنَ أنها لن تعود اليومَ. وقف ساشكا متردِّداً قليلاً، ثم اقترب من مبنى الفيلق. كان المدخلُ المعروف ظاهراً من بعيد. هناك الآن، في الغرفة الإسمنتية، ذاتِ الفتحات الضيِّقة، أربعةُ حرَّاس قد يكونون من أفرادِ سَرِيَّته. عصفَت به رغبةٌ في الدخول، والتحدُّث إليهم. ولكن، عمَّ سيكلِّم طلاب الكلية؟ لا شيءَ البتَّة. جلس ساشكا فوق السياج المعدني للمبنى المجاوِر، وراح يتأمَّل ببساطة. الحياةُ هنا مستمرة؛ ها هي شاحنة تهدر جاهدةً، عبَرت البوابة، تغطِّيها قطعةٌ من البلاستيك الأخضر اللون، فقفز من نقطة الحراسة جندي ما هو إلا فتى صغير، مُستجدٌّ ذو أُذنَيْن بارزتَيْن، يبدو أنه في عامه الأول من الخدمة، وهرع دون معطفٍ ليرفعَ العارضة. وبينما كانت الشاحنة تَدخلُ إلى المقر، جرى الشابُّ باتجاهِ نقطة الحراسة وهو يضمُّ رأسه إلى كتفَيْه وقد نال منه البرد. وهناك جندي آخَر، يبدو أقدمَ من ذاك، صعد مصطبة نقطة الحراسة، فشرح شيئاً لامرأةٍ يغطِّيها شالٌ أزغب، سرعان ما غادَرت. خرج بضعةُ ضباطٍ عبر الممر، إلى الشارع. نهض ساشكا وغادَر مُبتعِداً؛ فأنْ تَجْترَّ ذكرياتِ الفيلق وأنت هناك بين الخرائب شيء، وأنْ ترى جدرانَه المعروفة ثانيةً شيءٌ آخَر. جفَّ حَلْق ساشكا وتلاحَقَت أنفاسُه بسرعةٍ وهو يحاول ألا يَنخرطَ في البكاء. كان بغنى عن المجيء إلى هذا المكان. ما الذي يَعْنيه له الفيلق الآن؟ لقد طردوه بغيرِ جريرة، وهو الآن، بالرغم من ذلك، واحدٌ من عناصر «قوات المغاوير»، وربما سيظل كذلك لفترة طويلة. «لأمد طويل؟ فَلْيكن». انتابَته موجة غضب، «لقد تعوَّدت! أنتم جماعة الكلية، النُّخبة، هل يُمكِنكم العيشُ بين الأنقاض، وتناوُلُ وجبتَيْن من المعلَّبات الباردة يومياً، والنوم فوق عوارض خشبية عارية، تتراكض حولَكم الجرذان؟ كلَّا! ما الذي يُميِّزكم عنَّا؟»

لم يَعُد ساشكا من المدينة إلَّا مساءً، قاطِعاً الطريقَ كله مَشْياً على الأقدام، أحسَّ بالإرهاق حتى إنه لم يلحظ أن غرفتهم باتَتْ دافئةً الآن على غير العادة!

صاح كيشا بتفاخر، وهو يشير إلى جهازٍ غريب صنعه من مِشواةِ لحم قديمة: «الآن أصبح لدينا مدفأة. سينبعث منها الدُّخَان مبدئياً، سأبتدع لها مِدخنةً ملائمة. المهم ألَّا يَتطاير منها الشَّرَر، وإلَّا فسنحترق ونهلك».

- «أين وجدتها؟»

- «ربحتها من جيراننا في المبنى رقم 15. هيا، تَخَلّ عن تكشيرتك تلك! لقد قايَضْتُها بالرشّاش الذي غَنِمناه، لا أسَفَ عليه، فقد يكون مَوْسُوماً. سيكون حالنا الآن أفضلَ من الجميع! إن شِئْنا تَدفَّأنا، وإن شِئْنا أعدَدْنا الطعام. انتهت حِقبةُ إشعال العيدان في الصفيحة». حقاً، فقد بَدَت هذه الآلةُ مثلَ مِدْفأة المازوت في غرفةِ أوليغ، نوعاً من التَّرَف. فالآخَرون يُوقِدون النارَ في صناديقَ حديديةٍ، أو في أحواضِ استحمامِ الأطفال، أو في دِلَاء من الصفيح؛ لذا، غالباً ما تشبُّ الحرائقُ في منطقة الأنقاض، كما يقول كيشا.

ختم كيشا: «صحيحٌ أنه قد يشبُّ حريق، ولكن إنْ لم نُشعِل النارَ فسنهلك من البرد. ففي العام الفائت، مات حوالي نصف المقيمين هنا، بسبب الزكام».

8

في الخامس من أكتوبر، تحلَّقَ الجميع حول الطاولة في الغرفةِ الكبيرة بانتظارِ قائدِ المجموعة؛ إذ ستُوزَّع في ذاك اليوم المخصَّصاتُ الغذائية، وسيُعيِّن ڤـيتكا مَن يُكلَّف بجلبها ومَن يهتم بإحضارها إلى البناء. دخل شيز، وألقى نظرةً بليدة على الحضور ثم قال:

- «حتى الآن لم يَأْتوا بمُخصَّصات الطعام، ولا النقود. لقد خصَّصوا لكلِّ واحدٍ مبلغَ ثلاثة ماركات على شكل سلفة، وليِرخوف ماركاً واحداً وعشرين قرشاً. ولكن يستطيع مَن يريد أن يحصل على كيسٍ واحد من الفحم أن يُوقِّع على استلامه».

صفَّر جينكا، وأطلق ليوڤـا شتيمة.

عوى الشكَّاء: «كيف ذلك؟! وماذا سنأكل؟»

أجابه شيز: «ستجوع. كنتُ في بيتنا أتناول النُّخَالةَ فقط. ذلك يُنقِّي الجسد، والروح أيضاً».

- «أتظنُّني خنزيراً؟! أَتهِمُ النُّخَالة؟! أنا أعاني من ألمٍ في قدمَيَّ، وقد أموت قريباً».

قال ڤـيتكا بهدوء: «ليس هناك موت، وإنما انتقالٌ إلى عالَمٍ آخر. هناك الحياة أفضلُ».

صاح الشكّاء غاضباً: «سأشجُّ الآن رأسَك بحجرٍ، ونرى ماذا سيحدث لك».

تنهَّدَ كيشا قائلاً: «أحوالنا سيئة. لا بأس. فحمٌ، فَلْيكن الفحم. أسرِع، يا ساشكا، وإلّا كالعادة، يقولون إن المؤن تكفي للجميع، ثم لا يحصل المتأخرون على شيء».

مرَّ ساشكا وكيشا بجوارِ محطة الحافلات في طريقهما. هناك كان كلُّ شيءٍ كالمعتاد، لم يُثِر عدمُ وصولِ المؤن قلَقَ أحد. يحمل بضعةُ شبَّان أكياساً مليئة بالفحم، والباعةُ يَعرضون بضاعتَهم المألوفة.

استنتج ساشكا من ذلك أن المخصَّصات ستأتي قريباً، ولا داعيَ للقلق أبداً.

قرَّرا أن يأخذ كلٌّ منهما كيساً من الفحم؛ لذا، عندما أعلَنَ كيشا، بعد الجولة الثانية، وهو يَمْسح العرَقَ عن جبينه بكُمَّيْه، أن عليهم العودة إلى المستودَع، دُهِش ساشكا.

أكَّد كيشا وهو يغمز بعينه: «لا بُدَّ من ذلك».

دنا من أمين المستودَع، وطلب تسليمَه كيساً إضافياً لصالح المَدْعو فاليرا. بحَثَ الخازن في قائمةِ الأسماء أمامه، وطلب من كيشا التوقيعَ بجوارِ لقب صديقه هذا. فاكتفى كيشا برسمِ حروفٍ غير مقروءة، وظنَّ ساشكا أن فاليرا هذا صديقٌ مُقرَّب لكيشا، قد لا يكون قادراً على حمْلِ حصَّته من الفحم.

حملا الكيسَ بصمت، فأعياهما التَّعَب بعد الجولتَيْن السابقتَيْن، وأحسَّ ساشكا بدُوَار في رأسه. ما إن وصلا المبنى حتى رميا الكيسَ على الأرض، وجلس كيشا عليه وهو يلتقط أنفاسَه بصعوبة.

تساءل ساشكا: «أين يُقِيم فاليرا، هذا؟»

أجاب كيشا بصراحة: «لا أعلم».

قال ساشكا باستغراب: «انتظر! ألَمْ نحمل الكيسَ من أجل فاليرا؟!»

قال كيشا وهو يبتسم: «أنت غريب الأطوار! لستَ مُلزَماً بنقله إليه بثقله هذا. ذلك مستحيل. هذا الكيس مِلكنا الآن. هل فهمت؟»

- «أنت حقاً وغْدٌ! يجب إعادته فوراً. هذا الشاب سيَتجمَّد من البرد. كم تحدَّثت عن الإنفلونزا!»

قال كيشا ببطء: «لستُ وغداً، سبَقَ لي أنْ قضيتُ الشتاء هنا، أما أنت، فلا. في الخريف الماضي كان عندنا كيسان واختفيا بسرعةٍ كبيرة. لا أريد أن أتجمَّدَ هذه السنةَ أيضاً! لعلك فهمت؟»

- صرخ ساشكا: «وصاحبك فاليري هذا؟! ماذا سيحلُّ به؟»

صرخ كيشا أيضاً: «مَن جَدَّ وجد! هذا كيسنا! نحن حملناه، والآن سنأخذه، وانتهى الأمر. ما دام لم يحضر لاستلام مُخصَّصاته، فتلك مسؤوليته».

- «قد يكون مريضاً؟»

- «حتى لو كان على فراشِ الموت!» ضاقت عينا كيشا مثل ثَلْمَيْن، وبدا البُؤْبؤان ينظران بعدوانية. «ذلك لا يَعْنِيني. انتهى الأمر! دَعْنا نذهب. ثم إن الفيلق كلَّه سيُعبِّر عن شُكْره لنا؛ إذ سيَنْعمون بالدفء».

خرج من المدخل شابٌّ طويلُ القامة بوجهٍ مُتغضِّنٍ، إما لإدمانه، وإما لاستيقاظه المفاجئ، وهو يصرخ ويُصوِّب سلاحَه نحو كيشا: «كفى صُراخاً أيها الحمقى! دَعُونا ننام!»

تَبسَّم كيشا وتَزلَّف إليه قائلاً: «المعذرة، يا «خَل»، لقد نقلنا أكياسَ الفحم، وخارت قُوَانا. سنبتعِد حالاً».

قال ساشكا، وهو يُمسِك بكيس الفحم: «سنُعِيد الكيسَ الآن».

- «يُمكِنك أن تُصدِر الأوامرَ هناك في بيتك». وسحب كيشا الكيسَ نحوه. «وإلَّا فعُدْ إلى الفيلق!»

حاول ساشكا استمالته: «كيشا! قد تكون سبباً في موت الرجل! آنذاك، أيُمكِنك أن تنام قريرَ العين؟»

استشاط كيشا غضباً: «ها أنت تنام هانئاً! أمَّا أنا، فلا أُطلِق النارَ على فتى صغير!»

أفلَتَ ساشكا الكيسَ من يده؛ أحسَّ برغبةٍ عارمة في الانقضاض على كيشا وضربه، ورَدْمه بالوَحْل. حتى إن أنفاسه تقطَّعَت من شدة الغيظ. لكن لا يمكنه أن يفعل ذلك؛ أولاً، لأن الملقَّب بـ «الخَلِّ» واقفٌ يشاهد ما يفعلانه

باهتمام. وثانياً، لأن كيشا يقول الحقيقة. مرَّت بِضعُ ثوانٍ وساشكا وكيشا يَتبادلان النظرات، وسرعان ما بدأ كيشا بالاعتذار:

- «لا بأسَ، دَعْ عنك الغضب. أنا أعرف فاليرا؛ إنه يعيش على مَقربةٍ في قطاعٍ خاص، ولا يتردَّد على المجموعة إلَّا في أيام الحرب، لا يَلْزمه شيءٌ سوى الكحول».

أشاح ساشكا بوجهه، وجلس فوقَ الكيس، وأمسَكَ بقطعةٍ من القرميد وراحَ يُقلِّبها بين يدَيْه، علَّه يشعر بالارتياح.

نطق طويلُ القامة فجأةً بصوتٍ أجشَّ: «لقد فهمت. لقد سَرَقتما الكيسَ ولم تتَّفِقا على قسمته».

قهقه ضاحكاً وهو يدفع بسلاحه كتفَ كيشا. ثم قال: «سأنقذك. خُذِ الفحمَ إلى غرفتي. هل فهمتَ؟» حدَجَه كيشا بنظرةٍ حائرة، وسارَعَ باختطاف الفحم.

تساءل ساشكا: «وأنت ما شأنك؟»

أجاب الخَل: «أنت لا شأنَ لك هنا». وهزَّ سلاحَه بتَحدٍّ: «مَن تكون أنت؟ مجرَّد جُندي؟ أنا قائد هنا. هيا انصرف».

نهض ساشكا واقفاً: «إذاً، سأذهب إلى الذئب؛ علَّه يُسوِّي الأمور».

قهقه الخَلُّ بطريقة مقيتة: «هيَّا اذهب. لديَّ معلومات عنك: أولاً، في ذمتك قتيل. وثانياً، لديك سوابق في المشاجَرة. والآن مُحاوَلة سرقة! حانَتْ نهايتُك!»

قذف ساشكا قطعةَ القرميد بالجدار، وانطلق باتجاهِ السُّلَّم. ولحق به كيشا ينخر شاتماً.

لم يحمل صباحُ اليومِ التالي بشائرَ مُفرِحة. كان أوليغ قد ذهب إلى مُستودَع المخصَّصات قبل انبلاجِ الصبح، وسرعان ما عاد مُستاءً وحائراً؛ يبدو أن تأخُّرَ المخصَّصات كان حالةً لا سابقَ لها. وجد الشكَّاءُ ورقَ لعبٍ في مكانٍ ما، وراح يتجوَّل عبر الغُرَف وهو يدعو الشباب لِلَّعب، تحتَ شرْطِ «إطعام الفائز».

قال مؤكِّداً: «أنت، يا كيشا، ربما لديك بقايا طعام. هيا نلعب!»

- «دعنا وشأننا». وسحبه كيشا من ياقته إلى خارج الغرفة. «ليس لديك ما تلعب عليه. يا لك من محتال!»

سَبَّه ومضى إلى غرفة جينكا الذي سرعانَ ما دفع به خارجاً أيضاً. كان ساشكا مستلقياً في فراشه ووجهه إلى الحائط. لم يتكلَّم مع كيشا الذي راح يُحدِّث نفسَه بين الحين والآخَر، وبصوتٍ مسموع، عن الفحم الضائع، وعن الحيوان «الخَلِّ» الذي لا يَأْتمِر بأمرِ أحد. وسرعان ما لاذَ بالصمت؛ إذ أيقَنَ أن هذا الحديث لا يَرُوق لساشكا. لم يَبْقَ لديهم من المواد الغذائية سوى القليل من طحينِ الذرة الذي وفَّره كيشا، لكنَّ مَضْغَ الطحين وحْدَه كان شيئاً مثيراً للاشمئزاز. بحلول المساء افترق ساشكا وزميله ليذهب كلٌّ منهما في اتجاه، وهذا ما لم يَحدث من قبلُ قَطُّ. انطلق كيشا إلى المحطة لشراء بعض الحاجات من الأهالي، وبعث أوليغ بساشكا لإحضارِ الماء اللازِم للجميع، بعد أن زوَّدَه بوعاءٍ معدني. فانطلق ساشكا يجرُّ الوعاء، وهو يُفكِّر فيما ارتكبه هو وكيشا من نذالةٍ أمس. لعلَّ كيشا ابتدَعَ حكايةَ ذاك الشاب تجنُّباً لوقوعِ شجارٍ بينهما؟ وفي حقيقة الأمر، لم يَكُن ذاك الشاب مُدمِناً قطعاً. على أية حال لم يَعُد بإمكانه التحقُّق الآن من ذلك. بالأمس، كان عليه إمَّا أن يدخل في شجارٍ مع كيشا ويُعِيد الكيس، وإما أن يَتوقَّف عن الاستعراض. على كل حال، ما كانَ ليَنشب قتالٌ بينهما. عادت لذاكرة ساشكا تعابيرُ وجهِ الخَلِّ المبتهِجة، وخطر في باله أنه لحُسْن الحظ ليس في مجموعته.

وقف ساشكا بجوار المستودَع ليستريح، ورأى على مَقرُبةٍ منه امرأةً عجوزاً، نشرت فوق صندوقٍ معدني حاجاتٍ للبيع، من بينها سجائرُ وكبريتٌ وذُرَةٌ مسلوقة. تناول ساشكا من جيبه الدراهم، التي استلمها أمس، فابتاع كوزَ ذرةٍ وراح يَقْضمه. لم يَبْقَ لديه سوى ورقةٍ نقديةٍ واحدة سماوية اللون. إنها تكفي للاستحمام مرَّةً واحدة، وللاتصالِ بوالدته أيضاً.

حين وضع ساشكا وعاءَ الماء عند عتبةِ غرفةِ أوليغ، وهمَّ بالانصراف، أمسَكَ به أوليغ من كُمِّه:

- «ادخل، يا بِرخوف، يجب أن نتكلَّم».

كانت غرفةُ أوليغ والشكَّاءِ غايةً في النظافة، ويبدو ذلك على الطاولة، والرف الخشبي، والأغطية القطنية التي تغطِّي السريرَيْن المعدنيَّيْن، وستارة النايلون الشفَّافة على النافذة، ومِدْخنة المدفأة المُطِلَّة على الشارع، والزاوية المسوَّرة المليئة بالحطب. حدَّث ساشكا نفسه: «يحاولون أن يعيشوا مثل الناس». أمَّا جينكا وليوقا، فلم يُحاوِلا ذلك. حين يمر بالقرب من غرفتهما لا

يرى سوى زجاجاتٍ فارغة، وبقايا صُحف، وصناديقَ خشبية. ولعلّهما كانا ينامان على الأرض أيضاً.

عبث أوليغ بأدراجِ الطاولة، وسحب علبةَ سجائر رديئة وبسطها لساشكا.

- «لا أُدخِّن».

- «لا تُدخِّن، ولا تشرب الكحولَ، ولا تتفوَّه بكلامٍ بذيء. لماذا إذاً طردوك من الفيلق؟!»

- «كان لي صديقٌ هناك... هرب إلى إنسْك. اشتبهوا بأني مُتواطِئ معه، فطردوني».

تمتم أوليغ بأسف: «يا لسوء حظك! هل والِداك على قيدِ الحياة؟»

- «والدتي فقط».

- «ووالدتي أيضاً على قيد الحياة. تُوفِّي أبي. كان نجَّاراً ماهراً، يصنع من الخشب كلَّ ما قد تشتهيه. تزوَّجت والدتي مرةً ثانية، وعبثاً فعلَت ذلك. إنه مُدمِن على الكحول، وتعاني الآن معه الأمَرَّيْن. مصير شقيقي الصغير يُؤلِمني، اسمه پـاڤْـلِك [18]، لا يزال صغيراً. فكَّرت في إحضاره إلى هنا، ولكن ما الذي سيتعلَّمه هنا؟!» نفض رمادَ سيجارته وتابع: «حياة سخيفة! أين يذهب الضبَّاطُ بالأموال؟ إنهم يعيشون بشكلٍ لائق، في قلب المدينة. ونحن ننبش الأرضَ مثل الجرذان. أقول لك ناصحاً: عُدْ إلى بيتك. إن كانت لديك أيُّ فرصة، فعُدْ. لا مستقبلَ ينتظرك هنا، ولن تجمع مالاً. وقد تموت في أي لحظة».

- «لا أستطيع، يا أوليغ. يجب ألَّا تعرف أمِّي أنَّي هنا، فقلبها مريض».

نظر أوليغ إليه بغضبٍ: «أبله! أَلَا ترى ما يجري حولك؟ بعد يومَيْن إن لم يُعطونا مُخصَّصاتنا من الطعام فسيحدث ما لا تُحمَد عُقباه! سمعتُ أنهم قد يُطوِّقوننا».

- «كيف ذلك؟»

- «سيضعون جنوداً حول الخرائب، ويُوقِفون حركةَ الحافلات. لنظلَّ هنا، بعيدين عن السادةِ سكَّانِ المدن. كما حدث هذا من قبلُ. أنصحك بالهرب. هل فهمت؟»

أطرق ساشكا: «فهمت. ومع ذلك لا أستطيع؛ لعلّ الظروف تتحسَّن!»

طوَّح أوليغ بيده.

- «أتظن أنك إذا تعفَّنت هنا فسيكون ذلك أسهلَ على والدتك؟ حسناً، عُدْ إلى غرفتك. إنك أحمق!»

خرج ساشكا إلى الممر. قد يكون أحمقَ بنظرِ مَن لا يعرفه، لكنه لا يفعل إلا الصواب. فالمدينة لن تسمح بأن يظلَّ جيشٌ كامل يُعانِي من الجوع؛ لأن هذا، في نهاية المطاف، خطرٌ على المدينة نفسها. لا بدَّ أن يُوزِّعوا المَؤُونة غداً. لا يوجد حلٌّ آخَر.

9

مرَّت الأيام التالية قَلِقةً في انتظارِ وصولِ المخصَّصات الغذائية، بتذمُّرٍ لا ينتهي من جانب الشكَّاء. حين يستيقظ ساشكا، يُحدِّق يومياً عبر النافذة؛ سماء صافية، بلا غيوم، والشمس تبعث بأشعتها الأرجوانية لتنير مواقعَ الخرائب.

قال لكيشا الذي انهمك بإشعال النار قبل أن تخمد، فانتشر الدخان في الغرفة: «اليوم، لا بُدَّ أن تُوزَّع المُؤَن».

قال كيشا وهو يتنهَّد: «لا بُدَّ من إصلاح المدخنة». وبدلاً من إصلاحها توجَّهَا إلى المستودَع الذي يجتمع عنده الجنود يومياً بأعدادٍ كبيرة.

قال لهم أمين المستودع بصوت مزكوم: «لا شيءَ يَلُوح في الأُفق!» لكن الجموع لم تَتفرَّق، ظلت تنتظر بإصرارٍ أرعن، كأنها لا تُصدِّقه. ولم يتفرَّق الشبابُ إلا عند الظهيرة وهم يَنْفجرون باللعنات. منهم مَن له أقرباء في المدينة فاقترض منهم الدراهم والأطعمة، ولجأ آخرون في البداية لشراء المَؤُونة من الأهالي، غير أن هذه الدفعة الشحيحة بالأصل، سرعان ما نفدت. وسرعان ما انتشرت السرقةُ، فكفَّ الباعة عن عرْضِ بضائعهم في الساحة.

نفد أيضاً المارك الذي ادَّخَره ساشكا للاستحمام والمكالَمة الهاتفية مع والدته؛ لقد دفعه ثمناً لكيسٍ صغير من العدس. راح كيشا يُطعِم ساشكا بالدَّيْن من المال القليل المتوفر معه، ونسي كلاهما ما كان بينهما من خصام.

- «يُشاع أن «الأخوة الحُمْر» استقدموا مُقاتِلةً مدَّرعة تَخندَقت أمام مَحالِّهم التجارية، تحسُّباً لهَجَمات قد تَشنُّها وحداتُ المغاوير بشكلٍ مُباغِت».

تلك أخبارٌ نقلها كيشا. «هناك في المدينة يَتجنَّبون عناصرنا، ويَملأ جنودُ الحراسة الشوارع؛ لأن بعضاً من عناصر وحداتنا نهبوا مخزناً في المدينة، لكن قُبِض عليهم وسُلِّموا للمكتب. تمكَّنَ واحد منهم فقط من الهرب إلى الخرائب؛ ظَنَّ أنه نجا، لكنه فضحَ نفسَه أمام الجميع، فقبَضَ عليه عناصرُ المكتب في الصباح، وسوف يُعدَم شنقاً. لقد حذَّرَنا القائد «توفِّلْت» من دخول المدينة، وقال: «تحلَّوْا بالصبر، فقد تصل المخصَّصاتُ الغذائية غداً». لكن، لا أحدَ يُصدِّق ذلك».

بادَرَه ساشكا قائلاً: «اسمع يا كيشا، نحن أيضاً ندافع عن المدينة، لماذا لا يقدِّمون لنا الطعام؟ سنموت جوعاً، قبل هجوم الأعداء».

- «لا أعلم فيما يفكِّرون. لا يروق لي كل ما يحدث».

في صباح اليوم التالي استدعى أوليغ الجميع.

- «عاد الذئب لتوِّه من القيادة، لقد وجدوا لنا عملاً. سيدفعون لنا مالاً أو موادَّ غذائية».

تساءل جينكا: «ومَن سيُشغِّلنا؟»

- «سيُشغِّلنا الأخوة الحمر بدلاً من الجيفيين، فعندهم وباء، وهناك نقصٌ في الأيدي العاملة. بعد ساعة ستُحمِّل القافلة، فَلْيُرافِقني مَن يستطيع منكم. أحذِّركم: العمل شاقٌّ، وخيرٌ لمَن أَعْياه التعبُ ألَّا يذهب؛ فقائد المجموعة رفَضَ الذهاب».

مَن قرَّر الذهاب من المجموعة هم: أوليغ، وليوڤا، وجينكا، وكيشا، وساشكا أيضاً.

كان الطقس غايةً في السوء؛ تخترق الريحُ الجسدَ، وتصفع الوجوهَ بصغيرِ الحصى والغبار، وتطلُّ الشمس أحياناً من خلف السُّحُب فتبعث الدفءَ، وإذا ما توارَتْ حلَّ بردٌ قارس لا يُحتمَل. التقط ساشكا من الأرض عوداً صغيراً وراح يَمْضغه طوالَ الطريق كأنه طعام.

قال كيشا: «في المبنى رقم 9، التقط أحدهم قطعةً من القار السميك، وراح يمضغه هو وأصحابه ففارَقوا الحياة».

يروي كيشا يومياً حكاياتٍ مُرعِبةً عن الموت. حتى الآن، لم يَمُت أحدٌ بسبب الجوع، بل يموتون حماقةً؛ إما بتسمُّمٍ غذائي، أو بسببِ شجارٍ أو تبادُلِ إطلاق نارِ. كانوا يُصوِّبون على الحَمَام والكِلاب من مساكن المدنيين، وأحياناً

يُخطِئون أهدافَهم، فيُصِيب بعضُهم بعضاً، ويُصاب الكثيرون بالعاهات إثرَ استخدامهم أسلحةً بدائية الصُّنْع. لم تَطُلْ أيٌّ من هذه المصائب المبنى الذي كان يرأسه الذئب. غير أن الجميعَ كانوا يعرفون أن شيئاً ما سيحدث هناك أيضاً، عاجلاً أم آجلاً.

على مَقربةٍ من مبنى وكالة الاتصالات، لاحَظَ ساشكا أن الشكَّاء كان يَقْتفي أثرَهم مُتخفِّياً.

قال بعدَ أن كُشِف أمره: «سأذهب معكم، يا شباب. لا يمكنني البقاء في البيت، فأنا أتضوَّر جوعاً».

دفعه أوليغ برفق قائلاً: «كلُّنا جائعون. عُدْ إلى البيت».

- «يُمكِنني المساعدة، يا أوليغ، أرجوك، سأُساعِدكم! صدِّقْني!»

- «ممنوعٌ عليك حمْلُ الأوزان الثقيلة، أيها الأحمق!» رفع أوليغ يده، لكنه لم يضربه.

- «سأحاول حسب استطاعتي!»

أوشَكَ الشكَّاءُ أن ينخرط في البكاء.

قرَّر أوليغ: «دَعْه يذهب. الانفعال لا يناسبه أيضاً».

في وكالة النقل البري التابعة «للأخوة الحُمْر» استقبَلَهم رجلٌ بَشُوش، ضخْمُ الجثة، يرتدي بدلةَ عملٍ جيدةً داكنةَ الحُمْرة. تفحَّصَ الجميعَ بدِقَّةٍ متناهية، من كل الجوانب، ولسببٍ ما بدا عليه الارتياح.

- «أيها الصبيان، أعندكم فائضُ قوة؟»

أدرَكَ ساشكا أن الرجل البَشُوش كان يهزأ منه ومن الشكَّاء، لكن لم يكن ذلك مهماً الآن؛ كانوا يتضوَّرون جوعاً، ولا يهمُّهما كيف سيُشتَمان، الأهم أن يدفعوا لهم.

تابَعَ الرجل: «لا بأس، أيها الأطفال. يُمكِنكم تحميلُ قافلةٍ واحدة يومياً، سأدفعُ مقابلَ ذلك خمسةَ ماركات لكلٍّ منكم، وإلَّا فسأكسِّر عظامكم! أجل، اغسلوا خطومَكم قبل مُلامَسة البضاعة».

دخلوا الحمَّامات الخاصة بالسائقين، فاغتسلوا، ثم ارتدوا بدلاتِ عملٍ حمراء فضفاضة.

- «شدُّوا أحزمتَكم، يا أولاد!» قهقه الرجل البَشُوش وهو يقبض على ساشكا من كُمِّه قائلاً: «أنت أيها الخاوي، إن سرقتَ غراماً واحداً، فسأخلع ذراعَيْك!»

قفز ساشكا عنه بعيداً، مُدرِكاً أنه يعني ما يقول.

باشَروا تحميلَ أكياسِ الحِنْطة السوداء في شاحناتٍ مُتهالِكة حمراء. القافلة الواحدة تضمُّ عشْرَ عَرَبات، والأكياسُ ثقيلةٌ جداً، كما أن رفْعَها لأعلى ليس عملاً سهلاً. كفَّ البَشُوشُ أخيراً عن الضحك؛ إذ بدأ بإدارة التحميل، وراح يخرج بين الحين والآخَر من مكتبه وهو يلوِّح بيدَيْه ويشتم، لكن الإنجاز ظلَّ بطيئاً. كان ساشكا وكيشا يعملان معاً، في حين انشغل الشكَّاء بترتيبِ الأكياس داخل العَرَبة. وسرعان ما تبلَّلَ جسد ساشكا بالعَرَق، بالرغم من بدلته الرقيقة. راوَدَته رغبةٌ جامحة في الجلوس للراحة والتقاط الأنفاس، لكنه خشي أن يُداهِمَهم الوقت قبل الانتهاء من تحميل العَرَبة. كيشا أيضاً بلَّله العرق، لكنه ظل صامتاً، على عكس عادته. جلس السائقون على المقعد خلفَهما، يَلفُّون سجائرَهم بخمولٍ. أوليغ كان يعمل في تحميلِ عَرَبةٍ أخرى مُجاوِرة، مع شابٍّ آخَر لا يعرفه، كان بين الحين والآخَر يلتفت للاطمئنان على الشكَّاء، وسرعان ما أدرك ساشكا أن أوليغ يُتابِعه هو أيضاً، بينما يكاد ساشكا لا يَقْوى على الحَرَاك، وتتراقص أمام عينَيْه دوائرُ ضبابيةٌ سوداء، وفي رأسه طنين مستمر. قرَّر ساشكا: «لا بأس، سأُكمِل العملَ هذا النهار. في المقابل، سنحصل على طعام».

صاح أحد السائقين فجأةً: «توقَّفوا!» واندفع إلى صندوقِ الشاحنة وقبض على ياقة الشكَّاء. «أنت، أيها الولد، اقلب جيوبك!»

توسَّلَ إليه الصبيُّ: «آه، لا تضربني، يا عم! الرحمة، أنا يتيم!»

صفَعَه الرجل على وجهه.

- «أيها الجَرْبان، تريد أن تسرق!»

بسرعةٍ فائقة صار أوليغ في صندوق الشاحنة وأمسَكَ بيد السائق الذي همَّ بتكرار الصفعة.

- «لا تَلْمسه، سيُعِيد كلَّ شيء».

كان أنفُ الشكّاء يَقْطَر دماً وهو يسكب البذورَ الصغيرة على الأرض.

تساءل البَشُوشُ وقد خرج إلى شرفة المدخل: «ما الذي يحدث هنا؟»

صاح السائق: «إنه يسرق».

أشار الرجل إلى الشكَّاء: «تعالَ معي. وأنتم تَابِعوا العمل، لِمَ توقَّفتم؟»

اعترض أوليغ: «لن يذهب لأيِّ مكان. إما أن نُنهِي العملَ معاً، وإما أن نغادر جميعاً».

- «لن تغادروا قبلَ إنهاء العمل». وسحب الرجل المسدسَ من حزامه «إذا حاوَلَ أحدٌ من جِرائك التقاطَ حبَّةٍ واحدة، فسأرميه بالرصاص! وهذا سنأخذه».

سحب أوليغ مسدسه أيضاً: «لن تسير الأمور هكذا!»

وسرعان ما هرعت مجموعةٌ من المسلَّحين إلى المكان. أطلق ليوقا بعض الشتائم، وتمتم جينكا بكلامٍ يشبه: «تباً، يا أوليغ!» كان الشكَّاء جالساً على الأرض الباردة ووجهُه مُمرَّغٌ بالدم والدموع.

قال البشوش وهو يخفض سلاحه: «اهدأ، أيها الفتى. خذوا هذا الصبيَّ. تصرَّفوا معه بلباقة، إذا أردتم العودةَ سالمين. وإذا سرقتم مرةً أخرى، فلا».

ابتعد أوليغ نحو عَرَبته، وتابَعَ ساشكا نقْلَ الأكياس. تخيَّلَ أن عظامَ جسمه تكسَّرَت، وجبلُ الأكياس الجاثمة أمامَهم لم يَتناقَص بعدُ.

أنجَزوا العملَ عند حلول المساء. بدَّلَ ساشكا ثيابَه على عَجَلٍ وخرج إلى الشارع. اتَّكَأ على جدار المكتب وجلس على الأرض وهو يَسند ظهرَه على الجدار. بدَتِ السماءُ صافية، وفوق صفحتها تناثَرَت بعضُ النجوم هنا وهناك. راح ساشكا يتأمَّلها، وتُراوِده رغبةٌ واحدة فقط؛ هي ألَّا يتحرك. اقترب كيشا وهوى متهالكاً بجواره.

قال بتعب: «الآن يستلم أوليغ الدراهم، ونذهب إلى بيوتنا».

على مَقربةٍ منهم سعل الشكَّاء الذي كان ساشكا يَعُدُّه أشقى الناس في مجموعتهم. فهو مريض، هزيل، يستطيع أيُّ كائن كان أن يَلْحق به الأذى. ما ضرَّهم إنْ أخَذَ حفنةً من الحِنْطة؟ هل ذلك سيُفقِر الأخوةَ الحُمْر؟ انقضُّوا برشَّاشاتهم الآلية على أطفالٍ صغار. ليس عبثاً أن المدينةَ كلها تَكنُّ لهم

الكراهية، ليس عبثاَ! أيُمكِن القيامُ بعملٍ ما؟ كأنْ تلتقطَ حجراَ وتشجَّ رأسَ الحارس. وماذا بعدُ؟ بالتأكيد سيُقتل ساشكا. وهذا، بالتأكيد لا يعني أحداً، وماذا بعدُ؟ كثيراً ما يُقتَل الشباب، حتى إنه لا يتسنَّى لهم أن يَتعايَشوا في المجموعة. فيما مضى، كان ثَمة شابٌّ اسمه أندريوخا [19] يعيش مع كيشا في غرفته، ولم يَعُد له الآنَ وجود. لم يُقتَل في المعركة، بل لَقِي حتفَه في شجارٍ مع المتشردين الأشرار. وكيشا ليس حزيناً البتة؛ إنه يحكي قصةَ هذا الشجار بابتهاج.

هزَّ جينكا كتف ساشكا قائلاً: «هيا بنا. ما لك تمدَّدتَ على الأرض الباردة؟ ستمرض وتموت».

- «هل أعطوكم المال؟»

- «لعلك تحلم. لقد أعطونا كيساً من القمح، و«سلمت أياديكم»».

كان الشبان يسيرون عبر طريقٍ مُظلِم، يتحدثون بصوتٍ خفيض عن طمَعِ الجيفيين، وعمَّا سيأكلون غداً.

قال كيشا: «على الأقل سنملأ بطوننا بالقمح. أمعائي تتكوَّر بداخلي. غداً سأذهب للبحث في المدينة. وأنت يا ساشكا، لن أصحبك معي؛ إنك مُبالِغٌ في نَزاهتك. لكن يُمكِنك الذهاب إلى البيت والعودة ببعض الطعام. أتذهب؟»

- «لست أدري».

تنهَّد كيشا: «آخ! بالأمس اصطاد شبابُ الطابق السفلي جرذاناً وشَوَوْها على الحَطَب. كم كانت رائحتُها لذيذةً! وانتشرت رائحةُ الشواء! كنتَ تغطُّ في نومٍ عميق. هل كنت ستأكل جرذاً؟»

- «نعم».

حين اقتربوا من محطة الباص، توقَّفَ ساشكا. كان هناك مجموعةُ رجالٍ بلباس الفيلق العسكري المعهود. أغمض ساشكا عينَيْه ثم فتحهما، ونظر مجدداً، لم تُفارِقْه الذكرى. إلى اليمين قليلاً من مكتب التجنيد أبصَرَ شخصَيْن آخَرَين وشاحنةً يغطِّيها مُشمَّع، وفيها كثيرٌ من الرجال.

تمتم ساشكا: «أجل، أوليغ كان محقاً! إنهم يضربون حصاراً حولنا. لن يعود دخولُ المدينة ممكناً».

- «ومَن هؤلاء الرجال؟»

تضاحَكَ ساشكا بسخرية: «إنهم، يا كيشا، المتقدِّمون من الطلاب في الفيلق. إذا منعوك من دخول المدينة، فلا تُعانِد، أرجوك».

- «كيف لا أعاند؟ كيف نعيش بلا طعام؟»

- «إذا استاؤوا منَّا فلن نحتاج إلى أي طعام».

أطرق كيشا مَلِياً.

- «هل تعرف أحداً منهم؟»

وضَّح له ساشكا: «إنهم أقدمُ منا. هل تظن أنهم لاحظونا؟»

قال كيشا بتَشَفٍّ: «مُعوَّقون». بالرغم من أنه لم يعترض طريقَه أحدٌ بعدُ. «لا بأس، سنجتمع ليلاً، وسيَّان عندنا إن كانوا من الفيلق أم لا. وَلْيحاولوا منْعَنا من الوصول إلى مركز المدينة».

لزم ساشكا الصمت. كان واضحاً أن الوضع سيئ. ما دام هناك حاجزٌ، فإنه حتماً ليس وحيداً. لن يأتي الصباح إلا وتكون منطقةُ الخرائب مُطوَّقةً بالكامل. هذا يعني أنْ لا أملَ في الحصول على المخصَّصات بعدُ. ولا يُمكِنك الذهابُ إلى البيت وكأنك في إجازة. يعتقد كيشا الساذج أن بالإمكان استمالةَ الجنود، أو افتعالَ إطلاقِ نارٍ ليلاً. هذا محضُ هذيان. من المؤكَّد أن لديهم أوامرَ بإطلاق النار عند الخطر، وهم بارعون في ذلك، ومُسلَّحون برشَّاشات وليس بأشياء تافهة مثل سكان الخرائب. من حُسْنِ الحظ أنه لا يعرف أحداً منهم. عارٌ عليك أن تظهر أمامَهم بهذه الهيئة؛ قَذِراً، مُنهَكاً، تتضوَّر جوعاً. عارٌ عليك الاعترافُ بالانتماء إلى وحدات المغاوير.

تحت أضواء الفحم الباهتة في الموقد، أخرج ساشكا التقويمَ الصغير. 11 أكتوبر، اليوم السابع عشر في وحدة «المغاوير». كأنه عام كامل مضى. وهل كان يخطر لساشكا في يومٍ من الأيام ما يحدث هنا؟ كأنها ليسَت مدينتَه.

10

استيقظ ساشكا باكراً. شعر بدبيبٍ مُلِحٍّ في بطنه، ودُوَارٍ خفيف، وألمٍ في العضلات؛ حال ذلك كله مجتمعاً بينه وبين النوم، وجعله يشعر بإحساسٍ باليأس غيرِ مألوف؛ إحساسٍ لا يَصْلح للمقاتل، خاصةً لطالب في حرس القائد.

أن تكون رجلاً ضعيفاً فهذه حماقة، أما أن تكون جندياً ضعيفاً فهذه حماقةٌ مُضاعَفة. كيف لجندي أن يفكِّر في الهرب إلى البيت، بدلاً من تحدِّي الصعاب. تضاحك ساشكا، فما حدث ليس مرعباً إلى هذه الدرجة. إنه في نهاية المطاف يُعِدُّ نفسَه للقتال. الحربُ محفوفةٌ بمخاطرَ أكثرَ من هذه بكثير. ما أبسَطَ الجوعَ! لكن، مهما حاوَلَ ساشكا إقناعَ نفسه، فلن يفلح في مُصالَحة جسمه مع عقله. وظل الشعور بالجوع يزداد.

ليْتَ في الغرفة حَفْنةً من برغل أو طحين، ولو نصفَ حَفْنة.

صاح ساشكا واقفاً: «كيشا! كيشا!»

لوَّح كيشا بيدِه دون أن يفتح عينَيْه: «دَعْني وشأني. يستيقظ مع الفجر! أي زميلٍ ابتُلِيتُ به!»

- «ألَمْ يَبْقَ لدينا بعض القمح؟»

قال كيشا وهو يتقلَّب: «وهل تركتَ شيئاً منه؟»

نهض ساشكا وأشعل النارَ بأعوادِ ثقابٍ رطبة؛ راوَدَته فكرةُ تسخينِ بعض الماء، علَّه يُخادِع الجوع. ما إن انتشَرَ الدفءَ في المكان حتى أطلَّ من الباب فتى من المجموعة المجاورة، ربما كان اسمه مكسيم، ولكن ساشكا كان متأكداً أن لقبه «الكلب». لقبٌ غريب! لكن كيشا وضَّح لساشكا أن لقبَه مأخوذٌ من المثَلِ القائل: «الكلب أدرى بذاك». وحسب كلام الشباب، كان «الكلب» بالفعل يعرف كلَّ شيء. كان شكله سخيفاً؛ فهو نحيلٌ، طويل القامة، يضع نظارةً دائرية كبيرة، ويعتمر خوذةً متقشِّرة فوق قبعةٍ من الصوف. ما نفْعُ الخوذة خارجَ أوقاتِ المعركة؟! هذا ما لم يَفْهمه ساشكا. غريبةٌ تلك الطريقة التي كان يرتدي بها «الكلب» المعطفَ العسكري؛ إذ يَدَعه مفتوحاً، تظهر من تحته كنزة صوف حِيكَت بالصنارة. وجزمتُه مُلمَّعةٌ دائماً.

دخل الغرفة وحيَّا بإيماءةٍ من رأسه.

- «أترحِّبون بالضيوف؟»

أنَّ كيشا قائلاً: «ضيفٌ آخَر! ما لكم لا تنامون؟!»

قال الكلب وهو يجلس قُرْبَ الموقد باسطاً يدَيْه المثلجتَيْن: «جئتُ بشأن الطعام. معي فائضٌ من التبغ، أستطيع أن أُقايِضه بطعام، ماذا عندكما؟»

قال كيشا: «احتفظ بما لديك؛ نحن أيضاً لا طعامَ لدينا».

- «ذلك مؤسف». سحب «الكلب» من جيبه ورقةً ناعمة، ونثر فوقَها بعضَ التبغ، ثم لفَّها بأصابعه، وسرعان ما راح ينفخ دُخانَ سيجارته. «وماذا يقول قائدكم؟»

نخر كيشا قائلاً: «قائدنا مشغولٌ بتطهير روحه، الطعام لا يَعْنيه».

- «قصدتُ أوليغ».

- «شيز هو قائدنا».

أوضح الكلب: «أنا عنيتُ القائدَ الفعليَّ، وأنت تَعْني القائدَ الرسمي. أليس هناك فارق؟»

لوَّح كيشا بيده: «كُفَّ عن فصاحتك. تكلَّمْ مثل الناس».

- «هل هو ذَنْبي أنك لا تفهم الكلامَ العادي! لستُ مُضطراً لأهبطَ بمستواي، وإلا فإني سأذهب إلى الجامعة وأبدأ بالسِّباب في الإدارة!»

سأله ساشكا: «هل تنوي الالتحاق بالجامعة؟ بأيِّ اختصاص؟»

قال الكلب بفخر: «سبَقَ أن درستُ فصلَيْن كاملَيْن، في كلية الهندسة المدنية، وانقطعتُ لعدم توفُّر الإمكانيات. الآن، سأجمعُ المالَ اللازم وأعود مجدداً. اختصاصي مطلوب. ما إن تَضَع الحربُ أوزارَها حتى يبدأ البحث عن عاملين».

- «أجل مهنة مهمة. أنت مُحِقٌّ».

سأله كيشا بتذمُّر: «هل ستلتحق بالجامعة الآن فوراً؟! انصرف، ولا تُثقِل على الآخرين بهمومك».

- «لعلَّك استيقظتَ اليومَ منزعجاً، يا إنوكينتي، أو أن هناك شيئاً آخَر». تنهَّدَ الكلب. «أنت تُبخِس الثقافةَ حقها».

وقبل أن يتمكَّن كيشا من الردِّ، دوَّت صرخةٌ خلف الحائط:

- «النجدة!»

من الغرفة المجاوِرة انبعث صُراخٌ حادٌّ وجَلَبة كأنَّ هناك عِراكاً. اندفع ساشكا وكيشا خارِجَيْن إلى الممر.

صاح جينكا كونكوف: «لقد أصِيب الشكّاء بنوبة!»

وصل أوليغ بسرعة، واندفعوا إلى الغرفة. وقف ساشكا بالباب يُراقِب برعبٍ كيف اندفع الشبَّان يَضْغطون جسدَ الشكَّاء الضئيل على الأرض. كان يختلجُ بطريقةٍ غريبة ويشخر.

صاح أوليغ: «يِرخوف! هناك حقنة في الجارور. هاتِها فوراً!»

كان يحاول الإفلاتَ من أيديهم بقوةٍ غير معهودةٍ فيه، والدماء تنزف من رأسه. ملأ ساشكا الحقنةَ بيدَيْن مرتعشتَيْن وناوَلَها أوليغ. بعد الحقنة اختلج الشكَّاء قليلاً وسرعانَ ما هدأ.

قال كيشا: «حسناً!» ونهض قائلاً: «خُيِّلَ إليَّ أنه سيمزِّق بطني».

شتم كونكوف: «لقد عضَّ الأحمق إصبعي! وأنت يا أوليغ، احتفِظْ بملعقةٍ صغيرة في مكانٍ معلوم. لن أُغامِر بدسِّ إصبعي في فمِه مرةً أخرى».

وقف ساشكا ينظر إلى الشكَّاء المستلقي على الأرض كجثةٍ هامدة.

قال أوليغ وهو يرفع الضئيل إلى السرير: «تحرَّكْ، ماذا دهاك؟! أَلَمْ تَرَ نوبةً من قبلُ؟!»

أجاب ساشكا: «لم أرَ ذلك من قبلُ. ماذا أصابه؟»

قال كيشا لاهثاً: «إنه الصرع، أو أياً كان ما يُسمُّونه. بات يتكرَّر مراراً معه في الآونة الأخيرة. في هذه الحالات، الأدوية لا تُجدِي. إذا استمرَّ على هذه الحال، فسنحتاج إلى كميةٍ كبيرة من الدواء».

اقترب ساشكا من سريرِ الشكَّاء وتفرَّس في وجهه الشاحب شحوبَ الموتى.

- «أَمَا زال حياً؟»

قال كيشا: «حيٌّ بالطبع! لن يحدث له شيء». وخرج.

دثَّرَ أوليغ الشكَّاءَ بغطاء، وقال لساشكا مشيراً إلى الكرسي:

- «اجلس، استَرِحْ. يا للجيفيين الأوباش! لقد ضنُّوا عليه بحفنةٍ من القمح! أمَّا أنت فمَرْحى لك. لقد اشتغلت يوماً كاملاً. ظننتُك لن تحتمل».

اعترف ساشكا: «لم أحتمل، فعلاً. حتى الآن يُؤلِمني جسمي كله، كأنَّ أسراباً من الذباب تتراقص أمام عينَيَّ».

- «نصحتُكَ أن تغادر، لكنك لم تفعل».

- «نعم، بقيت بمحْضِ إرادتي. لكن، ماذا بعدُ يا أوليغ؟ كأنَّ المدينةَ تخلَّتْ عنا!»

ضحك أوليغ بعصبية:

- «وهل أقنعوك في الفيلق بأن المدينة بحاجةٍ إليك؟ انسَ ذلك، لا أحدَ فيها يكترث لأمرك، باستثناء والدتك، ربما! تدبَّرْ أمورَكَ بقدرِ ما تستطيع. وإنْ هلكتَ، فذلك خيرٌ للمدينة؛ إذ لن تعود بحاجةٍ إلى السكن ولا الطعام ولا الوظيفة. لو مُتنا هنا جميعاً، أتعلم ماذا سيقولون عنا للمدنيين؟ سيقولون إننا قطَّاعُ طرق، وهذا ما نستحقه، ولن يشكَّ بذلك أحد».

اعترض ساشكا بتردُّد: «ليس صحيحاً؛ لو كان أمرنا لا يهمهم، لَمَا احتفظوا بنا هنا».

- «كم استمرت دراستك في الفيلق؟»

- «سنة واحدة».

- «أكانوا بحاجةٍ إليك؟ وماذا بعدُ؟ وهكذا هنا أيضاً. لا أحدَ يعلم ما الذي يَجُول بخاطر القائد العام، ولا توقَّلت طبعاً. هو نفسه قاطعُ طريقٍ. إنه اليومَ في صفِّ القائد العام، وغداً قد يَقُودنا لمواجَهته. ليس هناك مَن يهمه أمرُكَ، هم يدفعون بنا لتحقيقِ غاياتهم. هل فهمتَ؟»

اعترض ساشكا: «هراءٌ. لدى القائد فيلقُ حرسٍ، ودبَّاباتٌ، وحوَّاماتٌ، وكذلك وحداتُ الدفاع الوطني؛ كلها تَتْبع أوامرَه. يُمكِّنهم الإجهازُ علينا في غضونِ نصفِ يوم».

أومأ أوليغ: «لذا، نحن هنا الآن، ولا نقاتل القيادة. أسوقُ لكَ مثلاً فقط، حتى لا تظنَّ أنك ستقاتل ضد إنسك وحدها، أو دفاعاً عن المدينة فقط، أنت جندي مأجور. ستقاتل في الاتجاه الذي يختارونه هم».

بدأ الشكَّاء يستعيد وعْيَه، فصمتَ أوليغ. وخرج ساشكا إلى الممر، وهو يفكِّر فيما إن كان ما قاله أوليغ صحيحاً، أم أنه يبالغ. هناك، وقف شيز ينظر إلى ساشكا باستغراب:

- «لعلكم أنقذتم كوستيا؟ إنكم حَمْقى! لقد منعتم إنساناً من الانتقالِ إلى عالَمٍ أفضل».

حاوَلَ ساشكا أن يتجاوز القائد، لكن ذاك أمسك بيده فجأةً وبقوة، قائلاً:

- «نحن بتعاطُفنا ودموعنا نُسمِّر الإنسان على الأرض، لا نَدَعه ينداح عبر الفضاء. نتحدَّى القَدَر، نحاول خِداعَه. لكن عبثاً! لن تخدع القَدَر. إذا كان مكتوباً له أنه لن يعيش، فلن يعيش! هل فهمتَ؟»

أفلت ساشكا من قبضة شيز، وولج غرفتَه على عَجَل. كان الكلب قد خرج أيضاً، مُخلِّفاً وراءه رائحةَ التبغ المثيرة للغثيان وعَقِب السيجارة على الأرض، جلس ساشكا فوق حافة النافذة وهو ينظر عبر الشارع. رأى بضعةَ شبَّان مُلتفِّين بالمعاطف يَنبشون بين الحُطام. وأدرك ساشكا، أن لا أحدَ ينتظر اليومَ توزيعَ المُؤَن قُربَ المستودَع. وقد لا تصل اليومَ، ولا حتى لاحقاً. فقد تلاشَت آمالُ الجميع. ودخل كيشا دون ضجيج، فاستلقى وتدثَّرَ.

تمتم وهو يشدُّ قبعته القماشية: «وغدٌ. كنت سأدفع كلَّ ما جمعتُ من المال لشراء الطعام، لكنني خبَّأته في مكانٍ آمِن حتى لا أستسلِمَ للإغراء فأُخرِجه. دَعْنا ننام، يا ساشكا، فالنائم لا يحتاج إلى الطعام. سننطلق لاحقاً لاصطياد الجرذان».

وجدَ ساشكا عدةَ حبَّات قمح على فِراشه، فقذفها في فمه وخلد للنوم. كيف يُمكِن أن تُخفِيَ أربعمائة مارك وتجوع؟ إنك الآن، حتى ولو تَوفَّر المال، فلن تذهب إلى أيِّ مكان، فأنت مُحاصَر. وتخيَّلَ ساشكا طلبةَ الكلية الحربية هناك، عند المحطة. لو لم تحدث تلك الواقعةُ المشؤومة، ويهرب إيليا إلى إنسك، لربما كان ساشكا نفسه الآن مع هؤلاء الجنود. إن لم يكن هنا، فعلى مَقربةٍ من مركزِ المدينة، في نقطةِ حراسةٍ مُخوَّلة بإطلاق النار على مَن يَتجرَّأ من عناصر المغاوير على عصيان الأوامر. كان سيبدأ بقتلِ هؤلاء الشُّبان الجِيَاع، ولَمَا فكَّر في أنه لا يملك الحق، ولا القائد أيضاً يعتقد أنه يملك الحق. ربما ضلَّلوه وأخبروه، كما قال أوليغ، أنها مجموعاتٌ من قُطَّاع الطرق. والقائد لا يُمكِنه الإحاطة بكل شيء يحدث، فالمدينة كبيرة، مُعقَّدة، ثم إننا في حربٍ مع الأعداء.

لم ينجح ساشكا وكيشا في اصطياد الجرذان. عندما سمع ساشكا خشخشةً مُرِيبة في إحدى الزوايا، أطلق النار، لكنه أخطأ الهدف، فمنعه كيشا من التفريطِ في الطلقات الثمينة. كانت المجموعاتُ الأخرى أوفرَ حظاً؛ إذ تمكَّنَ المقيمون في الشقة المجاوِرة من اصطيادِ كثيرٍ من الجُرذان، وأسرعوا

بشوائها، وفاحَت رائحتُها في المبنى. على فسحةِ السُّلّم، وقف الجقل والشكَّاء، واستنشقا الهواء بنَهمٍ وأنوفهما مُلتصقةٌ تقريباً بثُقْب القُفْل.

أمَره كيشا بغضب: «هيَّا اذهب أيها الشكَّاء إلى غرفتك!»

التفت الشكَّاء، وألقى على الشبَّان نظرةً عمياء.

- «أريد طعاماً!»

أضاف الجقل: «إذا انتظرنا طويلاً هنا، فربما يُطعِموننا أيضاً».

ودفع ساشكا بكيشا إلى غرفتهما، قائلاً: «لا بأس، دَعْهما واقِفَين، ما شأنُك أنت؟»

قال كيشا: «شيء مقرف؛ يتطوَّحون هنا كالشحَّاذين، بينما يأكل الآخَرون ولا يَأبهون!»

في المساء كان زلزال ينتظر جميع عناصر المجموعة في الغرفة الكبيرة التي جاؤوا إليها في انتظار توزيعِ ما تبقَّى لدى أوليغ من ماء الشرب، وإذا بجينكا يقتحم الغرفةَ حاملاً بيدَيْه صرَّةً في سترةِ بدلته الرسمية. وتحت أنظار الشبان المهولة وضَعَ الصرةَ على الطاولة، وحلَّ أكمامَها المربوطة، كان على قماشِها الباهت اللون حبَّاتٌ كبيرة من البطاطا الملطَّخة بالوحل.

صاح بغبطة: «سرقتها من حقلٍ خلفَ السياج الشائك. لا وجودَ هناك لمُعوَّقي الكلية الحربية. كان رجالٌ كبارُ السن يجمعون محصول البطاطا هناك، منذ الصباح. ما رأيكم، أتريدون بطاطا؟»

شعر ساشكا بمغصِ الجوعِ يعتصره، فانحنى يشدُّ على بطنه. تسمَّرَ الشبابُ في مكانهم يتأمَّلون الكَنْز. كان الشكَّاءُ أولَ مَن أفاق من ذهوله، اختطَفَ حبةَ بطاطا وغرزَ أسنانه فيها.

جأر جينكا: «لا تلمسها! البطاطا للبيع! الحبَّةُ بماركٍ واحد».

انتصب ساشكا واقفاً وصفَعَ جينكا بكل ما لديه من قوة، واشتبك الاثنان وتدحرجا فوقَ أرضِ الغرفة؛ أحسَّ ساشكا للمرة الأولى في حياته برغبةٍ لارتكاب جريمةِ قتلِ إنسان.

بادَرَه أوليغ بغضبٍ بعد أن فصَلَ الشبابُ بينه وبين ساشكا: «قَذِرٌ أنت، يا جينكا! من المفترَض أن نقتلَك كلُّنا مجتمِعين، لكننا سنتركك تعيش».

سارَعَ الشبان بشواءِ حباتِ البطاطا وراحوا يلتهمونها وهم يحرقون بها أصابعَهم ويتلطَّخون بالرماد ضاحِكين.

قال أوليغ مخاطباً ساشكا: «لا شيءَ يدعو للابتهاج. الآن، ستعمُّ السرقات والنَّهْب، وأنا لن أمنع أحداً».

كان ساشكا يبتلع البطاطا الطرية الساخنة، الممزوجة بدمِ شَفَتِه الممزَّقة. نظر إلى الشكَّاء فوجده قد ملأ جيوبَه بحبَّات البطاطا النيئة وينسحب خلسةً ليخرج.

قال أوليغ: «سيقوم بتخزينها، أو سيعطيها للجقل. الشكَّاء شابٌّ ليس سيئاً، لكنه ضعيفُ الإرادة. لعلَّ ذلك بسبب المرض».

لاذ ساشكا بالصمت وهو يفكِّر إن كان مُخطِئاً حين استنتج أنْ ليس أحدٌ هنا يفكِّر في غيره. ها هو أوليغ، مثلاً، يتكفَّلُ بالشكَّاء ويشتري له الأدوية. وسيريوغا [20] الذئب تبنَّى الجقل. الأقوياء يساعدون الضعفاء. طبعاً، هناك أيضاً ليوفـا وجينكا كونكوف، وفـيتكا الفصامي. لكن بالمقابل، يوجد الكثير من الشباب الطيِّبين. لطالما اعتقد أن الموجودين هنا هم المتسولون فقط، لكنْ لعلَّهم أفضلُ من رفاقِ ساشكا في الفيلق؛ هناك، يتشبَّث كلٌّ منهم بموقعه في سريَّة المراسم، وهم مُستعِدون لقتلِ بعضهم بعضاً من أجل ذلك.

في اليوم التالي، لم يَعُد كيشا من منطقة الخرائب، ولم يفطن ساشكا لغيابه إلَّا مساءً، فقد أمضى النهارَ كلَّه عند المدخل مستلقياً فوق الأكياس، يتظاهر بدورِ الحارس. لكن أوليغ طمأنَه، قائلاً إن كيشا ربما ذهب للبحث عن الطعام، وهذا شيء جيد، فقد يعود بطعامٍ له ولساشكا. الآن، بات كلُّ عناصر المغاوير يسرقون. كانوا يجتازون الحواجزَ خلسةً إلى منطقةِ المساكن الخاصة، مروراً بالقرب من نقاط الحراسة. لكنَّ مُستودَعات العجائز هناك أيضاً لم تكن عامرةً بالمواد الغذائية. ولم يَعُد أحدٌ يتقاسم غنائمَه مع الآخرين، فإما أن يأكل ما أتى به في غرفته، أو يلتهمه في مكانِ اقتناصه مُباشَرة. وقد حاوَلَت مجموعتان ليلاً العبورَ إلى مركزِ المدينة، غير أن الحرَّاس جابَهوهم بإطلاق النار، وقتلوا عدداً من عناصر المغاوير الذين ردُّوا عليهم بالمثل، ولكن ليس معروفاً إن كانوا قد قتلوا أحداً منهم أم لا. أضحى الأمرُ في غاية الخطورة؛ إذ دُعِّمت وحدات التطويق، واستُقدِمت مُدرَّعتان إلى الطريق المؤدِّية إلى وسط المدينة. لقد أسرَّ أوليغ بهذه المعلومات إلى ساشكا بشيءٍ من التشفِّي؛ فما كان لهذا أن يحدث بغيرِ أوامرِ القائد العام. زفَّ أوليغ هذا الخبرَ لساشكا وهو يتضاحك باحتقار.

- «ها هو ذا قائدك المبجَّل. ما رأيك؟ لعله يريد أن يقتلنا جميعاَ؟ آنذاك سندافعُ عن أنفُسِنا. وهل ستُطلِق النار على طلاب الكليَّة؟»

لزم ساشكا الصمت. كان أوليغ على حق، مرةً أخرى على حق. فوالد ساشكا كان يخدم القائدَ بالضبط، وما كان ليخدمه ويُضحِّي بحياته دفاعاً عنه لو كان قائداً سيئاً. لن يُضحِّي بحياته في سبيلِ شخصٍ سيئ. حينَها أقنع ساشكا نفسَه بأنه لن يقع مكروه. لن يحدث اقتحام، ولن يُضطر لأن يُطلِق النارَ على أحد؛ فشعر بالارتياح.

11

مضى على اختفاء كيشا يومان لم يتناول خلالهما ساشكا أيَّ طعام، فلم يَعُد يقوى حتى على الخروج من الغرفة. رقد مُتدثِّراً بأسماله وأسمالِ كيشا، يستعيد وعْيَه تارةً، ويفقده تارةً أخرى. ربما كان بإمكانه أن يستاءَ من المجموعة لأنهم تَخلَّوا عنه. لكنه، في لحظاتِ الصحوة، كان يَتذكَّر الفيلق وكل الأشياء الجميلة المتعلقة به؛ فيبتسم وهو يتأمَّل السقفَ الملطَّخ فوقه. سأله السقف فجأةً:

- «هل تشعر بالفرح؟»

فكَّر ساشكا: «لقد جُنِنتُ! أفقدني الجوع عقلي». ومدَّ يده نحو السقف، فاصطدمَت بشيءٍ يشبه ملمسَ قماشِ مِعطَف. رفَعَ رأسه بصعوبة ليرى بالقرب منه ڤـيتكا مُترنِّحاً، لكنه يتكلَّم بصوت مرتفع بشكلٍ كافٍ:

- «أدركت لماذا أنت هنا. لقد جئتَ لتَخْتبرني. أنتَ اختباري الأخير. إنك بحاجةٍ إلى الماء. قد تَتحمَّل الجوع، لكن لا مناصَ لك من الماء. سنجوع معاً، ونُطهِّر أنفُسَنا؛ آنذاك ستَنْعم بالسعادة الحقَّة».

وسكب ڤـيتكا من الزجاجة سائلاً ما.

- «اشرب، فيه سكَّر، لتَحتفِظَ بقواك».

شرب ساشكا، وأخذ ڤـيتكا الكأسَ وسكب لنفسه.

- «لا شيءَ أبديٌّ في هذا العالَم، حتى أحجار الأبنية تَنهار، لا خلودَ إلا للروح. الطمأنينةُ شيء جيِّد».

تناوَلَ شيز جرعةً من الماء، ووقف بجوار ساشكا.

- «سأعلَمك كيف تبلغ حالةَ النِّرفانا». استنشق ڤـيتكا الهواء وراح يكرِّر: «آومـ... مـ... ـم. آومـ... مـ... ـم».

وقف مترنِّحاً بوجهٍ بات رمادياً، ودوائر سوداء تحت عينَيْه، تُنِيره أشعةُ الشمس المتسلِّلة عبر النافذة، وهو يُعِيد تكرار هذه الجملة. فقَدَ ساشكا وعْيَه. تراقَصَت أمامَ عينَيْه أمواجٌ بألوان الطيف، ودقَّ صوتُ شيز أُذنَيْه كالمِطْرَقة: «آومـ... مـ... ـم».

استمرَّ ذلك طويلاً. كان ڤـيتكا يقع متعثِّراً بالطاولة تارةً، ويَرشف جرعةَ ماءٍ تارةً أخرى، ويَمُوء بكلماته تلك. «إنه شابٌّ جبَّار، ولربما أشدُّ منَّا جميعاً». هكذا قرَّر ساشكا بوعيٍّ غائم، وهو يَهْوي في غيبوبةٍ حيناً، ويعود بوعْيِه إلى الغرفة حيناً آخر.

ثم تراءى لساشكا أن الغرفةَ اختفت هي الأخرى، وراح يُحلِّق في عالَمِ صوتٍ واحد، رتيبٍ، ثقيلٍ وغريب. أضحى ساشكا خارجَ نطاقِ المدينة، في مكانٍ مجهول. بدا المكان غيرَ مألوف؛ فالمباني المحيطة لم تُصَبْ بأذى، والناس يتمشَّون حوله بثيابٍ خفيفة نظراً لحرارةِ الجو في النهار. استلقى ساشكا على العشبِ بجوار أحدِ الأبنية. لم يكن العشب بَرِّياً جافاً، بل كان يانعَ الخُضْرة وموضعَ عناية، ونَدِياً قليلاً بالرغم من الشمس الساطعة المُبهِرة. لم يرغب ساشكا أن ينهض عن العشب. اقتربَت منه مجموعةُ بناتٍ صغيرات بثيابهنَّ السماوية الأنيقة، فأطَلْنَ النظرَ إليه وهنَّ في حيرةٍ كيف بلغ هذا المكان! ابتسم ساشكا، فضحكَت البنات كأنهن ضُبِطن يتلصَّصْنَ على شيءٍ ما، وولَّيْنَ هاربات. أدار ساشكا رأسَه وراح يرقب المارَّة؛ فرأى رجالاً، بينهم ضباط، وبَاعة، وعمَّال؛ ثم نسوة مع أطفالٍ وأُخَر من دونهم، وأطفالاً يسيرون وحدهم يَمْضغون حبات الحلوى. وهناك أبوان يقودان طفلَهما الصغير البدين، وهو يعاند ويُصِرُّ على عناده فيضرب الأسفلت بقدمَيْه؛ إنه يشبه ساشكا في إحدى صوره القديمة.

كان توقُّفُ الصوت مُرِيباً يبعث على الحَذَر. نظر ساشكا فرأى إيليا جالساً بجواره فوق العشب، يُدِير وجهَه جانباً. ثم الْتَفَت إليه وقال: «مرحباً! لم أتوقَّع أن أَلْتَقِيك هنا!» استوى ساشكا جالساً، تذكَّرَ أن إيليا ارتكب خطأً بحقِّه، ولكنه لم يَعُد يذكر ما هو.

ابتسم إيليا قائلاً: «المكان جميلٌ هنا، والماء وفير، هل تريد أن تشرب؟»

- «كلا. أين نحن؟»

ضحك إيليا: «ما بك؟! دقِّق النظرَ حولك!» الْتَفَت ساشكا حَوالَيه من جديد؛ فتبيَّنَ له أن بيوتاً كهذه لم تُبْنَ في مدينته منذ زمنٍ طويل. إنها مُؤلَّفة من ألواحٍ بيضاء ونوافذ كبيرة. قال إيليا بهدوء: «لقد مُتُّ، متُّ عطشاً. وأنت مُتَّ جوعاً. وهكذا الْتَقَيْنا هنا. هنا جميعُنا بخير».

جلس ساشكا وقال: «أنت تكذب، انظر إليَّ. إنني حيٌّ!»

- «كلَّا، لقد خنتُكَ، وأنت سقطتَ في الخرائب، وهناك قتَلَك الجوع. أنت ميِّت!» قفز ساشكا. تسارَعَت دقَّات قلبه فتيقَّنَ أن إيليا يكذب. ولا يجوز تصديقه، فهو خائنٌ! لقد اعترف قبل لحظة!

كرَّر إيليا بهدوء: «أنت ميِّت».

صرخ ساشكا: «كلَّا! وأنت أيضاً حيٌّ، ولكني سأقتلك! لقد خنتَ مدينتك!» وحاوَلَ ساشكا جاهداً القبضَ على حنجرة صديقه السابق، لكنه تعثَّرَ وسقط على الأرض.

صاح وهو يتدحرج فوق العشب: «سأقتلك!»

صاح إيليا بصوت أوليغ: «أمسِكْ به من يدَيْه! الحقنة، هاتِ الحقنة!» انحنَت فوقَه امرأةٌ في معطفٍ رماديٍّ لا يعرفها، وبصوتٍ أبَحَّه التدخينُ قالت: «اهدأ، أيها الأحمق!» شعر ساشكا بوخزةٍ تحت مِرفَقه. راح إيليا يتكوَّر ويتلاشى، وتتساقط نُدَفٌ من الهواء على كتفَيْه ورأسه. وهجعت المدينة وبَدَت كأنها أصغرُ حجماً من ذي قبلُ، واستحالَت بقعةً صغيرة سرعان ما تلاشت. أكَّد ساشكا: «إنه حُلمٌ. سأصحو في البيت».

فتح ساشكا عينَيْه؛ أحسَّ بطنين في أُذنَيْه، وألمٍ في يده، ووجد الشكَّاء جالساً إلى جانبه.

قال فَرِحاً: «ساشكا، لقد حملتُ لك مرَقَ الجرذان». وناوَلَه وعاءً من الألومنيوم قائلاً: «إنه لذيذ، كلُّنا نشرب منه، ما عدا قـيتكا. لقد أكلتُ الجرذ. وذهب الآخرون لوضْعِ المصائد في الخرائب. غداً سيكون لدينا طعامٌ أيضاً!»

ثم رأى ساشكا أوليغ.

قال له: «أعتذر منـك، لقد خفنا فحقنَّاك بذلك المحلول اللعين مـن الصيدلية، خوفاً على حياتك. ولكنه نفعك، فقد انقضَضْتَ على الشكَّاء كالمجنون».

حاوَلَ ساشكا أن يجيب، لكنَّ حشرجةً ضعيفة خرجت من حنجرته.

تابع الشكَّاء: «أنا لستُ مستاءً، أنساك الجوعُ ملامحي، لو عرفْتَني لَمَا حدث ذلك، نحن فريقٌ واحد، أليس كذلك؟»

أومأ ساشكا برأسه وتناوَلَ الطبق. كان المرق ساخناً، وسال عبر حنجرته بسلاسة. رشفه ساشكا، وهو يفكِّر في أنه حتى إذا مات الآن، فلن يكون لموته سببٌ إلا السعادة.

مساءً عاد كيشا بغتةً، يحمل كيساً مزركشاً فيه برغلٌ أسود وبعضُ الخضراوات المعلَّبة. وعلى الفور، وزَّعوا البرغلَ في أكياسٍ ورقية على الغرف كافة، واحتفظ كيشا بالمعلّبات لنفسه.

انطلق يتحدَّث لاهثاً من السعادة: «لحُسْن الحظِّ وجدتُ مكاناً يَصعُب الوصول إليه؛ فوحدةُ المدرَّعات في الضاحية عندها قبْوٌ بالقرب من المطعم. بالطبع هو مقفول، لكنه قديمٌ جداً، وعليه ألواحُ خشبٍ متعفِّنة. في الليالي فكَّكت غطاء الزنك واقتلعتُ لوحَيْن من الخشب. لو كان معي العُدَّة اللازمة لَكنتُ أسرعتُ. يُمكِننا، إذا أردتَ أن نذهب غداً معاً، ونأتيَ بكمياتٍ أكبر، ما رأيك؟»

ولكنْ في اليوم التالي لم يكن ساشكا مُستعِداً بعدُ للجولات الطويلة؛ لذا فقد انطلق الشُّبَّان من دونه. لم يَبْقَ إلا شيز وحيداً، فراح يتمشى في الشقة وهو يتمتم بكلامٍ مبهم، ويَقْضم برغلاً يابساً من عُلْبة. أكل ساشكا أيضاً وجلس على حافة النافذة في انتظارِ عودة رفاقه. عادوا في ساعةٍ متأخرة، بأيدٍ فارغة؛ لقد كشف رجالُ الدبَّابات سرقةَ كيشا، وأصلحوا سطحَ القبو.

قال كيشا بحسرة، وهو يأوي إلى فراشه: «ليس أمامَنا للسرقة سوى المدينة».

- «لكنَّ الذهاب إلى المدينة أمرٌ في غاية الخطورة! رفاقُك السابقون قد يُبادِرون بإطلاقِ النار. ولا مَخْرجَ لنا. وإلَّا، فليس أمامنا سوى الموت».

فكَّرَ ساشكا وهو يُغالِب النعاس: «السرقة! هل حقاً أستطيع أن أسرق؟»

منذ الصباح الباكر، راح ساشكا وكيشا يَستعِدَّان. الوحدةُ كلها تقريباً خرجَت لوداعهما، فقد كانوا يدركون أنهما قد لا يعودان، إذا فشلا.

قال أوليغ ناصحاً: «إذا وقعتَ في أيديهم بالمدينة، فحاوِل الصراخَ بأعلى صوتك، ابكِ واستغِثْ. إياك والعِراك معهم. فأنت صغيرُ الجسم، وأصبحتَ الآن نحيلاً جداً يا ساشكا، وقد يُشفِقون عليك. لا تَقترِبا من عناصر الحواجز، ولا تَأخُذا أسلحة. هيا، فَلْتعودا بالسلامة!»

حدَّث ساشكا نفسه مرعوباً: «إنني ذاهب لأسرق، إذا قبضوا علَيَّ يجب أن أفعل ما يفعله الشكَّاء».

- «أنا أعرف كيف نَلتفُّ على طوق الحصار. سوف نَعْبر الأسلاكَ الشائكة حول المدرَّعات، ثم نعود من الجهة الشمالية. لكننا سنتحرَّك زاحفَيْن، وهذا أسوأ ما في الموضوع».

كان شريطُ الأسلاك الشائكة مثلَ حدودٍ رسمية للمدينة. في البداية، حاوَلوا عزْلَ المدينة بشكلٍ كامل، حتى إنهم شرعوا في بناءِ جدارٍ عازل. ولكنهم، إما لنقصٍ في التمويل، وإما لانعدامِ الضرورة، اكتفوا بجدرانٍ عازلة من جهة الشمال فقط، خلفَ فيلق حراسة القائد. وسوَّروا القطاعَ الباقي بالشريطِ الشائك والألغام المضادَّة للدبَّابات. نظر ساشكا إلى الأرض. حقاً، إن الزحْفَ فوقها وهي مُشبعة بالرطوبة الخريفية شيءٌ مقرف. لكن ذلك يظلُّ أقلَّ خطراً من مُواجَهة حاجز الحراسة.

أضاف كيشا بشعورٍ بالذَّنْب تقريباً: «هناك أيضاً قنواتٌ وخنادقُ، وفيها رطوبة».

غير أن الرطوبة لم تكن المحنةَ الأصعب؛ إذ فجأةً هُرِع عناصر الدبَّابات من بوابات السَّرِيَّة وراحوا يَصطفُّون، فأُجبِر كيشا وساشكا على الانبطاحِ دونَ حَرَاك لمدةٍ تزيد عن نصفِ ساعة. تجمَّدَت أوصالُ ساشكا، وانهالَ سِبابٌ خافت عبر شفتَيْه المتجمِّدتَيْن. لكنهما تجاوَزَا طوْقَ الحصار بسهولةٍ نسبياً؛ فلم يُولِ عناصرُ الحرس أيَّ اهتمامٍ للخنادق المنهارة. حتى إنه ما كان سيخطر على بالِ أحدٍ أن يفكِّرَ ساشكا نفسُه في العبور عبر هذه الثغرات. أثناء اجتيازهما الأسلاكَ الشائكة الواقعة في الجهة الشمالية، كما قال كيشا، علقَت سترةُ ساشكا بالأسلاك وتمزَّقت. أثار هذا الموقفُ ضحكَه بالرغم من غرابة الموقف، الذي كان برُمَّته مُرعباً، ولكنه في الوقت نفسه كان غبياً وغيرَ معقولٍ إلى درجةٍ جعلَتْه يُطلِق ضحكةً عصبية. نظر كيشا إليه مُتخوِّفاً، قائلاً:

- «إنك لا تقلُّ قهقهةً عن شيز. الأفضلُ أن تَنفضَ ما علق بثيابك، وتمسح حذاءَك بالعشب اليابس، فأنت تُشبِه متسوِّلاً، في الحقيقة».

في المحطة القريبة من الجامعة، وقفت إحدى الحافلات وهي تخشخش، وكانت في حالةٍ جيدة نسبياً. فكَّر ساشكا بلا مبالاة: «إذا ركبتَ الحافلةَ فإنك ستصل إلى الفيلق بعد محطة واحدة». وأما عن بيته، الذي أضحى قريباً، فالتفكير في ذلك ممنوع.

- «سندخل أحدَ المحالِّ التجارية، وإذا كان المكان مزدحماً، فسأحاول نشْلَ محفظة أحدهم. عليك أن تظلَّ قريباً مني، تحاول تَغْطيتي». شدَّ كيشا كُمَّ ساشكا بإلحاح قائلاً: «حاول أن تبدو طبيعياً، وإلَّا فسيكون واضحاً أنك تتهيَّأ لشيءٍ ما. وإذا انهالوا عليَّ ضرباً، يُمكِنك الانسحاب، اهرب فوراً. حصةُ اثنين تكون دائماً أكبر».

- «وهل سبَقَ لك أن سرقتَ مَحافظ نقود؟»

- «أجَلْ سرقتُ؛ لشراء أدوية للشكَّاء. لم يقبضوا عليَّ حينها. بالمناسبة، الآن يجب شراء تلك الحقن بالإضافة إلى الطعام، فقد كتبها لي أوليغ على ورقة».

صمت كيشا، ودفع ساشكا بقوةٍ إلى داخل البِقالة. هناك اصطفَّ الجميع في طابور، يبدو أنهم يبيعون موادَّ نادرةً جِيءَ بها من مدينةٍ أخرى. ظلَّ ساشكا يتابع كيشا وهو يَحْشر نفسَه داخل الطابور وكأنه يريد استطلاعَ الموجودات، وبعد دقيقةٍ انسلَّ عائداً بخفة.

- «فلنهرب!»

قفزا خارج المتجر واختفيا في مدخل البيت المجاوِر.

تساءل ساشكا وهو يلتقط أنفاسَه: «هل فشلتَ؟»

- «أنت مَن كان سيفشل». وبسط كيشا يدَه وفيها محفظةٌ قماشية. «المغفَّلون، ما إن شاهدوا اللحمَ حتى سال لعابهم! لا يتحلَّوْن باليقظة».

كان في المحفظة ثمانيةُ ماركات.

قال كيشا: «يجب أن نحاول مرةً أخرى. ما دام الحظُّ حليفَنا اليوم، فلا ضيْرَ في أن نُتابِع مشروعَنا».

كان ساشكا يعتقد أن العكس هو الصحيح، فالأفضلُ ألَّا يُجازِفا، وأن يتوقَّفا قبل أن يُقبَض عليهما.

- «ما لدينا الآن يكفي لشراء الدواء، وإذا اشترينا بعض الصويا والسميد فسنستطيع إطعامَ الجميع».

أكَّد كيشا: «لو أطعمتَ الجميعَ اليوم، فغداً سيَتضوَّرون جوعاً. الحصارُ قد يطول. ما دامت الفرصةُ سانحةً، فَلْنُحاوِل مجدداً. وأنت لا تَكُن خجولاً مثل العذارى!»

تمتم ساشكا: «لقد سبَقَ أنْ أخذت المدَّخرات الكهربائية». لكن كيشا لم يستمع إليه.

عَبَر الاثنان الشارع، واجتازا حارتَيْن، ثم دخلا أحدَ المحال. هنا أيضاً طابور في انتظارِ توزيعِ الزيت النباتي بقسائم. تفوح رائحةٌ شعَرَ ساشكا أنه سيُغمى عليه بسببها.

همسَ كيشا في أُذنه: «انظر. الأوراقُ النقدية بارزةٌ من جيب تلك العجوز. سأقوم بإشغالها، وأنت تخطفُ ما لديها وتنطلق إلى الشارع».

حقاً، هناك ما كان يبرز من جيبِ عجوزٍ ترتدي معطفاً وسخاً. حاوَلَ ساشكا الاعتراض قائلاً: «هذه ليسَت دراهم». لكن كيشا كان قد انحشر في المقدمة ورمى بنفسه على مَقربةٍ من الصندوق.

صاح أحدهم بقلق: «هيا ساعدوا ذاك الصبي!» وسرعان ما انحنَت العجوز فوقه، في حين امتدَّت يدُ ساشكا وسحبَت على عَجَلٍ اللفافةَ البارزة من جيبها.

عصفَت برأسه: «لقد سَرقت! أنا طالب الحربية السابق، غافَلْتُ عجوزاً مسكينة وسرقتها!» أحسَّ ساشكا بالاشمئزاز لدرجةِ أنه لم يشعر كيف رمى بنفسه خارجاً.

تعالى صريرُ مكابحِ سيارةٍ عبر الشارع، ارتطم ساشكا بشيء ووقع أرضاً تحت مقدمة سيارة حمراء كبيرة. توقَّفت السيارات المارة بجوارهم، وشرع أحدهم يصيح من الرصيف المقابل: «هيَّا، استدعوا الإسعاف!» كان السائق شاباً يرتدي بزةً أنيقة، ترجَّلَ من السيارة، وتلفَّتَ حواليه بعصبيةٍ، ثم صرخ بوجه ساشكا بغضبٍ:

- «هل جُنِنتَ؟! أَلَا يتَّسِع لك الرصيف؟!»

راح ساشكا ينهض على مهل.

تابَعَ الرجل صراخه: «ارحَلْ من هنا بسرعة!» فكّرَ ساشكا أنه ربما تأخَّرَ عن موعدٍ مهم. وما إن خطا خطوتَيْن حتى انطلقَت السيارة من جديدٍ بسرعةٍ جنونية عبر الشارع.

قال عجوزٌ يرتدي معطفاً متَّسِخاً: «لا يَأْبهون لأحد، سياراتهم أغلى من أرواح الآخرين. أنت أيها الشاب، هل تَقدرُ على السير، أم أطلبُ لك الإسعاف؟»

أجاب ساشكا: «لا حاجةَ لذلك».

كان قادراً على المشي، لكنَّ أضلاعَه تؤلمه، وكان يَرْعَف. مسح وجهَه بكُمَّيْه وانعطف خلف الزاوية باتجاه ممر الحي، جلس القرفصاء مستنداً إلى جدارٍ رمادي خشن، ثم سحب من جيبه ورقةَ جريدة ملفوفة، كان فيها أربعة ماركات ودفتر التقاعد. جال في خاطر ساشكا: «لقد جازَفتُ بحياتي من أجل أربعة ماركات!» فخُيِّل إليه أن الحياة ليست أثمنَ من هذا المبلغ.

12

تمنَّى ساشكا أن يبقى جالساً إلى الأبد على الأسفلت بالرغم من البرد. وَلْتركض الأيام، وَلْيحدث ما يحدث من حوله؛ حربٌ، قصْفٌ جوي، هزَّة أرضية، فإنه لن يبرح مكانه؛ لأن الحياة على هذه الشاكلة غير معقولة. يجب أن تكون هناك أمورٌ لا يفعلها الإنسان مهما يكن حاله؛ أمورٌ إذا فعلها، لا يكون إنساناً.

سمع فجأةً صوتاً مألوفاً: «ساشكا، أهذا أنت؟»

رفع ساشكا رأسَه خائفاً، ليرى فوقَه وجهَ فتاةٍ متعجِّباً بعينَيْن خضراوَيْن، وحبَّاتِ نمشٍ نادرة.

- «كاتيا؟»

كأنَّ ذلك كان قبل مائة عام؛ الفيلق، ورحلة صفوف المدرسة الثانوية في زيارةٍ إلى طلاب السنة الأولى في الكليَّة الحربية، والمسابقات الطفولية تقريباً، وتدريبات الرماية، وحفلات الرقص في المساء. كاتيا كرايف! ابنة النقيب كرايف! بربطة جديلتها الطويلة، وضحكها الغبي مع رفيقاتها، ونظراتها الثابتة المغرَمة بساشكا. حين تدعو الفتياتُ الشبَّانَ أثناء الرقص، كانت تهمُّ بالتقدُّم إلى ساشكا ليُراقِصها، لكنه اكتشف نيَّتَها فأسرع إلى مُغادَرة القاعة. ثم أخذَت تزور والدَها في مكانِ عمله بسببٍ ومن دون سبب؛ فقد تبيَّنَ أنها تعاني من صعوباتٍ في قواعد الإملاء، وكانت تستعِدُّ للالتحاق بالجامعة، فطلب والِدُها من ساشكا أن يُساعِدها في بعض الأماسي. كانا يجلسان في قاعة الدرس الخالية شبه المظلِمة؛ كاتيا وساشكا والكتاب، وعلى مسافةِ مقعدَيْن منهما يستلقي إيليا الذي لم يَعُد ساشكا يذهب من دونه إلى أيِّ مكان. استنتج ساشكا، لاحقاً، أن ما يشغل كاتيا ويُقلِقها، ليس قواعدَ الإملاء، وإنما هو شخصياً، وكان يشعر بحرجٍ كبير؛ لأنه لم يكن بارعاً في التعامل مع الفتيات. كلُّ ذلك كان في الماضي، وهو لم يَلْتقِ بكاتيا منذ شهر. ولم يكن سيلتقي بها أبداً؛ فعندما لا تكون من عناصر الفيلق، وأنت جائعٌ، ورثُّ الثياب، وتغطِّيك كدماتٌ زرقاء، فلا حاجةَ للفتيات المحترَمات بمُصاحَبتك.

قالت كاتيا: «لقد رأيتُكَ وأنت تسقط تحت العربة. هل أُصِبْتَ؟»

تمتم ساشكا: «كلَّا، إصابتي خفيفة».

- «لا تكذب». وأخرجت من جيبها منديلاً: «خُذ هذا، الدمُ ينزف من أنفك. على العموم، عند الحادث، يُصاب الإنسان عادةً بالصدمة. حتى في حال الكسور، يُمكِنه المشي لبعضِ الوقت. هل أنت واثقٌ من أنك لم تُصَبْ بكسور؟»

لم يكن ساشكا واثقاً من ذلك. تناوَلَ المنديلَ ووضعه فوقَ أنفه بصمتٍ.

قالت كاتيا بإصرار: «هيا بنا، بيتي قريبٌ من هنا. هناك، سنتحقَّق من وضعك».

- «لا أستطيع مرافَقتَكِ. تُدرِكين..».

- «أعرف جيداً كلَّ شيء؛ لقد حدَّثني والدي عنك. لقد طردوك من الفيلق. ظَنُّوا أنك كنتَ تريد الهربَ إلى إنسك».

تضاحك ساشكا ساخراً: «أجل، وكنت أريد أن أسمِّمَ المدينة، وأن أحوِّلَ القسمَ الجنوبي منها إلى أنقاض، بالإضافة إلى..».

قاطَعَتْه كاتيا: «ساشا! اهدأ، أرجوك. أنا لا أُصدِّق أنك قد تخون مدينتك. والدي حدَّثني بكل شيء. صديقُك إيليا هو المُذنِب. لم يَرُقْ لي قَطُّ». ومدَّت كاتيا يدَها إليه. «هيا بنا، لا أحدَ في بيتنا الآن. أمي لديها مُناوَبة في المشفى، ووالدي في وَحْدته، وسيعود متأخراً. هيا لا تَخَفْ».

تنهَّدَ ساشكا ونهض متجاهلاً يدَها الممدودة.

- «هل عندكم هاتف؟» لا حاجةَ له بالذهاب إلى بيتها، ولكنه يستطيع أن يتصل بوالدته.

- «نعم، هيَّا».

وتبعها ساشكا وهو يحاول جاهداً ألَّا يعرج، تضغط إحدى يدَيْه المنديلَ المُدمى على أنفه، والأخرى فوق أضلاعه.

- «وأين استقرَّ بكَ المطافُ أخيراً؟»

- «في مدرسة المدرَّعات».

هزَّت كاتيا رأسها بريبة: «حقاً؟! فلماذا لا ترتدي اللباسَ الرسميَّ، وتفوح من ثيابك رائحةُ الدُّخَان؟»

- «غادرتُ بلا إذنٍ، وارتديتُ ما تَيسَّرَ لي». أحسَّ ساشكا بغضبٍ مفاجئ: «وأنا لم أطلب منكِ استضافتي. إن كنتِ لا تُصدِّقينني، فلا حاجةَ بكِ لتدعوني».

استدركَت كاتيا: «لا بأس، لا بأس. ها أنت تستاء فوراً».

سارا عبر شارعٍ طويل لم يتذكَّر ساشكا اسمَه، بالرغم من مروره فيه سابقاً. كان ذلك منذ وقتٍ طويل، وربما لم يحدث ذلك قَطُّ. لم يكن له أيُّ بيت، ولا أيُّ فيلق، كما أن الفتاة التي تسير بجانبه أخطأَت؛ إذ تبادَرَ لها أنه إنسانٌ آخَر. أما كاتيا فظلَّت طوالَ الطريق تتحدَّث بانفعال، وتلوِّح بيدَيها:

- «تأثَّر والدي جداً بنقله، وما زال متأثراً حتى الآن. لا يُخبِرنا بشيء، لكنني لاحظتُ أنه ليس على ما يُرام. خمسة عشر عاماً وهو يخدم في الفيلق، وفي النهاية طردوه! هو لا ذنبَ له! شيء غير عادل. إنه يَذْكُرك دائماً، ويَأسف لما حدث لك. لقد حاوَلَ أن يجد لك مكاناً، لكن أصدقاءَه أصبحوا قِلَّة. كم هو مقهور!»

كان ساشكا يُومِئ برأسه، يُوافِقها ويَتصنَّع ابتسامة.

أخيراً قالت كاتيا: «لقد وصلنا».

تلفَّتَ ساشكا حوله، أصبحا في شارعٍ مبانيه حمراء، كلٌّ منها مُؤلَّف من شقتَيْن. فتحت كاتيا بوابةَ بناية، وقالت:

- «ادخل، ليس عندنا كلابٌ في الباحة».

قبل أن يدخل ساشكا إلى الشقة، تردَّد قليلاً في خلْعِ حذائه، لكنه سرعانَ ما خلعه استجابةً لنظرةِ كاتيا المُلِحَّة. وعبرا الممرَّ البالغ إلى غرفةٍ طويلة وكئيبة؛ ربما بدَتْ هكذا بتأثيرِ أوراقِ جدرانها البُنِّية، وربما بسبب الستائر السميكة على نوافذها. وقد يكون، ببساطة، لأن هذا اليوم بحدِّ ذاته كان متجهماً وغائماً. يوجد في الغرفة أريكةٌ، وكرسيٌّ، وخِزانة، ومنضدة صغيرة تناثَرَت فوقها بعض الصحف. كانت الغرفة تُطلُّ على ثلاثة أبواب تقشَّرَ طلاؤها؛ بابان منها مشقوقان، ومن فرجةِ أحدهما رأى ساشكا زاويةً من أرضية الحمَّام، وفي الغرفة الأخرى رأى رفوفَ مكتبةٍ من الجدار إلى الجدار. وثمة قنطرة مفتوحة على المطبخ تتدلى منها كرةٌ صوفية معلَّقة بحبلٍ رفيع.

قالت كاتيا حين رأت ساشكا ينظر إليه: «إنه جنِّيٌّ منزليٌّ اسمه كوزكا».

اقتربَت من الجِنِّيِّ وقلبَتْه نحوَها، كان به زوج من الأزرار مثبَّت على صوفه الرمادي مكان العينَيْن. قالت: «كوزكا يجلب الحظ. تَفضَّل استرح».

تقدَّمَ ساشكا نحوَ الأريكة بجانبه، خشيةَ أن ترى كاتيا جواربَه المثقوبة. على الحائط فوقه كانت ثَمةَ لوحةٌ بالألوان الزيتية لمبنى الفيلق، وبِضع صور يَعرف ساشكا واحدةً منها. كانت لكرايف في إحدى قاعات الدراسة في الفيلق، صورة حديثة العهد.

تساءل ساشكا، وهو يتفحَّص صورةَ شابٍّ لا يعرفه، يرتدي زيَّ سَرِيَّة الحرس: «ومَنْ هذا؟»

تنهَّدَت كاتيا: «إنه أخي. استُشهِد قبل خمس سنوات، كان اسمه ساشكا، مثلك. أذهب الآن إلى دورات تحضيرية للانتساب إلى الجامعة. والدي يُوجِّهني إلى كلية الحقوق، في حين تَتطلَّع والدتي إلى كلية الطب. لكني لا أُريد أياً منهما. هدفي العلومُ الطبيعية. صديقتي تدرس هناك يقومون الآن بتربيةِ الجرذان. هل سبَقَ لك أن رأيتَ جرذاً؟ إنها مخلوقاتٌ مُسلِّية، ولا تخاف البشر. وأنت، لِمَ لا تلتحق بالجامعة؟ فقد كنتَ طالباً نجيباً».

أجاب ساشكا، وعيناه لا تَحِيدان عن صورةِ ابن كرايف المتوفَّى: «سألتحق بالجامعة. لكن فيما بعدُ».

اقترحت كاتيا: «عليك بكلية الفلسفة، إنها الكلية المُثْلى. كان بوُدِّي أن ألتحق بها، لكنَّ مُعدَّلاتها عالية جداً. لديَّ صديق هناك أيضاً. أهداني كتاباً فريداً بمناسبة عيد ميلادي. تصوَّر، يعود الكتاب إلى ما قبل الحرب! اسمه «الإنجيل». فيه أسماءٌ مُضحِكة جداً، مثل نبوخذنصر. تخيَّلْ! هاها!»

أكَّد ساشكا كلامها: «أجل، مُضحِكة جداً».

- «حسناً». وأشارت كاتيا ناحيةَ الحمَّام قائلةً: «هيا، اذهب وتفحَّصْ ما يُؤلِمك واغتسِل؛ تجنُّباً للتَجرثُم. سأعطيك مِنشَفة».

تناوَلَ ساشكا المِنشَفةَ ودخل الحمَّام.

هناك أدهشته مِرآةٌ كبيرة بحجم الجدار. فتح صنبورَ الماء، وراح ينضو عنه ثيابَه على مَهَل. انتابَه الخوف وهو ينظر إلى نفسه بعدَ كل هذه المغامَرات. بالفعل، لقد ارتسمَتْ كدمةٌ كبيرة فوقَ أضلاعه، وعلى يدَيه أيضاً وفوق رجلَيْه، ربما كانت ناتجةً عن عِراكِه مع جينكا، أو ربما خلَّفَتها الأكياسُ التي حمَلَها عند الجيفيِّين. لكن الأكثر رعباً كان وجهه، لم يكن حاله بأفضل من

حال ڤـيتكا شيز؛ نفس الوَجنات الغائرة، والدوائر القاتمة تحت العينَيْن. وما زال يَرعَف. تساءل، وهو يُراقِب نفسَه من الجانب، كيف تجرَّأَت كاتيا أن تَدْعوه إلى منزلها وهو في هذه الهيئة؟!

ملأت المياهُ الدافئة حوضَ الحمَّام، فغاص ساشكا فيها وهو يُغمِض عينَيْه. بدا له أنه لم يَشْعر بالدفء منذ سنواتٍ. وتمطَّى الزمن وهو غارقٌ في الاسترخاء.

جاءه صوتُ كاتيا من خلف الباب: «هل انتهيتَ؟ أَمَا زلتَ حياً؟»

أجاب على مَضَض: «حيٌّ أُرزَق».

- «هيَّا بسرعة، لقد أَعدَدْتُ الشاي!»

رفع ساشكا سدادةَ الحوض، وراح يَرقب بتجهُّمٍ انسيابَ المياه الرمادية الوَسِخة. ثم أطالَ الوقوفَ تحت شلالِ الرذاذ المتناثِر فوق رأسه، وهو يَعجَب لغرابةِ كلِ ما حدث. يعني، أن كرايف لم يُصدِّق أن ساشكا خائن. لكن، ماذا عن إيليا؟ الكُلُّ مُتيقِّنٌ من خيانته. ولكن، قد لا يكون ذلك صحيحاً؟ لعلَّه لم يفكِّر في الهرب إلى إنسك، وإنما لقِيَ حتْفَه في العاصفة.

قالت كاتيا وهي تجلس على الديوان، أمام طاولةٍ صغيرة وترشف الشاي: «أخيراً! ظننتُ أنك ستظلُّ مُقِيماً هناك. هيا اجلس، تناوَلِ الطعامَ. أعدَدْتُ لكَ خبزاً بالزبدة. هل تريد السجق؟ تخيَّلْ، لقد خرجتُ لشراءِ السجق في تمام السابعة صباحاً، انتظرتُ ثلاثَ ساعات، وحصلت على آخِر حصةٍ بقيَت من السجق.

فيما مضى، كانوا يخصُّون والدي بطردٍ تموينيٍّ من الفيلق، فيه أشياءُ كثيرةٌ؛ لحومٌ، وزيت صويا، وزبدة. الآن تغيَّرَتِ الأمور، لا يَصِله إلا النقود».

كذب ساشكا: «أنا لا أُحب السجق». واكتفى بالخبز.

حاوَلَ جاهداً أن يَأكل بتأنٍّ، لكنه لم يَفلح. ناوَلَته كاتيا قطعةً ثانية، ثم ثالثة.

- «أرجو ألَّا تستاء منِّي، لكنك تبدو كالمتشرِّد. تُرَى، أَلَا يُقدِّمون لكم الطعامَ هناك، في مدرسة المدرعات؟»

كاد ساشكا أن يختنق.

- «لقد كنتُ مريضاً».

- «ولماذا غادَرْتَ دون إجازة؟»

قال وهو يشيح بنظره: «قررتُ أن أزور أمي؛ فقلبُها مريض، وتحتاج إلى رؤيتي بين الحين والآخر».

قالت كاتيا وهي تزمُّ عينَيْها بارتياب: «كان يُمكِنك أن تطلبَ الإذنَ من القيادة هناك. هل هم وحوش؟! كانوا سيسمحون لك! قال لي أحد معارفي: لكل مشكلةٍ حلٌّ معقول، علينا فقط أن نُحسِن التفكير».

تنهَّدَ ساشكا: «هذا ممكن».

- «قُمْنا بدراسةِ بِنْية مخِّ الإنسان، منذ فترة». وراحت كاتيا تشرح لساشكا خواصَّ هذه البِنْية، فضجر. طبعاً، لم تكن كاتيا تسخر منه، لكنها لسببٍ ما، لم تتطرَّق إلا إلى الحديث عن مواضيع تحرجه.

لقد سبَقَ له أن أطلق النار على رأس أحدهم، وأكَلَ لحم الجرذان. ولو عرفَتْه كاتيا حقَّ المعرفة، وعرفَتْ مدى الشرور التي اقترَفَها، لَأبَت التقرُّبَ منه، ولَأعرَضَ عنه الجميع، سواء في المتجر أو في الشارع. حتى والدته، ما عساها أن تقول؟

تكوَّرَ ساشكا على نفسه. لا حاجةَ لوجوده عند كاتيا. عليه المغادَرة فوراً، لكنَّ قواه خانَتْه. أحسَّ فجأةً بضَعْفه، لدرجةِ أنه لا يَقْوى على الوقوف. لقد فعلَت الشطائر والشاي فِعْلَها، أحسَّ بالشبَعِ واللامبالاة. كان لا بُدَّ من الهرب، لكنه راغبٌ في البقاء أيضاً. يجب أن يَبُوح بالحقيقة، ويرغب في الكذب، كان عليه أن يُنصِت جيداً، فتَضمر حاسةُ السمع عنده.

تساءَلَت كاتيا، وقد قطعَت مُناجَاته: «هل يُؤلِمك شيء؟ استَلْقِ على الديوان. قد تكون مُصاباً بارتجاجٍ ما في الدماغ».

ارتجاجٌ ما! لا، بل هو ارتجاجٌ حقيقي. وما من تفسيرٍ آخَر لما يجري. أصابه هذا الارتجاج منذ وقت العاصفة في السهوب، وكلُّ ما تبقَّى هذيان، ليس إلا. تكوَّرَ ساشكا فوق الديوان المريح. جذبت كاتيا كرسياً، وجلست إلى جواره. كرسي متحرِّك، «كرسي بعجلات»، فكَّر ساشكا بخمول: «كان عندنا كرسيٌّ مثله، منذ زمن. ظللتُ أعبث به حتى تحطَّمَت عجلاته. كذلك أراد والدي شراءَ بيتٍ لنا، وإنجابَ طفلٍ ثانٍ. بالأحرى، كانت والدتي تريد ذلك؛ كانت تريد بنتاً.

لَكانت كبرت مثل كاتيا الآن، ولَكنتُ أصبحت ضابطاَ». غفا ساشكا، وعندما أفاق، سمِعَ صوتَ كاتيا من جديد.

تابَعَت كاتيا: «شيءٌ مضحك! كنتَ تُعجِبني أكثرَ من جميعِ مَن في الفيلق. لم تكن كسائرِ الطلبة. هل تذكر كيف قرأتَ لي شِعراً من كتاب المدرسة؟ كنتَ بارعاً. هل تذكر؟»

هزَّ ساشكا كتفَيْه، قائلاً:

- «قراءة الشعر؟ ما أبسَطَها! إني أجيدها الآن أفضلَ من ذي قبل. هل ترغبين؟»

أومأَت كاتيا برأسها مُوافِقة. بعد دقيقة صمت، راح ساشكا يقرأ قصيدةً بلهجةِ أهل الصحاري. إنها تدور حولَ فأرٍ صغيرٍ كان فَرِحاً بحياته، فافترَسَه باشِقٌ وفرحَ بحياته أيضاً، ففرحُ أيٍّ منهما أكثرُ عدلاً؟

- «أهذا عن الحبِّ؟»

- «هذا عن حبِّ كلية العلوم الطبيعية في الجامعة».

قالت كاتيا بتأمُّل: «لقد كبرتَ، تبدو رجلاً الآن! أمَّا ما يُقال عن إنسك، فهذا غير صحيح، أليس كذلك؟ أنا أثِقُ بوالدي، لكن حدِّثْني أنت!»

- «بالطبع غير صحيح».

- «كان عليك أن توضِّح الأمورَ في وقتها. كان عليك أن تُصِرَّ على إثباتِ صِدْقك». وشَعَّ بريقٌ من عينَيْ كاتيا. «إذا كان الإنسان على حقٍّ، فبوُسْعه دائماً إثباتُ ذلك. ما عليه إلا أن يحاول..».

قاطَعَها ساشكا: «ولماذا لم يستطِعْ والِدُكِ إثباتَ ذلك؟»

خَبَتْ نظراتُ كاتيا وأشاحَت بوجهها جانباً: «أجل، والدي!»

- «سأُجرِي اتصالاً هاتفياً».

- «يُمكِنك الاتصال. الهاتف في الممر».

خرج ساشكا إلى الممر. رفع سماعة الهاتف، تريَّثَ قليلاً، ثم راح يختار الأرقام.

تكلّمَ بصوتٍ خفيض، بمجرد أن جاءه الردُّ من الطرف الآخر: «العم ڤـيتيا، هذا أنا ساشكا. أنا بخير، سأحاول زيارةَ أمي. أرجو أن تُعلِمها بذلك، لا بأس».

سأله العمُّ ڤـيتيا بجدية: «مِن أين تتحدَّث، يا ألِكساندر؟»

- «أتحدَّث من الفيلق».

- «يجب أن تأتيَ إلى البيت اليومَ. هل فهمت؟»

- «اليوم!» صمت ساشكا ذاهلاً. «لكني لا أستطيع ذلك».

- «لا تَتحامَق، يا فتى! يعلم الجميع بأنك خارج الفيلق. الشرطة تبحث عنك. لذا يجـب أن تعـود حالاً».

وضع ساشكا سمَّاعة الهاتف مذعوراً. تسارَعَت خفقاتُ قلبه. هذا يعني أن أمه تعرفُ كلَّ شيء! لا بُدَّ أن أحداً أخبَرَها. لربما ظنت أنه ضلَّ الطريق، فطلبَت رفْعَ بطاقةِ بحثٍ عنه. اعتراه خوفٌ شديد، لكنه ما لبث أن شعر بالارتياح. لن يُضطر للعودة إلى الخرائب، سيرجع فقط لتسليم بدلته وبطاقته، ويُودِّع كيشا. بعدها، يستطيع أن يعود إلى البيت بسلام. ستعود المياه إلى مجاريها، وسيعيش حياةً طبيعية. سيَتوقَّف عن السرقة نهائياً. ستغفر أمُّه له، بالتأكيد ستعفو عنه. عند دخوله الغرفة، أدرَكَ أنه يبتسم حقاً.

تساءلت كاتيا بريبة: «أراك مُنشرِحاً!»

- «لقد نَجَوتُ من التهلكة». قالها بلهجةِ أهل الصحاري. «يا لحسن حظِّي!»

- «يبدو أن صدمةَ السيارة كانت قوية؟ فأنت تتصرَّفُ بغرابة. يجب أن تُراجِع الطبيب حتماً».

- «مراجعة طبيب!» كان ساشكا على وشك أن يضحك، لكنه تَصوَّر فجأةً الشكّاءَ وهو يرتعد متشنِّجاً، وڤـيتكا بهذيانه، وآخَرين من المجموعة، والأهمُّ ذاك الذي أرْداه قتيلاً قبل شهر. هُرِع ساشكا إلى الحمَّام؛ فقد اجتاحَتْه نوبةُ قيءٍ طويلة، وقع بعدها على الأرض وراح يبكي. تخيَّل أمه بمرارة: «أمي، هل تحسبين أنك تعرفين كل شيء؟!» وتساقطت دموعه على الأرضية الزرقاء، فنظر حوله كما لو كان ينظر عبر عدسة مكبِّرة. «أمي، أنتِ بالطبع قَلِقة، وتتخيَّلين ما يُمكِن أن يحدث لي، ولكنك لن تستطيعي أبداً أن تتصوَّري أين كنتُ بالفعل».

نهض واقفاً، فغسل وجهه، وفتح الباب بحذرٍ. كانت كاتيا واقفةً إلى جواره.

سألته: «هل تشعر بغثيان؟ هذا هو الارتجاج تماماً. أعرف ذلك، لقد سقطتُ وأنا طفلة من فوق عارضةِ الرياضة وتقيَّأتُ بشكلٍ مريع. على الأقل انتظر حتى تعود أمي؛ فهي في النهاية طبيبة».

قال ساشكا بفظاظة: «ليته قُضِي عليَّ، لا وقتَ عندي للانتظار».

ارتدى معطفه وسطَ صمت ثقيل. ثم قالت كاتيا:

- «تستطيع أن تأتي متى شئت».

قال ساشكا وهو يُمسِك بقبضةِ الباب المعدنية الثقيلة: «إذا سنحَت الفرصة. إلى اللقاء».

خرج إلى الشارع، مُحاوِلاً ألَّا يَلْتفِت، بالرغم من إحساسه بأن كاتيا تقف على شرفة المدخل تُشيِّعه بنظراتها. فتاة ساذجة وطيبة. وتضاحك ساخراً: «هل رأيت جرذاناً؟! مسلوقة أم مشوية؟»

لم يكن يريد العودةَ إلى الأنقاض. لا سيما أن بيته أضحى قريباً. ربما كان عليه أن يعود إلى البيت، بوسع كيشا أن يتدبَّر أمرَ بزَّته العسكرية. ولكنْ ما إن خطا ساشكا خطوةً واحدة باتجاه البيت، حتى اجتاحته موجة رعب باردة. فجأةً انهارت ثقتُه بأن والدته ستغفر له. ماذا لو أخذَت تلومه وتَضِيق به ذَرْعاً لأنه خائن؟ وحتى ولو غفَرَت له، فماذا بعدُ؟ هل سيعمل كنَّاساً في مدرستها؟

سار ساشكا باتجاه المنطقة المحاصَرة. كلا، عليه أن يهدأ، ويَأْلف فكرةَ العودة إلى البيت. وقف على مَقربةٍ من مَقرِّ الحراسة الأول. هنا قد يُطلِقون النار. تبخَّرَت فجأةً كلُّ الأفكار من رأسه. ظلَّت الفكرة الأساسية فقط، ألَا وهي: كيف سيَعْبر سالماً؟ عجباً، فقد كان السكون شاملاً، وما من أثرٍ في أي مكانٍ حتى لأجسامٍ على شكل فأر. تسلَّل ساشكا عبر الأسلاك الشائكة، لم يصادفه أحد، لا هنا، ولا إلى الجنوب قليلاً.

كانت تَفُوح في غرفتهما رائحةٌ لذيذة، وكيشا يحرِّك حساءً ما في طَنجَرة.

- «أين علقتَ؟ لقد بحثتُ عنك نصفَ ساعة في المدينة. ظننتُ أنك لن تجتاز طوقَ الحصار وحدك. ولكنك عدتَ، تبيَّنَ أنهم أزالوه».

- «التقيتُ بفتاةٍ أعرفها». اقترب ساشكا من النار قائلاً: «كيشا، سأعود إلى بيتي».

لم يُبْدِ زميلُه استغراباً: «رافقَتْكَ السلامة. هل أقنعَتْك الفتاة؟»

- «كلا، هذا قراري».

تناوَلَ كيشا مفكَّ البَرَاغي والدارة عن الطاولة، واستلقى على سريره وراح يُثبِّت البُرْغيَّ.

- «آمل أنك لن ترحل اليومَ؟ لم يَعُد هناك وسائلُ نقلٍ».

- «لن أتمكَّن اليوم».

تابَعَ كيشا مُعالَجةَ ذاك البُرْغي المشؤوم، وهو يحكي كيف أطالَ البحثَ عن ساشكا، ثم قرَّر أخيراً العودةَ إلى البيت. لقد أنفَقَ الدراهمَ المسروقة على شراءِ أدويةٍ للشكَّاء، وكيسٍ كبير من الذُّرة البيضاء.

أنهى كيشا حكايته بقوله: «كنتُ أحمل الكيس وأشعر بالسعادة، وعند وصولي اكتشفتُ أنهم وزَّعوا المخصَّصات الغذائية. ظللنا وقتاً طويلاً نحملها إلى الطوابق العليا. لا بدَّ أن تكون رأيتَ فجوةً في أحدِ جدران غرفةِ أوليغ والشكَّاء؟ كانت تُستخدَم كخزنةٍ صغيرة، وما زالت حتى الآن. وضعنا لها باباً وأحكَمْنا إغلاقَه، وإلَّا فقد يسرقون ما فيها، لا مَحال!»

أبعَدَ كيشا الدارة جانباً، وتناوَلَ قطعةَ خبزٍ مجفَّف من تحت وسادته، وقضمه بتلذُّذ.

قال كيشا بنبرة حالمة: «يا للحياة التي سنعيشها هنا منذ اليوم! ستكون أنت قد رحلتَ إلى بيتك. بالمناسبة، اترك لي عنوانَك، فقد أزورك».

في الغرفة الكبيرة علا ضجيجٌ ولغط، كأنَّ فيها جَمْعاً كبيراً جاء من عدةِ وحداتٍ أخرى. يتجادلون، ويُدخِّنون، ويَكِيلون الشتائم. قطَّبَ ساشكا جبينَه.

صاح الشكَّاء ضاحكاً، وهو ينظر إلى كيشا وساشكا: «لماذا تجلسان كأكياسِ النُّفايات؟ تعالَيَا نلعب الورق!»

نفض كيشا يده: «لا نرغب في النظر إليهم وهم يَتجرَّعون الڤودكا. فأنا لا أشرب. تعالَ يا ساشكا نلعب بسلامٍ على مارك واحد».

اعترف ساشكا: «لا أحب لعب الورق، لا أرى جدوى منه. كما أنني لا أُجيد اللعب».

اندفع الشكَّاء عبر الممر الضيِّق إلى الغرفة، وهو يَتأمَّل ساشكا وكأنه حيوانٌ أسطوريٌّ: «أَلَا تجيد لعبَ الورق؟ ألستَ تكذب حقاً؟»

أحسَّ ساشكا بالحرج: «لا أكذب. لا أُحسِن لعبَ الورق، وما الغريب في هذا؟»

قال كيشا: «عندنا رجلٌ مستقيم؛ لا يتعاطى الخمر، ولا يُدخِّن، ولا يلعب الورق، ولا يُصاحِب الفتيات، والسرقةُ في نظره عار».

قال الشكَّاء بصِدق: «أنا لا أعتبر ذلك عاراً». وأخرَجَ من جيبه حفنةً من الكراميل الدبق. «هذه، مثلاً، سرقتُها. أتريد؟»

ضحك كيشا قائلاً: «الْتَهِمْها وحدك، فلا بُدَّ أن تُصاب بالسكَّري!»

- «وما هو مرض السكري هذا؟» ونظر الشكَّاء برعبٍ إلى الحلوى.

- «مرضٌ خطير جداً! تقرُّحاتٌ تغطي جسمَك، وتموت مِيتةَ الكلاب. وغالباً ما يحدث ذلك بسبب الحلوى المسروقة».

اعترض الشكَّاء وهو يدفع بقِطَع الحلوى في فمه: «أنت تكذب. لا يموت الناسُ من الْتِهام الطعام، بل يموتون من الجوع».

وافَقَ كيشا: «وأنا دائماً أعتقد ذلك. كانت أمي تُوصِيني دائماً: لا تَسرِق الكراميل، فهذا عملٌ سيئ. سيئ بالنسبة لمَن؟ إنه بالنسبة لي كان رائعاً!»

ساد الصمت إلى أن انتهى الشكَّاء من مضْغِ الحلوى وسأل:

- «وأنت، يا ساشا، هل صحيح أنه لم يَسْبق لك أن... أن صاحبْتَ فتاة؟»

تعالى ضحك كيشا قائلاً: «خَسِئتَ، أيها الغبي. هيا اركُلْه يا ساشكا، وإلَّا أضجَرَك بالثرثرة عن بطولاته الغرامية! يُناسِبه أن يكتب للصحف! فهو يكذب مثلما يأكل!»

استمرَّ الهيجان في الشقة حتى مطلع الصباح تقريباً، ظل ساشكا يسمع أصواتِ المخمورين وضحكهم وشجارهم القصير. وسرعان ما خلد الجميعُ للنوم، كلٌّ في مكان، وتَمكَّن أخيراً من إغماض عينَيْه.

13

صباحاً، أيقَظَ كيشا ساشكا وهو يهزُّه بخشونةٍ من ياقته.

- «هيا استيقظ أيها الخامل! لقد دعوا الجميعَ إلى اجتماعٍ عام، ربما ستبدأ المعركة».

- «أية معركة هذه؟! أنا سأعود إلى البيت».

- «هيا أسرِعْ، أوليغ سيُقرِّر، كلٌّ حسب وجهته». ارتدى كيشا بزَّتَه، فبدا رجُلاً بالغاً وغريباً. «هيَّا، تَحرَّك، ما لكَ مُستَلْقٍ مثل الجِيفة!»

ارتدى ساشكا ثيابَه أيضاً، ودلف إلى غرفةِ أوليغ، فوجده يُخرِج من دُرْج الطاولة بعضَ القوائم.

- «أوليغ، لقد قررتُ أن أرجع إلى البيت اليوم!»

فكَّر أوليغ مَلِياً: «إلى البيت! لقد تسلَّمتَ مُخصَّصاتك لشهرٍ كامل. يجب أن تكون اليومَ موجوداً، وعندما تَنفضُّ هذه المهزلة، يُمكِنك أن تُغادِر فوراً. عليك بالحيطة هناك، في ساحة المعركة، وإلَّا سيُجهِزون عليك أخيراً».

حاوَلَ ساشكا أن يقول شيئاً ما، لكنه أدرك أنه لا جدوى من ذلك.

قال كيشا موضِّحاً أثناء المسير: «هل تذكر، لقد أخبرتُك: هناك مساحةٌ صغيرة مُعَدَّة لتكون ساحةَ استعراض، وهناك طريقٌ أيضاً. يأتي الضباط إلى هناك بالسيارات. الآن سيتم استلام المهام والأسلحة. إذا نجَحَ هجومُنا، فسيدفعون لنا بسخاءٍ، وقد تصل حصةُ الفرد إلى مائة مارك!»

هذه الفسحةُ كانت يوماً ما طريقاً، وعلى مَقربةٍ منها بقايا مبانٍ قرميدية ذاتِ أدوارٍ ثلاثة، أحدُها مَطْليٌّ باللون الأسود، وعند مَدخله يافطةٌ كُتِب عليها بأحرفٍ ذهبية: «مكتبُ الخدمات العسكرية». يوجد حول المكتب أحواضٌ مهملة، فيها زهورٌ ذابلة. توافَدَ إلى المكتب أعدادٌ كبيرة من الجنود بثيابهم الداكنة. بدا بعضُهم أنيقاً في بدلاتٍ مرتبة، بينما كانت بدلاتُ البعض الآخَر رثَّةً باهتة. وظهرت في الساحة عِدَّةُ مجموعاتٍ من المُقاتِلين في ستراتٍ مُمزَّقةٍ شبهِ رمادية.

قال كيشا موضحاً: «هؤلاء حُثالات متنوعة، تُناط بهم المهامُّ الصعبة، وتتولى أمرَهم وَحْدةُ المهامِّ الخاصة».

سرعانَ ما اقتربت من الساحة عَرَبةٌ حديثة زرقاءُ اللون، ترجَّلَ منها شخصٌ ضئيلُ القامة، دميمٌ بشاربَيْن ولحية، يرتدي ثياباً جلدية، وقبعة وجزمة أنيقة، وتتدلَّى فوق صدره بعضُ الأوسمة. يرافقه عددٌ من الضباط بأجسامهم الضخمة الممتلئة، وأسلحتهم الرشَّاشة، يَتْبعهم بضعة عناصر في لباس مدني. قال ساشكا في سرِّه: «لعلهم لا يَشْكون من الجوع. إنهم مُتخَمون».

عقَّبَ كيشا: «أرأيتَ؟ ها هو ذا توفِّلْت. يُقال إنه تدرَّجَ من عنصرِ مُداهَمةٍ عادي إلى رتبةِ جنرال. رجلٌ كالطاعون. يقول كلاماً معقولاً، ستستمع إليه الآن. إلا أنه لا يحبُّ حرسَ القائد؛ سمعتُ أنه طُرِد منها مع حاشيته شرَّ طردٍ.

اصطفَّ جنودُ الاقتحام في الساحة على عَجَل، كان عددُهم ثمانمائة رجل. واصطفَّت وحدةُ فـيتكا بجوارِ وحداتِ فولكوف ورجلٍ عملاق أسمر، ذي شَعرٍ طويل أشعث.

تابَعَ كيشا ثرثرته: «إنه الغوريلَّا تيم. بضربةٍ واحدة من يده يُحطِّم ثلاثةَ أحجار قرميد، وأمسَكَ ذات مرَّةٍ بغُرابٍ حيٍّ فشطَرَه نصفَيْن. رجلٌ كهذا يُمكِن أن تَنتفِعَ من صُحْبته!»

دخل توفليت المبنى وخرج إلى شرفة في الدور الثالث. وقف يختلس النظرَ إلى الجموع من تحت حاجبَيْه الكثَّيْن. صمت الجميع.

كان صوته هادئاً ومستعطفاً: «يا حُماةَ مدينتنا! إننا نعيش أياماً عصيبة. لقد دخلَت طوائفُ غريبةٌ على ثقافتنا لتحتلَّ ضواحينا. إنهم يعيشون حياةً فاحشة تهدِّد حياتَنا بالخطر. هل نستطيع الخروجَ إلى الشارع من دون أن نخشى على أنفُسِنا؟ ألَا نخاف على أمهاتنا؟ ألَا نخاف على رفيقاتنا؟ يُمكِنكم تجاهُلُ كلماتي هذه! ليكن!» ثم صاح توفِّلْت بصوتٍ أعلى: «سيأتي هؤلاء المنشقُّون لاقتلاعِ قلوبكم! لقد عرفتم الجوع! وعانَيْتُم من البرد والخوف! لم يكن لديكم المالُ لإطعام أُسَركم، وشراءِ الثياب اللائقة بكم!»

تعالَت الصيحاتُ في الساحة: «نعم... ـم... ـم!»

- «هل تعلمون مَن المسؤول عن كل ذلك؟ سأخبركم! إنهم عَبَدةُ الشياطين الملعونون والمتشرِّدون! أولئك هم أعداؤنا! هم مَن يهدِّد مدينتَنا! هم الخطر على حريتنا وعلينا! لقد خانوا عهدَنا! لا يريدون لنا النصر، وينادون بالسلام! سنُدمِّر مواقعَهم! سيموتون جميعاً!»

صاحت الجموع مجدداً: «نعم... ـم... ـم!»

جأر توفِّلت: «سنَجْلدهم!

سنخرج إلى الشارع ذاتَ صباح ونستنشق الهواءَ بمِلْءِ رئاتنا. سنرى السماء الصافية! ونستمع لأهازيج النصر. النصر. آنذاك ستُدرِك معنى السعادة! حينَها سيُصبِح العالَمُ مِلكاً لنا، ولا مكانَ فيه للسَّفلة!»

- «نعم... ـم... ـم!»

- «سنُطهِّر مدينتَنا من الأنجاس! نحن المطهِّرون! نحن، شبابَ المغاوير، أشرسُ شبابٍ على وجه الأرض!»

- «نعم... ـم... ـم!»

قال توفِّلْت: «إذا جبنت فسأهلك!» وانحنى فوق الشرفة، وهو يتفرَّس في الحشد. بَدَت نظرتُه وحشيةً ومرعبة.

صاح الرجال فَرِحين: «سأهلِك!»

- «وإذا جبن صديقي فسيموت!»

- «سيموت!»

وانتقل توفِّلت إلى الصراخ العالي: «فَلْيرفع الموافِقون أيديَهم لأراها!» وغدا رأسُه يرتجف، واتَّسَع منخراه من شدة الانفعال.

جأر الجميع رافعين أياديهم: «نعم... ـم... ـم!»

- «نعم... ـم... ـم!» أدرك ساشكا أنه يرفع يدَه أيضاً ويشاركهم الصراخ. وبجواره ڤـيتكا يَجْأر أيضاً. يغطي زَبَدٌ شفتَيْه، وعيناه زائغتان، وقد بدا بصراخه فاقداً زمامَه تماماً.

- «احملوا أسلحتَكم وَلْنتقدَّم! الضباطُ سيُخبِرون كلَّ مجموعة مَن عليها أن تقتل. لقد بدأت حملةُ تنظيفِ المدينة! بعد المعركة سيقبض كلٌّ منكم ثلاثين ماركاً!»

تعالى هدير الجموع: «أورا... ا... ا!»

رفع توفِّلْت قبضته فوق رأسه قائلاً: «إلى المعركة، يا شباب!» ثم انصرف.

اجتاحَت الميدانَ فوضى عارمة؛ واصَلَ بعضهم الصياحَ باتجاه الشرفة الخاوية، ثم تفرَّقوا يهرعون باتجاه قادتهم. أدرك ساشكا أنهم قد يَدُوسونه بأقدامهم.

جرَّ كيشا ساشكا خلفه، قائلاً: «رائع! سنُلقِّنهم درساً لن ينسوه!»

كان ساشكا يجري خلف رفيقه، لا يَفْهم ماذا عليه أن يفعل. ليس هناك ما يَدْفعه لمُعادَاة الهيبيِّين. إنهم لم يهدِّدوه يوماً. بجوارِ بناءٍ مُؤلَّف من ثلاثة طوابق، كان ڤـيتكا -وقد ثاب إلى رشده- يوزِّع على مجموعته رشَّاشاتٍ وقنابلَ يدوية.

تساءل ساشكا: «ولماذا القنابل؟»

قال شيز بشماتة: «سنقتحم بها أبوابَ الأقبية. إذا رأيتَ الهيبيِّين يعشِّشون هناك، فاقذِفْهم بها مُباشَرةً».

حشر ساشكا قنبلةً تحت حزامه، وألقى برشاشه فوق كتفه وانطلق.

صاح كيشا: «الآن، إلى المتجر! حيث مررنا ذاتَ مرةٍ، هل تذكر؟ إنهم يَقْبعون هناك! لقد قبضوا على الشكَّاء في الصيف وأَوْسَعوه ضرباً. سنَثْأر لصديقنا منهم!»

لكن ڤـيتكا قاد مجموعته إلى حيٍّ آخَر. هناك وكرُ «الهيبيين الأشرار»، الذي كان لا بُدَّ من تطهيره.

أفصح ڤـيتكا: «تَعدادُهم هناك أربعون شخصاً. أغلبُهم بنات. لذلك لن يطول بنا الوقت عندهم».

تساءل جينكا كونكوف: «كيف سنتعاملُ مع الفتيات؟ هل يُعقَل أن نُصفِّيهنَّ؟!»

عقَّبَ شيز: «بالتأكيد، التصفية! هنَّ مَنْبع الشرور! علينا أن نساعد أرواحَهن الضالةَ على إيجاد السلام».

أضاف أوليغ: «ڤـيتكا يمزح. إن استسلمْنَ، فهنَّ أسيراتٌ لدينا. وفيما بعدُ نبيعهنَّ لسكان الصحاري، أو «للأخوة الحُمْر» ليَعْملْنَ في الحقول».

ظلَّ ساشكا صامتاً ومتجهماً طوالَ الطريق. تلاشى الحماسُ الذي أثاره فيه خطابُ توفِّلْت، وبات كلُّ ما يحدث لا يروق له.

كانت الضواحي صاخبةً، ويَتعالى الضجيجُ في كل المواقع؛ تبادُل لإطلاق النار لا يهدأ، وانفجارات قنابل مُدوِّية. كلما اقتربوا من الوكر، ازداد زخَمُ تبادُلِ إطلاق النار. وعلى مَقربةٍ، دوَّت رَشقاتُ رشَّاش.

قال كيشا بلهجةِ خبيرٍ: «لديهم سلاحٌ رائع، سرقوه من مُدرَّعة».

قال أوليغ: «هناك تَرْبِض وحدةُ غوريلا».

اقترب شابٌّ يَصِيح من مجموعة تيم: «أحد الهيبيين مُزوَّد برشَّاش في مُلحَقٍ على سطحِ بناءٍ من طابِقَين! إنهم يَتحصَّنون هناك. نحن بحاجةٍ إلى قاذفِ قنابل».

قال أوليغ: «لدينا واحد. وماذا أيضاً؟»

تابع الشاب: «لا شيء. لقد استولَيْنا على المستودَع فوراً. هناك حارسٌ عجوز، سرعانَ ما ولَّى الأدبارَ مذعوراً. تقدَّمْنا بعدَها باتجاهِ سكنِهم؛ بناء ضيِّق من دور واحد، وجدنا فيه رجالاً لا حولَ لهم ولا قوة، ونساء مثلهم. اقتحَمَ تيم المكانَ ولطَمَ الأول منهم فتناثَرَت أسنانُه على الأرض، ولطَمَ الثاني أيضاً! باختصار، تسلَّيْنا هناك بما فيه الكفاية. حشرنا الباقين في القبو. يبدو أنهم، حتى الآن، لم يفهموا ما يحدث. حالُهم حالُ المخبولين. أمَّا النادي، فلم نَتمكَّن من اقتحامه؛ لقد اكتشفوا أمرنا وراحوا يصرخون: «ماذا تريدون؟» فأطلق رفيقُنا «سيلوس» النارَ عليهم من رشَّاشه، فأيقظهم وأخذوا يصيحون من جديد: «كلاب، خنازير، لن تنالوا منَّا». وشرعوا يُمطِروننا برصاص رشَّاشاتهم.

تساءل أوليغ: «أين تيم؟»

- «في مسكنهم».

- «أهناك شيءٌ بعدُ؟»

- «يبدو أنَّ لديهم متجراً هناك، خلف السكنِ مُباشَرةً، لم ندخله. علينا أن نحلَّ الأمورَ هنا أولاً».

أصدر أوليغ الأوامر: «يأخذ قائدُ المجموعة رشَّاشَه وينطلق برفقةِ كيشا باتجاهِ غوريلا. وأزحفُ أنا وليوڤا وكونكوف باتجاه الأنقاض، ونجسُّ نبضَهم من الجهة الجنوبية. ويتَّجِه يرخوف نحو المستودَع، فيَحْمي ظهرَنا من هناك. خُذْ معك قنبلتَيْن، وإذا صادَفْتَ أيَّ قبوٍ فاقرعْ بهما بابَه».

هزَّ ساشكا كتفَيْه وانطلق في الاتجاه المطلوب. وتَعالَى مجدداً دويُّ الرشَّاش الذي كان قد خمد لبعض الوقت. وتردَّدَ صوتُ إطلاقِ النار من بندقية. ثم دوَّى انفجار، فصمت الرشَّاش. تبيَّنَ أن المستودَع بناءٌ له مدخل واحد. عند الباب تمدَّدَ رجلٌ محطَّمُ الرأس، يبدو أنه الحارس. تخطَّى ساشكا الجثَّة، وقصد المدخلَ، وتعالى تحت قدمَيْه صريرُ شظايا المصابيح الزجاجية المكسَّرة. ليس هناك أيُّ قبوٍ. تفوح الرطوبة هنا.

راوح ساشكا مكانه هنيهةً، وصعد السُّلَّم متردِّداً. دفع الباب وتقدَّم على طول الممر، ثم رفع سلاحَه وتفحَّصَ بنظره إحدى الغُرَف. النوافذ مُوصَدة بإحكامٍ بقِطَع من الخشب. في الزاوية تكدَّست بِضعُ رزمٍ قماشية. وعلى مَقربةٍ منها، تَراءى جهازُ بيانو معطوب المفاتيح، وخِزانة فيها قِطَع حديدية. تابع ساشكا تقدُّمه. الغرفُ الأخرى ليس فيها شيءٌ ذو أهمية؛ عِدَّة بلوزاتٍ قصيرة عليها شعار «باسيفيك»، وبضع ستراتٍ طُبِع عليها شعار «السِّلْم والصداقة»، وأشياء أخرى تافهة. كان هناك أيضاً قِطَعٌ من أجهزة راديو، وأخرى معدنية، وأُصُص أزهارٍ، وعددٌ كبير من الحقن، منها الزجاجية ومنها الأحادية الاستعمال. جلس ساشكا أخيراً على كيس كبير به قماش في غرفةٍ بنافذةٍ وحيدة مُشرَّعة. توقَّفَ إطلاقُ النار فعلياً. وهنا، عبر الممر، سُمِع حفيفٌ مسموع بالكاد.

رفع ساشكا سلاحَه، وتقدَّمَ نحو الباب بحذرٍ. كان أحدهم يتسلَّل من هناك. دفع البابَ بكتفه ودون أن ينظر، أطلق طلقةً من سلاحه، كما علَّموهم، على مستوى صدر العدوِّ المفترَض. وانساب من هناك بكاءُ مُستغِيثٍ؛ طفل في السابعة من عمره، كان ينبطح أرضاً قُربَ الباب. تنفَّس ساشكا الصُّعَداء قائلاً: «أخطأتُ الهدف. كم أنا أحمق! ماذا لو كان هذا أحدَ رفاقنا؟»

تقدَّم من الصبيِّ بتُؤَدةٍ وانحنى فوقه.

تضرَّعَ الصبيُّ وهو يتكوَّر هلعاً: «أرجوك، يا عمَّاه، لا تقتلني!»

سأله ساشكا: «ماذا تفعل هنا؟ هل أنت من الهيبيين؟» ولكنَّ الصبيَّ ظلَّ يُردِّد: «لا تقتلني».

- «وما حاجتي إليك!» رفع ساشكا الصبيَّ من ياقة كنزته الوَسِخة مُحاوِلاً إدخالَه الغرفة. وسرعان ما سمِعَ وقْعَ خطواتٍ تتقدَّم عبر السُّلَّم.

صاح ساشكا: «قِفْ. سأطلق النار!»

جاءه صوت ليوڤـا: «أنا صديق أيها الحيوان!» فأخفَضَ ساشكا سلاحه.

قال الأمغر وقد ظهر في الممر: «ما لك علقتَ هنا؟ لقد انتهَت المعركة!» وحين رأى الصبيَّ، تساءل: «ومَن هذا المتعفِّن؟»

- «لا أعرف. ربما يجب إلحاقُه بالأسرى».

واقترب ليوڤـا منه تماماً قائلاً: «بالأسرى!» بدا غريباً، إمَّا أنه أفرَطَ في الشراب أو التدخين قبل المعركة. «ليف لا يأخذ أسرى!»

ارتعب ساشكا حين رأى الأمغر كيف يُصوِّب سلاحه، وصاح:

- «ماذا تفعل؟!»

كان ليوڤا جاداً. انطرح الصبي أرضاً، وغطَّى رأسَه بيدَيْه وراح يصيح.

- «توقَّفْ!» أمسَكَ ساشكا البندقية وأزاح فُوَّهتَها جانباً. «توقَّفْ، أيها المَسْخ!»

تعارَكَ الاثنان مدةً لا تتجاوز دقيقةً واحدة. يحاول ليوڤـا التسديد، ويحاول ساشكا ثَنْيه عن ذلك. انطلقت الطلقة أخيراً، وخيَّمَ صمتٌ مُطبِق.

تضاحك ليوڤـا كالمعتوه: «هل تريد أن أقتلك أنت أيضاً؟ لن أتردَّد في قتلك. هل تدري كَمْ من الصغارِ أمثالِك قتلتُ؟ ثم سألقي اللومَ على المتشرِّدين».

رفع ساشكا سلاحَه على مهلٍ وأطلق طلقةً منه، ثم تلاها بأخرى. انطرح ليوڤا أرضاً، فوق كومةٍ من القرميد بجانبه، نحو زاوية الممر.

حوَّلَ ساشكا الكلاشينكوف إلى وضعيةِ الإطلاق دِرَاكاً، واقترب من ليوڤا الراقد على الأرض، وبعث بطلقةٍ أخرى في الرأس. ثم قذف بسلاحه فوقَ جسد ليوڤا. سُمِعت أصواتٌ عند المدخل؛ كان أوليغ وكيشا يتحادثان. دخل ساشكا الغرفةَ مُسرِعاً وقذف بنفسه عبر النافذة المفتوحة. لا أحدَ في الجوار. أصواتٌ مُخِيفة تنبعث من مقرِّ النادي، ويَصْدح ترنيم ڤـيتكا: «آومـ... ـم... ـم!» ربما في الواقع، وربما في ذهن ساشكا.

14

أخبار النصر راحت تطارد ساشكا أينما اتجه. كان يَعْدو هارباً من هذا الانتصار كمَن يهرب من الطاعون، وتعالَت الصيحات: «أورا» هنا وهناك، وسُمِع

صوت قهقهة، وإطلاق نار أرْعن. بعد ذلك قبضت عليه مجموعةٌ من الشبَّان بثيابهم السوداء، وبُقَع داكنة فوق أكمامهم. جَأروا في وجهه: «النصر!» أفلَتَ منهم وهرب، هرب من ذاك الانتصار على الشر المرمي على الأرض في المستودَع، في نُقرة دماء. ومن الانتصار على الشر المتمثِّل في الهيبيين المتشرِّدين؛ أولئك البؤساء، الذين يقضي عليهم الآن «الغوريلا تيم» من دونِ رحمة. لم يكن هناك مكانٌ يختبئ ساشكا فيه، فلم يَبْقَ أمامه سوى الهرب.

في مكانٍ غيرِ بعيدٍ عن مَعْبر الخروج من الأنقاض، انزلق ساشكا ووقع أرضاً. «هل تريد أن أقتلك أنت أيضاً؟» لا تنفك تلك العبارة تتردَّد قهقهةً في أذنَيْه. لماذا؟ لماذا قُتِل المتشرِّدون؟ لماذا قُتِل ليوڤا؟ ما الحاجة لذلك؟ الشرُّ هزم الشرَّ؟ «مصنع الأبطال... إذا جبنْتُ فَلْأَمُتْ... أيها المتشرِّدون الملاعين، عَبَدة الشيطان!... عمَّاه، لا تقتلني!» تساقَطَ ثلجٌ ناعم. عصفت الريحُ وأحاطت ساشكا بزوبعةٍ حلزونيةٍ بيضاء، كأنها تُحاوِل إخفاءَه عن الجميع. كان ساشكا ينغرز في الأرض مُدرِكاً أنه يَفْقد عقله. أحاط به صوتٌ كالرعد. وتَعالى صراخٌ من كل صَوْبٍ يتردَّد بصوته وبأصواتِ آخَرين مكرراً: «آومـ... ـم... ـم!»

- «هناك أربعون شخصاً فقط». «أنت الآن مأجور، وستُطلِق النارَ تبعاً لأوامرهم!» «أمي! أمَّاه! أين أنتِ؟! أنقِذيني! سأكون إنساناً طيباً! سأكون..».

- «هيه، أيها الأخ! هل أنت جريح؟»

رفع ساشكا رأسَه بصعوبة.

- «قدماك مُلطَّختان بالدم!» ظهر أمام ساشكا رجلٌ طويل ذو شاربَيْن، يرتدي بزَّةً سوداء، عليها شارة «وحدة المهام الخاصة». «ظننت أن المتشردين أصابوك».

قال ساشكا: «كلا... أنا... مَن قَتَل..».

تفحَّصَه الرجل بتمعُّنٍ ثم ابتسم:

- «هذه مهنتنا، يا صاحبي».

ابتعد الرجل، ونهض ساشكا. فعلاً كان مُلطَّخاً بالوَحْل وبدهانٍ أبيض، وبدمِ «ليوڤـا». نظر حانقاً إلى الوحدات وهي تحتفل بالنصر، وانطلق مبتعداً.

في مركز المدينة كان الثلج يتساقط بغزارةٍ أكثر. يتناثر الرذاذ الأبيض فوق الوحل، ويستحيل بدوره وحْلاً. إنه أعدلُ قانون على وجه الأرض: من المحال أن تظلَّ أبيضَ في القذارة. اتجه ساشكا إلى البيتِ وهو ينزلق فيخلط

الثلجَ بالوحلِ بحذائه، ويَغُوص في نُقرات الماء. كان ذاهباً إلى البيت، حيث تكون والدته. لم يَعُد يكترث لما ستقوله. ستخاف، وتبكي وتلومه. أخيراً، لا بُدَّ أن تسامحه. كان المارَّةُ ينظرون إليه باستغراب، بحقدٍ، برعبٍ، ينفرون جانباً، يَعْبرون إلى الجانب الآخَر من الشارع. هؤلاء يعيشون في عالَمٍ آخر، قَذِر أيضاً، لكنه مريحٌ على طريقته. لم يعرفوا سوى القليلِ عن معركة اليوم. ولعلَّ والدته لا تعرف شيئاً أيضاً.

تمثالُ الجندي في ميدان الحرية صامت، مُتَّشِحٌ بالثلج، ينظر بعنفوان صوْبَ الشمال، مُشِيحاً بوجهه عن الأنقاض. لهذا الجنديِّ ماضٍ بطوليٌّ. هو لم يقتل الأطفال، ولم يتذلَّل «للأخوة الحُمْر»، ولم يسرق أيضاً. لقد انتصر في معارك الشرف، لذلك خلَّدُوه في تمثالٍ من حجر. رفع ساشكا يدَه بالتحية. ظلَّ التمثال ينظر باعتدادٍ، ولم يردَّ التحية.

لم يَبْقَ أمامه سوى القليل حتى يصل. وما إن بلغ زاويةَ بيته حتى توقَّف. شاهَدَ ضوءاً في نافذة غرفتهم. راح يُحدِّق، منتظراً، لسببٍ ما، أن تطلَّ أمه فتراه. اقترب منه قِطُّ الجيران الذي كان يتعرَّف حالاً على ساشكا كلما جاء، فيحكُّ ظهرَه بقدمَيْ ساشكا الذي عرفه للتوِّ. تشمَّمَ القِط بريبةٍ رائحةَ سرواله الملطَّخ بالوحل والدم، وأسرع فتوارى في المدخل. ولحق به ساشكا.

كان المدخل كئيباً ومظلماً. وكانت العمَّة ليزا، تُنحِّي أُصصَ الأزهار عن حافة النافذة.

قال ساشكا بصوتٍ خفيض: «مرحباً».

- «ساشنكا!» وسقط أَصِيصُ الفخَّار ذو الزخرفة المغبرة على الأرض وتحطَّم. «ساشا، لقد عدتَ! هل أنت جريح؟ أين كنت مختبئاً؟» لحق بساشكا سيلٌ من أسئلةٍ نسائية لا بدَّ منها، لكنه سار مُباشرةً باتجاهِ شقتهم في الطابق الثاني. فتح الباب شابٌّ غريبٌ يرتدي سترة بحَّارة سميكة، وخلف ظهره رأى ساشكا مِرآةً ليست مِرآتَهم، ورفوفَ أحذيةٍ غريبة أيضاً، وكلباً سميناً أصهبَ.

سأله الشاب: «ماذا تريد؟»

هزَّ ساشكا رأسَه ببلاهةٍ، متلعثماً: «أنا... أنا..».

نادَتْه العمة ليزا بحذرٍ: «ساشا، تعالَ إلينا، نحن بانتظارك».

جلس ساشكا في مطبخ جيرانه، على أريكةٍ كبيرة مريحة، يُنصِت إلى حديثِ العمِّ ڤيتيا وكأنَّ أذنَيْه محشوتان بالقطن:

- «ظننا أنك اختفيتَ للأبد. أولَ أمسِ وارَيْناها الثّرَى. لم أشأ أن أخبِرَك عبر الهاتف..».

راح ساشكا ينظر إلى الكأس المشروخة فوق الطاولة وهو يبتلع دموعه. احتضنَتْه العمَّةُ ليزا، وراحَتْ تهدهده مثل طفل. فكَّرَ ساشكا: «الحقُّ علَيَّ... لم أخابِرها منذ مدة طويلة».

اغتسَلَ، وغسـل ثيابَه، وتناول بعض الطعام يغصُّ باللقمة مثل حجر فـي بلعومه. أخذَته العمَّةُ إلى غرفةٍ صغيرة كانت مُستودَعاً من قبلُ. لـم تكن تتَّسِع إلا لأريكةٍ ضيِّقة. ارتمى ساشكا فوقَها ودفن رأسَه بوسادةٍ مزركشة، وواصَلَ البكاء.

تساءلت العمة ليزا من خلف الجدار: «ماذا سنفعل الآن؟» وأجابها العم ڤـيتيا بتمتمةٍ مبهمة بصوت خفيض. ازداد ساشكا تكوُّراً على نفسه مُناجِياً نفسه: «ماذا سيفعلان بي؟! كل الأمور سواء الآن».

عندما أرخى الليل سدولَه في الخارج، وكان ساشكا يحملق في زخرفةِ ورق الجدران بشرود، دخل العمُّ ڤـيتيا الغرفةَ.

- «هيا بنا، سنذهب إلى شقتك».

تساءل ساشكا برعبٍ: «لماذا؟»

- «أمتعتُكَ هناك، يُمكِنك أن تأخذ ما أنت بحاجةٍ إليه».

ومسح بقايا دموعه بأكمامه متسائلاً: «ومَنْ هناك؟»

- «لا أعلم عنه شيئاً. أحضروهم أول أمس مساءً. كان بوُدِّي أن أقترح عليك العيش معنا هنا، لكني لا أستطيع؛ فالشرطة تبحث عنك، وربما المكتب أيضاً، أنت تدرك ذلك... خاصةً أنك -كما فهمت- من عناصر المغاوير الآن؟»

أطرق ساشكا صامتاً.

- «نعم... لم يَسْبق أن سمعتُ أن الشبابَ هناك أناسٌ عاديون. لن تصبح إنساناً هناك، بل ستُصبِح قاتلاً. وأنا واثق من ذلك. هل تريد نصيحة؟ غادِرْ، قبل فوات الأوان. اذهب إلى أي مكان. هل تسمعني؟»

- «نعم، شكراً على نصيحتك». وأشاح ساشكا بوجهه: «دَعْنا نذهب إلى هناك، إلى شقتنا».

طرأت تغيَّرات كثيرة على الغرفة، ولكن بعض الأشياء ظلت في أماكنها. حاوَلَ ساشكا ألَّا ينظر إلى الأثاث القديم، أو ساعة الحائط، أو المربعات الباهتة على ورق الجدران، حيث كانت صورهم مُعلَّقة من قبلُ.

قال الشاب ابن السكان الجُدُد: «كل الأشياء هناك في الزاوية، في المستودَع».

جلس ساشكا القُرْفُصاء أمام ما يخصُّه هو وأمَّه من أشياء. ليست بالكثيرة، صندوقان صغيران. ظلَّ جالساً دون حَرَاك بعض الوقت، ثم فتح أحدَهما بحَذَرٍ. وجد على السطح أشياءَ تافهة؛ مجموعةَ كتبٍ عن الجواسيس والفرسان، وألبوماً عليه صور سُفن. قطَّبَ ساشكا حاجبَيْه وأفرغ محتوى الصندوق على الأرض، ثم الْتَقَط محفظةَ نقود جلدية، وأحصى ما فيها؛ أربعة وعشرين ماركاً وبعض القِطَع المعدنية. دسَّها في جيبه. تناثَرَت بِضعُ صورٍ. أراد أن يُبعِدها فلا ينظر إليها، لكنه لم يَستطِع. تفرَّج على الصور المصفرَّة. ها هما والداه في شبابهما، صور العُرْس، هو ذاته في عربته الصغيرة، وكذلك وهو في الصف الأول الابتدائي. أذناه بارزتان بسببِ شعره الحليق، وأزرار كبيرة لامعة تزيِّن صدريته المدرسية... كان قد سقط زوجٌ من أسنانه الأمامية. وبالرغم من إصرار صاحب الكاميرا على أن يبتسم، ظلّ ساشكا متجهِّماً. ثم صورة لغرفة الصفِّ، وها هي سَرِية المراسم في الساحة، هو وإيليا في المقدمة. جمع ساشكا الصورَ ووضعها في قاع الصندوق وكدَّسَ فوقَها الكتب.

كان الصندوق الثاني مَحْشواً بالثياب. نزع ساشكا محفظةَ حقيبةِ الظهر المعلَّقة على الحائط، وهذا يعني أن أمه اكتشفت مكانها تحت الأريكة، وأدركت يومَها أنه راحلٌ إلى مكانٍ ما، فوضع فيها ثيابَه الدافئة، ثم فكَّرَ قليلاً وأضاف الملابسَ التي لم تَعُد تناسبه. فكر وكأنه حقاً قرَّر أن يعود إلى الأنقاض: «سأعطيها للشكَّاء». عندما نهض واقفاً لمس بمِرفَقه صُرَّة صغيرة فوق أحد الرفوف، فتناثَرَت منها زجاجاتُ كواشف كيميائية كان يستعملها ساشكا، ونابُه الذي تحجَّرَ. وقف ساشكا صامتاً، ثم جلس وشرع يَجْمع حاجياته وهو يمسح دموعاً ملأت عينَيْه، ودسَّ الناب في جيبه.

في الغرفة، شغَّلَ الساكن الجديد المسجِّلة، فانسابت منها موسيقى هادئة. حزم ساشكا حقيبتَه وسار في الممر. كان العم ڤـيتيا واقفاً على بسطة الدَّرَج في انتظاره.

سأله العمُّ: «هل أنت جاهز؟ وماذا عن باقي الأمتعة؟»

- «ذلك لا يهمني».

- «سرعان ما يحلّ الظلام. هل ستغادر الآن؟»

خمَّن ساشكا في نفسه: «سيكون سعيداً إذا غادرت». فرغب في المغادَرة بأقصى سرعة مُمكِنة. لكن العمة ليزا خرجت إليهما، تفوَّهت بكلامٍ ما، وأخذت ساشكا إلى شقتها، فأطاعها.

تركوه في خَلْوته وحيداً. ظلَ يتقلَّب طوالَ الليل، يغفو تارةً، ويقفز مستيقظاً يتصبَّب عَرَقاً بارداً تارةً أخرى. يُؤرِّقه العَرقُ البارد. كانت أفكارُه كلها تدور حول شيءٍ واحد: «أنا المذنب. كلُّ الشرِّ منِّي». ما إن انبلَجَ الصبح، حتى تسلَّلَ ساشكا من الغرفة، وغادَرَ من دونِ أن يُودِّع أحداً.

في الخارج، بدا الجو أكثر دِفْئاً، ذابَت أكوامُ الثلوج، وانهرسَت تحت أقدامه عجينةً قاتمة. مرَّت به سيَّارةٌ مُسرِعة ورشقته بخليطٍ من الوحْلِ والثلج الذائب، ولكنه لم يُلْقِ بالاً إلى ذلك. كان يشعر بأن عليه أن يُسرِع بالعودة إلى الأنقاض. هنا، في مركز المدينة، لم يَبْقَ مَن هو بحاجةٍ إلى ساشكا. وهناك؟ هناك، على الأغلب، قد يُسلِّمونه لوحدة المهام الخاصة، ثم يَعْدمونه رمياً بالرصاص. قد يكون ذلك أفضلَ، له وللآخرين أيضاً. في الحقيقة، لماذا يعيش؟ هل يعيش لكي يُنفِّذ أوامرَ ضابطٍ معتوهٍ، ويهاجم الناسَ برشَّاشه؟

كان الفتى غوغا، من وحدة «الخَل»، منبطحاً على الأكياس المكدَّسة عند مدخل البناء.

بادَرَه مُرحِّباً: «هيا اجلس. بلَغَني أنك قتلتَ أحدَ رِفاقك؟ وهذا يحدث».

جلس ساشكا صامتاً.

سأله غوغا بنبرةِ تَعاطُف: «هل تريد شراباً؟ عندما تشعر بالبرد والقرف، أفضلُ شيء تفعله هو أن تشرب». وأخرج من جيب سترته زجاجةً صغيرة مفتوحة، كريهةَ الرائحة. «يأذن لنا القائد بأن نُدفئ أنفُسَنا. إنه رجل مستقيم».

سائلٌ يُثِير الغثيان ويكوي الحنجرة، أصاب ساشكا بنوبةِ سعالٍ حادٍّ، وطفحَت عيناه بالدموع.

- «كُفَّ عن السعال. ما دمتَ تقتل الناس بحِرَفية، فلا بد أن تفعل ما يفعله عنصرٌ من وحدة المغاوير. نحن لسنا مثل المتشرِّدين، نحن ذئابُ الأنقاض. هل تفهم؟ الآن نحن السادة هنا».

لاذا بالصمت. نظر غوغا إلى الزجاجة، شرب جرعةً على عَجَل، ثم دسَّها في جيبه.

- «لقد أَرْدَيتَ ليوڤـا قتيلاً. كاد عناصرُ مجموعتكم أن يتمرَّغوا في دمه وهم يَدْفنون جثتَه. وذاك، الفتى ذو القبعة، كيشا، أطلق ساقَيْه للريح. اشربْ ثانيةً».

شعر ساشكا بشللٍ في يدَيْه، وخدَرٍ في قدمَيْه.

قال وهو يتشبَّث بكُمَّيْ غوغا: «لم أكن أنوي قتله. لقد أطلَقَ النارَ من مسافةٍ قصيرة على صبيٍّ صغير لم يَقترف ذنباً، كان يَترجَّاه ألَّا يُطلِق النار عليه!»

قال الشاب بهدوء: «لكنها معركة، في المعركة كلُّ شيء جائز. أنت تسرَّعْتَ. لا سيما أن ليوڤا يتعاطى المخدِّرات، وكانت ستقضي عليه في جميع الأحوال. ببساطة، لم يكن ليوڤـا يَرُوق لك. أنا الآن، مثلاً، إن لم أنَلْ إعجابَك، فهل تقتلني؟»

- «لستُ أدري».

- «يا لك من أحمق!»

هزَّ ساشكا رأسَه بخفة. غامت الجدران من حوله، وبدا السقفُ وكأنه يَترنَّح. والأكياس راحت تنساب نحو الأسفل. تابَعَ غوغا ثرثرتَه: «لا يجوز قتْلُ الرفاق، وإلَّا خسرتهم جميعاً». لدى ساشكا الآن قضايا شائكة مع القيادة. وفجأةً خرج من قلب الظُّلْمة أوليغ والذئب، وخلفَهما كيشا يجر قدمَيْه شاحبَ الوجه.

تساءل الذئب عابساً: «أهذا أنت؟»

أضاف أوليغ: «كنا نبحث عنك. إنك جلبتَ علينا الخِزيَ اليومَ. قتلتَ رفيقَك وهربت. حتى سلاحك تخلَّيْتَ عنه. لقد أفلَتْنا بصعوبةٍ من رجال الأمن. كان يجب أن نُسلِّمَك».

اقترب الذئب من ساشكا، فأخذه من تلابيبه وأوقَفَه على رجلَيْه بعنفٍ.

- «أنت معتوه، ومكانك في مشفى المجانين! لماذا عدْتَ؟ هل تظنُّ أننا سنغفر لك من جديد؟ فَلْتذهب إلى أجدادك. هل هم المُدمِنون، المَأْفونون، المرضى النفسيون؟»

صاح ساشكا: «اخرسوا! إياكَ أن تتكلّم عن والِدَيَّ بهذه اللهجة. إنهم طيبون. أمَّا أنت... أمَّا أنتم... فكلكم قَتَلة، مجرَّد قَتَلة. لستم جنوداً إطلاقاً».

كرَّرَ أوليغ السؤال: «ماذا؟»

قال الذئب موضِّحاً: «هذا الولد يظن أننا عبيدٌ مأجورون، وهو ليس مِثلنا، بل هو طاهرٌ ونقي. وأنا ما زلتُ أُخاطِبه بشكل طبيعي!»

أفلَتَ الذئب ساشكا من يده، فتَرنَّح وسقط على الأكياس.

- «أنت، أيها الولد، لا تعرف إلى أين تسير». وركل أوليغ بقدمه صدرَ ساشكا. «يجب أن تركلك الوحدةُ كلُّها».

انقطعَت أنفاسُ ساشكا، قال في سرِّه: «فَلْيقتلوني».

كان أوليغ يركله ويحاول أن يصيب مَعِدتَه، وساشكا لا يحمي نفسَه تقريباً.

قال الذئب أخيراً: «لا بأس، يا أوليغ، هذا يكفي. سيموت. يكفي ما فعله ليوقـا».

وسرعان ما انصرف الذئب وأوليغ، وبقِيَ كيشا وغوغا. وظل ساشكا مستلقياً، يتمنَّى شيئاً واحداً هو الموت. كان جسمه كلُّه يتألم، وخاصةً بطنه الذي حاوَلَ أوليغ جاهداً أن يؤذيه.

قال غوغا: «لو كان «الخَل» هنا لَقتَلَك حتماً. لقد حالَفَك الحظ».

تنهَّد كيشا الذي كان يقف جانباً طوال الوقت، ثم قال: «لنذهب إلى الغرفة يا صديقي. هل يُمكِنك الوقوف؟»

لاذ ساشكا بالصمت، فرفعه كيشا وغوغا بصعوبة.

همس ساشكا: «حقيبتي هناك».

تناوَلَ كيشا بإحدى يدَيْه حقيبةَ الظهر، وهو يسند ساشكا باليد الأخرى، ومضى يصعد السُّلَّم بعناء.

قال كيشا: «خيراً فعلت. لو حاوَلْتَ مُقاوَمتهم، لَقتلوك. لا تَخَف، ستزول الكدمات».

«ليف ليندمان» لمح ساشكا هذا الاسمَ وسطَ بُقَعٍ سوداء ومُلوَّنة على حائطٍ بالقرب من شقتهم. ولمح اسماً آخَر بجواره: «ألِكساندر يِرخوف». وسرعان ما اختفت الكتابة واختلطت ببُقعٍ رمادية مبعثرة.

سُمِع صوت كيشا يقول: «كل شيء عاديٌّ، لقد انفعل أوليغ، سيهدأ فيما بعدُ ويعود كلُّ شيءٍ إلى سابقِ عهده. أنت محظوظ، لم يضربوك على وجهك. لقد ضربني أوليغ مرَّةً على عيني، فظللتُ أياماً لا أرى جيداً!»

تدثَّرَ ساشكا بلحافه المثقوب بطلقٍ ناري وقال: «هذا شيءٌ طبيعيٌّ عندهم. أقصد، وعندنا كذلك. لماذا أفكِّر بهم وكأني لستُ منهم؟ الآن أنا وهُم واحد، وليس لي مِن مَفرٍّ».

15

بعد ذلك استعادت ذاكرةُ ساشكا أجزاءً من هذه الحوادث. كان كيشا يجلس غيرَ بعيدٍ عنه، يتمتم بعباراتٍ بَدَا لساشكا أنها مهمة، غير أنه لم يَتمكَّن من تمييزِ الكلمات. كان يحاول جاهداً الْتِقاطَ بعض مقاطع الجُمَل، والكلمات، التي راحت تتساقط كأوراق اللعب. «مُعلَّبات، دراهم، ثياب، باع» تتطاير في الهواء. تَوافَدَ شُبَّانٌ من وحدتهم والوحدة المجاورة، بعضهم جاء طلباً للدفء، وبعضهم للثرثرة مع كيشا. تحدَّثوا طويلاً، وبغيرِ وضوحٍ أيضاً. كان الألم يَعصف بكل كيان ساشكا، وهو راقدٌ لا يستطيع حَرَاكاً. كان يتمنى أن يغفو ويذهب في غيبوبة، أن يموت. لكن المسألة ليست بهذه السهولة. تذكَّرَ الصبيَّ على أرضيةِ المستودَع القَذِرة. الصبي الذي لن يَكبر أبداً، بسبب ليوڤا. وتذكَّرَ كذلك ليوڤا الذي لن يصبح جندياً حقيقياً أبداً. وفجأةً انتابه إحساسٌ بالشفقة؛ الشفقة على الصبيِّ، وعلى نفسه، وحتى على ليوڤـا، وكأنهما كانا صديقَيْن، عاشا سنواتٍ طويلةً متجاوِرَيْن. وقد ارتكب ساشكا الآن خيانةً لا تُعقَل. كلا، لقد كان ليوڤا عَدُواً. كان رجلاً حاقِداً وظالماً، كان يتلذَّذ بموت غيره. فلماذا إذاً يشفق ساشكا عليه الآن؟ ولماذا ساشكا واثق أن ليوڤا كان يجب أن يبقى حياً؟ جميعهم كان يجب أن يبقوا أحياء: ليوڤـا، ساشكا، وذاك الصبي، والعجوز الحارس. ولم يَبْقَ حياً إلَّا ساشكا. ما السبب؟ لأيِّ غاية؟ كان يجب أن يجِدَ مَن هو قادرٌ على تفسيرِ كل شيء.

سأل ساشكا كيشا: «أين هو؟»

- «مَنْ؟»

كفَّ ساشكا عن طرح الأسئلة. لقد فهم كل شيء. لا أحدَ يمكنه أن يشرح له. عليه أن يَعِي كلَّ شيء بنفسه؛ أن يدرك أنه أزهَقَ روحَ إنسانٍ، بل اثنَيْن، فقد أطلق النار أيضاً على ذلك الجيفي. كلا، ثلاثة؛ فقد فشل في إنقاذ الصبيِّ الصغير. كلا، بل أربعة؛ فوالدته أيضاً ماتَتْ بسببه... وعندئذٍ انخرط ساشكا في البكاء. لم يستطع أن يتمالك نفسه، فأخذ ينتحب. وعبر دموعه اقتَحَم كيشا ذاكرتَه بقوله الأخرق: «كلُّ شيء طبيعيٌّ. لا تَبْكِ يا صديقي». وكعادته، مَرَّ ڤـيتكا، وبيده شمعة، وكعادته دائماً قال بلا مُبالاة:

- «أنت لم تَمُت، أيها الروح! أنت تجلب المصائب. ألَمْ أكن على حق؟ فَلْتصمت؛ الصمت يُمكِّننا من التفكير في الخلود. الصمتُ مائةَ يومٍ يَمْنحنا صفاءَ البصيرة. ما عليك إلا أن تردِّد كلمة «أوم...»»

كان ڤـيتكا الأكثر تعقلاً بين الجميع، الوحيد الذي لم يَبْدُ الآن معتوهاً. فالانتقامُ الأبسطُ والأكثر جدوى من العالَم بأسره، هو ألَّا تكترث بهذا العالَم؛ حينها سيختفي العالَم.

- «عندها تمتلك الروحُ القوةَ».

قال ساشكا يخاطب شيز: «أريد أن أموت».

تنهَّد شيز قائلاً: «لا يمكن أن تموت؛ فالروح خالدة. هنا تَكمُن مأساتنا. ستظل آلافَ السنين في الوحل، والخراب، والتعفُّن؛ آلاف السنين من العذاب، إلى أن تجد نفسك».

- «لا أُريد ذلك!»

لم يُجِبْه شيز، وصفق الباب خلفه. ارتفع نبضُ ساشكا في صدغَيْه، فأغمَضَ عينَيْه وأنصت إلى عويل الريح في الخارج. كانت الريح تصفر لحناً جميلاً ومألوفاً. فجأةً جاءت الريح بأصداءِ ناقوسٍ من بعيد.

كان قد سمع هذا الناقوسَ آخِرَ مرَّة في المستشفى. حدَّث ساشكا نفسه غير مبالٍ: «لماذا يُقرَع؟ هنا لا وجودَ لأي ناقوس. أنا من عناصر المغاوير؛ وغدٌ وقاتل. فلِمَ هذه الحكاية؟» انقطع الرنين. فتح ساشكا عينَيْه ليرى فجأةً سقفاً ناصعَ البياض بَدَل السقف الوَسِخ. في الزاوية جلسَت الممرضة خلف الطاولة. وضعَت الصحيفةَ جانباً بمجرد أن رأت ساشكا يحاول النهوض.

- «هل أَفَقْتَ؟ أخيراً! كم كنتَ تَهْذي!»

تمتم ساشكا مندهشاً: «أين أنا؟ أهذا حُلم؟»

قالت الممرضة: «كلّا، ليس حُلماً. سأستدعي والدتَك الآن. هي في الأسفل، تنتظر».

تعالى صريرُ الباب، ونهض ساشكا من سريره. يَغمر الضوءُ الغرفةَ، وتملأ رائحةُ اللوز المكانَ. يوجد على الطاولة أصيصُ زهورٍ بَريَّة. ارتدى ثيابَه ووقف أمامَ المرآة، هو ذاته ينظر من هناك؛ أسمر، أسود العينَين، عِصابة تحيط برأسه. سمع وَقْعَ خطوات مستعجلة في الممر؛ تلك خطواتُ أمِّه دون غيرها. أخيراً فُتِح الباب ودخلت. شيءٌ ما كان يُربِكها، دَنَتْ من ساشكا واحتضنَتْه.

- «هل حدث شيءٌ، يا بُنيَّ؟ ماذا أصاب رأسك؟ جاء رجالٌ غرباء إلى بيتنا».

- «لا شيء. مجرد خدوش، سأستريح وسيكون كل شيء على ما يُرام». حاول ساشكا أن يتذكَّر: «ماذا حدث؟» تسلَّلَ القلق إلى نفسه. «هل ارتكبتُ خطأً ما مجدَّداً؟ شيئاً ما ضد المدينة يهدِّد أمنها؟»

سرعان ما جاء محقِّقٌ إلى الغرفة. نظر إلى ساشكا بازدراءٍ وضحك ساخراً.

قال وهو يجلس على كرسيٍّ صغير: «مرحباً، أيها الخائن. لقد قرَّرنا التعامُلَ معك بجدية؛ لهذا أنا هنا. اجلس، فلدينا حديثٌ طويل. أرجو من الحضور عدمَ إصدارِ أيةِ إشارةٍ إلى المتهم، وأن يُخلى المكان».

راح المحقِّق ينظر شزراً ناحيةَ الأم، لكنها لم تتحرَّك من مكانها.

تساءل ساشكا باستغراب: «ما الذي ارتكبتُه؟»

أجاب المحقِّق بهدوء: «لقد خنتَ الفيلق، قتلتَ الكثيرين. بالمناسبة، هل قرأتَ «النظام الداخلي لوحدة المغاوير»؟ ما يخصُّ جرائمَ القتل؟ لا تعرف؟»

- «ما حاجتي لقراءة «النظام الداخلي لوحدة المغاوير»؟! فأنا طالب في كلية الحرس!»

صاح المحقِّق وصفع ساشكا وهو ينهض قائلاً: «أنت وغدٌ!» وقع ساشكا أرضاً، فركله المحقِّق على بطنه. انحنى فوقَه لاهثاً، وقال:

- «يجب أن تنتحر. لقد جلبتُ لك مسدساَ». وألقى أمامَه سلاحاَ عليه الأحرف «P.B». «فهذا ما تريده، أليس كذلك؟»

تناوَلَ ساشكا السلاحَ بحذرٍ، وصوَّبَه إلى صدغه. كانت يده ترتعش، بينما كانت الفوهة المعدنية تلمس جلدَه بطريقةٍ مزعجة.

أمره المحقق: «بسرعة! لقد دنَّست شرفَك وشرفَ أبيك. إنها الفرصةُ الوحيدة أمامك كجنديٍّ، لغسْلِ عارك».

وضع ساشكا إصبعَه على الزناد، تنهَّدَ بعمقٍ وضغط. دوَّى صوتُ إطلاقِ النار، وترنَّحَت والدته الشاحبة أمامَه.

- «وداعاً، يا بُنيَّ. لن تأتي بعد الآن».

فتح ساشكا عينَيْه، والتفت حَوالَيه، فرأى غرفةً رطبة وقَذِرة، وكيشا يرقد على السرير المجاوِر، وهو يشخر بصوتٍ خفيض. قرَّر ساشكا: «إنه حُلمٌ».

شعر ساشكا أن الجوَّ حار بشكلٍ لا يُطاق، وأحسَّ بعطشٍ شديد. لم يَجِد ماءً في الغرفة. لم يكن قريباً منه، فذهب باتجاهِ الأنابيب. في الغرفة الكبيرة، كان يجلس شيز على ضوءِ شمعةٍ شاحب. تخطَّاه ساشكا، وتناوَلَ جرعةً من السائل المقرف الصَّدِئ. ازداد شعورُه بالعطش وشعر بالغثيان. جلس على الأرض، وتنفَّسَ بعمقٍ في انتظار انتهاء النوبة.

خاطَبَه شيز: «أنت، أيتها الروح السوداء، الكل نائمون، وأنت تتجوَّل وحدك. أُصلِّي من أجلك. لقد فشلتَ في الاختبار. كان ليوڤا اختبارَك، لكنك ضعيف، وسلكْتَ الطريقَ السهل. الآن، ليوڤـا بخير، وهو في عالَمِ النقاء، بينما أنت تتخبَّط بلا نومٍ ولا سكينةٍ».

سأله ساشكا: «ماذا بوسعي أن أفعل؟» وكأنَّ ڤـيتكا إنسانٌ سَوِيٌّ.

- «التأمُّل والصلاة. حينها ستَنْعم روحُك بالطمأنينة».

تذمَّرَ ساشكا: «صَلِّ وحْدَك».

فجأةً اجتاحته رغبةٌ بلَطْم شيز، وكأنه السببُ في كل شرور الحياة، وبضَرْبه سيصلح كل شيء.

قال شيز: «أنت مُلحِد، ليس عند المؤمنين هذه السوداوية».

- «دَعْني وشأني!» توجَّه ساشكا إلى غرفته، وبدأ غضبه يتلاشى. ما كان يجب أن يردَّ على هذا المُعوَّق.

وجد فِراشَه قد برد؛ فحرَّكَ قِطَع الفحم في المنقل، وتدثَّرَ جيداً ببطانيته. فجأةً تذكَّرَ السهوبَ التي كانوا ينقلون إليها طلبةَ الحربية للتدريب. كان الصيف هناك رائعاً برائحة الأعشاب والريح البرية. تذكَّرَ أصحابَه ڤوڤكا باور، وماكار ستيتسينكو، وفاسيل أفدييف، وإيليا... كانوا يجلسون على العشب وقتَ الاستراحة ويَحْلمون بالمستقبل، حين يصبحون ضباطاً، ويتقدَّمون وحداتهم عند الهجوم، ويَظلُّون أصدقاء مدى الحياة.

تضاحك ساشكا، وطرَدَ كلَّ ذكرياته تلك.

لقد توارى الأصدقاء. لم يَعُد أمامَه الآن إلا السهب المنبسط أمامه، لا يزال بُنِّيَّ اللون قبل أن يُزهِر. وساشكا جالس على مُدرَّعة قديمة صَدِئة يُحدِّق بالأفق، وإلى جواره ڤـيتكا يرتشف الشاي بصوتٍ مسموع.

سأله فجأةً: «ماذا؟ أَلَا ترى الروحُ السوداء شيئاً في البعيد؟»

تلفَّتَ ساشكا حَوالَيه متوتراً. على التل الصغير إلى اليسار قليلاً، لاحَت نقطةٌ وبدأت تقترب.

قال ڤـيتكا بنبرةِ وعْظٍ: «إنها لحظةُ الحساب».

راحت النقطة تكبر ببطء، حتى صارت رجلاً يعتمر قُبَّعةَ صوفٍ سوداء، وقميصاً داخلياً وَسِخاً، وبنطالاً سميكاً، وجزمةً من لباد في واقٍ من الكاوتشوك. كان يسير نحوَ الآلية المدرَّعة، ويتعثَّر فترتفع ذراعاه عالياً، رغماً عنه، كأنهما لدميةٍ من قماش، بعد أن كانتا تتدلّيان على جانبَيْه. توقَّفَ شيز عن شربِ الشاي، حام على سطح المدرَّعة ثم اختفى بداخلها، بينما كان الرجل يقترب، وكلما ازداد قُرباً تضاعَفَ خفقانُ قلب ساشكا، وسرَت القشعريرة عبر جسده بقوةٍ أكبر. هذا الرجل، بوجهه الرمادي، وعينَيْه البيضاوَيْن الخاليتَيْن من الحياة، وشاربَيْه الأصهبَيْن، وخصلات شعره الأصهب المتدلِّية من تحت قُبعته؛ كان ليوڤا! حاوَلَ ساشكا القفزَ من فوق المدرَّعة، لكنَّ رجلَيْه خارتا من الخوف، واكتفى بأن يغطِّي عينَيْه براحتَيْه. وحين فتحهما ثانيةً، كان ليوڤا قد اختفى تماماً. مسح ساشكا العَرقَ عن جبينه ونزل إلى الأرض. كان ثَمةَ ما ينتظره؛ شابٌّ يرتدي سترةً حمراء، وحذاءً جيِّداً، ينوب عن وجهه جرحٌ مفتوح ينزف. جبينُه مُشوَّه، تحوَّلَ إلى رقعةٍ حمراءَ رمادية؛ سقطت عينُه اليُمنى وحلَّت محلَّها ذبابةٌ خضراء ضخمة، بينما تحدِّق اليسرى إلى ساشكا؛ وكشفَت أنيابُه عن تِكشيرةٍ مُرعِبة. تفوح مِنه رائحةُ جِيفةٍ تعفَّنَت. أطلق ساشكا صرخةً وفرَّ

هارباً. حاوَلَ الجرْيَ سريعاً، لكنَّ قدمَيْه تَسمَّرتا كأنهما من رَصاص. تعقَّبَته رائحةُ التعفُّن بإصرارٍ وأرغمَتْه على مُواصَلة الركض. تسارَعَت دقّاتُ قلبه بجنون، وبلَّلَ العَرَقُ ثيابَه. ظهر أمامه رَتَلٌ من الأشخاص بثياب الكلية. كانوا يسيرون عبر السهلِ في رَتَلٍ كئيب، بالكاد يَجُرُّون أقدامهم.

صاح ساشكا: «أيها الشباب!» وأدرك فجأةً أن كل هؤلاء الناس موتى. لا شيء فيهم يُوحِي بأنهم أحياء.

صاح شيز من أعلى: «إنه يوم الحساب!»

سقط ساشكا وتعفَّرَ بالتراب.

ناداه أحدهم: «هيا تعالَ معنا! نحن ننتظرك منذ زمنٍ طويلٍ».

لمح ساشكا يدَ جثةٍ تمتدُّ نحوَه، فصرخ مرعوباً.

ظهر كيشا فجأةً: «اهدأ، اهدأ! هذا أنا! هل كنت تحلم؟»

أضاء الصباحُ الغرفةَ. كان كيشا جالساً بجانب ساشكا، قابضاً على يدَيْه بقوة.

- «لا تصرخ! ستُوقِظ الوحدةَ بكاملها!» ثم راح يتحسَّس جبينَه.

- «لا شكَّ في أنك مريض، بالتأكيد مريض. ربما، أصابك الشكَّاءُ بالعدوى. هو مُتوعِّك أيضاً».

قال ساشكا على عَجَل: «كيشا، أنا لستُ مذنباً! ذاك الجيفي حاوَلَ قتْلَنا، وكذلك ليوڤا أراد قتلي! كان يحملُ رشَّاشاً. لا يُمكِنني أن أُبادِرَ بإطلاق النار. حالتي سيئة، يا كيشا! كنت أريد العودةَ إلى البيت! ذهبتُ إلى هناك، فوجدت أناساً غرباء يُقيمون في بيتنا! وقد طردوني من الفيلق! هكذا بلا سبب. لقد قُتِل والِدي دِفاعاً عن القائد. أنا أحسده الآن. كان خيراً لي لو متُّ مثله، بدلاً من البقاء بين الجرذان. ظللتُ أتسكَّع هنا حتى ماتت أمي أيضاً. أنا مَن قتلها، يا كيشا، إذ لم أخبرها إلى أين ذهبتُ!»

ظلَّ كيشا مُمسِكاً بيدَيْ ساشكا، خشيةَ أن يَحدث ما لم يكن بالحسبان.

تابَعَ ساشكا: «الآن، سأظلُّ أحلمُ بليوڤا هذا، سيُعكِّر صفْوَ حياتي! لماذا أنا هنا، يا كيشا؟ لعل من الأفضل لي أن أصعد للأعلى وأُلقِي بنفسي؟

سيَهيلون عليَّ التراب، ولن يعود هناك أذى. ماذا سأفعل، يا كيشا؟ ماذا علَيَّ أن أفعل؟»

- «لا أدري. لو كنتُ مكانَك، لَزُرْتُ قبرَ والدتي، مثلاً. ألَمْ يَدْفنوها في مقبرةِ المدينة؟»

- «ربما». أدركَ ساشكا بهلعٍ أنه حتى لم يسأل العمَّ ڤـيتيا عن ذلك. لقد وارَوْا جثمانَ والِده الثَّرَى في مقبرة الضباط، لكن أمه لم تكن في الجيش.

- «هل تعرف، يا ساشكا..». أفلتَ كيشا يد ساشكا وقلَّبَ قبعته القماشية بين يدَيْه ثم لبسها من جديد. «أنا أُشاطِرُك العزاء، أنا أيضاً أمي ماتَت قبل ثلاثِ سنواتٍ. أُصِيبت بالإنفلونزا، ولم أعلم بموتها أيضاً. لقد أُصِبْنا كلُّنا بهذا المرض، ولكن والدي فطن يومَها ونقلني إلى المستشفى في المدينة، وهناك تغلَّبتُ على الإنفلونزا عدةَ مرات، ثم أصابني يرقان، وشيءٌ آخَر لا أعرفُ حتى اسمه. ظنَّ والدي أنني سأموت لا محالةَ، ولم يُخبِرني بوفاةِ أمي مطلقاً. وحين أخرجوني من المشفى اكتشفتُ أنني يتيم! ولَكَمْ بكيتُ! أنت يا سانيوك، ما زلتَ متماسكاً، أمَّا أنا فقد انهرتُ. وانصرف والدي لتعاطي الكحول. لقد تعذَّبْنا معاً. ولكنه رجل طيب، جمع كلَّ ما وفَّره من مالٍ وأراد شراءَ جرارٍ زراعي صغير، لكنه أنفَقَ تلك المدَّخرات على دراستي أنا، المعتوه، في مدرسة الدبابات، ثم طردوني منها. ولا يُمكِن أن أعود إلى والدي قبل أن أجمع المبلغ. لا ينقصني الآن إلا القليل، معركتان وأذهب إلى البيت. تستطيع أن تُرافِقَني. نُقِيم في قرية زراعية جنوب المدينة، مكان لطيف، وفيه بحيرة أيضاً. هناك سنزرع الحِنطة، فهذا أفضلُ من إطلاق النار، أليس كذلك؟»

هزَّ ساشكا رأسه مُوافِقاً. لقد بدا كيشا قريباً منه مثل أخ، فانتابَتْه رغبةٌ بأن يضع رأسَه على كتفه ويبكي.

قال كيشا آمِراً: «لا بأس، دَعْنا نذهب معاً لزيارة المقبرة، لكن يبدو لي أنك لستَ على ما يُرام».

- «بالأمس شربتُ مع غوغا، وفوق ذلك جاء أوليغ وضربني. بماذا كنت ستشعر لو كنتَ مكاني؟»

- «كنتُ فطست، كما يجب أن يقول صاحبُنا الشكَّاء». ونهض كيشا واقفاً: «لا بأس، سأذهب لأُوقِظَ أوليغ. يجب أن أخبره بوجهتنا، وإلَّا فسيظنُّ أنك ولَّيْتَ الأدبارَ مُجدَّداً».

قال ساشكا: «سألحق بك حالاً. أين وضعتَ الأغراض التي جلبتها معي في حقيبة الظهر؟»

- «إنها هناك، فوق حافة النافذة. هل الأغراض لك، أم أنك ستبيعها؟»

- «بل سأهديها».

هزَّ كيشا كتفَيْه مندهشاً؛ كيف يُمكِن للإنسان أن يتخلَّى عن شيءٍ من دون مقابل! وخرج.

حلَّ ساشكا حقيبةَ الظهر، وأخرَجَ منها ثياباً يعطيها للشكَّاء. وعندما رفع نظرَه رأى عبر النافذة المنظرَ الذي لا يتغيَّر أبداً، مهما تَوالَت الأحداث؛ أكداساً من الحصى والقضبان المعدنية، ليس فيها روح، كما يُردِّد شيز دائماً؛ لذا فهي لا تخاف من شيء.

16

كانت غرفة أوليغ أكثرَ برودةً من غرفة كيشا وساشكا. تدثَّرَ الشكَّاء بزوجٍ من الأغطية وظل يرتجف.

اصطكَّت أسنانه ما إن رأى ساشكا وقال: «غادَرَ أوليغ صباحاً. وشيز يُؤكِّد لي مجدداً أنني سأموت، ويُكرِهني على الصلاة، وأنا لا أحبُّ صلواته. إنها تُخِيفني».

جلس ساشكا إلى جوار الشكَّاء، وجسَّ جبينَه فوجد حرارته مرتفعة. ذُعِر ساشكا وناجى نفسَه: «حقاً قد يموت!» كان يخشى أن يكون شيز مُحِقاً مرةً أخرى. لا يريد أن يموت بجواره أحدٌ بعدُ.

قال هامساً: «كيشا، أيُمكِننا الحصولُ على دواءٍ هنا؟»

أجاب كيشا متضاحكاً: «يُمكِننا، لدى الجيفيين تجد كلَّ شيء. أعازمٌ أنت على علاجِ هذا السقيم على نفقتِك الخاصة؟»

نظر ساشكا إلى الشكَّاء المتكوِّر فوق السرير، وفكَّرَ أنه لا شيء أكثر رعباً من أن تكون بحاجةٍ إلى المساعدة، والآخرون لا يَعْنيهم أمرُك.

- «أيُمكِنك الذهاب إلى الجيفيين؟»

هزَّ كيشا كتفَيْه.

- «هات الماركات، وسأذهب. هل أنا وحش؟ أتظن أن حالته خَطِرة؟»

نظر ساشكا ثانيةً تجاهَ الشكَّاء قائلاً: «أنا واثق، ما دام شيز يقول ذلك». ثم أضاف خافضاً صوته: «يبدو أن هذا المعتوهَ قادرٌ على التنبؤ. بتُّ أخشاه».

- «تخشاه؟!» وتناول كيشا الأوراقَ النقدية المدعوكة من يد ساشكا قائلاً: «لا تَخَف، يُمكِن تَدبُّرُ أمره ببساطة. هو قويٌّ معنوياً فقط، عدا ذلك، اضربه ولا تَخْجل. ماذا سأشتري؟»

- «لا أدري. أخبرهم أنه مُصابٌ بزكام، يعرفون الدواءَ المناسب».

انطلق كيشا، في حين عاد ساشكا وجلسَ ثانيةً قُربَ الشكَّاء.

- «لا تَخَف، لن أسمح لـڤـيتكا بدخول الغرفة».

تنهَّدَ الشكَّاء: «لا بأس. ما إن يغادر أوليغ، حتى يظهر شيز فوراً! بالأمس قال إنك ستتعذَّب عذاباً أليماً، ستكون حياتك سيئة. قال إنك الروحُ السوداء! ساشكا، عليك أن تُوسِعه ضرباً!»

راح ساشكا ينظر بشفقةٍ إلى الشكَّاء لدرجةٍ جعلَت عينَيْه تترقرقان بالدموع.

قال الشكَّاء وهو يسعل: «أنت أخٌ لي. أوليغ أخي، وكيشا أيضاً، وبتَّ مثلهما أخاً لي. أنا محظوظ هنا، في الوحدات الأخرى الضُّعَفاء مثلي يُشبِعونهم ضرباً! يرفسونهم بالأقدام! كان ليوڤـا فقط مَن يتعرَّض لي، وجينكا، بمجرد أن يراني يضربني على رأسي. في حين أن شيز يتمنَّى أن أموت».

ظلَّ الشكَّاء يسعل تارةً، ويتذمَّر تارةً، إلى أن انخرط في البكاء.

قال ساشكا بقلق: «ماذا دَهاك؟ لا تبكِ، حتى شيز سأضربه، وسأضرب جينكا على رأسه».

قال الشكَّاء مُتلعثِماً: «أنت قويٌّ، ولديك أُم، أنت محظوظ! سأموت قريباً، بطني يؤلمني ورأسي أيضاً، ولا أحدَ يُواسِيني».

«لديك أُم!» استرق ساشكا النظرَ إلى الشكَّاء، وناجى نفسه: «هو يحسدني، بينما لم يَعُد هناك ما أحسَد عليه».

عاد كيشا ليجد ساشكا والشكّاء يبكيان معاً، وقد دفَنَا رأسَيْهما في الغطاء البالي على سرير الشكَّاء.

تساءل باستغراب: «ماذا أصابكما؟ أَجُنِنْتُما؟ لقد أحضرتُ بعض الأقراص الخافضة للحرارة، ولا بد من تدليكه بالكحول. أحضرتُ قليلاً منها، وإليك الباقي».

نهض ساشكا ماسِحاً دموعه، وراح يسحب الشكَّاء من تحت الغطاء.

- «هيا انهض. سنُدلِّكك بالكحول».

حاوَلَ الشكَّاء المقاوَمةَ وهو يَئِنُّ، لكنهما نزعا عنه ثيابَه بسرعة ودلَّكاه بسائلٍ ذي رائحةٍ نفَّاذة، ثم ألبساه الثياب التي أحضَرَها ساشكا. في حين راح الشكَّاء يزمُّ عينَيْه متعجِّباً، ويتفحَّص الكنزة الصوفية الزاهية الألوان، ويتحسَّس نفسه.

قال كيشا ضاحكاً: «تبدو رائعة! لَكَمْ أنت أحمق، يا ساشكا! جلبتَ لباساً أنيقاً كهذا لعديمِ النفع مثله! ما رأيك أن نأخذَه منه قبلَ أن نندم؟»

اندسَّ الشكَّاء سريعاً تحت الغطاء.

تابع كيشا: «فهو لا يستحم على أية حال، ولا يَكفُّ عن التَّجْوال في الأماكن القَذِرة».

- «بل سأغتسل، ما إن تخفَّ البرودة. بالتأكيد سأغتسل!»

- «على أية حال، لقد طهَّرناك بالكحول؛ دَعَكْناك به. هذا كفيلٌ بقتْلِ تلك التي... نسيتُ كيف تُدعى؟»

لقَّنه ساشكا: «الميكروبات».

لم يفهم الشكَّاء فقال: «تقتل مَنْ؟»

- «لا أحد». وأشاح كيشا بيده. «أنت الآن، حتماً ستعيش. ساشكا وأوليغ أصبحا الآن والدَيْن لك. فَلْتَفْخر بهما! بالمناسبة، أخبِرْ أوليغ أننا سنعود سريعاً».

ناوَلَه ساشكا حبةَ الدواء ودثَّرَه. وقبل أن يغادرا، دخل شيز.

تساءل وهو ينظر إلى السرير: «أَلَمْ يَمُت بعدُ؟»

خاطَبَ ساشكا الشكّاء الذي شرع يرتعش: «دَعْ عنك كلام هذا المعتوه. يعيش الإنسان سبعين عاماً».

قال شيز ساخراً: «لو كان إنساناً!» ثم غادَرَ.

اندفع ساشكا في إثره، لكن كيشا أمسَكَ به من يده.

- «دَعْ عنك ذلك. لا تلوِّث يدَيْك. هيا بنا».

خرجا إلى الشارع. ذاب الثلج ولم يَبْقَ إلا الوحل المألوف حول البيوت.

شدَّ كيشا قبعتَه بإحكام، وغاصت قَدَماه في قاذوراتٍ رطبة، فأطلق الشتائم.

خاطَبَ ساشكا بامتعاض: «مَسَّهم الجنونُ من كثرة تعاطي الكحول. الطقسُ سيئ، والسير إلى المقبرة مَشْياً على الأقدام سيُكلِّفنا كثيراً. دَعْنا نقصد المحطة».

راحا يجتازان الحُفَر وهما يَغرزان قدمَيْهما في الوحل وفي أكوام النُّفايات، ويَنزلِقان في بِرَك الماء المنتشرة على طول الطريق. كان حذاءُ كيشا مناسباً لهذا الطقس، في حين نفَذَ الماء داخل حذاء ساشكا حتى تبلَّل جَوْرباه بالكامل. فكَّر ساشكا: «لا بدَّ من ارتداءِ الجزمة العسكرية». في حين أنه لم يَرْغب حتى في أن يَلمسَ البدلةَ بعد المعركة.

على مَقربةٍ من المحطة التقى بهما أوليغ العائدُ من القيادة. كان مُرتدياً الزيَّ الشتوي؛ المعطفَ والسروالَ العسكري الدافئ، وقُبعة الفرو. لوَّحَ لهما أوليغ من بعيد، واقترب منهما على عَجَلٍ وهو يقول:

- «افرحوا، يا رجال! قبل قليلٍ دفعوا مكافأةَ المعركة، ومرتَّبَ الشهر السابق، إليك يا يانسن سبعةً وخمسين ماركاً».

انتقلَتْ عِدةُ أوراق نقدية وبعض القِطَع المعدنية، من معطف أوليغ إلى يد كيشا.

دسَّ كيشا الدراهمَ حالاً في عمقِ جيبه الداخلي. والتفت أوليغ نحو ساشكا.

- «أرى أنك قد استعدتَ وعْيَك الآن. اعذرني، يا أخي، على ما بَدَر مني أمسِ. تعرف أنك أخطأتَ التصرُّف، بالرغم من اعتقادي أن ليوفا هاجمك أولاً،

فدافَعْتَ أنت عن نفسك. لم يكن يحبك، وكان مشاكساً. لكن من واجبي أن أُلقِّنَك درساً من أجل حفظ النظام. على أي حال، لم أقتلك، وهذا جيد، أليس كذلك؟ إليك الدراهم».

وناوَلَه خمسين ماركاً وحفنةً من القِطَع المعدنية.

قال ساشكا وهو يقلِّب الأوراق: «انتظر. هذا كثير؛ لا بُدَّ أنك أخطأت؟»

راح أوليغ يثني أصابعه وهو يَعُدُّ: «مرتبك أولاً، وهو عشرة ماركات وثمانون قرشاً، وثلاثون ماركاً مكافأة المعركة، وعشرة ماركات لقاءَ الشجاعة وهزم العدو. كل شيء كما يجب».

- «عن أي عدوٍّ تتحدَّث؟»

جعَّدَ أوليغ وجهَه وكوَّر عينَيْه، ثم قال وهو يَكزُّ على أسنانه:

- «خذ المالَ وانصرف. هل فهمت؟»

- «أوليغ..».

ربَّتَ أوليغ بيده الثقيلة على كتف ساشكا وهو يلتفت إلى كيشا قائلاً: «هيا، هيا. كيف حال الشكَّاء؟»

أجابه كيشا: «لقد عالجناه قليلاً».

- «جيد». ثم استدار أوليغ وتابَعَ طريقه.

تساءل كيشا: «ما لك تتمنَّع؟! قتَلَ ليوڤا الصبيَّ، وأنت قتلتَ ليوڤا. حتى لا تضيع دراهمُه سُدى، احتسبها أوليغ لصالحك».

- «هذا لا يلزمني». وبسَطَ ساشكا راحةَ يده، فسقطت ورقةُ العشرة ماركات في الأوحال.

التقط كيشا الورقة قائلاً: «أي أحمق أنت! ومسحها بعنايةٍ بسرواله، وأَوْدَعَها جيبَه».

لم تأتِ الحافلة. سأل كيشا الباعةَ عمَّا إذا كانت ستأتي اليوم، فأجابوه بالنفي. فالتفت تجاهَ ساشكا وسأله:

- «لربَّما غداً أفضل؟»

- «كلا، كيشا، اليوم».

- «وهل يُمكِنك المشي؟ بالأمس لم تكن على ما يُرام!»

أكَّدَ ساشكا: «فَلْنذهب».

وانطلق الاثنان. كان ساشكا يشعر أن حاله أسوأ مما كان عليه بالأمس؛ إذ تسري في جسمهِ قُشعريرة، ورأسُه يؤلمه، ويشعر بخدْشٍ مُزعِجٍ في حنجرته. لكنه كان مُقتنِعاً بأن عليه أن يزورَ المقبرةَ اليوم. ما دامَ مُلزماً فسيصل.

عند حدود المنطقة السكنية الخاصة، انعطف كيشا نحو حقول البطاطا المحروثة.

- «هكذا ستكون المسافة أقصر».

ازداد السيرُ صعوبةً أكثر فأكثر. كانت قِطَع الطين تلتصق بحذاءَيْهما فتجعلهما ثقيلَيْن جداً. ظلَّ ساشكا يتقدَّم ببطءٍ خلف كيشا لأنه لم يكن يعرف مكانَ المقبرة الخاصة بالمدنيين في المدينة، والأموات من معارفه دُفِنوا في مقبرة الضباط. وسرعانَ ما لاحَت لعينَيْه المقبرة، مُباشَرةً خلفَ أجمةٍ من أشجار السنط الذابلة التي كانت تحيط بأحد الحقول. بدَتِ المقبرةُ واسعةً ومهملة. كانا يصادفان تحتَ أقدامهما قطعاً من الورق وأعقاب السجائر وعُلباً معدنية وأكياساً. تقشَّرَ طلاءُ أسوارِ غالبية القبور، وبعضُها من دون أسوار، من الصعب أن تعرف إنْ كنتَ تدوس على أكوامِ تراب، أم على قبر.

أشار كيشا بيده صوبَ ممر جانبي مشجَّر: «مَن مات حديثاً يُقبَر هناك».

رأى ساشكا صفاً من القبور الحديثة وعِدَّةَ حُفَرٍ عميقة، فأحسَّ برعبٍ شديد. خُيِّلَ إليه أن الحفرة شِدْقٌ فاغرٌ لحيوانٍ عملاق تَجمَّدَ في انتظارِ فريسته، إن اقتربتَ أمسَكَ بك. وتذكَّرَ ساشكا حُلَمَ اليوم، فقرع أُذنَيْه النداءُ: «تعالَ إلينا».

- «سانيوك، تعالَ. يبدو، أنني وجدتُه. هل لوالدتك نفسُ كُنْيتك؟»

أشار ساشكا بالإيجاب، وببطءٍ شديد وخوفٍ انعطَفَ حول قبرَ فارغٍ واقترب من زميله. كان التمثال صغيراً جداً؛ هيكلٌ من أربعة قضبان معدنية صغيرة بعضها ملحوم ببعض، ولوحة نحاسية مع صورةٍ وتاريخِ الولادة والوفاة. جلس ساشكا القُرفصاء، وراح يتفرَّس في وجهِ أمه الشاب، وهو يحسُّ بخواءٍ قاتلِ في داخله، وكأنهم أفرغوا كلَّ ما بداخله دفعةً واحدةٍ، ولم يَعُد هو نفسه،

وإنمَا مجرد دُمْية تشبهه بشكلٍ صادم. لقد تبخَّرَت فجأةً كلّ همومه، ولأول مرَّةٍ يشعر بأنه لا يشكو من أي ألم، لأول مرَّة لا يشعر ببردٍ، أو جوعٍ، أو رُعب.

تعمَّدَ كيشا أن يتركه وحْدَه، فابتعد قليلاً. وظلَّ ساشكا جالساً.

حدَّث نفسه بارتخاء: «سأظل هنا. سأشعر بالارتياح هنا».

تكاثَفَت الغيوم الداكنة، وراحت تُمطِر الأرضَ بوابلٍ من النُّدَف الثلجية الكبيرة، كانت النُّدَف تتساقط على الأرض فتذوب في الوَحْل وتختفي. تسلَّلَ الثلج إلى داخلِ ياقته وراح يذوب على شفتَيْه الساخنتَيْن، لكنه لم يَأْبه بأي شيء. فكَّر في نفسه شارداً وكأنه يفكِّر في إنسانٍ آخَر غريبٍ عنه: «أنا تَعِبٌ جداً. كفاني خوفاً وصقيعاً. شيز على حق. الموت راحة، سأستلقي هنا وأموت».

أفاق ساشكا إذ سمِعَ صراخَ كيشا الحادَّ: «هل جُنِنت؟» يبدو أنه أوشكَ أن يقع في الحفرة الفارغة المُعَدَّة لجثةٍ جديدة. سحبه كيشا من ياقته قائلاً: «هيا بنا. ابْكِ في البيت قليلاً واهدأ. لا حاجةَ لأن تفقد صوابك! يَكْفينا ڤـورونتسوف واحد!»

فكَّر ساشكا في سره: «لعله الأكثر تعقُّلاً بينكم».

في محطة الحافلات جلس أرضاً وراح ينظر أمامه صامتاً. ساور القلقُ كيشا، فسأله:

- «ماذا بوسعي أن أفعل بعدُ؟ أَلَم يَعُد لديك أحدٌ في المدينة؟ معارف مثلاً؟ أنا الآن أخشى العودةَ بك أيها المعتوه؛ فقد تقتل نصفَ أفرادِ المجموعة. ألديك جيران؟ أصدقاء؟» هنا ضرب كيشا بيده أعلى جبينه: «تذكَّرتُ! أعْطِني عنوانَ تلك الفتاة، صديقتك؛ لربما استطاعَت إعادتَك إلى رُشْدك!»

أخبره ساشكا العنوان، مستغرباً كيف استطاعَت ذاكرتُه الإلمامَ به، واتجه إلى باب الحافلة. لم يكن راغباً في مُغادَرة المقبرة. أحسَّ مجدداً بآلامِ كدماته وجروحه، وشعر بضجرٍ وصقيع. انطلقت الحافلة وسارَعَ إلى تنفيذِ ماَ ظلَّ يحلم به طويلاً. دفن رأسه في كتف كيشا وانخرط في البكاء. في المدينة، أمسك كيشا بيد ساشكا كالطفل. انسدلَتْ غِشاوةٌ بيضاء فوق عينَيْه وهو يتعثَّر بقدمَيْه. فكَّر مجدداً: «أنا المسؤول». كان يشعر بشفقةٍ كبيرة على نفسه.

همس كيشا دون حقد: «انظر تحت قدمَيْك، أيها المغفَّل».

«مغفل!» هكذا كانوا يَصِفون الشكَّاء، هناك في الوحدة، وهل يختلف ساشكا الآن بشيءٍ عن الِشكَّاء؟ يسير باكياً كفتاة، دون أن يَعِي إلى أين هو

ذاهب. لقد نسي كاتيا نهائياً.

- «يبدو أننا وصلنا. أتُقِيمُ صديقتك هنا؟»

رفع ساشكا ناظرَيْه وتأمَّلَ البيتَ المعهود.

- «كيشا! لن أذهب إلى هناك!»

فقرع كيشا الباب بقوة قائلاً: «ستدخل طائعاً».

فتحَت كاتيا مُباشَرةً، نظرَت إلى كيشا نظرةً خاطفة ثم التفتَتْ إلى ساشكا.

- «ساشا، ما بك؟»

بادَرَها كيشا: «كان يريد زيارتكم، لكن الحياء يَمْنعه من الدخول».

- «بالطبع، تفضَّلا».

دفع كيشا ساشكا أمامه ووقف عند العتبة.

- «أعتقد أني لن أدخل؛ فقد ألوِّثُ المكانَ هنا».

فكَّر ساشكا وترنَّح: «أهذا بِناءً على أنني أنْظَفُ منه؟!»

صاحت كاتيا: «مهلاً! أرجوك لا تُغادِر، تَفضَّل. لربما تسوء حالته هنا».

تمتم كيشا: «كل ما يُمكِن أن يحدث له قد حدث بالفعل». وقرَّرَ البقاء.

جلس ساشكا على كرسيٍّ صغير وثبَّت نظره في الأرض. جالت في رأسه عبارة: «عسى ألَّا يقع». وتَراقَص بياضٌ أمامَ عينَيْه، وأحسَّ باحتباسِ أنفاسه.

تناهَت إلى مسامعه مَقاطعُ من جُمَلٍ عجَزَ عن الإمساك بترتيبها ومَغْزاها: «إنه مريض جداً... كنا في المقبرة... كلا..». حتى إنه تخيَّلَ أن في الغرفة ما لا يقلُّ عن خمسة عشر رجلاً والكل يُدلِي بنصائحه، حول إمكانيةِ شفائه. حتى أوليغ بدا على مَقربةٍ منه. حتى إن ساشكا ميَّزَ نبرةَ صوته الخشن وهو يقول: «يا لنَذَالتكَ!» ثم فاحَت في أنفه رائحةٌ كريهة، وتناهى إلى مسامعه: «النشادر». نظر لأعلى، فرأى كيشا الشاحب مُنحنِياً فوقه.

- «هل تشعر بتحسُّن؟ كيف سيكون بوسعنا العودة؟ قد لا نجد حافلةً؟ أنا سأتدبَّر نفسي، أما أنت..».

اعترضَت كاتيا: «وأنت أيضاً لن تذهب، هل سيَكْتشفون غيابَكما في مدرسة المدرَّعات؟ في المساء سأفرش لك الأرض لتنام. هل تمانع؟»

فرح كيشا قائلاً: «لا بأس! أَلَا يزعج ذلك أهلَكِ؟»

- «والدي في مهمةٍ خارج المدينة، وسأتصل بأمي حيث تعمل».

طرحا ساشكا فوق ديوان ضيِّق في غرفةٍ فيها مجموعة كبيرة من الكتب.

تبادَلَت كاتيا وكيشا الحديثَ بعضَ الوقت، ثم انصرف كيشا لجهةٍ ما، وظلت كاتيا جالسةً بجوار ساشكا وهي تُمسِك بيده. تذكَّرَ لبرهةٍ أن يده مُلوَّثة، ولكن تعوزه القوة لإفلات يده. مجدداً فتح عينَيْه ليجدَ أن الجالسةَ بجواره ليست كاتيا، وإنما امرأةٌ متقدِّمة في السن.

قالت المرأة: «لقد عرفتك، كنتَ تدرس في الفيلق عند غريغوري. كنتم غالباً ما تَأتون إلينا في مشفى المدينة. حين حدث انفجارٌ لديكم، أليس كذلك؟ كنتَ برفقةِ صبيٍّ أصمَّه الانفجار.

كنتَ برفقة إيليا. أنا والدة كاتيا، طبيبة؛ ڤـيرا إيـڤـانوڤـنا. أمَّا إيليا، ذلك النذل، فهو سبب كل شيء. ليتني كنت أعرف».

وشعر ساشكا بدُوَارٍ شديد.

- «حرارتك مرتفعة جداً!» ثم كشفت الأم عن صدره. «يا إلهي! ما كل هذا؟ من أين لك بتلك الكدمات؟»

همس ساشكا: «رفسوني بأرجُلِهم».

- «أي رعبٍ هذا!» سحبت حقنةً بها سائل شفاف. «سأعطيك حقنةً خافضةً للحرارة، ثم نَسْتدعي الإسعاف. قد تكون مُصاباً بكسور».

وهناك، في الغرفة المجاوِرة، تَبادَلَت الحديثَ مع كاتيا وكيشا، لكن ساشكا لم يَعُد يسمع شيئاً؛ فقد بدأ مفعولُ الدواء. دخل كيشا إلى الغرفة المعتمة، وأعَدَّ فراشَه على الأرض مُباشَرةً.

- «لقد وقعتَ، يا سانيوك! يبدو أن الفتاةَ مُغرَمةٌ بك، وراحت أمها تحقِّق معي، وقد بالَغتُ في الكذب. كاتيا رائعة! لم ألْتقِ بفتاةٍ حلوة مثلها منذ زمنٍ طويل. ليتني كنت أنا مَن تعرَّف عليها. وأنت، أيها الصغير، لا تفهم شيئاً في النساء! يأتي الحظُّ لمن ليس أهلاً له!» قال كيشا ذلك ونقر بإصبعه على جبين ساشكا مازحاً، وسرعان ما تذكَّرَ أنه مريض. «قالت العمة إنه يجب نقْلُك إلى المشفى فوراً، لكنهم هناك لن يَقْبلوا أمثالَنا، فليس لدينا الوثائقُ المطلوبة!»

خلد كيشا للنوم سريعاً، ولم يَجرُؤ ساشكا على ذلك، خشيةَ أن يأتيَه ليوڤا في المنام مرةً أخرى، أو والدته. هل ستزوره في الحُلم وتقول إنه سببُ موتها؟ كيف سيُمكِنه العيش آنذاك؟ وهل سيكون بحاجةٍ إلى الحياة؟

- «أَلَم تَغْفُ بعدُ؟» أدرك ساشكا أن كاتيا تقف عند العتبة. دخلت بحذرٍ إلى الغرفة، تخطَّت كيشا النائم وجلست بجوار ساشكا.

- «لقد فهمت. صاحبك كيشا هذا كذَّابٌ نادرُ المثال، ولكنه يُخطِئ. هل ماتَت أمك؟»

أطرق ساشكا برأسه وسُرَّ لأن الغرفة كانت مُظلِمة؛ فإذا انهمرت دموعُه مرةً أخرى فلن تلحظ كاتيا ذلك. مدَّت يدها وراحت تمسح شعره، فارتجف من هذا الحنان المفاجئ.

- «اطمئن، ستَنفرِج الأمور. المهم أن تتجاوز المصيبة، وسيعود كل شيء إلى طبيعته».

كان ساشكا ينصت لكاتيا ويضمُّ يدَيْها حتى نام.

اتضح صباحاً أن رجال الإسعاف الذين حضروا ليلاً رفضوا نقْلَ ساشكا إلى المستشفى لعدم وجودِ بطاقةِ تأمين. هو بالطبع لا يذكر ذلك، يذكر فقط نُتَفاً من الحديث الأخرق حول المشفى الوطني، حيث يُعالَج اللقطاء والعاطلون عن العمل، وكذلك ما قالَتْه والدةُ كاتيا عن أنه هناك سيموت حتماً. مقياس الحرارة الذي كانت تُحضِره كاتيا بين فينةٍ وأخرى، ظلَّ يشير إلى الدرجة الأربعين، كل ما بداخله كان مُعتلاً، كان يلتقط أنفاسَه بصعوبةٍ بالغة.

قال أحدهم: «التهاب قصبات».

استحالت الغرفة إعصاراً مبهماً أخضر، وراح ساشكا يدور في مركزه، مُحاوِلاً البحثَ عن أحدٍ يُحاوِره. أخيراً تذكَّرَ كيشا ودعاه إليه، لكنه لم يَستجِب. عادت الغرفة ثانيةً كما كانت، خلعَت عنها الرداءَ الأخضر، وتماوَجَت برتابةٍ.

فجأةً أدرك ساشكا أنَّ بحَّارةَ السُّفُن ينتابهم الإحساسُ نفْسُه الذي ينتابه الآن. فيما مضى، قبل دخوله المدرسة، رأى البحرَ لأول مرَّةٍ في الصورة، وكان يَتُوق لأن يصبح بحَّاراً. لكن الحرب بدأت، وصار الذهاب إلى المدينة على شاطئ البحر مستحيلاً. الحرب دائماً قائمة. اندلعَت الحرب عند ولادته، وكبر وما زالت الحرب لم تَنتهِ. ها هو الآن يموت، والحرب مستمرة، ولربما ستظل أبداً. تناهى إلى سمع ساشكا صوتُ ارتطامِ باب الغرفة، وأدرَكَ فوراً أن كاتيا تجلس بجواره.

- «غادَرَ صديقك، وأنت باقٍ هنا. ستعالجك أمِّي، اطمئن، والدتي طبيبةٌ ماهرة».

«ڤـيرا إيـڤـانوفنا طبيبة ماهرة، وكرايف ضابط ماهر. قد تصبح كاتيا مدرِّسةَ علمِ النبات في المدرَسة. لماذا يحاولون علاجي؟ أيَّ نفعٍ يَرْجون مني؟ أنا لا أُتقِن إلَّا الرماية، ولا أريد فعل ذلك». قرَّر ساشكا أنه إذا دعَوه مجدداً إلى الفيلق، فلن يكون بوسعه العودة. «ألِحراسةِ القائد؟ وما نفع القائد أصلاً؟ الجميع منشغلون بمَصالِحهم، ولا أحدَ يكترث لغيره! مَن يفكر بالقائد إلَّا في الأعياد؟ وهذه التهديدات الموجَّهة من المكتب الرئاسي: كونوا يَقِظِين، وإلا احتلَّكم الأعداءُ من إنسك! وهل سيُغيِّر الاختطاف شيئاً؟ إلى أين هرب إيليا؟ الحال واحدٌ في كل مكان».

أحسَّ ساشكا بيد كاتيا الباردة فوق جبينِه، ففتح عينَيْه.

- «ألست نائماً؟ لقد أخَفْتَني».

أراد أن يُجِيبها، لكن انتابه سعالٌ شديد.

- «اهدأ، اهدأ، من أين جاءك هذا الزكام؟»

كان يُمكِنه إطالةُ النظر إلى كاتيا دونَ كللٍ. لم تكن فائقةَ الجمال، هي فتاة عادية، كالمئات غيرها. لكنَّ عينَيْها غريبتان، وضفيرتها تصل إلى خصرها. والدة ساشكا أيضاً كان لها ضفيرة. قديماً، قبل ولادته.

- «لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ هذه أنا. هل تسمعني؟»

أومأ ساشكا برأسه، وراح يتراقص كلُّ ما حوله مجدداً. ثم تناهى إلى سمعه صوتان؛ صوتُ ڤـيرا إيـڤـانوفنا، وصوتُ رجل عجوز.

- «سيموت هذا الصبي. ماذا فعلتم؟! هل من المعقول علاجُ التهابٍ رئوي كهذا في المنزل؟»

- «إنه صديقُ كاتيا، صدمَتْه سيارة. يتيم... معك حقٌّ..».

أدرك ساشكا أنه عارٍ، وتتحسَّسه يدان جافتان على عَجَل. أحسَّ بالرعب.

- «هل تسمعنا، أيها الصبيُّ؟»

- «ماذا سنفعل؟»

نادى ساشكا: «أمي!»

ثم خُيِّل إليه أنه يجلس داخل فقاعةٍ زجاجيةٍ كبيرة، لا يُمكِن لأحدٍ أن يسمعه؛ كان ساشكا ينادي أحداً ما، يتوسَّل، يصرخ، ولكن عبثاً. يمرُّ الناس على مَقربةٍ منه رَتَلاً طويلاً كئيباً، لا يلتفت أحدٌ لصراخه. حتى كيشا مرَّ وهو يُلوِّحُ بآلة التسجيل. «هذه ليست فقاعة!» أحسَّ ساشكا بالخوف. الآن أدركَ تماماً أن هذا تابوتٌ أعوَج، صمَّمَه كيشا على عَجَل من ألواحٍ عَفِنة. «لماذا أنا في التابوت؟ أيعني هذا أني ميت؟!» حولَ التابوت جمْعٌ من الشبان؛ أوليغ، وجينكا كونكوف، والشكَّاء، والكلب بيوس. يستند كيشا إلى مِعوَل، ويتلو شيز الصلاةَ. في الحفرة المُعَدَّة لساشكا تتساقط نُدَفٌ كبيرة من الثلج. فكَّر ساشكا بطمأنينة: «يريدون وضعي في هذا القبر الرطب! لماذا لم أمُت في الصيف؟» انحنَتْ والدته فوقه فقبَّلَت جبينَه، وابتعدت. اقترب كيشا، ثم أوليغ، ثم ليوڤا. «هذا يعني أنني لم أقتله!» هكذا اعتقد ساشكا. بدأت السدادة تنغلق ببطء. أدرك الأمرَ فجأةً: «لكنني أراهم». تعالى صوت شيز: «هل أنت بخير؟ لقد دفنوك حياً، يُمكِنك أن ترقد وتفكِّر». انغلقت السدادة، وراحت تنهال عليه كُتَلُ ترابٍ متجمدة، ولفَّ الظلامُ ساشكا.

17

قال الرجل الضئيل الأشيب وهو يُسوِّي الغطاء فوق ساشكا: «صبيٌّ فريد! يُمكِنكِ، يا زميلتي، إعدادُ أطروحة الدكتوراه. كم مرَّة دفنَّاه؟! تلك هي القوى الكامنة في الكائنِ الحيِّ. أين كاترينا؟»

- «في المدرسة. ستصل قريباً».

- «وُلِدتَ محظوظاً أيها الشاب! حظُّك لا مثيلَ له! ولكنْ عليك طبعاً أن تبقى مُمتناً مدى الحياة لـڤـيرا إيـڤـانوڤـنا وابنتِها كاتيرينا غريغورِفنا».

أدرك ساشكا أخيراً أنه في بيتِ كاتيا، وإلى جانب العجوز، بجوارِ والدة كاتيا، ويقف معهم أيضاً كرايف شخصياً.

قال الرجل: «نهارك سعيد، يا ساشكا يرخوف. أعتقد أنك عرفتني الآن».

- «نهارك سعيد، سيدي النقيب».

قبَّلَ العجوز يدَ والدةِ كاتيا بلباقةٍ وانصرف، وجلس كرايف قُربَ ساشكا.

- «إذاً، أنت الآن من عناصرِ قواتِ المغاوير؟»

أراد ساشكا أن يُجِيب، لكن كرايف أشارَ إليه ألَّا يفعل.

- «لا تَلتمِس الأعذار، لقد تحدَّثتَ وأنت في حالة الهذيان عن كل شيء. ما أكثرَ ما سَمِعناه على مدى ثلاثة أيام!»

- «ثلاثة أيام؟ أنا هنا كلَّ هذا الوقت؟»

- «أجَل، يا صديقي، اليوم هو الرابع والعشرون من أكتوبر. كيف تشعر الآن؟»

- «لا بأس».

- «لقد حالَفَك الحظ. جسمك فَتِيٌّ وقويٌّ. يُمكِنك تخطِّي كلِّ العَقَبات. على أية حال، ما زال الوقت مبكراً لتموت، أيها الطالب الضابط». تضاحك

كرايف. «لا بأس، سنتحدَّث لاحقاً، بعد أن تُنهِي علاجَك. يجب التفكير إلى أين ستذهب بعد ذلك».

ابتسم كرايف ثانيةً وخرج، وحاوَلَ ساشكا النهوضَ بتُؤَدة. أحسَّ بضَعْفٍ عامٍّ، لكن الآلام لا تُذكَر. اقترَب ساشكا من النافذة. تغطي الثلوجُ الشوارعَ، ولربما البرد قارسٌ جداً. حالَت الستائرُ دونَ تسرُّبِ الضوء إلى الغرفة. أزاحها ساشكا، وفُوجِئ بآثارِ الحُقَن الداكنة تغطِّي أوردتَه. اقترب من رفوفِ الكتب، تفحَّصَها بنظرةٍ خاطفة، وتناوَلَ واحداً منها مكتوباً على غِلافه الذهبي: «العهد القديم».

جلس ساشكا على ديوان وفتح الكتاب: «في البَدْء خلق الله السموات والأرض. كانت الأرض خَرِبة وخالية، وعلى وجه الغَمر ظُلمة» [21]. حدَّث نفسه: «مِثل الأنقاضِ عندنا؛ أرضٌ خاوية ولا قرارَ لها». ثم خلَقَ الربُّ الذي لا يعرفه ساشكا كلاً من اليابسة والبحار، والنباتات والحيوانات، والشمس، والقمر والنجوم، والإنسان.

«لعله أخطَأَ هذه المرةَ. كان بوسعه الاستغناءُ عن هذه النجاسة». أعاد ساشكا الكتاب إلى مكانه وضحك. «الإنسان سليلُ القرد. كائنٌ شرير».

- «ساشا!»

دخلَت كاتيا الغرفةَ على عَجَلٍ، حضَنَتْه، وتراجَعَت خطوةً إلى الوراء.

- «وأخيراً! قالت أمي بالأمس: إن لم تَصحُ اليوم، فستموت حتماً. كَمْ عانيتُ خلال هذه الأيام! لم أَنْعَم بالهدوء قَطُّ في المدرسة! أعودُ منها إليكَ مُباشَرةً. كنتَ محموماً جداً، كان لا بُدَّ من تبديلِ الكمادات بشكل مستمر. توقَّفَ تنفُّسُك ذات مرَّة، أصابني رعبٌ شديد، حتى إنني بكيت. من حسن الحظ، كانت والدتي في البيت. هل تذكر؟ لقد أشرفتَ على الموت!»

اعترف لها: «اعتقدتُ أنني ميِّت. حتى إنني رأيتهم وهم يُوارُونني التراب».

- «يا لها من تُرَّهاتٍ كثيراً ما تفوَّهتَ بها طوالَ هذه المدَّة! كانوا يحقنونك بالمسكِّن يومياً».

تمتم ساشكا: «ستجعلونني مُدمِناً على المخدِّرات». كان يشعر بالحرج؛ يعلم الله ما قاله في هذيانه.

شرحت كاتيا: «كلا، هذه الحُقَن ليست خطيرة، لا تقود للإدمان. أنت جميلٌ، قَسَماتُ وجهك مُتناسِقة. ما الذي دفَعَك للالتحاق بوحدات المغاوير؟ انظر ما فعلوا بك، حتى الآن لم تندمل الكدمات. لا تَعُدْ إليهم. سيقتلونك هناك، أو يُحِيلونك إلى مُدمِن. لا أحدَ هناك غير القَتَلة. سمِعْتُهم في المدرسة يقولون إن الجوعَ فتَكَ بهم، وهناك مَن يأكلون لحومَ البشر. ذلك حين زُرْتَني بالضبط. ولكنك لم تُخبِرني شيئاً. كنتَ تتضوَّر جوعاً، وأنا لا أعلم!»

كان ساشكا يستمع بقنوطٍ إلى ثرثرتها. لماذا تتحدَّث كاتيا عن كل هذا؟ هي في الحقيقة لا تعرف شيئاً. تُقِيم في مكانٍ مريح، ولا تُدرِك أن هناك أماكنَ أخرى موجودة. هناك، لديهم قوانينُهم ويعيشون وَفْقاً لها. هي تَحْكم على تلك الأماكن استناداً إلى الأقاويل والأخبار الرسمية، حيث يتحدَّثون دائماً عن الحياة في المدينة، وعن جمالِ كل شيءٍ فيها، ولا يتحدَّثون عن الأنقاض أبداً. ويقولون إن كلَّ عنصرِ مُداهَمةٍ قاتِلٌ لا مَحالةَ. مع أن... ساشكا، نفسه، قاتلٌ بامتياز.

يبدو أنه لفظ العبارةَ الأخيرة بصوتٍ مسموع؛ لأن كاتيا قطعَت سيْلَ كلماتها المبتهِج القَلِق، وأعلنَت بثقة:

- «كلَّا، أنت لستَ قاتلاً... أنت طيِّبُ القلب وعادل... والدي لا يَذكُرك إلَّا بالخير».

أدار ساشكا وجهه بانفعال. فيما مضى، كان بالفعل طيِّبَ القلب وعادلاً، كان ذلك قبلَ زمنٍ بعيد. لا جدوى من تذكُّرِ ذلك الآن. لم يَعُد كذلك الآن. لم يَبْقَ من طِيبتِه شيء، إلا الإساءة والخذلان فقط.

- «سيصل كيشا بعد قليل». تلقَّفتها أُذنا ساشكا. «يزورك يومياً. كَمْ حاوَلَ أن ينال إعجابي! لكنه ليس من الطِّراز الذي يعجبني».

- «إنه طيب».

- «ليس بأفضل منك، بالتأكيد». وضحكت كاتيا قائلةً: «بالأمس رافَقَني حتى المدرسة. ظلَّ يتحدَّث عن مزرعةٍ ما، وعن المال. وكأنَّ كل موضوعات الحديث الأخرى قد نَفَدت. يبعث على المَلَل، ولديه قبعةٌ حمقاء».

سُمِع طَرْقٌ على الباب.

- «ها هو ذا قد وصل. سأفتح له».

عند العتبة، بدا كيشا شاحباً وقَلِقاً.

- «يا لكَ من نذل، يا ساشكا! أرعَبْتَنا جميعاً. وأنا في طريقي إليك، لازَمَني الخوف من أنك قد متَّ».

- «لم أتعمَّد ما حدث. كيف حال الشكَّاء؟»

- «هل صدَّقتَ أنه سيموت؟ هيهات. ظل يومَيْن وهو يعاني من سيلان أنفه، وانتهى الأمر. بالمناسبة، أوليغ يُبلِغك شكرَه، لأنك حشوتَ ذاك الضئيلَ بأقراص الدواء. فهو يُدلِّل حبيبَه كوستيك [22]، وكأن لا شيء آخَر يشغله».

قالت كاتيا بتردُّد: «سأغادر الآن. سأُعِدُّ الشاي. وأنت، يا ساشا، حبَّذا لو تَسْتلقي. يجب أن تستريح».

ما إن خرجَت كاتيا حتى رقد ساشكا، فجلس كيشا بجواره وقال هامساً:

- «هذا العمُّ، والد كاتيا، رجلٌ طيب. عرف أنك من وحدة المغاوير، ولم يَطْردك. وزوجتُه رائعةٌ أيضاً؛ تقدِّم لي الطعام في كل مرَّة. نويت سرقةَ واحدةٍ من ملاعقهم، لكنني تراجعت. فهُمْ أُناسٌ طيبون، لا أُريد الإساءة».

- «كيشا، ربما أكون ثرثرتُ هنا كثيراً. هل تعرف إن كنتُ تكلَّمتُ عن ليوڤا، أو أي شيءٍ آخَر؟»

فكَّر كيشا: «لا، لم تذكر شيئاً عن ليوڤا. تحدَّثتَ عن شخصٍ اسمه إيليا. كنتَ تناديه باستمرار. عموماً، أنا لم أكن هنا طوالَ الوقت. الأفضلُ أن تسألَ كاتيا، فهي كانت دائماً بجوارك، ولسببٍ ما تُشعِل الشموع. وأنت، أيها الأحمق كنتَ تقرأ لها أشعاراً. لكن، لِيَكُن في اعتبارك أنها لم تَفهم شيئاً، ولم يَسبق لها أن قابَلَت أحداً من شعرائك الصحراويين، ولا تفهم كلمةً بلُغَتهم».

قطَّبَ ساشكا قائلاً: «أشعار؟ لا أذكر شيئاً».

- «آه! ظننتُ أن بينكما قصةَ حبٍّ. كنتَ تتشبَّث بها وأنت تَهْذي، كأنها أمك! المعذرة».

- «كيشا، أنا لا أذكر شيئاً!»

- «يعني، كاتيا غير مرتبطة؟ هذا أسهل. وإلا كنتُ سأضطر لأن أخطفها منك. ويا لها من عملية مُضنِية!»

جاءت كاتيا، وقدَّمت الشاي مع بعض البسكويت. وضعت الصينية بجوار ساشكا على الأريكة.

- «أتتحدَّثان عن الحرب؟»

أكَّد كيشا: «بالطبع. وعمَّ يتحدَّث الرجال؟ إما عن الحرب، وإما عن النساء، إلَّا مع ساشكا، لا يُمكِنك الحديثُ عن النساء؛ فهو لا يزال صغيراً على هذه الاهتمامات».

تابَعَ كيشا ثرثرته، ولم يتوقَّف. حاوَلَ ساشكا دفْعَه بمِرفَقه خفيةً، ثم كفَّ عن دفعه، وكفَّ حتى عن الإنصات إليه. «مُغفَّل أنت، يا كيشا! تكذب على الفتاة، لِمَ تُراوِغ؟ لنَفترِض أنها ستُحِبُّك، ماذا بعدُ؟ هل تتزوَّجها وتأتي بها إلى الأنقاض؟ أو إلى مزرعة والدك؟ إنها تريد حياةً أخرى».

لكن كيشا نظر إليه وكأنه لم يفهم. ظلَّ جالساً مع كاتيا حتى حلول المساء، ووعد أن يعود غداً. كانت كاتيا تتنهَّد مُرهَقةً، وتَتعمَّد عدمَ الاكتراث بكيشا الذي أبدى عناداً شديداً. كان ساشكا، الذي ما زال ضعيفاً بعد المرض، يَغْفو تارةً ويستيقظ أخرى، بينما كيشا لا يزال في الغرفة. خجل ساشكا بسبب صديقه الثرثار، العديم اللباقة، وبسببِ ما جلب هو نفْسُه لأسرة كرايف من متاعب. إنه يستلقي هنا، شاغلاً أريكةَ كاتيا، بينما هي تنام في الصالون. ثم كَمْ من الأدوية أنفقوا عليه؟ لن يتمكَّن من مُكافأتهم أبداً! كان عليه أن يغادر إلى الأنقاض حالاً، لكنه ما زال يسعل، ومن الصعب عليه الوصول حتى إلى المطبخ. لكنه يستطيع أن يستلقي في الأنقاض من دون أن يضايق أحداً.

في اليوم التالي، ذهبت كاتيا إلى مدرستها، وكرايف إلى عمله، وظلَّ ساشكا مع رَبَّة البيت ڤـيرا. تصفَّحَ بعضَ الكتب، لكنه لم يكن راغباً في القراءة. بماذا قد تفيده هذه الكتب؟ نظر ساشكا إلى الصالون، ثم اقترب من صورةِ شقيق كاتيا. وقف على رؤوس أصابع قدمَيْه وتفرَّسَ ملامحه بتمعُّنٍ ليعرف إن كان الشاب أشبهَ بأبيه أم بأمه. فكَّر ساشكا: «إنه يشبه والده». تردَّدت في المطبخ جَلَبةُ الأواني. دخَلَه ساشكا فوجد ڤـيرا إيـڤـانوڤـنا تغسل الأطباق.

- «أتحتاجين إلى مساعَدة؟»

التفتَتْ والدة كاتيا نحوَه.

- «شكراً، لا. هيا، اجلس. قد تكون جائعاً؟»

- «كلا».

قالت وهي تهز رأسَها: «إنك لا تأكل شيئاَ. قد تَضعف، فتمرض من جديد. لا أحدَ يعلم كيف ستكون الأمور في المرَّة القادمة!»

قال ساشكا: «سامِحِيني، أردت أن أُخبِرَكِ بأنني سأعود إلى الفرقة».

رفعت ڤـيرا إيـڤـانوڤـنا يديها قائلةً: «إلى الفرقة؟ إلى البناية المدمَّرة بالقنابل؟ هل جُنِنت؟ لا يجوز البقاء هناك! يجب أن ينقلوكم جميعاً إلى المدينة! أطفالٌ يَحْملون الرشَّاشات، شيءٌ مرعب!»

نهض ساشكا قائلاً: «أنا لستُ طفلاً، لقد وقَّعتُ عقداً، وأنا مُجبَر أن أكون هناك، حيث تكون الفرقة. إنهم يدفعون لي».

سُمِع صوت عند الباب يقول: «هل يدفعون كثيراً؟»

الْتَفَت ساشكا، كان كرايف يقف هناك مستنداً إلى قائمةِ الباب وقد شبك يدَيْه على صدره.

- «يدفعون ثلاثين ماركاً شهرياً، بالإضافة إلى مكافأة المعركة».

- «مبلغ ضخم!»

أحسَّ ساشكا بالإهانة: «لماذا تسخر مني، سيدي النقيب؟ طبعاً لن يدفعوا لي كما يدفعون لك. أنا لا أحمل شهادات، وليس لي رُتْبة، وقد لا تكون أبداً. بل ولا أقارب لديَّ. فما الذي بوسعي فِعْله بعدُ؟!»

تقدَّم كرايف من الطاولة، صبَّ لنفسه كأسَ ماءٍ، ثم وضع الإبريق وتناوَلَ الكأس.

قال أخيراً: «أنا لا أسخر، أريدك أن تفكِّر مَلِياً في أمر واحد: لماذا في المدينة الرائعة، التي أنت على استعدادٍ للدفاع عنها دونَ مقابل تقريباً، لا يستطيع الإنسان، مثلاً، أن يذهبَ لزيارةِ أحدٍ ما في مدينةٍ مجاورة؟ لماذا لا أحدَ يملك حريةَ اختيارِ مكانِ إقامته، ولماذا يُطارِد مكتبُ الاستخبارات بمروحيةٍ صبياً في السادسة عشرة من عمره يحاول مُغادَرةَ هذه المدينة الرائعة؟ ثم فكِّر، لماذا يَطْردون رفيقَ هذا الصبي من مؤسسةٍ تعليمية عادية، ويَدْفعون به إلى مصبِّ مجارير، حيث يوجد الآلاف من أمثاله. وهل هذه المدينة رائعةٌ بالفعل؟»

- «أنت تتحدَّث عنا، أنا وإيليا، وعن الأنقاض. الغريب... أنك أنت نفسك زرعتَ فينا حبَّ المدينة، وبذْلَ الروحِ من أجلها، إذا لَزِم الأمر».

- «أمَا زلتَ تحب هذه المدينة؟ قُلِ الصدق؟ لن أسلَمك للمكتب».

نظر كرايف إلى ساشكا الذي بدا له أن الضابط ابتسم بمَكْر.

- «تفضَّلْ وسلِّمْني. لن يَبْكيني أحد. أما حبُّ المدينة فإني لم أفكِّر فيه. لكنني أدَّيتُ لها القَسَم، ولم أخُنْه كما فعل إيليا، ولن أخونها».

تنهَّد كرايف، كما كان يتنهد أثناء التدريب حين يُخطِئون في الإجابة على أسئلته، وقال: «ها... ا... ا... كنت متأكداً من أنك حلَّلتَ تلك الواقعة التي حدثَت لنا. أنت شابٌّ ذكيٌّ».

قال ساشكا بحنق: «أجل، أنا ذكيٌّ. نحن بسبب أمثالك، سيدي الضابط، لم نعرف طعمَ النصر حتى الآن. يجب ألَّا يعرف الشكُّ طريقاً إلى قلب الجندي. هكذا علَّمْتَنا. يبدو أنك غير مُقتنِع بما تعلِّمه للآخرين. كنتُ أكثرَ مَن يكنُّ لك الاحترام».

وافقه كرايف: «أجَل، لا أقتنع. حتى العسكري من حقِّه أن يشكَّ، وإلا فلن يكون إنساناً، بل آلة».

ساد صمتٌ قصير، ثم نهض ساشكا قائلاً:

- «سأذهب إلى الوحدة، ما المطلوب مني لقاءَ المعالَجة، سأحاول جمْعَ المبلغ».

- «كُفَّ عن الحماقات! لن تذهب إلى أي مكان!»

تبسَّمَ ساشكا قائلاً: «سأذهب. أفهم أنكم أنقذتم حياتي. مع ذلك، أنتَ لستَ أبي، ولم تَعُدْ مُدرِّبي أيضاً؛ لذلك سأذهب. قد يُحالِفني الحظ فأصِلُ إلى مرتبةِ قائد، وربما حتى إلى رتبةِ رائد. ليس لديَّ خيارٌ آخَر».

- «الخيارات موجودة دائماً. يجب التروِّي فقط. لا بُدَّ من الصبر وإعمال الفكر. إذا تعجَّلْتَ فستجد نفسَك في ذات المكان الذي جِئتَنا منه. وهو ليس بالمكان الأمثل في المدينة، أليس صحيحاً؟»

قال ساشكا بجفاف: «سيدي الضابط، ذكِّرني أيضاً أنه ليس عندنا إلا قُطَّاع الطرق. حدِّثني عن القمل أو أكْلِ لحوم البشر. إلا أني أعرف هذا كله. الأفضل أن تُجيب عن سؤالي: هل كنتَ ستأخذني إلى الوحدة التي تخدم فيها أنت؟»

أخيراً تذكّر كرايف كأس الماء، فرشف منه جرعة، وقال: «كلا، ليس بوسعي ذلك. أولاً، ما زلتَ صغيراً لتلتحق بالجيش النظامي. ثانياً، المكتب هو مَن يدقِّق في أسماء المرشَّحين، ووجودي أنا شخصياً هناك ليس نظامياً تقريباً».

- «أرأيت؟! ماذا عساي أنتظر؟»

قال كرايف: «يُمكِنك البقاء هنا. على الأقلِّ، ما دام الطقس بارداً. وسنرى ما يمكننا فعله فيما بعدُ».

ضحك ساشكا.

- «لدينا في اللواء صبيٌّ يتطلَّع لأنْ يتبنَّاه أحدٌ ما. ولكني لست كذلك؛ فأنا أستطيع أن أتدبَّر أموري في المدينة، وبنفسي. أفتَسْمح لي بالانصراف، سيدي النقيب؟»

غادَرَ المطبخ وسمع ڤيرا إيـڤـانوڤـنا تقول لزوجها:

- «غريشا، ما زال صبياً. ما جدوى هذه الأحاديث؟»

حدَّث ساشكا نفسه: «مدينة سيئة، مدينة رائعة، كلٌّ يقول ما يريد. لكنني لن أُقِيم في مدينةٍ أُخرى. ومَن قالَ إن هناك أفضل منها؟ لديَّ هنا أصدقاء، وجيران، وكاتيا، في نهاية المطاف. فماذا لو هاجَمَنا الأعداءُ من إنسك فجأةً، وراحوا يقتلون الجميع؟ مَنْ سيُدافِع عن كاتيا؟ لا بُدَّ من حمايتها. كاتيا، وأمها، وكل النساء. قد لا يَرُوقني القائد، مهما يَكُن فأنا جنديٌّ. وكذلك كرايف. ببساطة، عليك الدفاع عن كل ما هو حولك».

غادر ساشكا مساءً، بالرغم من اعتراضات والدة كاتيا الغاضبة، إنه لا يزال يَسْعل ولذلك سيُعاوِده المرض، بالرغم من مُحاوَلات كرايف غير المُلِحَّة لاستئناف الحديث. لكن التحدُّث -حسب رأي ساشكا- لا طائلَ منه. كما أن ساشكا كان يخشى أن يكون كرايف على حقٍّ، في حين كان ساشكا ولداً مُغفَّلاً لا يَعِي شيئاً. أعطته كاتيا الثياب التي جاء فيها، وكانت آنئذٍ مغسولةً ومكوية. غاصَتْ يدُ ساشكا في جيوب سترته. التقويمُ ونابُ الحيوان المجهول في مكانهما. الرسمُ على التقويم باهتٌ، لكن التواريخ ما زالت مقروءةً. تفرَّسَ ساشكا قطعةَ الكرتون ثم دسَّها مكانها بعناية. مدَّ كرايف يدَه صامتاً يُصافِح ساشكا، في حين رافَقَتْه كاتيا عبر الفناء.

وناولتهُ كيساً ليس كبيراً: «هيا، خُذ».

- «ماذا به؟»

- «به شموع؛ شموع حقيقية، لو أشعلتها ونظرتَ إلى النار فستُشفَى من أيِّ مرضٍ كان. هذا ما قاله أحدُ معارفي في كلية الفلسفة. كنتُ أُشعِلها أيامَ مرضك».

دسَّ ساشكا الشموع في جيبه وقال: «شكراً». كان يجب إضافةُ شيءٍ ما، لكن رأسَه لم يُسعِفه، فتوَّجَه إلى البوابة الخارجية.

نادته كاتيا فجأةً: «ساشا، ساشا، منذ زمنٍ أحاول أن أقول... أنا مُعجَبةٌ بك... جداً».

أجاب ساشكا، محاولاً أن يبتسم: «ربما أنتِ أفضلُ فتاةٍ على وجه الأرض، لكنْ يجب ألَّا أنالَ إعجابَكِ. سامِحِيني».

ثم غادَرَ مُسرِعاً لكيلا تُوقِفه، أو تضيف شيئاً. يجب ألَّا يَلْتقيا ثانيةً؛ باتا الآن مختلِفَين جداً.

كان الشكَّاءُ أولَ مَن التقاه ساشكا في الأنقاض، كان جالساً فوق الأكياس عند المدخل، بسترته الرسمية السوداء، تظهر من تحتها كنزة ساشكا الصوفية وقد أصبحَت مُتَّسِخةً بما فيه الكفاية. كان الشكَّاءُ يحمل بيده بندقية.

- «آه، ساشا! إنك تَعافَيتَ! لقد ضربني كيشا على أُذني؛ قال إنني نقلتُ إليك العدوى».

- «كلا. أصابني زكام».

قال الشكَّاءُ بفخر: «صرتُ من عناصر المجموعة. أخذتُ مكان ليوقا، وصار لديَّ لباسٌ رسميٌّ! بات الجقل يَحْسدني! قريباً ستبدأ المعركة، سأجمع المال، وأشتري الطعامَ، والحلوى أيضاً، وبالتأكيد السكين! هل تعتقد أن المال سيكفي لكل هذا؟»

قال ساشكا: «هذا يتوقَّف على كَمِّيةِ الطعام الذي ستلتهمه». وتابَعَ طريقه للأعلى.

كان باب الشقة مغلقاً. طرَقَ ساشكا الباب، ففتح شيز.

- «أهذا أنتَ أيها الروح السوداء؟»

أجاب ساشكا: «أنا».

قال شيز: «رأيتُ أرواحاً بيضاء؛ فأخبرَتْني بأنك لستَ جاهزاً بعدُ؛ لذلك ما زلتَ حياً».

قال ساشكا: «قالت إحدى الفتيات إنني ما زلتُ حياً لأنها كانت تُضِيء الشموعَ من أجلي. تلك هي». وفتح الكيس.

أومأ شيز برأسه: «هذه شموع جيدة. لديك أربعٌ منها».

كانت الشموع صفراءَ داكنة، ودافئةً تُذكِّره بكاتيا. تَذكَّرَ ساشكا: «يجب ألَّا نلتقي أبداً».

- «أترغب، يا قائد، في شمعةٍ منها؟ بالضبط مقابل مسدَّس. فلديك الكثير».

فكَّر شيز: «مقابل مسدَّس؟ شمعتان». دخل الغرفة، وعاد يحمل مسدساً قديماً موديل «براونينغ».

راوَدَت ساشكا فكرة: «أُقايِض الحبَّ بالسلاح». فتبسَّم.

- «ما زال لديك شمعتان، ماذا ستفعل بهما؟»

- «سأُصلِّي لذاك... الذي خلقنا».

قال شيز: «بتَّ على الطريق الصحيح. وأنا سأُصلِّي من أجلك».

عبَرَ ساشكا إلى غرفته وارتمى فوقَ السرير. بدَتِ الألواح الخشبية صلبةً وغيرَ مريحة من بعد نومه على الأريكة. «أين كيشا؟ أين اختفى ذاك الثرثار؟»

ما زالت تشتعل في الموقد قِطَعٌ صغيرة من الفحم. «يُمكِننا النظر إليها، فهي نار أيضاً. ننظر ونُصلِّي! لكن كيف؟ حملق شيز في نقطةٍ واحدة، لا أحدَ يعرف ما الذي يدور في رأسه. ربما لا يُصلِّي، وإنما يفكِّر كَمْ نحن جميعاً مُغفَّلون وتيوس».

نظر ساشكا إلى طرف الغطاء المشروخ أمامه، وأدرك أنه يَفتقِد كاتيا. يَتذكَّر اهتمامَها به ولمساتها. لكن، كان لا بُدَّ من وضْعِ حدٍّ لهذه الحكاية.

تنهَّدَ ساشكا، وتناوَلَ مفتاحاً للبَرَاغي من فوق الطاولة وانهمَكَ في فك المسدَّس من أجل تنظيفه.

18

في الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر، كانت مُناوَبةُ ساشكا عند المدخل. ارتدى ثياباً سميكة، وأخذ بندقيةَ الذئب، وتسلَّقَ الأكياس. كان يوماً كئيباً ورطباً كغيره من أيامِ الخريف هنا. آثَرَ الشُّبَّانُ الدفْءَ في شُقَقِهم، ولم يركضوا حول ساشكا. وقتلاً للضَّجَر، أخرج ساشكا من جيبه شمعةً وأشعلها. بدأ اللهبُ صغيراً يتراقص. ظلَّ ساشكا ينظر إليه طويلاً، وأخيراً لاحَظَ باستغراب أنه، بالفعل، يشعر بارتياحٍ لم يَشْعر به منذُ زمنٍ طويلٍ. كان حين يزمُّ عينَيْه تبدو الشعلة وكأنَّها غطَّتْ أرجاءَ المكان، وطمست كلَّ ما حولها. لم يَبْقَ إلا ساشكا والشعلةُ الدافئة في يده.

- «هل تُمارِس السِّحر؟»

ارتَعَد ساشكا.

- «ظننت أنَّ في مجموعتكم ساحِراً محترفاً واحداً». اقترب الكلب من ساشكا دون خوذته المعتادة. في يده كُتَيِّب مُتَّسِخ، مغلَّف بورق صحيفة. «هل أزعجتُك؟»

- «كلا، اجلس». أطفأ ساشكا الشمعةَ وأعادها إلى جيبه. «أتقرأ الكتبَ تَهيُّؤاً لدخول الجامعة؟»

- «ليس بالضبط. إنها مُطالَعةٌ يُحاكَم عليها. قراءةُ مطبوعاتٍ ممنوعة».

- «وهل هناك كتبٌ ممنوعة في مدينتنا؟»

ضحك الكلب قائلاً: «بالتأكيد، كتبٌ غير موجودة في المدينة، بل موجودة في الأنقاض. الشرطة هنا لا تفتِّش عنها، يعني... ديمقراطية حقيقية وحرية فِكر. هنا، في الواقع، لا أحدَ يقرأ الكتب. أنتَ تَعلم أيَّ جمهورٍ هنا؛ لذلك فالسلطاتُ المحلية في مَأمنٍ تقريباً».

- «ومن أين لك بهذا الكتاب؟»

- «اشتريته من رجلٍ أحدب، يبلغ سنامه متراً في متر، شيء مضحك. طلب عشرين قرشاً فقط. أخذت خمسَ نُسَخٍ فوراً. استهلكتُ أربعاً منها للفِّ

السجائر، وبقيت هذه النسخة الأخيرة. خطر لي أن ألفَّ بورقها سجائرَ أيضاَ، ثم قرَّرتُ أن أحتفظ بها. الكتاب مكتوبٌ بطريقةٍ تُلامِس الروح. الحقيقة، هو بلغةِ سكانِ الصحراء. هل تعرف تلك اللغة؟»

أجاب ساشكا: «أعرفها، ولكنه، على ما يبدو يا مكسيم، كتابٌ مشبوه، قد يَضرُّ».

دفع إليه بالكتاب وقال: «كُفَّ عن ذلك. ليس هناك كتبٌ سيئة، إلا إذا كانت كلماتها صغيرةَ الحجم؛ فذلك يؤذي النظر. وإلا فليس الكتاب إلا أحرفاً مُنضَّدة، لا أكثر. المهم، كيف تَفْهم الكتاب؟ وما وجهة نظرك؟ إن كنتَ غبياً مطلقاً، يَكفِيك «النظام الداخلي للمغاوير» تقرؤه مدى الحياة، وكل الكتب الأخرى ستبدو لك ضارَّة. إن كان في رأسك عقل، فستستطيع أن تقرأ أيَّ شيء. هل فهمت؟»

اهتمَّ ساشكا بموضوعه، وهو يفتح الصفحة الأولى، متسائلاً: «هل مكتوبٌ فيه عن الله؟»

- «إذا اعتبرنا أن المَثَل الأعلى هو الله، فالجواب نعم. اقْرَأه تفهم. في جميع الأحوال، أنت هنا من دونِ عمل. وأَعِده لي في المساء كما أخذتَه».

غادَرَ الكلب، وجال في خاطر ساشكا أنه لا يُمكِن تخريب هذا الكتاب أكثرَ مما هو عليه؛ لقد طُمِس اسم المؤلِّف بالحبر الأسود، وبَدَت صفحاتُه مُتهالِكةً. تنهَّدَ ساشكا وراح يقرؤه. تلك قِصَّةٌ غريبة خرقاءُ تتحدَّث عن يافعٍ في الخامسة عشرة من عمره، وُلِد في ضاحية إحدى المدن القريبة من الجبهة، ولم تَرَ عيناه سوى الدماء والموت. كان يَحْكم المدينةَ قيصرٌ لا همَّ له إلَّا الحرب. وصَفَت الصفحاتُ الأولى ببراعةٍ عملياتِ القَصْف التي حاوَلَ البطل أن يَخْتبئ منها، وأصابَت ساشكا نوبةٌ من التشنُّج. نَسِي طفلُ الكتابِ اسمَه، ولا يسمع شيئاً تقريباً. ولعلَّه كان في عداد الموتى لو لم يتعرَّف في الشارع إلى رجلٍ عجوز حدَّثه عن مدينةٍ بعيدة باتجاه الجنوب، خلفَ منطقة إنْسك، لا جوعَ فيها، ولا خوف، ولا أمراضٍ. هرب الصبيُّ بصحبةِ العجوز إلى هناك، مُخلِّفاً مدينتَه المقاتِلة. سارا وقتاً طويلاً عبر السهوب، دونَ طعامٍ أو شراب، يَخْتبئان من الجيش. تُوفِّيَ العجوز، ووصل الصبيُّ وحْدَه إلى المدينة، التي بَدَت جميلةً جداً. وصفها المؤلِّف، وكأنه سبَقَ له أن رأى حُلمَ ساشكا الذي تراءَتْ فيه البيوتُ بيضاءَ كالثلج، والشوارع الأسفلتية الملساء، والأعشاب الخضراء الغضَّة، والسماء الزرقاء.

هناك كان سكان المدينة يعيشون حياةً رغيدة تَغْمرهم السعادة. لم يعرفوا الحروبَ منذ مئاتِ السنين. أصبح الصبي مُواطِناً مِثلهم، تعلَّمَ وأصبح مهندساً معمارياً، يبني بيوتاً بيضاءَ رائعة.

أسَرَ الكتابُ ساشكا. أرعَبَه وسحَرَ لُبَّه في نفس الوقت التشابُهُ الصارخ بين المدينةِ المشغولة بالحرب ومدينتِه التي يعيش فيها الآن. تذكَّرَ ساشكا دروسَ مادة الجغرافيا العامة: «تقع مدينة إنسْك في الجنوب. لا يعرف أحدٌ إلا المكتبَ ماذا يوجد بعدَها. أمَّا نحن، فلا حاجةَ لنا بمعرفةِ أيِّ شيء. صحيح، هناك في مكانٍ ما في الجنوب أيضاً تمتدُّ سهوبٌ تصل حتى البادية، وبعدَها يجب أن يكون البحر. أولئك، الذين شَبُّوا قبل الحرب، ما زالوا يحتفظون بخرائطِ العالَم القديمة، بالرغم من أن القائد كان قد أمَرَ بإحراقها، ما دامَت لا تُصوِّر الواقع. بالطبع، هو على حقٍّ، فقد أُزِيلت مدنٌ كثيرة عن وجهِ الأرض في زمن الحرب، وقامت على أنقاضِها مبانٍ لسكانِ الصحراء التي استحالَت إلى مُدن. خلالَ نصفِ قرنٍ من المعارك المتواصِلة تغيَّرَ العالَم، غير أن البحر ما زال في مكانه! لم تَخْتفِ السهوبُ ولا الصحاري».

أيُعقَل أن تكون هناك مدينة، في مكانٍ ما، مُسالِمةٌ، وفيها حياةٌ طبيعية آمِنة؟ ما هي الحياةُ الآمنة؟ لم يكن بوُسْعِ ساشكا أن يَتخيَّلَ ذلك. بالطبع لا وجودَ في مركزِ المدينةِ للمعارك، لكن ساشكا ترعرع بين الضباط، وكان يُعِدُّ نفسه ليُصبِح مُقاتلاً. كلُّ معارفه من الصِّبْية كانوا يَحْلمون بالالتحاق بصفوف الكلية الحربية. «قيصرُهم الذي في الرواية قويُّ الشَّبَه بقائدنا هذا، هو أيضاً سَمِين، ويلبس نظارات». اضطجع ساشكا فوق الأكياس، كان يحاول أن يطردَ من رأسه فكرةً أخرى: كم يُشبِهه صبيُّ الرواية ذاك، أو ربما يُشبِه إيليا؟ لربما إيليا لم يَهرب إلى إنسك؟ ما الذي يدفعه لذلك؟ تلك أيضاً مدينةُ حرب. لا فرْقَ، إلى أيِّ جانبٍ تُقاتِل؟ هذا الهاجس الطارئ جعل ساشكا يتصبَّب عَرَقاً. كان إيليا يعرف شيئاً ما، ودائماً غير راضٍ عن الفيلق والقائد. ربما كان يريد أن يهربَ إلى مكانٍ أبعدَ من جنوب إنسك؟ «ولكن، لماذا لم يُخبِرني بشيء؟ فنحن أصدقاء! كنت سأتفهَّمه». تقلَّبَ ساشكا فوق الأكياس يفكِّر: «كلا، لن يكون بمقدوري فَهْمُ شيء، ولربما كنتُ سأحاول إقناعَه بأن يغيِّر رأيَه. إيليا يتيم، أما أنا فكان لديَّ أُم، وما كنتُ لأذهب إلى أي مكان، ولو استجوبوني لَاعترفت بكل شيء. رجال المكتب بارِعون في الاستجواب». كان ساشكا ينهض عن الأكياس تارةً، ويَسْتلقي تارةً أخرى؛ لقد أصابه تتابُعُ الأفكار المفاجئة والمبهمة بالدُّوَار. ما إن بدأ الظلام يُرخِي سُدولَه، حتى وصل الكلب.

- «هل هو صعب جداً؟»

- «هل تصدِّق بوجودِ مدينةٍ ليس فيها إطلاقُ نار؟»

اختطف الكلب الكتاب من يد ساشكا قائلاً: «لستُ أدري. الإبداعُ الأدبي ظاهرةٌ غامضة؛ إمَّا يَصِفون ما هو مُتخيَّلٌ بطريقةٍ تجعلك تُصدِّقه، وإما يُشوِّهون ما هو حقيقي. فماذا تنتظر من هؤلاء المؤلِّفين؟!»

يُحظَر النومُ على الحارس المناوِب ليلاً قُربَ الساترِ الرمليِّ، كان ساشكا يأخذ ذلك بالحسبان، لكنه كان يَغْفو عادةً عند بزوغِ الفجر، إلا في هذه الليلة، فقد جَفَاه النوم. ظلَّ ينظر إلى السماء السوداء، وتغزو مُخيَّلتَه أفكارٌ عن مدينةٍ بلا حرب، وعن كاتيا، وإيليا، وكيشا...

فجراً، تَناهى إلى مَسامِعِ ساشكا وقْعُ خطواتٍ حَذِرة. رفَعَ سلاحَه وانبطح خلفَ الأكياس؛ كان معلوماً أن الأناسَ العاديين لا يَتجوَّلون في مثل هذا الوقت.

- «أيها المناوب، لا تُطلِق النَّال!» بمجرد أن سمعه ساشكا استرخى فوراً، فلا أحدَ يلثغ بهذه الطريقة إلا إيديك الأرنب.

قال ساشكا ضاحكاً: «تقدَّمْ، لن أطلق النَّال».

أدرك الأرنب الأمرَ فقال: «تُقلِّدني، أيها اللئيم! كلَّفْتُ نفسي عناءَ المجيء في الليل إلى وَكْلِكم، وتَسْخَل مني».

- «إذاً لا تتسكَّع بين الأَوْكَال ليلاً!»

- «جئت في مهمة! لقد بدأتِ الْحَلْب. هذا خطاب القائد العام، خطاب جديد».

أمسَكَ ساشكا بيده ورقةً تَحْمل عنواناً عريضاً «الإعلام الحربي». أشعَلَ الأرنب المصباحَ، وراح ساشكا يقرأ: «أهالي مدينتنا المجيدة! ثَمةَ كارثةٌ تَدقُّ الأبواب. لقد بدأ جيشُ مدينةِ إنسك عدوانَه على قوَّاتنا. دارَت اشتباكاتٌ عنيفة على مَقربةٍ من حدودنا الجنوبية. وقد ردَّتْ قواتُنا الباسلة على نيرانِ عِصابات إنسك ومُرْتَزِقتهم من سكان البوادي. لقد آنَ الأوانُ لبدْءِ هجومٍ مُعاكِس لتدمير العِصابات المعتدية. شَعبُنا كله كرجلٍ واحد، يُعبِّر عن غضبه، ووحدتُنا تتعزَّز. قُوَّاتُنا العسكرية في جاهزيةٍ قتالية تامة. قُوَّاتُنا المدرَّعة الباسلة بدأت الهجومَ بمُسانَدة الحوَّامات، وكذلك وحدات «المغاوير» المسلَّحة جاهزةٌ للهجوم. مئات المواطنين يَلْتحقون بكتائبِ الجيش الشعبي. واثقٌ أننا سننتصر. مرحباً بالنصر!»

سرى الصقيعُ في أوصال ساشكا، وقال: «ها هي ذي قد بدأت!»

- «خَسائِلَنا كَبِيلةٌ في الجنوب. أمَل اللّائِد أن نكون كلّنا في السهوب». تابَعَ الأرنب: «اذهبْ سَلِيعاً وأَيقِظ الذئب. يجب أن نصِلَ قبل طلوع الشمس!»

خطف ساشكا بندقيتَه وانطلق إلى الدور الرابع لإيقاظِ الذئب. لحِقَ به الأرنب وهو يُتمتِم طولَ الطريق بأنه لا أحدَ ينظِّف السلالم. وسرعان ما قرعَ ساشكا الباب. مرَّ وقتٌ قبل أن يفتحوا الباب، وظلَّ مَن بالداخل يُنصِت لمن في الخارج. تَناهى صوتُ الجقل الخائف:

- «مَنْ هناك؟»

صاح الأرنب: «صديق، هيا افتح».

انفتح الباب. وعند العَتَبة وقف الجقل مرتدياً سروالاً سميكاً وكنزة من الصوف، وفانوس الأرنب مُسلَّط عليه.

قال همساً: «الجميع نِيَام».

جأر الأرنب: «هذا لا يَعْنيني! أَيقِظ الذئب».

هرع الجقل إلى الغرفة، وراح ساشكا يَستطلِع ما حوله. الممر لا يختلف عما لديهم هناك، سوى أن هناك خزانةَ كتبٍ في الزاوية، لعلَّها للكلب. خرج الذئب من الغرفة وبيده مصباحُ الكيروسين لإنارةِ طريقه، يَتْبعه الجقل وهو يَئِن.

قال الذئب ضاحكاً: «ظننتُه يَتواقح، فضربتُه على رأسه، لكن تَبيَّنَ أنني مُخطِئ».

- «وهل أنت مُستعِدٌّ لسفْكِ الدماء؟»

تثاءَبَ الذئب: «فَلْتذهب إلى الجحيم أنت والدماء. إذاً سنذهب إلى الحرب؟»

قال الأرنب: «بالتأكيد، سنهاجم الحدودَ الجنوبية. نحن بحاجةٍ إلى الجميع، حتى البُلَهاء».

تساءَلَ الذئب بحنقٍ: «إلامَ تُلمِّح؟»

- «حسناً، انْسَ، يا قنفذ، باختصال، بعد خمسِ ساعاتٍ كُنْ جاهزاً بكامل اللباس الحَلْبي في الساحة من أجل الانتقال إلى نقطةِ الانطلاق. وتَزوَّدْ

بكمياتٍ كافية من الطعام، فقَدْ تَطَول المدَّة. أفهمتَ؟»

قهقه الذئب: «فهمتُ، فهمت. هيا انصرف».

قال الأرنب بامتعاض: «مهلاً، سأذهب لأُعلِم فولونتسوف بذلك. إلى اللقاء. أتمنى لك صحةً جيدة».

انطلق الأرنب من الدور الرابع إلى الخامس، وعاد ساشكا إلى مكانه.

فكَّر وهو يرقد فوق الأكياس الباردة: «نحن قوات الاحتياط، سنحارب. المعركة قريبة. في الواقع هذا عملي». «يجب على المغاوير أن يكونوا دائماً على أُهْبةِ الاستعداد للقتال». هذا ما ينص عليه «النظام الداخلي». فكَّرَ ساشكا: «وهناك أيضاً كلام عن الشرف، والشجاعة». غريب، لم يستطعْ أن يتذكَّر أيَّ شيءٍ آخَر من النظام الداخلي. «لماذا؟ ربما لأني كنت مريضاً جداً. يُقال إن ذلك قد يُؤثِّر على الذاكرة. لعل هذا هو التأثير».

سرعان ما خرج الأرنب، وخلفه ڤـيتكا بلباسه الكامل. جلس قائد المجموعة بجوار ساشكا.

صاح مراسلُ الرائد مُودِّعاً: «إلى اللقاء، يا أصدقاء!»

سأله ساشكا، بعد أن اختفى الأرنب خلف الأنقاض: «ڤـيتكا، تُرى كيف صرتَ قائداً للمجموعة؟»

أجاب ڤـيتكا وهو يَرقب نجومَ السماء بهدوء: «ليس مهماً».

سأله ساشكا: «أتُجِيد القتال؟» فأومأ ڤـيتكا برأسه مؤكداً.

- «أُجيد كذلك ترتيلَ الأغاني الخاصة بتقديم القرابين، لكنني لم أَعُد أرغبُ في ترتيلها. كما أعرف تعاويذَ سحريةً، لكنني لن أعودَ إليها أيضاً. وقرأتُ الكتبَ المقدَّسة».

حاوَلَ ساشكا التأكد: «العهد القديم؟»

- «ليس هذا فقط. سأعطيك لاحقاً روايةَ «سدهارتا» [23]، ستَفْهمني آنذاك».

قال ساشكا: «سبَقَ لي أن قرأتُ الكتابَ المقدَّس، لكنه لم يَنَلْ إعجابي. لا أُومِن به. وأنت، هل تؤمن به؟»

لاذَ ڤيتكا بالصمت. ظلّ يحدِّق في النجوم. حاوَلَ ساشكا أيضاً أن ينظر إليها، لكنْ سرعانَ ما غلبه النُّعاس. خرج إلى الشارع وعَرَك وجهَه بحِفْنةٍ من الثلج، تربَّعَ فوق أكياس الرمل وتذكَّرَ كاتيا مجدَّداً.

عند انبلاج الصبح، خرج كيشا، وقال وهو يتثاءب:

- «سنبدأ بالمغادَرة الآن. مُناوَبتك انتهت. لقد جمعتُ حاجياتك هناك».

عمَّت الشقةَ فوضى عارمة. كان الشكَّاء يَجُوب الغُرَف مُتباهِياً، وقد ثبَّتَ فوق ياقته شعاراً على شكلِ نجمةٍ خماسيةِ الأطراف، تتوسَّطها صورةُ غلام.

شرح كيشا مبتسماً: «شعار رهيب». وضعوه له في نصف كيلوغرام من التَّبْغ ليزداد وزنه. ثمنه خمسة قروش، والشكَّاء يصفِّر فرحاً وكأنه وسامٌ قديم للشجاعة. يا له من مُتملِّق!»

ارتدى أوليغ سترةَ مغاوير رسمية وبنطلوناً سميكاً، وراح يشرح لجينكا -وهو يَقْضم شطيرةً في يده- إلى أين يتوقَّع أن يَنْقلوهم. ما إن ارتدى ساشكا بدلته، حتى دخل الذئب بصحبة الجقل.

- «تقدَّموا أيها الأخوة، علينا الإسراع. قد تصل الشاحناتُ باكراً».

في الساحة، حيث ألقى قائدُ المغاوير خطاباً بخصوص القضاء على المتشرِّدين، تجمَّعت بِضعُ مجموعات. كان الفِتْيان يُدخِّنون السجائرَ بكآبة ويبصقون في كل اتجاه. لقد زوَّدوا كلاً منهم برشَّاشٍ، وقنبلةٍ يدوية، ومَطَرةِ ماء، وعدة مخازن من الطلقات النارية. الأصغر سناً بينهم كانوا ينحنون تحت ثِقَل العَتَاد الفردي ومُعَدَّات الخيام.

قال كيشا: «وصَلْنا في الوقت المناسب. سنستلم البنادق وننطلق».

تسلَّمَت وحدةُ الذئب خِيَماً تتَّسِع كلٌّ منها لفردَيْن، لكن بشرطِ استعمالها لثلاثة أشخاص. حمل كيشا الخيمةَ بنفسه، واكتفى ساشكا بحمْلِ بطانية، ووعاءٍ للطبخ، وخمسٍ عُلَبٍ من الأطعمة المجفَّفة، ومسدَّس براوننغ. في الصيف، كان يُمكِنه حمْلُ كل هذه الأثقال بسهولة، أمَّا الآن، بعد مَرَضه، فيُمثِّل ذلك عِبئاً عليه، وسيبلِّله العرق على الفور.

زوَّدوهم أيضاً بسلاحٍ بسيط ولباسٍ شتوي مُوحَّد؛ ستراتٍ سوداءَ مُثبَّت على أكمامها شريط «المغاوير»، وقبعاتٍ شتوية بواقِيات طويلة للأذنين، وقفَّازاتٍ من المُشمَّع، تَفُوح منه رائحةُ العَفَن. سرعان ما وصلت الشاحنات؛

كانت قديمة جداَ، حوافها تَئِزُّ لكنها مُغطّاة بمُشمَّع ممتاز. حشر ساشكا نفْسَه في زاويةٍ بعيدة، جلس على المقعد وما لبث أن غفا وهو يتَّكِئ على المُشمَّع البارد.

لم يستيقظ إلَّا بعد أن دفعه كيشا بمِرفَقه.

- «انهض، لقد وصلنا إلى نقطةِ الاستراحة. بينما تفكِّر القيادةُ في كيفية توزيعنا، سنأخذ قِسطاً من الراحة وننام. وهذا ما قد تنتهي إليه المعركة. بالرغم ممَّا يُذاع عن قُرْبِ قواتِ إنسك ودخولِ فَيْلقِهم المتنقِّل منطقتَنا، لكنه الآن يعود أدراجَه. وقد تنفرج الأمور».

على مقربةٍ من شاحنات المغاوير رابَطَ لواءُ المدرَّعاتِ؛ آليات قديمة، بينها دبَّاباتٌ صُنِعت من جرارات مُصفَّحة ضدَّ الرَّصاص، وعَرَبات استطلاعٍ مُصفَّحة مُزوَّدة برشَّاشاتٍ خفيفة.

بادَرَهم الجنودُ بالتحية عبر فتحات دباباتهم: «مرحباً، أيها الأقزام!»

أجابهم المغاوير: «مرحباً، بالمَكانِس الكهربائية!»

قال كيشا باعتزاز: «كان بوسعي أن أكون واحداً منهم. عندما غادَرْنا المدينة، تسلَّقْنا هذه الدباباتِ المصنوعةَ من جرارات زراعية. صيفاً يكون الغبار بداخلها خانقاً، ولا يُمكِنك استنشاقُ الهواء».

في ذات الوقت، وصلت إلى المعسكر عَرَبات الـ «جِب». خرج من إحداها رائدٌ، نحيل، معقوفُ الأنف، برفقته بضعةُ شُبَّان بلباسٍ رسمي جديد، وميدالياتٍ تُزيِّن صدورَهم. كان الأرنب واحداً منهم، ولوَّح بيده لزَملائه.

بصق أوليغ بغضب قائلاً: «عليك اللعنة، يا قشرة الرأس».

رابَطَتْ وَحْدةُ شيز بالقرب من مُنحدرٍ صغير. نصَبُوا الخيامَ حيث أطلَّتْ بعض الأعشاب الشحيحة من تحت الثلج. طَلَبَ الشكَّاءُ أن يكون الثالثَ في خيمة كيشا وساشكا.

قال متذمراً: «لا أُريد البقاءَ مع أوليغ؛ فقد استقبَلَ ڤـيتكا الذي لا يَحِيد بنظره عنِّي، أنا أخافه. قد يحاول خنقي ليلاً. يُعذِّبني الألمُ في رجلَيَّ، وهو يقول هذه بشائرُ الموت!»

بعد تجهيز الخيمة، اقترَحَ كيشا عليهما زيارةَ رجال الدبَّابات.

أضاف كيشا: «قد نستطيع سرقةَ شيءٍ من عندهم، ونبيعه لجماعتنا فيما بعدُ».

ما زال لديهم مُتَّسعٌ من الوقت قبل الغداء؛ لذلك وافَقَ ساشكا، شريطةَ أن يتخلى كيشا عن فكرةِ السرقة. وعد كيشا بذلك وانطلقوا. تبيَّنَ أن كثيرين، خاصةً من الشباب، يَذْكرون كيشا جيداً. ما لبث أن جمَعَ عدداً من السجائر، وراح راضياً يتحدَّث عن مُحرِّكات الدبَّابات مع شابٍّ طويلٍ نحيلٍ يعتمر قبعةً مثل قبعته. قال الشاب النحيل باستياء: «حتى الآن لم يُبدِّلوا أجهزةَ تَنْقيةِ الهواء. ليتك رأيتَ كم هي قَذِرة!» لم يتمكَّن ساشكا من سماعِ رد كيشا، كان ضجيجُ مُحرِّك إحدى الدبَّابات قريباً. ظلَّ ساشكا واقفاً لبعض الوقت، ثم عاد إلى خيمته.

وحينها، سمع مَن يناديه باسمه وكُنْيته. ناداه صوتٌ مألوف، ولكنه لم يتذكَّر صاحبَه. التفت ساشكا ليرى فوقَ إحدى المدرَّعات ڤـوڤـكا باور وماكار ستيسينكو.

كانا يُشِيران إليه بإصبعَيْهما ضاحِكَين. وقف ساشكا متردِّداً، ثم توجَّهَ نحو زميلَيْه السابقَيْن في الفيلق.

بادر ڤـوڤـكا: «كنت أتطلَّع فيما حولي وإذا بي أرى شخصاً في بدلةٍ سوداءَ كأني أعرفه. قلت لماكار إنه يِرخوف، لكنه لم يُصدِّقني».

سأله ماكار: «ما الذي جاء بكَ إلى هنا؟»

أجاب ساشكا مُحرَجاً: «إنها الحرب». كان مُستاءً إذ رأوه بلباسِ المغاوير.

- «لقد طردوك إذاً من الفيلق؟ نحن حسَدْناك، اعتقدنا أنك محظوظ؛ قلنا إنهم عاقَبوك، ولكنهم أبقَوْك في الكلية». أخرج ڤوڤكا من جيبه سيجارةً وولاعة. «لأول مرَّةٍ نخرج إلى السهوب مباشَرةً، في الماضي كنَّا نقود الدباباتِ بمُحاذاة الجدران. أمَّا اليوم، فإلى المعركة. هل ترغب في سيجارة؟»

هزَّ ساشكا رأسه نافياً، ثم راح مجدداً ينظر إلى زميلَيْه مُتسائلاً:

- «ألم يَكُن فاسيل معكم في وحدة المدرَّعات؟»

أجاب ڤـوڤـكا: «كان كذلك، ورحَلَ. خذلَتْه أعصابه».

عقَّبَ ماكار: «أصبح مُدمِناً على الكحول، فطردوه. لن يجد عملاً الآن، إلَّا أن يعمل حمَّالاً. وأنت يا ساشكا، ألَمْ تجد أمامَك سوى المغاوير؟!»

- «كلا».

قال ڤـوڤـكا: «عبثاً، يا ساشكا، صادَقْتَ فيتروف، لطالما بدا مشبوهاً».

فكَّرَ ساشكا بأسف: «إيليا كان مشبوهاً! إيليا المَرِح، ذو العينَيْن الزرقاوَيْن، أفضل أصدقائي..».

- «حسناً، يا شباب، سأعود إلى جماعتي».

قال ڤـوڤـكا: «هيا، لا تحزن، يا جنديَّ المُشَاة». وبسَطَ ماكار يدَه إلى الأمام مُقلِّداً تحيةَ المغاوير.

«لا تحزن!» ومَن قال إنه حزين؟ لعلَّه محظوظٌ أكثر منهما. يَجُوبان السهوب، يلمِّعانها بالعَرَبات المعدنية.

ظلَّ كيشا يهذر مع أصحابه حتى ضجروا من ثرثرته، وانصرفوا إلى عَرَباتهم.

- «هيا بنا، سانيوك. أين اختفى ذاك الصعلوك الشكَّاء!»

كان الشكَّاء جالساً خلفَ إحدى المدرَّعات يُدخِّن. وما إن رأى ساشكا وكيشا، حتى سارَعَ بإخفاء اللفافة.

- «لا تخبرا أوليغ. لقد جُنَّ. بمجرد أن يرى معي التبغ، يصفعني فوراً! وهو يُدخِّن!»

تمتم كيشا: «لكنه لا يتمرَّغ في التراب، ولا يحتاج إلى الدواء. أمَّا أنا فسِيَّان عندي دخَّنتَ أم لم تدخِّن، فدخِّن كما تشاء. أنت مَن سيموت وليس أنا».

ما إن وصلوا خيمتهم حتى فتحوا حقائبهم وجلسوا على مدخل الخيمة. فتح كيشا علبةَ أطعمةٍ مُجفَّفة.

قال كيشا وهو يلتهم الوجبةَ الدَّسِمة بتلذُّذ: «يُقال إنَّهم يضعون جرذاناً في المعلَّبات، وهم يأكلون لحمَ الضأن. تصوَّرا، كان لدى والِدي بعضُ الأغنام

في المزرعة، بينها نوعٌ فاخر. أستطيع أن ألتهم الكثيرَ من لحم الغنم، خاصةً مع البطاطا».

انتهت وجبةُ الطعام، وألقى كيشا بالعُلبة الفارغة بعيداً فوق الثلج، وراح يُفتِّش في الحقيبة عن قطعةٍ باقية من رغيفِ خبز الذُّرة. عندما رأى ساشكا أن كيشا أكل وجبتَه، تناوَلَ بدوره رغيفاً.

لاحَت قامة الكلب الخرقاء غيرَ بعيدٍ عنهم.

قال بعد أن جلس واختطف على عَجَلٍ قطعةً من رغيف ساشكا: «تخيَّلوا يا شباب! تسلَّلَ الجقل إلى الشاحنة بطريقةٍ ما، وجاء زحفاً إلى خيمة الذئب وهو شبهُ عارٍ. يا له من أحمق! ما كنتُ لآتي إلى هنا بمحْضِ إرادتي أبداً. لكنَّ الخبلَ من شِيَمه. كيشا، أعْطِني تبغاً، أعرف أنَّ لديك بعضاً منه».

أجاب كيشا: «ثلاثون قرشاً».

التفت الكلب ناحية الشكَّاء: «أنت، يا كوستيا، هاتِ قليلاً من التبغ، وَلْنترك هذا البخيل وشأنه».

نثر الشكَّاء قليلاً من كيس التبغ المفروم.

سارَعَ بالقول: «ليس لديَّ بَرَقٌ لِلفِّ التبغ».

قال الكلب: «اسمه وَرَق يا فهيم». وسحب من تحت إبطه دفتراً صغيراً، فاقتطع ورقةً منه، شطَرَها نصفَيْن وناوَلَ الشكَّاءَ أحدهما.

جلسا طويلاً يَنْفثان سُحباً من الدخان، أغلَبُه تجاهَ ساشكا الذي ألقى بما تبقَّى من شطيرته في الحقيبة دون أن يُكمِلَ أكلها، ونهض مُبتعِداً.

كان المغاوير منشغلين في كل مكان؛ إذ أشعلوا النارَ بجوار الخِيَام مُقتلِعين تقريباً كلَّ شجيرات الحرش في الجوار، والأعشاب اليابسة الظاهرة من تحت الثلج. وعند أحد المواقد تَعالى ضحكٌ وغناءٌ وضجيج.

قال الكلب: «مواقعنا هناك، على مَقربةٍ منكم. الشجيراتُ لدينا أكثرُ كثافةً فتُعِيق تسرُّبَ الريح، أنت هنا في عَراءٍ كامل، أشبه بالرأس الحليق. أنا لا أُحب السهلَ المترامي هكذا. لا شيءَ يلفت النظر، ولا وجودَ للأنقاض التي تُرِيح العينَ بالنظر إليها».

فجأةً، انسابَت زمجرةُ السلاسل من وَحْدة الدبابات. نهض الكلب واقفاَ، نفَضَ الثلج عنه، وتضاحك وهو ينظر إلى البعيد.

- «يبدو أن المدرَّعات بدأت في الانسحاب. الآن ستُوكل إلينا مهمةُ الدفاع. على أية حال، من المعلوم أن المغاويرَ أبخسُ مادةٍ قتاليةٍ على أرض المعركة. فمثلاً، هذه الجراراتُ الزراعية المزوَّدة بسبطانات، كُلْفةُ الواحدة منها تُعادِل خمسةَ آلاف مارك. أمَّا نحن، فثمنُ العسكري منَّا لا يتعدَّى ثلاثين ماركاً، ولا يُدفَع قرشٌ واحد لذَوِي المفقود منَّا، في حالِ رحيله قبل الأوان».

- صاح الشكَّاء مشدوهاً: «قبل أوان ماذا؟»

- «باختصار، سنفطس بأبخسِ التكاليـف! أَعْطِني مزيداً مـن التبغ، سأذهب إلى جماعتي. ولا تَبخل».

غادَرَ الكلب وهو ينفخ سيجارته.

قال كيشا: «كلب سخيف». وقد أحسَّ بإهانةٍ من عبارته «هذا البخيل». «صحيحٌ أنَّ ثمنَ الجرار الزراعي الواحد من ذلك النوع لا يَقلُّ عن ستة آلاف؛ فعندما نويتُ أن أسرق الدبابة، عرَضَ عليَّ أحدهم مبلغَ ثلاثة آلاف مقدماً، وثلاثة آلاف أخرى عند التسليم. إنا لا أُطيق الكلب. وأنت، يا شكَّاء، لا تُعْطِه التبغَ بعد اليوم».

لم يفهم ساشكا كيف يُمكِن أن نفضِّل الأنقاضَ على السهوب!

جال في خاطره: «غريب! لكن الكلب مُحِقٌّ في أن حياتنا رخيصةٌ جداً. أسهلُ على الرائد أن يَسُوق إلى هنا مائةَ عنصر، من أن يأتي بدبابتَيْن. ويسمون المكانَ نقطةَ استراحة، لا خنادقَ، ولا شيءَ آخَر. هناك بعض الوديان الطبيعية للاختباء فيها». التفت ساشكا مُحاوِلاً تقديرَ عمقِ الوادي، فرأى الذئب والجقل. وبَدَا له الجقل في حالةٍ مُزرِية؛ حاسِر الرأس، ينتعل حذاءً مَشدوداً بخيوطٍ واهية، يلبس مِعطَفاً فضفاضاً تُطلُّ منه بشكلٍ مُضحِك عنقُه النحيلة. شعرُه الأشعث الذي ابيضَّ بفعلِ أشعة الشمس يتدلَّى خُصَلاً كقِطَعٍ من جليد. كان يدسُّ يدَيْه المزرقَّتَيْن في أكمامه وهو يُحاوِل جاهداً اللحاقَ بالذئب.

سأل ساشكا وكيشا: «هل تدبَّرتما أموركما؟»

- «لا بأس، الحياةُ ممكنةٌ هنا».

أومأ كيشا برأسه قائلاً: «هل سيَطُول استجمامُنا هنا؟»

- «مقدار ما يَشاؤون».

جلس الجقل إلى جانب الشكَّاء ودفع بملعقته الخشبية، الذاتية الصنع، في عُلْبة طعامه.

قال الذئب وهو يغمز لساشكا: «هيا، أيها العصبيُّ. هيا اقتل الغرباءَ كما تفعل بالأصدقاء. هل توافق على ذلك؟»

التزم ساشكا الصمت وخفض نظره، لكن الذئب -وكأنه لم يكن ينتظر منه جواباً- أمسَكَ بالجقل من ياقته، ورفعه عن الأرض.

- «هيا بنا! لعلك تستحق أن تُضرَب».

- قال الجقل مُتوسِّلاً: «كُفَّ عن ذلك، أريد أن أقاتل إلى جانبكم، ضد الأعداء من إنسك».

تمتم الذئب مبتعداً: «لن يَلْتفتوا إلى قملة مثلك. حظاً سعيداً!»

أجاب ساشكا: «حظاً سعيداً».

تابَعَ الشكَّاءُ وكيشا ثرثرتَهما بعض الوقت، ثم انطلقا إلى الوحدات الأخرى لبيع السجائر التي جمَعَها كيشا من جنودِ الدبَّابات. انشغل ساشكا بتنظيفِ بندقيته وصِيانتها، وهي سلاحٌ في حالةٍ مُزرِية ممَّا كان يُوزَّع على المغاوير. فكَّرَ ساشكا بتكاسُل: «سيغدو كيشا ثَرِياً حتماً، ويفتح ورشةً صغيرة، ثم يَتزوَّج، ويُنجِب أطفالاً. هذا طبعاً، إنْ لم نُقتَل اليومَ أو غداً. أعتقد أنني لن أتزوَّج. لماذا؟ قد أُرزَق بطفل. وماذا بعدُ؟ يكبر ويصبح مثلي، يتعذَّب، أو يُقتَل». وجد ساشكا نفسه يفكِّر في الأسرة، وهو ما لم يحدث من قبلُ قَطُّ. ثم انتقل تفكيرُه إلى كاتيا. طريف! أين والدها الآن؟ ربما غادرَت وَحْدتُه إلى السهوب، ولعله شارَكَ في المعركة الليلةَ. ولعل والدة كاتيا تجلس في البيت على الأريكة التي نام عليها ساشكا عِدَّة لَيالٍ، وهي تقرأ كتاباً، لا تُبصِر سطورَه لأنها مشغولة بانتظار زوجها. يعرف ساشكا هذه الحالة، فما زال يذكر كيف كانت أمه تنتظر بقلقٍ عودةَ أبيه. وكاتيا، هل تقلق بشأن والدها؟ لعلَّها قَلِقة بشأن ساشكا أيضاً! ليت الأمر كذلك. ليت أحداً يُفكِّر به، أو ينتظر عودته.

عاد كيشا والشكَّاء وقتَ الغروب. كان كيشا يُحصي الماركات، بينما يمضغ الشكَّاءُ شيئاً ما.

قال الشكَّاء لساشكا: «عبثاً وصَفَ مكسيم كيشا بأنه بخيل. لقد قايَضَ بعضَ السجائر ببذورِ عباد الشمس من أجلي. حِصلنا على كيس منها مقابلَ

سيجارةٍ واحدة. ستَكْفيني لمدة طويلة خاصة إذا أكلتها بقشرها». ً

تنهَّدَ ساشكا قائلاً: «لا أحدَ أسخى من هذا الوحش كيشا. ربما من الأفضل أن نَخلُدَ للنوم».

عاد الشابَّان فأسدَلا مدخلَ الخيمة، وتَدثَّرا جيداً. وأناخت ليلةٌ ظلماءُ باردة بثِقَلها على السهوب.

19

غريبٌ أن كلَّ أحلامِ ساشكا كانت هذه المرَّةَ مُسالِمة؛ في البداية كان هو وكيشا وكاتيا يَسْبحونَ في البحيرة، والمياه دافئة بشكلٍ يَصعُب معه التفكيرُ في المغادَرة، وكفَّ كيشا عن ثرثرته المعتادة، وكانت كاتيا رائعةَ الجمال ترتدي ثيابَ سباحةٍ زاهيةً. ثم استقلَّ ساشكا وإيليا حافلةً نظيفة. قال إيليا: «إلى مدينةٍ أخرى؛ مكان رائع يعيش فيا كلُّ أقربائي». ثم رأى ساشكا المدينةَ؛ أبنية ناصعة البياض، يلمع زجاجُ نوافذها تحت أشعةِ الشمس الصيفية، وسيارات صغيرة مُسليَّة تَعبُر الشوارع، وصِبْية بدرَّاجاتهم الهوائية. بدا هو وإيليا كيافعَين محترمَين؛ كانا يرتديان قميصَيْن بلونٍ أزرق فاتح نظيفَيْن من الزيِّ المدرسيِّ، ويبتسمان. دعا إيليا ساشكا: «تعالَ نشرب الشاي عندي. أُقِيم هناك، في الدور الخامس من بناءٍ مُؤلَّف من اثنَي عشرَ دوراً. هل ترى نوافذَ شقتي؟» هنا أحسَّ ساشكا بأن أحداً يُربِّت على كتفِه. الْتَفَت ليرى محقِّقَ المكتب، الذي قال وهو ينهال ضرباً على بطنه: «أنت خائنٌ وسافل!» استيقظ ساشكا ونهض مذعوراً. وجد جينكا كونكوف جالساً إلى جانبه يصبُّ عليه سيلاً من الشتائم.

- «انهض! يقول أوليغ إنه دورك بالحراسة».

انسلَّ جينكا إلى الخيمة واستلقى في مكانِ ساشكا، الذي طرح حقيبتَه أرضاً وجلس عليها مع بندقيته غير بعيد عن الوادي. سكنَت الريح، وتكاثَفَت الغيوم منذ أمسِ، وحجبَت النجومَ والقمر. على مَقربةٍ من الخيام، وقَفَت عَرَبةٌ مُدَّرعة من العَرَبات التابعة لقُوَّات الاستطلاع. إنها سَنَدُهم الوحيد.

كان الجلوس هنا مريحاً. يحبُّ ساشكا السهوبَ والبراريَ كثيراً؛ الهواءُ هنا مُميَّز، طَلِيق، يأخذه إلى أي مكان، حتى أقاصي الأرض. أمَّا في المدينة فيظلُّ الهواءُ حبيسَ الأقبية، ويبقى إلى الأبد، فيَتعفَّن، ويصبح ساماً. بل كان ساشكا يحسد سكانَ البوادي المتوحِّشين، البعيدين عن الأنقاض القَذِرة، والمقابر، والحوانيت. حبذا، لو ِكان يستطيع الهروبَ إليهم والتَّرْحال عبر

المسافات الشاسعة، ويبقى بعيداً عن المدينةِ مسافةَ مائةِ ميل، فيجلس مساءً بجانبِ خيمته يَرْعى النجوم.

ناداه أحدهم: «أَلَا تزال جالساً؟»

خطف ساشكا سلاحَه بسرعة.

- «مَنْ هناك؟»

- «صديق. أنا من قِبَل الرائد، أتفقَّدُ مواقعَ الحراسة لأتأكَّد من يَقَظتِكم». تابَعَ رسول الرائد وهو يكيل الشتائم: «أيها الطفيليون! تباً! يتعالى شخيرُهم هناك تحت الشُّجَيْرات، وأنت هنا أسبلتَ أُذنَيْك، ولا ترى شيئاً!»

ما إن ابتعَدَ الرجل قليلاً حتى دبَّتِ الحياةُ في العَرَبة المدرَّعة الهامدة، تَصاعَدَ هديرُ مُحرِّكها واندفعت عبر السهلِ الممتَدِّ. بعد عِدَّة دقائق تعالَت أصواتُ الطلقات، وقذائف الدبَّابات، وانفجارات، ثم خمد صوتُ الرشَّاش. عبْرَ الظلام الآن، لا يُسمَع سوى ضجيجِ مُحرِّكات الدبَّابات الهادِرة.

أدرَكَ ساشكا حقيقةَ ما يجري، فانطلق باتجاه خيمته.

صاح وهو يهرع نحوَ خيمة أوليغ: «استيقظوا، هيا بسرعة!» لم يَمْضِ وقتٌ طويل حتى كانت الفرقة كلها قد انبطحَت عند حافة الوادي. من بعيدٍ بدَتِ الدبَّاباتُ المعادِية وناقِلاتها المدرَّعة. كان هناك دبَّابتان اثنتان فقط، قليلتا العرض، مُزوَّدتان بمدفعَيْن طويلَيْن، وفي حالةٍ جيدة، تتقدَّمان بسرعةٍ كأنهما في استعراض. دمَّرَت إحداهما الخيمةَ التي كان ينام فيها قبلَ قليلٍ جينكا وكيشا والشكَّاء. وعلى مَقربةٍ من الوادي توقَّفَت ناقلةُ مُدرَّعة وخرج منها عددٌ من جنودِ الأعداء مُسرِعين. جثا ساشكا على ركبتِه وأطلق وابلاً من سلاحه، ثم أسرَعَ فوثب جانباً وتخفَّى خلفَ دَغَلٍ صغير، انبطح خلفه فوراً.

انهالَت الطلقات من المدرَّعة المُعادِية بغزارةٍ على النقطة التي كان ساشكا يُطلِق منها الرصاص، وردَّ ساشكا بوابلٍ آخَر، انتقل على إثره إلى مكانٍ آخَر. وتعالى من جديدٍ تبادُلٌ كثيف لإطلاق النار، ومن جميع الاتجاهات. أزَّتِ الطلقاتُ بالقرب من ساشكا. رأى مَعالِمَ أشخاصٍ تتقدَّم نحوَه عبر الظلام، فأطلق ساشكا النار عليهم. نفدت طلقاتُه الثلاثون. حاوَلَ تبديلَ المخزن، ولكن دونَ جدوى، فقد دوَّى انفجارٌ على مقربةٍ منه، فصفعَتْ وجهَه موجةٌ من التراب والثلج، وتَبِعه انفجارٌ ثانٍ، ثم ثالث. حاوَلَ التقدُّمَ زحفاً، لكنْ مَنعَه من ذلك نوافيرُ من الثلج المتطاير. «أصبحتُ هدفاً لرشَّاش». ثم رأى ساشكا مشهداً غريباً؛ إلى جواره يجلس فـيتكا وهو يُسدِّد باتجاهِ فتحةِ الدبَّابة.

زأر محرِّكُ الدبابة، وتحرَّكَت باتجاه ساشكا وشيز. انطلق ساشكا بما تبقَّى لديه من جَلَدٍ، راكضاً بعيداً عنها. ظلَّ يقفز عبرَ أكوام الثلج، إلى أن اصطدَمَ بأحدهم في العتمة. فعلت أصابعُ ساشكا بالنيابة عنه، ما ينبغي فعله. فقصفت نيرانُ رشَّاشه الجسدَ المبهم وألقَت به إلى الوراء. أمسَكَ أحدهم برِجْل ساشكا، فتعثَّرَ وتدحرج إلى قاع الوادي.

في القاع أدرَكَ أنه نجا. ظلَّ رابضاً، حتى توقَّفَ إطلاقُ النيران، وابتعَدَ هديرُ المدرَّعات. صعِدَ ساشكا للأعلى وفجأةً تعثَّرَت قدماه بجسدٍ ما. تفحَّصَه بدِقة، وإذا به الشكَّاء، يرتجف وينشج. تركه وتقدَّم. وقَعَت عيناه في الظُّلْمة أولاً على كيشا جالساً، يُدخِّن مُتجهِّماً. انتشر عددٌ من البُقَع القاتمة على الثلج. بدا لساشكا أنه يعرف جيِّداً بنطلونَ القطن السميك على جسدِ أحدِ الراقدين. على حافة المنحدر، توقَّفَت عَرَبة مُدرَّعة وقد دُمِّر برجها، وبالقرب منها كان شيز يتمايل حياً دون أي إصابة، وخرج من الوادي جينكا كونكوف.

قال بصوتٍ كالصرير: «يا للمفاجأة! كنت تركض تحت الطلقات المتطايرة كأنك أرنب. أنا قذفتُ القنبلة، وأسرعتُ إلى الوادي. لحُسْن الحظ، مرَّت الأمورُ على خير».

خرجَت من الظُّلْمة مجموعةُ شبابٍ بثياب المغاوير، مُلطَّخين بالدم، وتتدلى على ظهورهم أسلحتُهم الرشَّاشة. وظهر الشكَّاء وتأتأ بقوة.

سالَت دموع الشكَّاء على خدَّيه، وهو يُتأتِئ: «أوليغ... دفعني جانباً... أمَّا هو..».

دنا ساشكا من كيشا.

- «أَعْطِني سيجارة».

بحركةٍ آلية دسَّ كيشا يدَه في جيبه وأخرج لفافةَ تبغٍ مُجعَّدة.

قال وهو يعطي السيجارة لساشكا: «حين أرى الجثامين أُسارِع دائماً إلى التدخين. بعدها لا أشعر بالغثيان».

مرَّت بهم مجموعةٌ من المغاوير وهم عائدون مُسرِعين يسحبون شاباً مصاباً في كلتا ساقَيْه، عرف ساشكا أنه الشاب الذي جاء ليلاً لتفقُّدِ عناصر الحراسة. كان يَئِن قائلاً وهو يحاول الإفلات: «إني أتألَّم، يا شباب». قال له أحدُهم بغضب وهو يكزُّ على أسنانه: «اصبر يا غيرا، اصبر».

لاحَت طلائعُ الفجر. ما زالَت العَرَبةُ المدرَّعة ذات البرج المدمَّر تقف كجثةِ فرَسِ نهرٍ عملاقٍ نافِق؛ تلك الحيوانات التي يَرِد ذِكرُها في الكتب العلمية، ولم يَعُد لها وجودٌ على الأرض.

حولَ تلك المدرَّعة تناثَرَت جثثٌ لشُبَّانٍ من قوَّاتِ إنسك المعادِية، وبينهم رجلٌ متقدِّمٌ بالسنِّ، قد يكون قائدَهم. وعلى مسافةٍ أبعدَ قليلاً كان الدُّخَان يتصاعد من عَرَبتَيْن أُخْريَين، لعلَّهما أُصِيبتا بقذائفَ من راجمةِ قنابل.

أشار جينكا وهو يقترب من جثامين القَتْلى: «هؤلاء قَتْلاك. فيما بعدُ استأنفْنا الرماياتِ أنا وكيشا. ثم ألقيتُ القنبلةَ، التي دمَّرَت برج الدبابة. وانطلقتَ أنت تعدو، وتصرخ، فأمسكت بقدَمِك. لم يَكُن بإمكانهم أن يَرَوا شيئاً من البرج، فراحوا يُطلِقون القذائفَ عشوائياً. أمَّا المعتوهُ ڤـيتكا، فإنه لا يُتقِن الرمايةَ رشاً، لكنَّ اللعين قنَّاصٌ بارع. أليس هو مَن أردى السائق قتيلاً؟»

هزَّ ساشكا رأسَه آلياً.

تابع جينكا: «تسلَّلتُ إلى عَرَبتهم. لم يكن فيها إلا الرامي يرقد مقطوعَ اليد. والسائق. سأذهب لأستكشف الجوار».

فكَّرَ ساشكا وهو يقلِّب في يده سيجارةً يتصاعد دُخانها: «يلتزم كيشا الصمت، بعكس جينكا الذي لا يتوقَّف عن الكلام! كيف يتغيَّر الناس بعد المعركة؟! يا أسفاً على أوليغ! لقد كان عادلاً».

راح ساشكا ينظر إلى تلك الجهة، حيث يرقد أوليغ. لقد أضحى مرئياً بوضوح. كان جينكا يفتِّش جيوبَ الجندي القتيل من إنسك. أشاح ساشكا بنظره وهو يتفكَّر؛ كان من الممكن أن يكون الآن جثةً مَرْمية قُرْبَ أوليغ، لكنه نجا، نجا بأُعْجوبة. نهض كيشا واقفاً.

- «سأذهب. أشعر بالغثيان».

جلس ساشكا فوق الثلج. من الغريب أنه يُحسُّ بتعبٍ مريع، بالرغم من أن المعركة لم تستمر سوى بضع دقائق! تبلَّلَت ثيابه من الثلج، وانتابَتْه برودةٌ لافحة. على مَقربةٍ منه كان الشكَّاء يبكي. وجينكا يبحث في جيوب الجثامين وهو يكيل الشتائمَ. قرَّر ساشكا: «لا أحد مرتاح مثل ڤـيتكا، قتل إنساناً، وهو غير آبِهٍ بنفسه أو الآخرين. بالطبع، أوليغ الأسوأ حظاً».

انتفض ساشكا، مُدرِكاً أن جينكا يُقلِّب جيوبَ أحد القتلى: «كونكوف، ماذا تفعل هناك؟ كيف تَجْرؤ؟!»

قال حانقاً: «اجلس مكانك. أحياناً يكون معهم التبغ والقِطَع النقدية».

- «يا لك من جيفي!»

- «كفاك نُباحاً، فلن تُخِيفني!»

تنهَّدَ ساشكا وقد لذعَتِ السيجارةُ إحدى أصابعه ففَطِن، إنها المرة الأولى التي يُدخِّن فيها دون أن يشعر بضِيق. وجينكا مستمر في تفتيشِ جيوب القتلى، بينما هو لا يَقْوى على النهوض ليُلقِّنه درساً. ثَمَّة شيءٌ حدث. اقترب شيز وجلس بجواره.

- «ما بك، أيها الطيف، هل تشعر بالشقاء؟»

أجاب ساشكا بلامبالاة: «كلا، لا أشعر بشيء».

- «هذا جيد، لقد احتجبَت روحُكَ عن العالَم، يُمكِنها أن تُتابِعَ السموَّ نحو الكمال. ينبغي ألَّا يُعِيقنا العالَم. كل المظاهر عديمةُ المعنى».

- «أنت تجيد الرماية».

- «هذا ليس الأهم في الحياة».

رمى ساشكا عَقِب سيجارتِه قائلاً: «ڤـيتكا، اشرح لي ماذا حدث؟ كان هؤلاء الشبَّان يعيشون كما نعيش في الأنقاض، يَحْلمون بشيءٍ ما، يُفكِّرون. ثم فَجْأةً ساقوهم إلى الحرب، ونحن أجْهَزْنا عليهم بأسلحتِنا الرشَّاشة هذه. لماذا؟ لمصلحة مَن؟ عندما كنتُ صغيراً، كنت أبكي على كل حشرةٍ تَدوسها قدَمٌ، والآن، يتطاير الإنسان نُتَفاً أمام ناظِريَّ، وأنا غير عابئ! هذا ليس طبيعياً، أليس كذلك؟»

هزَّ شيز كتفَيْه صامتاً.

- «عليك أن تُقرِّر. إن كان يهمُّك شيء في العالَم، فستعرف إنْ كان يهمك ما يجري الآن».

لاذ ساشكا بالصمت. لم يكن كلام شيز واضحاً له جيداً، ولم يَفْهم لامُبالاته الشخصية جيداً. أيُعقَل أن يكون شيز على حقٍّ؟ أيُعقَل أن كلَّ هذا لا يعني شيئاً لساشكا، وسِيَّان لديه أن يكون الرجلُ أمامه حياً أو ميتاً؟ أمَّا ڤـيتكا، فبالتأكيد لا يَأْبه بذلك.

دنا كونكوف وهو يهزَّ راحتَه المليئة بالقِطَع النقدية.

- «ما رأيُكما يا مَن تَشْمَئِزان؟ هل يصعب عليكما لمْسُ الجثث؟ فَلْتظلا دونَ مال».

أشاح ساشكا بنظره عنه، وراح يفكِّر بكاتيا. كيف عساها هناك؟

سأله فجأة: «اسمع، يا شيز، لو كنتَ تحب فتاةً وقتلوها، فهل ستظلُّ لا مُبالِياً؟»

نظر إليه ڤـيتكا، ثم نهض وابتعد مُسرِعاً.

قال كونكوف: «أحيوانٌ أنت؟! هل تعمَّدتَ أن تُزعِجَه؟ فقد قتَلَ المتشرِّدون حبيبتَه منذ زمن بعيد؛ لذلك يتطلَّع لإبادتهم. هل تجهل هذا؟»

- «وما أدراني؟ ظننتُه مجرَّدَ مجنون».

- «يصعب أن نعرف سببَ جنونه. كنا نُقِيم في حيٍّ واحد، وكانت له صديقة، ثم صادَقَت جماعةَ المتشردين وباتَت تتعاطى المخدِّرات معهم. ولسببٍ تافهٍ ما قتلوها. لقد جئتُ إلى الفوج قبلَه، أيامَ القائد السابق».

راح ساشكا ينظر في ذاك الاتجاه، حيث ابتعد ڤـورونتسوف، وهو يفكِّر أنه حتى شيز، هذا العَصِي على الانكسار، لديه نقطةُ ضَعْف. لأنه حيٌّ، وليس بمقدورِ الإنسان الحيِّ أن يَفْقد أحاسيسَه، حتى وإن كان غيرَ طبيعيٍّ.

عاد كيشا وانهمَكَ في إعادةِ نَصْب الخيمة، يساعده الشكَّاءُ المتَّسِخ والمُحْمَرُّ من البكاء.

قال كيشا: «يبدو أننا سنظل في مواقعنا هنا؛ فقد يقوم الأعداءُ باختراقٍ جديد، أو يعودون لسحْبِ مَوْتاهم، مَن يدري، أحياناً يفعلون ذلك».

- «ونحن؟»

- «هذا ما سيقرِّره الرائد. أمَّا أوليغ فلا بدَّ من نقْلِه، ستصل الشاحنةُ سريعاً، اتَّصِلْ بالشباب بواسطة اللاسلكي. سينقلون الجَرْحى، وكذلك القَتْلى، إن أمكن ذلك».

انضم ساشكا لمساعدتهم في نصب الخيمة التي اتَّسَخت ودُهِست، مما جعل نصْبَها صعباً.

قال كيشا هامساً: «كلما تخيَّلتُ أنه كان ممكناً أن نبقى أنا وكوستيا في داخلها، أشعر بالغثيان. فورَ استلامِ مكافأة المعركة سأعود إلى بيت والدي».

- «وكيف كنتَ تُقاتِل فيما مضى؟»

- «للمرَّة الأولى نَخُوض غِمارَ معركةٍ كهذه. في شهر أيار حفَرْنا خنادقَ في الجنوب، ورابَطْنا فيها. كان جينكا وليوقا يذهبان لِلِقاء الفتيات اللاتي جِئْنَ إلى هناك.

حدث تراشُق هناك لمرةٍ واحدة ليلاً، بعدها تمَّ ترحيلنا، وانتهت المعركة. تُرى، كم سيَدْفعون لنا؟»

سرعان ما ظهر الأرنب، يَتْبعه تيم مُكتئِباً، وعددٌ من الشبان.

- «لماذا لم يَجْرِ نقْلُ الجثث حتى الآن؟»

سأله ساشكا: «إلى أين ننقلها؟»

- «كوِّموها في مكانٍ ما. وشُكْلاً على المدرَّعة. أحسنتم. لقد فعلتم ما يجب».

ثم غادَرَ الأرنب المكان.

قال الغوريلّا وهو يحكُّ يده الملوثة: «لقد قُتِل الذئب، وقُتِل معه كلُّ أفراد مجموعته».

بصق تيم على الأرض بتَشفٍّ، وسحب من جيبه قطعةَ خبزٍ. نفخ عنها التِّبْغ، ثم قَضمها وهو ينظر بعبوسٍ صوْبَ الجثث.

- «وأنتم نلتم نصيبَكم أيضاً. من حُسْن الحظ أنهم يُرسِلون الجبناء. ما أقلَّ الجنودَ الجيدين! كلهم موجودون في منطقة الحدود الجنوبية. ويُرسِلون إلى القتال أياً كان من الجنود؛ أولئك الذين أستطيع تدميرَهم بيدَيَّ العاريتَيْن، لكننا كنا على مسافةٍ بعيدة».

تساءل الشكَّاء: «وماذا حدث للذئب؟»

قال الغوريلا بلا مبالاة: «ماذا حدث! قصفوا خيامَهم في الحرش وانتهى أمرهم. تناثَرَت الأشلاء. إنهم الآن يَجْمعون الأسرى هناك عند الرائد. فَلْنذهب إلى هناك، يا سيلوس».

دمدم كيشا بعد أن ابتعَدَ تيم وسيلوس: «لنذهب ونَرَ. لا يأخذ الرائدُ أسرى، لا بدَّ أن يقتلَ هذا الوحشُ اثنَين أو ثلاثة بيدَيْه. لو ذهب إلى مزرعة والدي، لَقتَلَ الخِرافَ بقبضتَيْه».

سرعان ما عاد ڤـيتكا، وقام هو وجينكا بنقل جثةِ أوليغ بعنايةٍ إلى جوارِ خيمتهم الصامدة. واقترب ساشكا والشكَّاءُ لإلقاء نظرة الوداع.

قال جينكا: «سيُوارى الثرى في المقبرة العسكرية. مهما يكن، فقد كان القائدَ تقريباً. أمَّا الباقون فسيُدفَنون في حفرةٍ واحدة».

سرعان ما وصلَت عَرَبةٌ مُغطاةٌ بقماشٍ أحمرَ داكن. ترجَّلَ منها عددٌ من الفِتْية بستراتهم الحمراء، وراحوا يجرِّدون الموتى من ثيابهم.

أشار جينكا بيده إلى الجيفيين قائلاً: «أرأيت؟! لو لم أنبش جيوبهم، لَأخذ هؤلاء الأوباش أموالَهم. اسم على مُسَمى؛ الجيفيون! يغسلون الثياب، ويبيعونها فيما بعدُ. مَلِيحٌ أننا نقلنا أوليغ إلى هنا، وإلا كانوا جرَّدوه من ثيابه أيضاً. انظر كيف يعملون».

قال ساشكا وتعجَّبَ من شدة حقده: «ليتني أحصدهم برشقةٍ واحدة. بدا كلُّ هذا مقرفاً. وبالمناسبة، كلُّ هذه الحرب مقرفةٌ أيضاً».

بعدَ الجيفيين جاء فريقُ جَمْع الغنائم، فجَرَّ الدبابةَ المعطوبة بناقلةٍ أخرى إلى ورشة الإصلاح والصيانة، ثم جاؤوا لنقل أوليغ. لاحَقَه ساشكا بنظراته مُودِّعاً، ودسَّ يدَه في جيبه على عَجَلٍ، لكنه لم يجد شيئاً، ولكنه أدرك أنه يبحث عن سجائر. أراد أن يطلب من جينكا، وإذا بالكلب يَظهر من خلف المدرَّعة. بدا كعادته، إلا أن زجاج نظارته كان قد تشقَّق، وتلطَّخَت سترتُه السوداء بالدماء.

صاح الشكَّاء بهلعٍ: «مكسيم! أنت!»

قال الكلب بصوتٍ خفيضٍ: «يا شباب!» فلاحَظَ ساشكا أن وجهَه شاحبٌ مثل قماشٍ أبيض. «يجب أنَ ننقل جثثَ جنودِ إنسك الذين فتَّشناهم وسرقناهم».

أجهَشَ كيشا بالبكاء فجأةً وهو يقول: «لا أستطيع!» واختفى خلف الخيمة.

نهض جينكا: «يا لك من جبان! تعالَ، يا ساشكا. فلا بُدَّ أن يقوم أحدٌ بذلك».

نهض ساشكا ببطء، وتبع الكلبَ وجينكا، ولحق بهم الشكّاء وڤـيتكا. صعد الكلب والشكَّاء إلى صندوق الشاحنة. جثا شيز على ركبتَيْه في الثلج، وراح ساشكا وجينكا يَسْحبان الجثثَ إلى العربة.

تجمدت الجثامين مما جعلها ثقيلةً جداً. كان بعضها عارياً تماماً، والبعض الآخر محتفظاً بملابسه. اخترق الرصاص ستراتِ كثيرٍ منهم، فالتصقت بأجسادهم مع قشرةٍ من الدم. راح ساشكا وجينكا يجرانِ الجثثَ فوق الثلج والوحل. أدرك ساشكا ما الذي كان يبعث الغثيان في نفس كيشا، لكنْ هو نفسه لم يشعر بشيء.

سرعان ما فرغوا من إلقاءِ الجثث داخلَ العربة، وجلسوا على مقربةٍ منها.

قال الشكَّاء: «سيَسْتخدمونهم كأسمدة».

أجاب كونكوف: «أنت غبي».

جال في خاطر ساشكا: «كل الأحوال سواء، أينما ذهبوا بالإنسان بعد الموت».

سحب جينكا من عُبِّه مَطَرةً [24] زرقاءَ مُجعَّدة، رشف منها جرعةً، وناوَلَها لساشكا فرشَفَ منها بصعوبةٍ، ولكنه لم يَشْعر بأي استرخاءٍ أو انتشاء.

طلب الشكَّاء مستعطفاً: «أعطوني قليلاً منه».

أجابه كونكوف: «لم يجفَّ الحليب على فمك بعدُ». وأخفى المَطَرة باستخفاف.

خطر لساشكا وكأنه في حلم: «أمَّا أنا فقد جفَّ الحليب على فمي». تعالت من العَرَبةِ أصواتٌ غريبة. نهض ساشكا ورأى الكلب يبكي وهو جالس بين الجثامين، يقلِّب بين يدَيْه نظارتَه المكسورة، يحاول جاهداً منْعَ نفسِه من إطلاق صوته بالعواء.

ناداه الشكَّاء: «لا تَبْكِ، يا مكسيم». ونظر إلى ساشكا موضحاً: «يقول شيز إن وحدتَه تقطَّعَت أوصالها تماماً خلال فترة انصرافه لجلب الماء ممَّا تجمَّعَ في المنخفض بعد أن ذاب الثلج. وحين عاد لم يجد من رِفاقه إلا الأشلاء. كم كنت سأخاف لو رأيتُكم على هذه الصورة! شيء مرعب».

زجَرَه جينكا: «اخرس، يا غبي، ستجلب النحس!»

خرج الكلب من العربة، ووقف بجوارها مترنحاً، ثم سقط في كومةِ ثلجٍ ذائب، وراح يصرخ. نظر ساشكا إليه وهو لا يعرف ما بوسعه أن يفعله.

قال كونكوف حانقاً: «لا بأس، كثيراً ما يحدث هذا. لا تهتم. خيرٌ لك أن تشرب قليلاً».

مرةً أخرى، لم يشعر ساشكا بأي تأثير. صمَتَ الكلب، لكنه لم ينهض.

أطلق جينكا سيلاً من الشتائم: «الأنذال! عند توزيع الغنائمِ ومكافأة المعركة يكونون في المقدِّمة، وعند نقل الجثامين يَنْتابهم الغثيان. يجب أن تُوسِع يانسِن ضرباً، يا ساشكا، ما له يُلقِي كلَّ المسؤوليات على عاتقك!»

تضاحك ساشكا ساخراً. «أوسِع يانسن ضرباً!» يقترح عليه الجميع ركْلَ أحدٍ ما، فما حاجته إلى ذلك؟ لا ذنْبَ لكيشا إن كان يشعر بالغثيان. لقد ساعَدَ ساشكا وقتَ مرضه، وحمله إلى بيتِ كاتيا. لن يضربه ساشكا أبداً.

اقترب جينكا من الكلب، وأوقفه على قدمَيْه عنوةً. ترنَّحَ، لكنه ظلَّ واقفاً. هزَّ جينكا المَطَرة الفارغة، وقال لساشكا:

- «لقد أكثرنا، وسنتألَّم كثيراً الآن!»

نهَضَ ساشكا واقفاً. دُهِش لعجْزِه عن التقدُّم خطوةً واحدة. قدماه لا تستجيبان. قال في سرِّه: «يبدو أنني ثَمِلٌ جداً». بلغ مكانَ الكلب بصعوبةٍ واحتضَنَه.

- «كُفَّ عن البكاء، يا مكسيم، فكلُّ البشر يموتون. سنهلك نحن وإياك يوماً ما، ربما غداً، وربما بعد شهرٍ. هل لديك أمٌّ؟»

أومأ الكلب بالإيجاب.

- «أرأيت؟! أمُّك حيةٌ تُرزَق. أمَّا أنا فليس لي أحد. تلك هي حياتنا القَذِرة».

تفوَّهَ ساشكا لأول مرَّة بالسباب. تابَعَ قائلاً:

- «دَعْني أضُمَّك، تعالَ إليَّ. أنت أيضاً ستَرْحل. أقول لك صراحةً: نحن هنا جميعاً كالجرذان. لهذا عليك أن تنسى الذئبَ والشباب. الأفضلُ أن نذهب ونضرب شيز؛ إنه جالسٌ هناك صامتاً، تدور في رأسه أشياءُ تافهةٌ عنا».

خطا ساشكا إلى الأمام، لكنه فقَدَ توازُنَه، فسقط في الوَحْل. حاوَلَ النهوض، لكنه أدرك أن الزحفَ أفضلُ، فراح يزحف. بدا له أنه زحف طويلاً إلى أن اصطدم جبينُه بشيءٍ ما. رفع رأسَه ورأى جينكا كونكوف.

قال جينكا وهو يمدُّ المَطَرة لساشكا مبتسماً بغباء: «لقد عثرتُ على مزيدٍ من الكحول هذه المرة».

انقلب العالَمُ رأساً على عقب. عانَقَ ساشكا صاحبَه جينكا مُودِّعاً، وحاوَلَ أن يضمَّ كيشا، ثم سكب قليلاً للشكَّاء، وانخرط في البكاء ووقع على الأرض بجوار الخيمة. كان ثَمَّة مجهولون يَعْبرون بالقرب منه، يضحكون ويقولون أشياء مبهمة. سُمِع صوت تكبُّرِ الأرنب: «لماذا لم ينقلوا هذه الجثَّة؟» أجابه جينكا: «إنها جثةُ صديقنا». صاح ساشكا: «كيشا... ا... ا. كيشا... ا... ا». ردَّد الشكَّاء نداءه مُقلِّداً. تخيَّلَ ساشكا أن صوته غير مسموع، فراح ينادي بقوةٍ أكبر. ثم غرق العالَمُ في ظلامٍ دامس، وتسرَّبَ الضياءُ فأحسَّ ساشكا بأن هناك مَن يَجرُّه على الثلج. فتح عيناً واحدة فرأى كيشا والكلب.

سألهما: «إلى أين؟»

أجابه الكلب بجفاء: «إننا نُغيِّر موقعَنا».

تمتم ساشكا: «أمر بسيط». وانطفأ العالَمُ من جديد.

20

وجد ساشكا نفسَه أخيراً في صندوقِ شاحنةٍ كانت تَرْتجُّ، فتَصدُر طقطقةٌ عن جوانبِ صندوقها المتراخية، وتَهدر بمحرِّكها. خمَّنَ ساشكا: «نتقدَّم عبر الأوحال». وتلفَّتَ حوله؛ كان كيشا حتماً يجلس إلى جواره، يسند رأسَ الشكَّاء على كتفه ويغطُّ في النوم. وعلى مسافةٍ أبعدَ قليلاً، جلس عددٌ من شباب لا يعرفهم تقريباً. وفي الجانب المقابل جلس الكلب وجينكا شبه مُستَلْقِيَيْن، وجلس شيز في مؤخرة الشاحنة تتدلّى رجلاه خارج الصندوق.

قال كيشا إذ رأى ساشكا يستيقظ: «أيها السكِّير! لعلك بديلٌ حقيقي لليوڤـا».

اعترض كونكوف: «كلا، إنه شاب جيد، ليس مثلك أيها المغفَّل!»

هزَّ ساشكا رأسه. كان يشعر بصداعٍ قوي، وبجفاف حَلْقه.

- «كيشا، إنني عطشان!»

أخرج جينكا المَطَرة ثانية.

- «خُذ، هذه قطعةٌ من قلبي».

قال ساشكا بوهن: «لا أريد».

- «اشرب، ففيها ثلجٌ ذائب. لم تَتْركوا قطرةً من الكحول. هل تظنون أنني أُصنِّعه؟»

أخذ ساشكا جرعةً من الماء المقزِّز بطعم الأعشاب البرية، واضطجَعَ على الأرض من جديد.

- «رائع!»

قال الكلب: «في هذه اللحظة تشعر أنك في حالة جيدة، يا رفيقي، بينما كثيراً ما يحمل الثلجُ الذائب أميبيا الزحار. إذا ابتلعتَها تموت من الإسهال».

تمتم كيشا: «أياً كان سبب موته، فكلها سواء عنده. لقد نضج بيننا وصار مثل شيز».

اعترض ڤـيتكا: «لم ينضج بعدُ، إنه يبحث عن السَّكِينة في موادَّ تُذهِب العقل، بينما تَكمُن السَّكِينةُ في صفاء العقل».

راح الشباب يُقهقِهون، ولم يَستطِع ساشكا أن يَفْهم إن كان الحديث يدور حوله أم لا.

أخيراً توقَّفت الشاحنة، وكان شيز أولَ مَن ترجَّلَ منها. صَفر، وراح ينظر حواليه.

أزاح كيشا رأس ساشكا عن كتفه: «هيا، ترجَّلْ أيها السكِّير». وركَلَ الشكَّاءَ قائلاً: «كفاك تمرُّغاً هنا!»

نزل الجميع من الشاحنة. بدا المكانُ شديدَ الشبه بالمكان الذي غادروه؛ إذ رأوا السُّهبَ المترامي الأطراف ذاته، إلا أن في وسطه قلعةً من ألواحِ الإسمنت المسلَّح جُلِبت من أحدِ مباني المدينة. هنا الخنادق والملاجئ بأحجامٍ مختلفة ومُسوَّرة بِكُرَات من الأسلاك الشائكة. عند مدخل كل ملجأ تكدَّسَت أكياسٌ من الرمل، وعلى مَقربةٍ من القلعة بئرُ ماءٍ تحيط بها بعضُ أشجار الأكاسيا. وعلى مسافةٍ أبعد يوجد برجُ مُراقَبةٍ مائلٌ.

قال كيشا: «المعركة الماضية خُضْناها في مثلِ هذا المكان. هنا، يُمكِنك الاختباء، والمكان ليس مجرَّدَ بِضعِ شُجَيْرات في أرضٍ مكشوفة».

نظر ساشكا حولَه وانطلق باتجاه البئر.

قال الكلب مُحذِّراً: «لا تشرب على الفور، املأْ خوذتي بالماء وتَأمَّلْه. إذا كان جنود إنسك استولَوْا على هذا المكان قبلَنا، فمن المحتمَل جداً أن تكون في البئر جثةٌ، أو قد تكون مياهُها مُلوَّثةً بالدماء. إنهم يحبون هذه الأشياء».

نظر ساشكا إلى البئر، ثم إلى الكلب، فتلاشَت رغبتُه في الشرب.

أمر جينكا: «هيَّا، توقَّفوا عن الثرثرة. يجب أن نتمركز».

كانت المجموعات الأخرى تُنزل مُعَدَّاتها. خمَّن ساشكا أن عددَهم عشرون رجلاً، والجدران هنا لا بأسَ بها، ستُمكِّنهم من الدفاع من دونِ خسائرَ تُذكَر، وهبط يَستطلِع الخنادق. كانت رَطْبةً، وقاعها مُوحِل، لكنها عميقة.

تعالَت قهقهةُ كيشا من خلفه: «كأنه عازمٌ على العيش هنا».

فكّر ساشكا قائلاً: «نعم، عازمٌ على ذلك. لستُ عازماً على الموت، وإن كان ذلك لدينا هَيِّناً جداً. أيُّ حربٍ هذه؟ يَجُرُّونك من يَاقتك إلى السهوب، في مَرمى دباباتٍ مُعادِية، وإذا نجوتَ جرُّوك من جديدٍ إلى موقعٍ آخَر. إنهم يَسدُّون بأجسادنا شقوقَ مبانيهم هناك. لو كنا تلاميذَ في مدرسةٍ عسكرية، لَمَا عامَلُونا بهذه الطريقة!»

في غضون انشغال ساشكا بمُناجَاته تلك، كان كيشا قد اختار الملجأَ المناسِب لوحدته، وأشعل النارَ في قِطَع الحَطَب والعيدان المخزونة من الوحدات التي سبقَتْهم. عبْرَ كوَّة الرماية، راح ساشكا يرقب ابتعادَ الشاحنات التي جاءت بهم، ثم هدأ وجلس أمام الموقد المشتعِل.

تجمَّعَ جينكا والشكَّاء وشابٌّ آخَر متوسطُ القامة، قويُّ البِنْية، يَتأبَّطَ دائماً جهازَ راديو صغيراً؛ مما حدا بالجميع إلى مُنادَاته بعامل الاتصالات.

تساءل جينكا: «مَن سيكون بديلاً للذئب الآن، يا أُخْوتي؟ هل اتصلتم بالرائد؟»

أجاب عامل الاتصالات: «اتصلنا. الحقيقة، العوائقُ الجوية تَحُول دونَ الاتصال بوضوح. ثَمة تشويشٌ دائم. ينصح الرائد بأن نختار أعقلنا».

قال جينكا: «تبعاً للقواعد، يجب اختيارُ واحدٍ من قادة المجموعات. طبعاً، سنَستبعِد قائدَ مجموعتنا».

فضلاً عن ڤـيتكا، كان هناك ثلاثةُ قادةٍ آخَرين، جميعُهم شبابٌ بالغون. ساشكا لا يعرف منهم أحداً، ولا يهمُّه مَن سيَشْغل مكانَ الذئب، شريطةَ ألا يَركلَ أحداً بلا سبب».

مساءً أعلنوا بدايةَ الاقتراع في القلعة. تعالى الضجيج والصُّرَاخ هناك، وكاد يَنشبُ عِراكٌ بين الشباب، أخيراً تم اختيار الخَل».

قال كيشا، حين خمدت النقاشات: «قُضِي علينا! هذا الفتى يقتل دون أن يسأل عن اسمِ مَن قتله. إنه «تيم غوريلا» الثاني».

هزَّ ساشكا كتفَيْه وعاد إلى جماعته. كان مسموعاً في الخارج كيف راح الخَل يُحدِّد نظامَ الحراسة.

مَرَّ يومان والوحداتُ تُرابِط في مواقعها، دون الإعلام عن بدْءِ المعارك. في اليوم التالي، وصل الأرنب، مبعوثُ الرائد، في سيارة جيب متَّسِخة بصحبةِ مُراسِلِ في جَعْبته بعضُ الأوراق. بعد توقيعها، احتفل المبعوثان وشربا حتى

الثِّمَالةَ، وافترشا أرضَ أحدِ الملاجئ. ظلّ ساشكا وكيشا يلعبان الورقَ طوال النهار، بينما كان الكلب يقرأ كتاباً رقيقاً لم يَبْقَ منه إلا نصفُ صفحاته. ظل شيز مُستلقِياً فوق أكياس الرمل يُحدِّق إلى السماء ساعاتٍ طويلة. أمَّا الشكَّاء فأُصِيبَ بالاكتئاب وراح يَنُوح كَمْ هو مُشتاق لأوليغ، يبكي ويمسح الدموعَ والغبارَ عن وجهه، حتى ضاق الجميعُ به ذَرعاً، وضربه جينكا أخيراً.

في مساءِ اليومِ الثاني بدأَت تَتناهى إلى المسامع أصواتُ هديرٍ بعيدة.

أقسم كيشا: «هذا صوتُ إطلاقِ النار من الدبَّابات، إنني متأكد».

ليلاً ضُوعِفَ طاقمُ الحراسة، واتَّخذت مجموعتُهم مكانَها في القلعة. ظلَّ باشكا، عاملُ الاتصال، يحاول الاتصالَ مع الرائد.

قال عامل الاتصال بأسف: «لا يسمعني. الأجهزةُ سيئة، وربما يحاول العدوُّ التشويشَ أيضاً».

قال الخَل الجالسُ بجوار عامل الاتصال: «لقد بدؤوا الهجومَ على المحور الجنوبي».

صاح العامل في برج المراقَبة: «ها هي الشاحنات!»

تساءل الخَل: «تُرى، مَن ينقلون فيها؟»

قال الأرنب وهو يخرج من الملجأ: «قد تكون قواتُ إنسك بدأت بالهجوم. ماذا يقول المذياع؟»

- «صامت».

صاح الراصد مذعوراً: «الأعداء!» فتناوَلَ الشبَّان أسلحتَهم وانتشروا عبر الخنادق.

تمتم كيشا وهو يجلس بجوار ساشكا: «مرَّةً أخرى، بدأ القتال!»

سأل ساشكا باستغراب: «ماذا يجري؟! هل يُهاجِمون بالشاحنات؟ سنُمزِّقهم إرباً!»

قال الخَل: «بالتأكيد». وشرع يصعد إلى برج المراقَبة وهو يَكِيل الشتائم: «عن أيِّ عدوٍّ تتحدَّث؟! هل أنت أعمى؟!»

انبرى الراصِدُ يَسُوق الأعذارَ وهو يحاول التخفِّي عن أنظار القائد الغاضب.

- «أمُعوَّقون أنتم؟! حتى الطفل يعرف أن الشاحنات لا تُشارِك في الهجوم، وها أنتم فعلتموها في ثيابكم فَزَعاً!» وجَّهَ الخَل للراصد ركلةً، ونزل من البرج. «إنها وحداتنا تتراجع!»

اقتربت الشاحنات، عدَّها ساشكا ستَّ شاحنات.

خمَّنَ الأرنب وقد أيقَظَه الخوف: «إنها تَنقل المُصابين. أو الأَسْلَى من الجنوب».

ما إن اقتربت الشاحنات حتى خرجوا من مَخْبئهم. راح الخَل يتحدَّث مع السائقين، وظلَّ الأرنب يركض من شاحنةٍ إلى أخرى وهو يُحاوِل جاهداً تفحُّصَها بدقة.

صاح جينكا وهو يعود إلى مجموعته: «يا شباب! الأوضاعُ في الجنوب سيئة. هذه الشاحناتُ مُحمَّلةٌ بالقَتْلى، وتلك فيها الجَرْحى. الأوضاع سيئة».

وابتعدَت الشاحنات مُطلِقةً دُخاناً وشخيراً. وتفرَّقَ الجميع، إلا المجموعة المناوِبة. صباحاً، عادت الشاحناتُ نفسها مُحمَّلةً بالمُؤَن والتعزيزات.

استولى الأرنبُ بحماسةٍ على صندوقٍ من المعلَّبات، وعلى عُلبةٍ من الكحول الطبي له ولرفيقه.

عمَّ الهدوء حتى حلول المساء. كان ڤـيتكا يجلس القُرْفصاء أمامَ النار ويُتمتِم. عبثاً حاوَلَ ساشكا الخبير أن يُنصِت إليه عَلَّه يفهم شيئاً مما يقول. أما كيشا العملي فجمَعَ بضعةَ ألواحٍ خشبية وراحَ يُجرِّدها من المسامير قبل أن يَرْميها في النار. وظلَّ الشكَّاءُ طوالَ اليوم راقداً في الملجأ، لا يُغادِره إلا ليَشْتكي من ألمِ قدمَيْه. كان ساشكا يَسترِقُ النظرَ عبْرَ كوَّةِ الرماية وهو يُفكِّر بالسهوب وكرايف وكاتيا.

عند الغروب، اجتمعَت الوحداتُ لتناوُل طعام العشاء. كانت وحدةُ ڤـيتكا أوفرَهم حظاً؛ هم اليوم في حِلٍّ من مَهامِّ الحراسة؛ لذا بوسعهم تناوُلُ طعامِ العشاء في الملجأ. أشعل ساشكا النارَ في الموقد، ولطَمَ بلطفٍ رقبةَ الشكَّاء الذي اقترب مُحاوِلاً إشعالَ لفافتِه من الموقد، ثم جلس فوقَ صندوقٍ قُربَ الحائط. ثَمة صناديق كرتونية وخشبية كثيرة؛ ينقلون الموادَّ الغذائية في

الكرتونية، والذخيرة والأدوية في الخشبية. بخمولٍ تابَعَ ساشكا كيشا وهو يضع المعلَّبات على مَقربةٍ من النار، يُداعِبه شعورٌ بأن الأمور هنا باتَت الآن مقبولة؛ إذ يتمتعون بالدفء والهدوء. ما الذي قد يحتاجه الإنسان بعدُ؟ ثم نظر ساشكا، باهتمامٍ أكبر إلى الشكَّاء المتكوِّر في الزاوية، وجينكا المنهمِك في صيانةِ سلاحه، وكيشا ومكسيم الجالسَين قُربَ الموقد، وفهم أنه يخمِّن مَن منهم سيرجع حياً من هذه المعركة.

قال الكلب: «أصبحت جاهزةً الآن. أين اختفى قائد المجموعة؟»

قال كيشا وهو يَغْرِز ملعقتَه في اللحم المعلَّب: «ينوح على الغروب. دَعُونا نلتهم طعامه، فلا يَتأخَّر ثانيةً».

تضاحك الكلب: «أوه! أنت تدعونا لالتهام حصةِ شيز من هذه الوجبة المقرفة! أما أنا، فلا تُشعِرني حصتي بالسعادة».

- «اتركها لي ما دمت حصيفاً هكذا! ساشكا، لماذا يتباهى هذا الفتى؟!»

هزَّ ساشكا كتفَيْه. ساد الصمت، وانصرف الجميع لتناوُل المعلَّبات. اقترب الشكَّاء قائلاً:

- «بوُدِّي أن أَلْتهم شيئاً ما. أشتهي البطاطا».

قال كيشا متنهداً: «نعم، لو قدَّمَ لي أحدٌ حبةَ بطاطا الآن، لَأهديتُه عشرةَ ماركات».

قال الكلب: «هذه أمنيةٌ غيرُ منطقيةٍ على الإطلاق؛ فهي لا تَتوافق والواقعَ بأيِّ شكلٍ من الأشكال».

ترك كيشا طعامَه ونكز الكلب في صدره برفق: «وأنا لا أكترث لشيء، أفهمت؟»

ردَّ الكلب باستغراب: «ماذا أصابك؟»

صرخ كيشا: «ماذا أصابني؟! ماذا أصابني؟! منذ مدة طويلة وأنا أودُّ أن أسألك، أيها الوغد: حقاً، أين كنتَ عندما أطلقوا النارَ من الدبابة على سيريوغا الذئب وقتلوه؟!»

دفع الكلب كيشا بقوةٍ وقد اعتراه شحوبٌ مفاجئ.

وقف ساشكا يردُّ كيشا عن الكلب قائلاً: «كفى يا شباب!»

حتى إنه لم يَرَ الشكَّاء وهو يهجم على الكلب بخشبةٍ اصطدمت ببطن مكسيم بقوةٍ فأوقعَتْه أرضاً. شرع كيشا يركله، والشكَّاء أيضاً. كان جينكا يُراقِب العِراك، وفجأةً أمسك بصندوقٍ من الألومنيوم وقذفه بكلِّ ما أُوتِيَ من قوة على المتعاركين. جالت في ذهن ساشكا فكرة مرعِبة: «سيقتلونه!» فتناوَلَ بندقية وحرَّر صمامَ الأمان فيها، ثم أطلق رصاصةً في الهواء، فتناثَرَت من السقف قِطَعُ الخشب المتعفِّن.

صاح بهم: «تَوقَّفوا!»

توقَّف الشجار حالاً. فانخرط الشكَّاء في البكاء، وأطلق كيشا سيلاً من الشتائم، وانهمك جينكا كونكوف في التهامِ عُلْبة الطعام بحماسة.

اقترب ساشكا من الكلب وساعَدَه على النهوض.

- «هل أُصِبْتَ بأذى؟»

همس مكسيم دون أن يَجْرؤ على الوقوف منتصباً: «نِلْتُ ما يستحقه المُثقَّف، ما دمتُ أنال نصيبي من الضرب».

هرع إليهم الشباب من المجموعات الأخرى، وجاء الخَل.

خاطَبَ جينكا: «ماذا حدث هنا؟»

أجاب كونكوف وهو يَمْضغ طعامه: «كان الكلب يَعْبَث بسلاحه، فانطلقَت الرصاصةُ سهواً».

استفسر الخَل: «تعني بالكلب رفيقَكم صاحب النظارة؟!»

همس الشكَّاء بشماتة: «لقد قُضِي عليك، أيها الكلب. سيقتلونك الآن!»

قال ساشكا: «أنا مَن أطلق النار».

حدَجَ الخَل ساشكا بنظرةٍ ثاقبة، تُذكِّر بتيم الغوريلا، قائلاً: «لماذا؟»

قال ساشكا: «سهواً». وشعر بنفسه يتجمَّد رعباً.

طلب الخَل بهدوء: «أَعطِني سلاحَك».

ناوَلَه ساشكا السلاحَ بحَذَر، وعينا كيشا تَرْقبانه بهلع.

- «ابتعدوا جميعاً».

جال في خاطر ساشكا: «سيقتلني». بينما رمى الخَل البندقية جانباً وكأنه يؤكِّد فكرةَ ساشكا، وسحب مسدسَه من حزامه. أكَّدَ ساشكا: «انتهى كل شيء. إنها النهاية».

تمتم كيشا: «لا تفعل، يا خل!»

كان ساشكا ينظر كيف راح الخَل يرفع مسدسَه متأنياً إلى مستوى وجهه، وتَذكَّر في تلك اللحظة أن لديه هو أيضاً مسدساً، لكنَّ وقتَ استخدامه قد فات.

- «ماذا بك أيها المعتوه، هل أنت متعطِّش للحرب؟» ولامَسَت الفوهةُ الباردة صدغَ ساشكا. «ألديك فائضٌ من الطلقات؟ وأنا لديَّ مثلها أيضاً».

أذهَلَ ساشكا الصمتُ الذي ساد خارجاً، إلا صليل ملعقة جينكا، الذي ظلَّ مسموعاً وكأنَّ شيئاً لم يحدث. فلن يُفسِد شهيتَه قتْلُ رجلٍ بالرصاص أمامه الآن. وبدا له أن فترةَ الصمت هذه قد طالت، وطالت، بحيث لم يَقْوَ على الوقوف بعدُ. أراد أن يصرخ: «أطلِقِ النار، كُفَّ عن تعذيبي!»

توجَّهَ الخَل بالسؤال إلى الكلب الواقف بجواره: «هل أُطلِقُ النار؟ ما رأيك، أيها التافه؟»

أجابه الكلب: «لا تفعل».

وأكَّد كيشا: «لا تفعل».

لاذ جينكا بالصمت، بينما ظلَّ الشكَّاء يبكي. بقي ساشكا واقفاً، يتمنَّى أن ينتهي كلُّ ذلك سريعاً، دون أن يهتمَّ بمعرفة كيف سينتهي.

قال الخَل: «فَلْيَكُن». وراح ببطءٍ يخفض يدَه المُمسِكة بالمسدس. «سأعفو عنك لآخِر مرة».

تنفَّسَ ساشكا الصُّعَداء، وتلقى مُباشَرةً لطمةً بالمسدس على وجهه؛ فسال الدَّمُ من أنفه.

قال الخَل وهو يغادر: «هذا بديل الطلقة».

انطرح ساشكا أرضاً وهو يغطِّي وجهَه براحتَيْه، ودموعه تنهمر.

سأله جينكا: «لِـمَ حشرتَ نفسك بينهم؟ ذو النظارات هذا هو مَن أوقَعَ بنفسه حين هرب من جماعته. كانوا سيَكْتفون بضربِه وينتهي الأمر. ذلك الخائن الجبان!»

تفكَّرَ ساشكا: «الخائن! أنا أيضاً في الفيلق اعتبروني خائناً. أعرف جيداً معنى تلك الكلمة». حدَجَ ساشكا جينكا بنظرةٍ حاقدة، وانزوى في زاويةٍ بعيدة. اقترَبَ منه كيشا والكلب معاً.

قال كيشا: «ما كان ليُطلِق النار عليك؛ لا يملك شيئاً ضدَّك».

عدَّل الكلب وضع نظارته وقال: «كفَّ عن البكاء. كان يَجْدر بك ألَّا تُدافِع عني. في مثل هذا الوَضْع إن صدرَت عنك هفوةٌ، فلن يَدَعوك وشأنك أبداً».

صاح ساشكا: «أصابكم مَسٌّ من الجنون! أنت توحَّشْتَ يا كيشا! نحن لسنا بشراً!»

قال الكلب يُهدِّئه: «لسنا بشراً، لسنا بشراً. ظلَّ البشرُ هناك في المدينة، أمَّا نحن فوحدةٌ عسكرية».

تابَعَ ساشكا صُراخَه: «ما سببُ كل ذلك؟» وكأنه يَتُوق للإفصاح عن كل ما تكدَّسَ بداخله خلال هذه الأيام المعدودة التي قاتَلَ فيها. «لماذا يتحدَّثون عن الحياة الجيدة والآمِنة في الكتب فقط؟ لماذا نحن جميعنا أوغاد؟»

أمسَكَ به الكلب من كتفَيْه وهزَّه بقوة: «اهدأ، ساشا، اهدأ. أن تَكتبَ كتاباً عن حياةٍ آمِنة وسعيدة أسهلُ بكثير من أن تَبْنيها. هذا كتابٌ اسمه «أوتوبيا»؛ يَعْني هذياناً، لن يتحقَّق أبداً. نحن بمطلق الأحوال لن نَنْعَم به. وإن لم تَكُفَّ عن هذا الهذر، فسيعود الخَل. أنا لا أُطيق رؤيتَه، وأنت أيضاً، على ما أعتقد».

أزاح ساشكا الكلبَ من طريقه، واقترب من الصندوق وجلس. ناوَلَه كيشا بعنايةٍ عُلبةَ الطعام بما تَبقَّى فيها.

طَمْأَن ساشكا نفسه: «كل شيءٍ كسابق عهده. كل شيء كما كان». لكن لم تكن ثَمةَ طمأنينةٌ؛ فالقلق والقهر باقيان، وكل الأحداث التي عاشها عادت بإلحاحٍ أكبر، وبوضوحٍ أشدَّ. فُوَّهة المسدس في وجهه، والإحساس بالتَّوْق إلى القَتْل؛ قَتْل مَن هُم مثل الخَل، قَتْلُ أولئك الذين لا يُشبِهون البشر، وتفتقر عيونُهم إلىِ المشاعر والإنسانية. أولئك الذين ربما بسببهم لن تكون

هناك حياةٌ آمِنة أبداً في مدينتهم. الكلب ليس على حقٍّ؛ فالمدينةُ ذات البيوت البيضاء ممكنةٌ، لكنْ يجب أولاً دحْرُ الأعداء من إنسك والبدء ببِناء البيوت البيضاء. ولا مكانَ لأمثالِ الخَل وغوريلا وسيلوس هناك.

كان ساشكا جالساً يُمسِك بعلبةِ الطعام في يده وهو ينظر بلا اكتراث إلى الشُّبَّان وهم يغادرون. لقد ظلَّ وحيداً، باستثناء شيز الذي دخل الملجأ، ففتَحَ صفيحةَ الطعام وراح يأكل. كانت نظرته فارغة، وكأنَّ الموجود هنا طيْفُ قائدِ المجموعة فقط. استلقى ساشكا، لكنه تقلَّبَ طويلاً دون أن يغفو. أحسَّ برغبةٍ عارمة في الخروج إلى الهواء الطَّلْق.

انتهى. لا يمكن الاستمرار في الحياة على هذا النحو، لا يمكن العيش مع الرغبة في القتل. هو الآن يتمنى موتاً آخَر. هو الآن على استعدادٍ لأن يفرح بموتِ الخَل، مثلاً. حتى إنه يَتخيَّل بأيِّ غِبْطةٍ سينظر لذاك المنكبِّ على الأرض وفي جبينه ثَغْرة، وعيناه جامدتان. ظنَّ ساشكا أنه يَفْقد عقلَه.

أخرج من جيبه التقويمَ الذي عليه شعارُ الكُلِّية، وأشعل عودَ كبريت. اليومُ هو الثامن من تشرين الثاني. لم يَمضِ زمنٌ طويل على وجوده في المجموعة. قرَّبَ عودَ الكبريت من التقويم، فاشتعل بصعوبة. تلك هي النهاية، لن يكون هناك غَدٌ. غداً لن يكون هناك يِرخوف، بل لم يَعُد موجوداً، منذ زمنٍ طويل، منذ أن وصل إلى اللواء. الشخص الذي يسكن جسدَه الآن ليس جديراً بالحياة. حدَّث ساشكا نفسه: «أنا ميت الآن؛ لذلك فالموت مجدداً لن يُخِيفني».

كان الجو في الخارج رطباً وبارداً كالعادة. التفَّ ساشكا بحذرٍ حول القلعة، وبرج المراقَبة، وابتعَدَ لمسافةِ مائةِ خطوةٍ عبر السهل، بأناةٍ استلَّ مسدسَه من حزامه. ما أبسطَ أن تُصوِّب الفُوَّهةَ إلى الصدغ، وتضغط على الزناد، ولن يحدث شيء بعد ذلك!

أطلَّ القمر من خلفِ طرفِ غيمة ممزَّقة، وأنار المكانَ بضوءٍ شحيح. راح ساشكا ينظر إلى نقراتِ الماء وبقايا الثلج والقلعة، وكأنه يراها كلَّها للمرة الأخيرة، ويريد أن يحفظها في ذاكرته. رفع يدَه وصوَّبَ فُوَّهةَ المسدس إلى صدغه. بَدَت يده مُثلَّجة، وكأنها يدٌ غريبة عنه. حدَّث نفسه: «يجب ضغْطُ الزناد». لكنَّ أصابعَه رفضَت الانصياع. «أنا لست خائفاً... أم أنني خائف؟ أيُعقَل أنني أريد العيش؟ أعيش حياة كهذه؟» اختفى القمر مجدداً، وما زال ساشكا واقفاً. خطرَت له فكرةٌ كالبرق: «أمُؤلِـمٌ هذا؟ أيُعقَل أن أخطئ؟» ومرَّت ثَوانٍ، وراحت إصبعُه الجاثمةُ فوق الزناد ترتجف. يشعر ساشكا بهذا الرجفان جيداً. لقد اندمج كله في تلك الإصبع. وسرت الرجفةُ عبر جسمه كله، حتى بلغَت رأسَه. غمر الهواءَ من حوله صوتُ حفيف؛ هسيسُ أصواتٍ مبهمة، وكأن أحداً

يحاول ثَنْيه عمَّا يريد فعله، وكأنَّ أحداً ما زال بحاجة إليه حتى الآن ويعزَّ عليه. أيُمكِن أن يكونَ ذلك حقيقةً؟ كلا. هو وحيدٌ، وحيدٌ في هذه المدينة؛ بلا أسرةٍ، بلا أصدقاءَ حقيقيين، وبلا مستقبل. إذاً، لا حاجةَ للشكِّ. انتابَتْه نوبةٌ من القشعريرة أقوى. تشنَّجَ ساشكا وحاوَلَ جاهداً طردها خارج جسده. سيَعُدُّ حتى الثلاثة؛ واحد... اثنان... ثلاثة...

لم يحدث شيء. ظلَّ واقفاً يرتجف. ثم أنزل يدَه بقوة، فأوقَعَ المسدسَ في الوَحْل، وانطلق عائداً إلى القلعة.

عندما انبلج الصبح، كان ساشكا لا يزال جالساً على مَقربةٍ من أكياس الرمل، ولا يفكِّر بشيء. مَرَّ الحرَّاس به، حتى الخَل مرَّ بجواره مرةً. وساشكا ثابتٌ لا يتحرك. أخيراً جاء قـيتكا شيز، فجلس بجانبه، ومدَّ يده بالمسدس. أخذه ساشكا بيده الباردة، وراح يُقلِّبه في يده.

قال شيز: «أنت ضعيف؛ لقد رأيتُك أمسِ، انتظرتُ ردودَ أفعالك، لكنَّ وقتَك لم يَحِنْ بعدُ. إنك لم تُنجِز مهمتَك هنا».

قال ساشكا: «دَعْني وشأني، أيها الأبله!» ورفع يدَه مهدِّداً شيز، لكنه أمسَكَ يد ساشكا بقوةٍ وتابَعَ:

- «الموتُ الحقيقي يجب أن يكونَ مؤلماً. أنت أردْتَ أن تحصلَ على كل شيءٍ ببساطة، لكنْ لا، أيها الشبح، لن تتحرَّر بهذه البساطة».

أفلت ساشكا من قبضة قائد المجموعة، وركله بقوةٍ أسفلَ سـاقه، صارخاً: «انصرف!» تأوَّه شيز وأمسك كتفَ ساشكا بقوةٍ. سـرعان ما خطر ببال ساشكا: «كَمْ هو قويٌّ!» طرحه شيز أرضاً، وضغط عليه بقوةٍ وتابَعَ يقول:

- «كلا، أيها الشبح! سيَطُول موتُك، حتى تَلْعن اليومَ الذي وُلِدتَ فيه».

صاح ساشكا برعبٍ: «أمَّاه!» وراح في غيبوبة.

21

في اليوم التالي، عبرت أيضاً بالقرب منهم عَرَباتٌ تُقِلُّ ضباطاً وجنوداً. رأى ساشكا بينَهم بعض معارفه في الفيلق، لكنه لم يَدْنُ منهم. جلس على حافة الخندق وقدماه تتدليان وهو يُحدِّث نفسَه، لربما تعود هذه العرباتُ غداً مُحمَّلةً بالجنود أنفُسِهم، لكن جَرْحى أو قَتْلى. في عمق الخندق، جلس الكلب فوق صندوقٍ معدنيٍّ صَدِئ. لا شيء في حَوْزتِه للقراءة، فقد استهلكوا أوراقَ

كتابه لِلَفِّ اَلسجائر، وهو لا يريد أن يذهب إلى القلعة. حدَّث ساشكا نفسه: «أيُمكِن أن أعيش مع كيشا في مكانٍ واحد؟! كما أني لم أتعايش أيضاً مع ليوقا. وماذا بعدُ؟ بالتأكيد، الكلب لن يقتل كيشا، وليس بمقدورِ كيشا أن يتحدَّى الكلب. وما عساي أن أفعل أنا؟ لا، مِن الآن، حتى لو قطَّع كلٌّ منكما الآخَر إرباً، فلن أتحرَّك».

تساءل الكلب فجأةً: «اسمع، هل يَقْبلون في الفيلق مَن يلبس النظارات؟»

- «كلا».

- «ذلك مُؤسِف. يبدو أنهم زوَّدوكم هناك بكثيرٍ من المعرفة. جميلٌ أن تعرف الكثيرَ؛ فالمعرفةُ سلاحُ الإنسان في حياته».

تضاحك ساشكا ساخراً: «لا سِيَّما أنا، فقد حَمَتْني فعلاً! قلتَ إنك تُفكِّر في الالتحاق بالجامعة».

- «كلا، لقد فكَّرتُ في كسْبِ بعض المال هنا، لكنني أرى الآن أنني سأحصل على عشرة غرامات في جبيني، أو في أي مكانٍ آخَر، وبسرعةٍ وسطية تُقدَّر بسبعمائة مترٍ في الثانية».

أضاف ساشكا مُدقِّقاً: «هذا من سلاحٍ رشَّاش بالطبع. قد يُحالِف البعضَ حظٌّ أكبر، فيُصابون بقذيفةِ دبَّابة».

خرج الكلب من الخندق، وجلس بالقرب من ساشكا، وراح يُحدِّق في عينَيْه.

- «قُلْ لي، أنت أيضاً تعتقد أنني هربتُ من جماعتي خائفاً؟»

هزَّ ساشكا منكبَيْه.

فتابَعَ الكلب: «كلا، لست أفهم، لماذا أنت إذاً... بالأمس؟»

- «لقد قلتُ الحقيقة؛ أنا مَن أطلق النار. أما السبب، فلم يسألوني عنه».

اعترض الكلب: «لقد سألوك، لكنك كذبتَ وقلت إنك فعلتَ ذلك سهواً. لقد فعلتَ خيراً، ولا تُرِيد الإقرارَ بذلك الآن! تَتطلَّعُ لأن تكون مثلَهم!»

- «أبحث عن مدينةٍ ليس فيها حرب. هذا أكثر ما يهمُّني الآن، ولا أكترث بأيِّ شيءٍ آخَر. هم، أنا، ما الفرق؟»

نهض الكلب واقفاً: «هذا كتاب، ولا يجدر بنا أن نَثِق بالكلام المكتوب. لا أحدَ يعلم إن كان لهذه المدينة وجودٌ في الواقع!»

أشاح ساشكا بنظره عنه قائلاً: «دَعْني وشأني». وتراءت له بوضوحٍ الأبنيةُ البيضاء، والعشبُ الأخضر. لا بدَّ أن تكون هذه المدينة موجودةً. لا بدَّ من وجودها.

على مَقربةٍ من الخندق مرَّ شيز والشكَّاء، يحمل كلٌّ منهما مَطَرتَه.

ناداه الشكَّاء: «ساشا، تعالَ نجلب مشروباً من عند إيديك! مشروب طبِّي! من كثرة ما شرب، بات يُوزِّعه الآن».

ظلَّ ساشكا ينظر في إثر الشكَّاء، وهو يُفكِّر في أنه لم يَبْقَ للشكَّاء أحدٌ يرعاه بعد موت أوليغ، والآن يُمكِنه أن يموت ببساطةٍ، إذا ما داهَمَتْه نوبة. عبَرَ شيز مُتجهِّماً، حتى إنه لم يَلْتفت إليه. نزل ساشكا إلى الملجأ، فوجد هناك مَطَرتَيْن كان كيشا قد ملأهما. تناوَلَ ساشكا إحداهما وشرب جرعة، فشعر بالدفء. شيءٌ مضحك حقاً. فكَّرَ ساشكا: «آه، يا والديَّ! هذا أنا، وَلَدُكما المحبوب، أجلس هنا مُتَّسِخاً، أفعل ما لا يُرضِي أحداً، أُدخِّن أردأ أنواعِ التبغ، وأوشكتُ أن أنتحر برصاصة ليلاً. هل تتصوَّران ذلك؟!»

- «أيها الأحمق، ماذا تفعل؟»

التفَتَ ساشكا فرأى أمامه كيشا يخطف المَطَرة من يده ويُخفِيها في جيبه.

- «هل جُنِنتَ؟ لقد ملأتها من أجل البيع! عندما تصل التعزيزات، سنبيعها. إيَّاك أن تَذُوقها».

- «أتبخل عليَّ بها؟»

بدا كيشا ساخطاً جداً: «أَبخَلُ! يا لك من فهيم! في المرَّة السابقة شربتَ حتى لم تَحملك قدماك، فحملناك. يكفي هذا».

قال ساشكا: «أيها الجَشِع! الكلب مُحِقٌّ، أنت شخصٌ طمَّاع!»

- «اذهب، وعانِق صاحبَك الكلب! ظننتُكَ صديقاً، ولكنك..».

نهض ساشكا قائلاً: «كيشا، ألَا تخشى الخصام معي؟ فأنا معتوه، وقد أُطلِق النار فجأةً!»

نظر كيشا إلى ساشكا بدهشةٍ من الأسفل إلى الأعلى، وهو يفكِّر.

قال ساشكا: «لا بأس، انسَ هذا الأمر». وتناوَلَ المسدس، فأخرَجَ طلقاته وأودَعَها جيوبه. «ذلك أكثر أماناً. لقد بِتُّ أخاف من نفسي».

- «سانيوك، إنها حالة عابرة، لعلها مُشكِلةُ أعصابٍ. ذلك يحدث في زمن الحرب».

- «هل حدثت معك؟»

هزَّ كيشا رأسه نافياً: «كلا، إنني بليدٌ من ناحية الانفعالات. أشعر فقط بالغثيان عند رؤية الجثث، وفيما عدا ذلك، لا أكترث بشيءٍ أبداً. فلا تَكترِثْ أنت أيضاً. إيَّاك أن تتعاطى الكحول؛ إنها تزيد الأمورَ سوءً. ليوقا أيضاً أدمَنَه تدريجياً».

- «لا بأس، لن أفعل، ما دمت تخاف علَيَّ هكذا. أنت مثل شيز بنقاء فكره».

- «لا تشتم شيز، بالأمس حمَلَك بيدَيْه إلى هنا، عندما فقدتَ الوعي، كان بإمكانه ألا يفعل ذلك».

تذكَّرَ ساشكا وجْهَ ڤـيتكا المخيف فوقه، وكلماته حول الموت الموجع، فضحك: «شيز أنقَذَني! يعلم الله ما الذي قاله للشباب! مشكورٌ أنه لم يأتِ على ذِكْر حادثة المسدس، وإلا لكانوا ضحكوا كالصهيل. جبان، خاف من الانتحار».

مجدَّداً أحسَّ ساشكا برجفةٍ كريهة.

ليلاً، سُمِعت مجدداً أصواتُ إطلاقِ النار من جهة الجنوب.

قال الخَل: «استعدوا يا صِيصان. إذا هزمونا، فسيصلون إلى هنا سريعاً».

لم يصل أحد، ولا حتى عَرَبات نقل الجنود أو الجرحى. حتى الاتصالات كانت مُعطَّلة، ولا أحدَ يعرف مَن انتصر، وما الذي سيحدث لاحقاً. وبسبب عدم توفر الأخبار، وشدة الهلع والحيرة، لجأ كثيرون إلى المشروب، ولم يَكُن كافياً،

فراحوا يَمزجونه بالثلج الذائب. بعد مرورِ يومَيْن عمدوا لتخفيضِ كميةِ المُخصَّصات الغذائية لكل مُقاتِل، وإن كان ذلك خارج نطاقِ اهتمامِ ساشكا، فلقد اعتادَ الاستلقاءَ لساعاتٍ طويلة فوق الأكياس الرطِبة، والنظرَ إلى السماء. تمتم كيشا: «شيز الثاني!» دون أن يجد مَن يحادثه. ظلَّ مُقاطِعاً مكسيم. كان كونكوف يتسكَّع معظمَ الوقت في الوحداتِ الأخرى، وأُصِيب الشكَّاءُ بنوبةٍ جديدة لم يُفِقْ منها حتى الآن؛ ظلَّ مستلقياً في الملجأ يتمتم بأشياءَ مبهمة، يبدو أنه لم يَكُن قادراً على معرفةِ مَن يقترب منه. أما شيز فظل يَتمرَّغ أيضاً فوق ذات الأكياس في الجهة الأخرى للحصن، وهو لا يتوقَّف عن الصلاة. كان هو وساشكا يتجنَّبان حدوثَ لقاءٍ بينهما.

في الثالث عشر من تشرين الثاني عصفَت بالمكان طلائعُ بردٍ قارس، فتجمَّدَ الوحل ونقرات الماء على الفور. كذلك الخنادق، تجمَّدَت حتى أصبح الخروجُ منها صعباً لمَن يدخلها. أشعل الشُّبَّانُ المواقدَ داخلَ القلعة وخارجَها.

كان ساشكا وكيشا يُناوِبان في برج المراقَبة. ومن الجدير بالذكر، أن كيشا جاء ليجالس ساشكا أثناء مُناوَبته.

تساءل كيشا: «إلى متى سنظل قابعين هنا؟ نسيَ الجميعُ أمرَنا، فلا هجومَ، ولا عودةَ للبيت. سنتجمَّد هنا! لقد نفَدَت المؤن تقريباً. انظر إلى الشكَّاء، لقد فقَدَ عقله تماماً، يستلقي وينادي أوليغ. سنُلقِيه في أول شاحنة قادمة. وأنت أيضاً لستَ طبيعياً، تَلُوذ بالصمت طوالَ الوقت. واستسلم شيز للشرب مع الباقين، أين ذهب إيمانه؟ أعطِني لفافةَ تبغ. مِن أين لك بكلِّ هذا التبغ؟!»

تنهَّد ساشكا وهو يُحدِّق في صرة التبغ الصغيرة في يده.

- «قايَضْتُه بطلقة. فأنا أكون خطيراً حين أحمل سلاحاً».

غمز كيشا: «وهل يُمكِن مُقايَضة الرصاصة بشمعة مثلاً. أَلَا يُذكِّرك ذلك بشيءٍ؟»

- «ما زالت لديَّ شمعة».

تناهى إلى مسامعهما ضجيجُ محرِّكٍ بعيد آتٍ من جهة الشمال؛ فنهض ساشكا واقفاً.

كانت تتقدَّم نحوَهم عِدَّةُ عَرَبات؛ سيارتا «جيب» وشاحنة.

صاح كيشا: «إنها عَرَباتُنا!»

وصل الرائد. راح الأرنب يجري ليسوِّي هندامه، وجاء الخَل برفقةِ قادةِ المجموعات.

قال كيشا: «سأذهب لأرى ما الجديد هناك». وذهب للاستطلاع.

كان الرائد يشرح شيئاً ما للأرنب والخَل. كان الأول لا يتوقَّف عن أداءِ التحية له، أمَّا الثاني فيحكُّ قفا رأسه. ثم ركب الرائد السيارةَ مُسرِعاً، وتابَعَت سيارتا الجيب مَسيرهما باتجاه الجنوب، وبقيت الشاحنة. رأى ساشكا كيف خرجت مجموعةٌ من الشبَّان من الملجأ والقلعة بأسلحتهم الرشاشة، وصعدوا إلى الشاحنة. كانوا عشرةَ رجال تقريباً، بينهم فـيتكا وكيشا، وكان الخَل آخِرَ مَن تَبِعهم. وانطلقت الشاحنة شمالاً. وحين ابتعدَتْ، صعد الكلب إلى برج المراقَبة حيث كان ساشكا.

سأله وكأنه يُخبِره بسِر: «هل تعرف سببَ زيارة الرائد؟»

أجاب ساشكا بلامبالاة: «كلا».

- «اختلف قائدُنا توقِّلت مع القائد العام، وكادَتِ الأمورُ تصل إلى مُواجَهةٍ عسكرية بين قواتهما. أراد القائد العام أن يَزجَّ بجنودنا في الخطوط الأولى في الجبهة الجنوبية. لم يُوافِقه توقِّلت، وترك قواتنا تَلْتحق بالمعركة كدفعة ثانية. لم أكن أدري لماذا يَجمَع المقاتلين. حتى خطر في بالي أنه قد يكون مرتبطاً بالأخوة الحُمْر! فربما يُخطِّطون معاً لاحتلال المدينة!»

أشاح ساشكا بيده: «كلام فارغ. الأفضل أن تخبرني إلى أين ذهب كيشا».

- «هذا ما أقوله لك. هناك تواصُلٌ دائم بيننا وبين الجيفيين. فقد ذهب «البخيل» و«الفصامي» لحرْقِ جماعةِ المتشردين. توجد منهم مجموعةٌ صغيرة غير بعيدة من هنا، تعمل في زراعةِ الحشيش. فالمتشردون هم المنافسون التجاريون للأخوة الحمر. وبما أن الحُمْر يبيعون الحشيشَ بثمنٍ أغلى، فهم يَسْعون لاحتكارِ تجارةِ الحشيش. ونحن نعمل لصالحهم الآن؛ إذ سيَدْفعون لكل مُتطوِّع ثلاثين ماركاً.

هكذا، يكون هدفُهم احتكارَ تجارة التبوغ. نحن الآن في تنسيقٍ معهم. سيدفعون لكلِّ متطوعٍ منا ثلاثين ماركاً».

- «إذن، كيشا يُعَد متطوعاً؟»

- «بالطبع».

- «ولماذا لم تذهب أنت معهم؟»

تعجَّبَ الكلب قائلاً: «ما حاجتي لذلك؟! فالمتشردون ليسوا أعدائي، بل لديهم بعضُ الأفكار الجيدة. هل كنت ستذهب لو لم تكن مُناوِباً؟»

- «لا أعلم».

مكث الكلب بعضَ الوقت، ثم انصرف إلى الملجأ.

عادَت الشاحنةُ التي حملت ڤيتكا وكيشا بعد ثلاث ساعاتٍ. تجمَّدَت أوصالُ ساشكا هناك في البرج، فراح يتقافز فوق الألواح الخشبية الواهنة، وسرعان ما اقترب كيشا يحمل على ظهره كيساً مَحْشواً.

تساءل بمرحٍ وهو في الأسفل: «هل تجمَّدتَ؟ لقد تَسلَّينا بما فيه الكفاية! أحرقنا مجموعتَهم بالكامل! لسوءِ حظِّ شيز، لم يَحدث إطلاقُ نار.

ما إن لمحَنا المتشرِّدون حتى فرُّوا هاربين في عَرَبةٍ باتجاه السهوب، لم يَبْقَ منهم إلا العاجزون عن الهرب. لقد جمعت غنائمَ».

كانت غنائم كيشا عبارة عن مصباح جيب جديد، وبضعة أجهزة راديو، وعدد من القمصان طُبِعت عليها شعاراتٌ تدعو للسلام والصداقة، وعِدَّة زجاجاتٍ مجهولة المحتوى باعها كيشا للأرنب حالاً دون أن يُحاوِلَ حتى فتحها. جاء أيضاً ببطاريةٍ من أجلِ لاسلكي «عامل الاتصالات»، وبعدة عُلَبِ أدويةٍ لعلاجِ آلامِ الرأس أو البطن، لم يُبالِ كيشا بذلك؛ فهو سيبيعها على أية حال.

عند عودة ساشكا من مُناوَبته تَبيَّنَ أن شيز غنم فقط شمعةً على هيئة فتاة، أشعَلَها وراح يتأمَّل شارداً كيف يذوب رأسُها.

كان كيشا مشغولاً بعدِّ ما كسبه من مالٍ طوالَ المساء، يدسُّ النقود في جيبه تارةً، ثم يُخرِجها تارةً أخرى ليُوزِّعَها في مجموعات، فيحسب حساباتِه ثم يجمعها معاً مرةً أجرى.

صباحاً، أيقظ الخَل الجميعَ.

أخبرهم عندما اجتمعت الوحدات كلُّها: «احتلَّت قُوَّاتُنا المرصدَ الجنوبي! سننطلق اليومَ لتمشيطِ كافةِ السراديب هناك. باشَرَ عناصرُ نزعِ الألغام عملَهم باكراً. عندما نصل، لن تكون هناك ألغام».

انكمش ساشكا، فهو لا يطيق الموادَّ المتفجرة أبداً، كانت يداه ترتجفان دائماً وقتَ التدريب على التعامُل معها.

قال كيشا بفرحٍ ظاهر: «أشمُّ رائحةَ نهايةٍ قريبة لهذه الحرب».

نهاراً وصلت شاحناتٌ لم يكن فيها إلا مجموعة واحدة من الصِّبْية اليافعين. سرعان ما توزَّعَ الشبابُ في الشاحنات وانطلقَت جنوباً. بلغت مُدَّة الطريق ساعةً ونصفَ الساعة. في الطريق صادَفوا عدداً من الدبَّابات المحترقة، كانت تُشبِه الدبَّابات التي رافَقَت المدرَّعات سابقاً. بَدَت الآن رماديةً داكنة وميتة. ثم شاهدوا مزرعتَيْن منهوبتَيْن.

قال كيشا: «من الجيِّد أن مزرعةَ والدي قريبةٌ من المدينة. من الغباء إقامةُ مزارعَ هنا، وإن كانت التربةُ هنا جيدةً وخصبة».

كان حصن خط الجبهة الأمامي مرئياً من بعيد وسطَ سهولٍ مكشوفة مستوية كمنضدة، وهو عبارة عن حصن مُقفِر من الإسمنت المسلَّح وألواح الآجر المُتفحِّمة. احترقت المساكنُ الخشبية كلها في الجوار، ولم يَبْقَ منها سوى أعمدة الحديد ومواقد الآجر. بالقرب من الطريق توقَّفَت عدةُ دبَّابات خرج منها الجنود ليشاهدوا التعزيزات القادمة.

تبيَّنَ أن الحصن كبير، تحيط به جدرانٌ مرتفعة، بعضُها لم يَمْسَسْه سوءٌ. تتوزَّع حوله نقاطٌ لإطلاق النار، وملاجئُ ودبَّابات مخفية في حُفَر. خلف جدران الحصن، كانت عِدةُ مَبانٍ متعددةِ الطوابق تسمح برصدِ السهل في جميع الاتجاهات. دمَّرَت القذائفُ بعضَها بإصاباتٍ مُباشِرة، وبالقرب من الأبنية كانت تَفُوح رائحةُ الحريق.

قال الرائد وهو يُوزِّع المهامَّ اليومية: «الأقبيةُ هنا فسيحةٌ جداً. إنها منظومةُ الملاجئ المضادة للقَصْف الجوي، والمُستودَعات، والهنغارات المخصَّصة لأشياء لا يَعْلمها إلا الله. فيما مضى، كانت هنا مدينةٌ صغيرة مُغلَقة، قبل الحرب. حوَّلناها فيما بعدُ إلى حصن، هو أقوى نقطةٍ لنا في الجنوب. لذلك كان جيش إنسك يَرغَب بشدةٍ في احتلالها. لكننا سنظلُّ أقوى منهم. غادَرَت القوات، ولم يَبْقَ إلا تطهيرُ بعض الأقبية، حيث قد يختبئ كثيرٌ من الأوغاد الأعداء. صباحاً سنبدأ بتمشيط المكان. علينا الآن أن نأخذَ مواقعَنا. سيُحدِّد قادةُ المجموعات المُناوَبةَ الثلاثية. إذا صادَفتُ أحداً منكم، فسأخلع أسنانه».

علَّقَ كيشا مُتكدِّراً، حين شرع ببَسْط الخيمة مع ساشكا والشكَّاء: «يا إلهي! كنتُ أنوي تفتيشَ المباني، عساني أجِدُ طلقات. هل تُرافِقني، يا ساشكا؟»

رفض ساشكا: «كلّا، لن أذهب». إذ لم يكن راغباً في مُرافَقة كيشا إلى الأدوار العليا عبرَ السُّلَّم المُحطَّم.

- «كما تشاء، يُمكِنني اصطحابُ الشكَّاء. هل تأتي معي يا كوستيا؟ نجمع الطلقات، وتشتري سكيناً. فأنت ترغب في سكين؟»

هزَّ الشكَّاءُ رأسَه ببلاهة. فكَّرَ ساشكا في أنه لا يَجُوز للشكَّاء اقتناءُ أدواتٍ حادة، ومن العبث قبولُه في صفوفِ المغاوير وأخْذُه إلى المعركة. كان مَظهَر الشكَّاءِ الآن يدل على أنه مريض وبائس».

قال كيشا فَرِحاً: «حسناً، سنأكل ثم نذهب. عندنا وقتٌ كافٍ قبل حلول الليل».

شيَّعَهما ساشكا بنظره وهما يُغادِران، ثم استلقى في الخيمة. كان على وشكِ أن يَغْفو حين ظهَرَ الكلبُ فَجأةً وجلس بجواره.

- «إلى أين اقتادَ البرجوازيُّ كوستيا العليلَ؟ الأجدرُ به أن يَمكُثَ في الزاوية، في انتظار الشاحنة».

قال ساشكا: «إنهما يبحثان عن الطلقات، التجوال الفردي ممنوع». وغطَّ في نومٍ عميق.

استيقظ ساشكا على صوتِ شتائم. على مَقربةٍ من الخيمة وقف جينكا يَصرخ في وجهِ كيشا. أطَلَّ ساشكا برأسه من داخل الخيمة ونظر إلى وجه كيشا، فأدرك أن شيئاً ما حدث. كان كيشا شاحباً، وعلى وجهه آثارُ دموع. خرج من الخيمة ليسمع صُراخ شيز:

- «توقَّفْ، يا جينكا، هذا خيرٌ له».

قوَّس كيشا ظهره، وراح يجري خلف الخيام وهو يبكي.

بصق جينكا على الأرض وانصرف. الْتَفَت ڤيتكا نحو ساشكا.

- «ڤيتكا، ماذا حدث؟ ماذا أصاب كيشا؟»

- «كيشا على ما يرام. أمَّا كوستيا فقد انتهى».

ارتعب ساشكا: «ماذا تقصد بـ «انتهى»؟»

راح شيز يُحدِّق متأملاً.

صاح ساشكا: «كيشا!» وانطلق يبحث بين الخيام، ولكن لم يجد له أثراَ. سأل الكلبَ: «مكسيم! أين كيشا؟»

رد الكلب: «دَعْه، دَعْه يبكي». وأمسَكَ بكُمِّ ساشكا. «لا يُمكِنك تقديمُ المساعدة له الآن».

- «ما الذي حدث؟»

- «وأنت نائم، ذهب كيشا وكوستيا لجمْعِ الطلقات. هناك، لا أعرف ما الذي حدث، لكنَّ الشكَّاءَ سقَطَ من الدور الثامن. إذاً، فإن يانسن هو السبب».

وقف ساشكا مُتسمِّراً من الرعب. سقط من النافذة، أية حماقة هذه! الشكَّاء، المعتوه، ما الذي كان يفعله هناك؟ المُذنِب هو ساشكا؛ لأنه رفَضَ مُرافَقةَ كيشا!

سأله الكلب ثانيةً: «فيمَ تُفكِّر؟ لو تعرف كم هم خائفون أولئك الشباب! فلو عرف الرائد حقيقةَ الأمر لَنال الخَل نصيبه، ثم شيز أيضاً. لقد نقَلْنا جثةَ الشكَّاء إلى مكانٍ آخَر، حيث توجد الجثث ولا يمكن معرفةُ سببِ وفاة كل جثةٍ على حِدَة. لكن منظره، في الحقيقة..».

قال ساشكا فجأةً: «تَعالَ لنُلْقِ نظرة». إذ أحسَّ بأن عليه أن يرى الشكَّاءَ للمرة الأخيرة.

- «لماذا؟»

- «سنُلقِي عليه نظرةَ الوداع. فهو من وحدتنا، لطالما كان يَعُدُّني أخاً له».

- «كان يَعُدُّ الجميعَ أُخْوةً له، لعلها حالةٌ مَرَضيَّة تَحدُث أثناء التعرُّض لاضطراباتٍ نفسيَّة».

- «مهما يكن. هيا بنا».

هزَّ الكلب كتفَيْه وتقدَّم بمُحاذاة الحائط. تبيَّنَ أنَّ في أحدِ المباني قَبْواً تُجمَع فيه جثثُ القَتْلى.

سأل الكلب: «هل ستبحث عنه هنا؟ حظاً سعيداً».

خرج الكلب، وظل ساشكا وحيداً. توقّفَ عند المدخل، تردَّدَ قليلاً قبل أن يدخل. لقد بَدَا بالفعل مَشهداً مُرعِباً. ثَمة عددٌ كبير من الجثث. وُضِعت جثثُ الضباط في زاويةٍ بعيدة على رفوفٍ خشبية من ثلاثة أدوار صُنِعت كيفما اتفق. وتكدَّسَت جثامينُ الجنود عشوائياً بمحاذاةِ الجدران؛ بعضُها جثثٌ كاملة والبعضُ الآخَر مُشوَّه بفعلِ انفجار، أو أشلاءٍ مُتفرِّقة. عبث الجيفيون ببعضِ الجثث، لكن معظم القَتْلى ظلوا بثيابهم الميدانية، بدلاتِ مَغاوِير ومُشاة، وستراتِ جنودِ دبَّابات. كان الجو في القَبْو ثقيلاً ورطباً، تَفُوح منه رائحةُ الدم والعَفَن والملابس الوَسِخة. أحسَّ ساشكا بالغثيان، فتنفَّسَ بعمق، وسار على طول الرفوف الخشبية وهو يغطِّي أنفَه براحةِ يده، يتحاشى النظرَ إلى وجوهِ القتلى الرمادية، التي كانت في الوقت نفسه تَشدُّه إليها.

كان يبحث عن مَعارِفه ويَخْشى رؤيتهم، وحين أوشَكَ أن يُشِيح بوجهه، استوقَفَه أحدُ هذه الوجوه. اقترب ساشكا وجلس القُرْفصاء. احتبَسَت أنفاسُه مجدداً، ولكن هذه المرةَ ليس بسبب الرائحة فقط، وإنما بسبب الرعب أيضاً.

كان الجسدُ المتصلِّب، المشوَّه فوق العوارض السفلية، جسدَ نقيبِ القوات المسلَّحة غريغوري كرايف.

راح ساشكا يُحدِّق إلى الأرض؛ لم يَقْوَ على النظر إلى ذلك الرف. وخُيِّل إليه لثوانٍ أنه ربما أخطأ، لا يمكن أن يكون كرايف ميتاً. لكنه لم يَجْرؤ على رفعِ نظره حتى من أجل أن يتحقَّق من خطئه. منَعَه الرعب من النظر، ومن التفكير، منعه من النهوض والهرب من القَبْو. ما حدث، لا يُمكِن له أن يحدث؛ لأنه، حتى وهو في المعركة، حتى وهو يَفْقد رِفاقَه بالسلاح، كان ساشكا يشعر بأنه ليس وحيداً في هذا العالَم، ما زال هناك أهلُ خيرٍ طيبون في المدينة. هناك مَن يُمكِن أن يَعُود إليهم بعد المعركة. كان ساشكا مُستعِداً لموتِ القائد وشبابٍ آخَرين، لكن ليس لموتِ كرايف، ليس لموتِ مَن دعاه للعيش في بيتهم، مَن كان يُعامِله في الفيلق مُعامَلةَ أبٍ لابنه تقريباً. مسح ساشكا جبينَه المتعرِّق بطرفِ كُمِّه. أحسَّ بالغثيان، وبدُوَارٍ بالرأس. وما زال الرعب جاثماً. لكنه الآن كان خائفاً على كاتيا. كيف سيذهب إليها؟ كيف سيُخبِرها بأنه رأى والِدَها هنا، في هذا المكان الرهيب؟ وقد لا يَتسنَّى له أن يقول لها شيئاً؛ فقد لا يعود هو أيضاً إلى المدينة! قد يُقتَل!

البقاءُ هنا صار مستحيلاً. اقترَبَ ساشكا من كومةِ أجسادِ المُجنَّدين مُحاوِلاً الاهتداء لجثة الشكَّاء. كانت مهمةً صعبة. أخيراً عرفه من كُمِّ السترة التي أعطاه إيَّاها يوماً، كان يتدلى من تحتِ بِزَّته العسكرية. حاوَلَ سحبَه من تحت الأجساد الأخرى، لكنه خشي أن يُصدَم بما أصابه.

همس ساشكا: «إلى اللقاء، يا كوستيا. إلى اللقاء يا أخي الصغير».

سمع صوتَ الكلب من الخارج يقول: «هل أنت على ما يُرام هنا؟ أنا أنتظرك».

أمسك ساشكا يدَ الشكَّاءِ الباردة، احتفَظَ بها في يده قليلاً، وانطلق مُسرِعاً إلى الشارع. اقتحم الهواءُ البارد رِئتَيْ ساشكا ليرفع وتيرةَ الدُّوَار في رأسه. حاوَلَ استنشاقَ دفعاتٍ متوالية من الهواء تَفادياً للتقيُّؤ والسقوط مُغْمى عليه هنا.

شعر بتحسُّنٍ، فقال:

- «هيا نبحث عن كيشا، لا بد أنه في حالة سيِّئة».

بادَرَ الكلب قائلاً: «هو المذنب..».

صاح ساشكا: «ليس مذنباً. ما أدراه أن الشكَّاء سيسقط؟! كنا، أنا وكيشا، نشتري له الأدوية، ونسرق المالَ لهذه الغاية! كنَّا مجموعةً مُتعاوِنة!»

أكَّد مكسيم: «ولا سيما صداقتك أنت وليوفـا». ثم غادَرَ.

- «ليتني أقتلك!» وتناوَلَ ساشكا مسدسه، لكنه تَذكَّرَ خُلوَّه من الطلقات.

كان كيشا مُستلقِياً في الخيمة، يُدِير وجهَه للحائط ولا يزال يرتجف.

وضع ساشكا يده على كتفه قائلاً: «كيشا! لستَ مذنباً. لعلَّه تعثَّرَ، لَسْتَ مَن دفَعَه!»

- «كلَّا، بالتأكيد. لقد فاجَأَتْه النوبة». وأجهَشَ كيشا بالبكاء. «لم أستطِع الإمساك به، وقَعَ وتدحرج باتجاهِ الحافة بسرعة. هذا كل شيء. لماذا أخذتُه معي؟! فهو لم يَتعافَ بعدُ منذ النوبة الأخيرة. لقد أردتُ جمْعَ الطلقات! نَتِنٌ أنا، أليس كذلك؟»

- «نعم، كيشا، أنتَ لستَ نَتِناً. لم تَتعمَّد ما حدث!» تنهَّد ساشكا قائلاً: «قد يكون شيز على حقٍّ، وما أصاب كوستيا خيرٌ له. فمَن يحتاج إليه؟ كان كونكوف يُوسِعه ضرباً، ومات أوليغ، ثم هذا الصَّرَع الذي يَعْتريه، شيءٌ مُؤلِم. الآن، لم يَعُد هناك ما يُؤلِمه. أنا، يا كيشا، أحياناً أتمنى أن أموت؛ فلا أعود أرى شيئاً، ولا أحس بشيء».

الْتَفَت كيشا نحوه.

- «كُفَّ عن هذا؛ إذا مُتَّ، فلن يبقى في مجموعتنا غير المشوَّهين. صَدِّقني، لم يَسْبق لي أن أحسَسْتُ بمثلِ هذا البُؤْس! لَكَمْ تَمنَّيْتُ الموت!»

تنهَّد ساشكا وقال يَغصُّ بكلماته: «لقد رأيتُ كرايف ميِّتاً».

تساءل كيشا: «والِد كاتيا؟»

- «أجل. آخِرُ رجلٍ طيبٍ في هذه المدينة».

ردَّد كيشا كالصدى: «آخِر رجلٍ طيب. كنا نشرب الشاي معاً أثناء مَرَضك. كان مُهتماً بمعرفةِ تفاصيلِ حياتنا. وكان يَستغرب كيف نخدم نحن الشبَّان الأسوياء في قُوَّات المغاوير! آه، يُؤسِفني وضْعُ كاتيا».

قال ساشكا: «لم أكن أُدرِك يوماً أن الحربَ قَذِرةٌ إلى هذه الدرجة».

أيَّدَ كيشا كلامه قائلاً: «كلها إزعاجات! سأجمع المالَ لأشتري مزرعةً وأُربِّي الأغنام. لعل ذلك أكثر أمناً».

ظلا مُستلقِيَيْن طويلاً. تحدَّث كيشا عن تفاصيلَ جديدةٍ في موت الشكَّاء تتخلَّلها ذكرياتٌ عن كاتيا، حتى فرغ ممَّا يُثقِله ونام. تزحزح ساشكا إلى المكان الذي كان ينام فيه الشكَّاء، اندسَّ تحت غطائه وشعر بفراغٍ غريب. «لقد رحل كوستيا، وبقي غطاءُ سريره، ومَطَرتُه، وتَبْغُه الرخيص. الأشياءُ أطولُ عمراً مِنَّا! كم فرح الشكَّاء والجقل لأنهما سيُشارِكان في المعارك. لقد رحلا الآن، وما زلتُ حياً، بالرغم من أنني لم أحلم بهذا المكان. مهما يكن، فيا لها من شيءٍ غير عادل، هذه الحياة!»

22

صباحاً، انطلق الجميعُ لتمشيطِ المواقع. أعطى شيز لكلٍّ منهم قنبلةً يدوية واحدة ومخزنَ طلقات.

شرح لهم القاعدةَ البديهية: «عند دخول الملجأ اجعَل السبطانةَ أمامك، ثم ادخل بخطمك. لكن، إذا كان أحدٌ هناك فَارْمِه بقنبلة».

مرَّ خلف الخيام شابٌّ ضخم، أسودُ الشعر.

حدَّث ساشكا نفسَه: «الغوريلّا، هنا أيضاَ. هوايته جمْعُ الأسرى. سيَشْتهون القنبلةَ بدلاً من الوقوع في قبضتَيْه».

بالرغم من أن مجموعة ڤـورونتسوف أقلُّ المجموعات عدداً، كان من نصيبها عِدَّةُ أقبيةٍ صغيرة مع مَمرَّاتها. سار ساشكا وكيشا معاً، يَرْكلان الأبواب، ويُطلِقان النار عبر الظُّلْمة تَوخياً للحَذَر. يسير الكلبُ وراءهما وبيده الفانوس. جينكا وڤيتكا يقومان بالتغطية من الخَلْف. بعد عشر دقائقَ اطمأنَّ كيشا، فراح يتقدَّم كيفما اتفق.

- «لا يُمكِن أن يكون أحدٌ موجوداً هنا. مَن سيدخل الملجأ؟! كلَّا، يَختبئ الأوباش في الهنغارات. أمَّا الممرات، فللتمويه فقط».

قال ساشكا مُحذِّراً: «انتبه، يا كيشا، فقد تُقتَل هنا».

تبيَّنَ أن أحدَ الأقبية كان مأهولاً منذ زمن قريب؛ حيث وجد الشباب فيه بقايا موقد، وقِدراً صغيرة، وزجاجةَ كحول.

خمَّنَ كيشا: «إنه مشروب مصنوع من الذُّرَة الصفراء».

- «حَذارِ أن تشرب؛ فقد يكون مسموماً».

- «لستُ مضطراً لتناوُلِ هذه الأشياء اللعينة! دَعْنا نبيعها للخل، فلا أسَفَ عليه إذا مات».

تمتم ساشكا: «كم تحب قادتك! تقدَّمْ بحَذَر، فقد يكون صاحبُ الموقد في مكانٍ قريب».

قال الكلب داعماً موقف ساشكا: «يَكفِيكم ما أصاب أوليغ والشكَّاء، لقد دفعَت مجموعتُكم ضريبةَ الحرب».

قال كيشا بضجرٍ: «لا يهم». واندفع إلى الممر التالي. «أرأيت؟! لا يوجد أحد».

في تلك اللحظة، انزاح ظلٌّ كبير عن الحائط؛ رجلٌ دفَعَ بكيشا بعيداً وانقضَّ على ساشكا والكلب، لكنه لم يُفلِح، فسرعان ما رُدَّ إلى الظُّلْمة بطلقةٍ صائبة من ڤـيتكا.

قال جينكا آمِراً الكلب: «سَلِّطْ عليه الضوء!»

وجَّهَ الكلب المصباحَ إلى عمق القبو. القتيل شابٌّ في الثلاثين من عمره، يرتدي بزَّةً خضراء داكنة، وشرائطَ بيضاء فوق ياقته.

قال ڤـيتكا: «هذه روحٌ جديدة ستُولَد اليومَ. لن تَطولها يدا العقل الأسود. هذا شيءٌ مُفرِح».

نهض كيشا المذعور واقفاً.

دفعه جينكا بأخمص البندقية قائلاً: «أراك تَفاجَأْت يا يانسِن! دَعْنا من ارتجالك، هيَّا!»

في المقدمة الآن ساشكا والكلب. الملاجئ الباقية كانت خالية؛ لم يجدوا فيها شيئاً غير الأغطية المَرْمية على عَجَلٍ، والمَطَرات والذخائر. غادروها بعد نصف ساعةٍ. زمَّ ساشكا عينَيْه إذ داهَمَه ضوء النهار، واتكأ على الحائط. بجواره، كان كيشا يتمايل مُحمَّلاً بالمَطَرات، يلفُّ جسمَه ببطانية بَدَا له أنها جديدة، ويُقرقِع بذخيرةٍ من الطلقات التي ملأت جيوبه.

- «جمَعْنا كميةً لا بأسَ بها. من الجيِّد أن ذاك المعتوه لم يقتلني!»

- «استعمِلْ للتفكير ما ينبغي استعمالُه لهذا الغرض».

وافَقَه الكلب قائلاً: «صحيح يا إنوكينتي، ما كان أضرَّك بعض الضرب. لكن صديقَك السريع الانفعال، قد يلجأ مجدداً للتهديد بالسلاح، وهو الآن يحمل رشَّاشاً بيده؛ لذا سأنزوي بعيداً».

مساءً دعاهم الرائدُ لاجتماعٍ طارئ، ليثني على تنفيذ المهام.

- «قريباً ستنتهي الحرب بالنسبة لنا، يا أصدقاء. وَلْيتابع الجيش هذه الحرب. لا بُدَّ من الإشارة إلى أن المجموعات المقاتِلة على الجبهة الجنوبية الغربية، التي تدافع عن «الحصن الفضي»، مُنِيت بخسائرَ قليلةٍ. وآمل ألَّا تَتكبَّدَ مزيداً من الخسائر».

صاح كيشا فَرِحاً: «رائع! إذاً سيُغدِقون علينا الماركات، أليس كذلك؟»

قال ساشكا متجهماً: «بلى بالتأكيد. كان الشكَّاءُ يريد أن يشتري سكِّيناً».

طوالَ الفترة المتبقية من النهار، لم يتحدَّث ساشكا إلى أحد. صعد إلى الدور الثالث وراح يتأمل الغيومَ وهي تَتلبَّد في السماء. يتساقط الثلج. وفي

المساء بدأت العاصفة. كان الثلج يَصْفع الوجوهَ ويُغشي العيون.

تجمَّدَت أوصالُ ساشكا، فأسرع إلى الخيمة. هناك تجمَّعوا ومعهم الأرنب. كان ثَمِلاً، وظلَّ يطلب من كيشا المزيد.

- «أعرف، أنك لا تخلو منه أبداً. دَعْنا نحتفل باتِّصال جماعتنا المَغَاوِيل!»

قال كيشا بجفاء: «فَلْتَشترِ».

أطلق الأرنب شتائمَ، واشترى من كيشا ما جاء به من القبو، وخرج. لكنه عاد حالاً.

راح يجأر: «هناك إطلاقُ نال! يبدو أنهم جماعة إنسك!»

بالفعل، تناهى إلى الأسماع أصواتُ طلقات. اختطف الشُّبَّان أسلحتَهم وانطلقوا. عبَر شخصٌ راكضاً على مَقربةٍ منهم. أدرك ساشكا أنه غوغا من المجموعة المجاوِرة.

صاح جينكا وهو يُمسِك به من يده: «ماذا هناك؟»

- «هذا سيلوس، من مجموعة غوريلا، فقَدَ صوابَه! لقد أطلقَ النارَ على رِفاقه فقتلهم جميعاً، أوَّلهم غوريلا. ولا يزال مستمراً في إطلاق النار عشوائياً».

سُمِعت عِدةُ انفجارات، وسرعان ما ساد السكون. فكَّرَ ساشكا: «استخدموا القنابل. لربما كان شاباً طبيعياً في الماضي. خذ شيز، مثلاً؛ إذا خرج عن طَوْره، فلن يتوانى عن إرسالنا إلى جهنم. أو غير شيز».

وقف ساشكا بجانب الخيمة. «أنا نفسي لستُ بعيداً عن هذا. إن حدث شيء، فسأمسِك بسلاحي وأبدأ الرشَّ كيفما اتفق. وسيَتصدَّوْن لي بالقنابل أيضاً».

بدأ كونكوف، وكأنه قرأ أفكار ساشكا: «هكذا يا شباب! هذا ما يُصِيب كلَّ مَن يلجأ إلى السلاح بسبب التفاهات. يا للأسف على غوريلا! كان رجلاً كما ينبغي. بعكسكم، أيها المشوَّهون».

في اليوم التالي، صعد ساشكا مجدداً إلى الدور العلوي وراح يتأمل تساقُطَ الثلج الذي بات كثيفاً يَحُول حتى دونَ رؤيةِ المبنى المجاوِر. جلس ساشكا فوق حافة النافذة وأسدَل رجلَيْه خارجاً، وقد تراءى له وكأنه ظلّ

وحيداً في هذا العالَم. حدَّثَ نفسَه: «لا أحدَ أبداً. لا أحدَ ولا شيءَ أبداَ». هذه الأفكار أَدخَلَت إلى نفسه الهدوءَ والسكينة.

صراخٌ عالٍ أخرَجَه من ذاك الذهول؛ كان كيشا والكلب يتشاجران في الأسفل. فكَّرَ ساشكا: «ليكن، ليس هذا شأني! لقد تعبتُ من البحث عمَّن هو المُحِق».

مثل هذه الأفكار، كانت ستبدو للفتى يرخوف غريبةً وغيرَ معقولة. وتذكَّرَ ساشكا، كيف كان في الصيف فتى عادلاً، طيباً، ومَرِحاً، يرتدي بزَّتَه العسكرية النظيفة. كانت والدته تفتخر بابنها الرائع، ويرى فيه الجيرانُ مضربَ المثل لأبنائهم. وتَحلُم فتياتُ الحيِّ بالتقرُّب منه.

«كم كنتُ ساذجاً! لقد حشَوا رأسي بمعارف شتَّى؛ بالوطنية، ويعلم الشيطان بماذا أيضاً. ماذا بوسعي أن أفعلَ الآن بكل هذا؟ لم يُعلِّموني أيَّ شيءٍ نافع». أصلَحَ ساشكا وضعيةَ البندقية المُدلاة من فوق ظهره. «بل نسيت، لقد علَّموني كيف أُرسِل البشرَ إلى عالَم الغيب بهذه الآلة. بُورِكَت جهودهم. لطالما تَذمَّرْنا، أنا وإيليا في الفيلق: ماذا ستَنْفعنا فنونُ إطلاق النار التي لا جدوى منها، نحن حَرَس القائد الأعلى. لكن بالفعل، تبيَّنَ أنها الأكثر نفعاً. على الأقل، بالنسبة إليَّ. تفكير شيز في مَحلِّه؛ هناك هدفٌ ما من وجودي هنا، ترتيبٌ مسبق. لعلَّها مشيئةَ الله في السماء».

رفع ساشكا رأسَه وراح يُحدِّق إلى السماء. «غيوم وثلوج! مَن يَتحمَّل هذا المشهد المُضجِر ولا يهرب إلا أمثال شيز! أيُّ عاقلٍ يسمح بما يَجْري في مدينتنا؟ شيز يصلِّي، ويقول إن الله يرى كل شيء». تخيَّلَ ساشكا العالَمَ جبالَ غيومٍ تتشكَّل وتتغيَّر، تتساقط ثلجاً، تَنْظر إلى الأرض وتبكي.

- «هيه، تنظر إلينا وتبكي؟! لقد تأخرت!»

واصَلَ ساشكا صراخَه بعضَ الوقت، ثم هدأ، فقد أحسَّ بشيءٍ من الرضا. «لا جوابَ. لماذا العالَمُ لا يردُّ؟ كنت أعرف ذلك». مساءً قام ساشكا بمُقايضة الشمعة المتبقية لديه بعُلْبة سجائر من إنسك وجَدَها ڤيتكا في القبو أثناء التطهير. سرعان ما غادَرَ شيز فَرِحاً لممارَسة طقوسه، وانطرح ساشكا في خيمته تتملَّكه كآبةٌ غير مفهومة. جلس كيشا في إحدى الزوايا يجرع الماءَ من مَطَرة الشكَّاء، ويَتنهَّد.

قال الكلب: «يا لَلخاملين! مُصابون بعُقْدة الذنب».

رماه كيشا بمَطَرةٍ في يده وانكفأ جانباً.

- «آه، يا ساشكا! إن لم يُرحِّلونا غداً، فسأجَنُّ!»

ظلَّ ساشكا صامتاً، وهو يشعر بالشعور ذاته.

في اليوم التالي وصلت شاحناتٌ تَرجَّلَ منها رجالٌ عمالقة في لباسٍ مُموَّه، مُدجَّجون بالسلاح، كاد ساشكا يتوقَّف عن التنفُّس من جرَّاء منظرهم.

صاح جينكا: «يِرخوف، أَفِقْ. نستعدُّ للرحيل!»

انطلق الشبانُ بسرعةٍ جنونية يَجْمعون الخيامَ والعِتادَ ويقفزون إلى العَرَبات. كان واضحاً مدى سعادتهم لانتهاء المعركة.

سَرَّ إليهم الأرنب: «كل جَلِيح سيحصل على مائة مالك، والآخَرون على ثمانين مالك. أما مجموعة فولونتسوف، فستحصل أيضاً على مكافأةٍ لقاءَ القضاء على المَدلَّعة».

تنهَّدَ كيشا: «يا للخسارة! ليتني أُصِبتُ ولو بخدشٍ بسيط، ما داموا سيَدْفعون لقاءَ ذلك».

تضاحك ساشكا: «دَعْني أُطلِق النارَ على قدمَيْك».

شارَكَ مكسيم أيضاً بالحديث قائلاً: «أو أُحطِّمَ عظْمَ فَكِّكَ».

قال كيشا وهو يجلس في صندوق الشاحنة: «تباً لكما. متى سننطلق؟»

تحرَّكَت الشاحنات في رَتَلٍ بسلاسةٍ واختفَت في الزوبعة الثلجية.

قال الكلب: «أرجو ألَّا نَضِلَّ مدخلَ المدينة. يا لها من عاصفة!»

قال ساشكا: «لو كان الأمر بيدي، لَضَلَلْتُ مدخلَ مدينتنا عَمداً. تخيَّلْ أن نذهب جنوباً حيث الحياةُ مختلفةٌ. لا حربَ هناك، وتتعلَّم في جامعةٍ مجانية، وتُقيم في بيت بدلاً من المزبلة التي نعيش فيها». وأردف وهو يُقدِّم لفافةَ تَبغٍ للكلب: «والتبغُ هناك مزروعٌ في الشوارع».

قال الكلب بشرود: «لن يَكْفي ما لدينا من بنزين للوصول إلى هذه المدينة. على العموم، يا أَلِكساندر، هناك أفكارٌ غير مُلائِمة بدأت تُراوِدك مؤخراً. حَذارِ، فمكتب التحقيقات قد يهتمُّ بذلك».

- «يَأْنف رجالُ المكتب أن يَزُوروا في الأنقاض. قلتَ ذلك بنفسك، ديمقراطية».

أسدَلَ ساشكا قُبَّعته حتى أنفه تقريباً، وأسند ظهرَه إلى ستار العَرَبة، وتهيَّأ للنوم. كان كيشا يغفو على أحد جانبَيْه، ويغفو الكلب من الجهة الأخرى. كان المكان دافئاً بعضَ الشيء والشاحنة تهتزُّ بنعومة.

تقدَّمَ شيز حتى الحافة، كعادته قُربَ نهاية الصندوق، وراح يَرقب الستارةَ الثلجية. عندما كُبِحت الشاحنة بشكلٍ مفاجئ، لم يفهم ساشكا شيئاً، اعتقَدَ أنهم وصلوا المدينة. فتح عينَيْه بصعوبة، فوجد كلَّ شيءٍ على حاله. حجبَتِ العاصفةُ الرؤيةَ نهائياً. ضرب شيز بمؤخرة بندقيته، غيرَ مُتعمِّدٍ، زجاجَ النافذة خلف ظهر السائق فحطَّمه، فعبَّرَ عن استيائه بصوتٍ عالٍ.

سأل كونكوف بامتعاض: «لماذا توقَّفتم؟ هل رأى ڤـيتكا جنِّياً ما؟»

قال شيز: «هناك شبابٌ ببزات سوداء. لربما أصدقاء».

تَنهَّد الكلب قائلاً: «إنها هلوسات ڤيتكا».

قال شيز بأناةٍ: «لربما تعطَّلت إحدى شاحناتنا هناك في المقدمة». وغادَرَ العَرَبةَ حاملاً سلاحه. لحق به كونكوف وهو يُطلِق الشتائم.

اشتكى كيشا: «الثلج يُعمِي الأبصار. لا أحدَ هناك! لن أتحرَّك لأي مكان».

صاح جينكا آمِراً: «هيا، فَلْينزل كلُّ عناصر المجموعة إلى خارج الشاحنة». لعله حقاً قرَّرَ أن يحتلَّ مكانَ قائد المجموعة. «أوغاد يستمتعون بالدفء!»

راح الجميع يَنسَلُّون من العَرَبات بتراخٍ. راح ساشكا يَقفز ليُمرِّن قدمَيْه الخَدِرتين، فاستيقظ تماماً.

سأل الكلب ڤـيتكا: «أين رأيتَهم؟»

أشاح شيز بوجهه، وقفل راجعاً وهو يقول: «باتوا خلفنا».

كان الخَل آخِرَ مَن غادَرَ العَرَبة، وقد أدرك أنه لا مفرَّ من استلامِ زمام القيادة، فقال: «إذاً، سيَتَّجِه بُلَهاءُ مجموعةِ ڤـورونتسوف في الاتجاه الذي تراءت لهم فيه هواجسُهم، بينما سننتظرهم هنا».

اقتفى الشبانُ أثَرَ شيز، وهم يَكِيلون له السبابَ همساً على حَذَره.

توعَّد كيشا ڤـيتكا: «لو تبيَّنَ أنه يتخيَّلُ، فسنقتله».

ابتَعَدوا يتَّبِعون آثارَ عجلاتِ شاحنتهم مسافةَ خمسين متراً، والثلج يغطي حالاً الدربَ الذي سلكوه. اقترح ساشكا: «جينكا! هيا أطلِق النارَ في الهواء؛ إذا سمعوه فسيردون».

رفع كونكوف سلاحَه للأعلى وأطلق رشقة، وسرعان ما سُمِعت طلقاتُ الاستجابة من الطرف الآخَر.

جأر كونكوف: «أيها الشباب! أين أنتم؟»

وتعالى صوتُ الطلقات من كل صَوْب؛ من العَرَبة، ومن جهةٍ أخرى.

صاح ساشكا: «مُعاقون! ستُودُون بحياتنا!»

خمَّن كيشا: «هم يُطلِقون في الهواء. يعتقدون أننا ضللنا الطريق. يُخيَّل إلينا أنه إطلاقُ نارٍ من كل الجهات. يحدث هذا أثناء العواصف».

استمرَّ الهدوء بِضعَ دقائق، ظلَّ فيها الشبابُ واقفين يَتلفَّتون حولَهم، ثم بصق جينكا وقال:

- «لقد رأيتَ شبحاً، يا شيز، لا تُتعِب نفسك!»

طرَحَ شيز سلاحَه خلف كتفه، وقفل راجعاً إلى العربة.

هنا، تناهى إلى مسامع ساشكا أنينٌ خافت. أمسَكَ بكيشا من طرفِ كُمِّه وشدَّه جانباً.

تمتم كيشا: «إلى أين؟ سنَضِلُّ الطريق!»

وضع ساشكا إصبعَه فوق شفتَيْه، وتأبَّطَ ذراعَ كيشا في الاتجاه الذي سُمِع منه الأنين. بعدَ عدةِ أمتار تعثَّرَ ساشكا بالرجل المُلْقى أرضاً. بدا وكأنه لا يتنفَّس.

- «هذا لباسنا العسكري!» انحنى كيشا فوقه: «هل هو ميِّت؟»

- «يا شباب! هَلُمُّوا إلينا!» أراد ساشكا أن يُطلِق النار، لكن الشُّبان اقتربوا بسرعة.

تساءل جينكا بغير اكتراث: «أهي جثَّة؟»

- «لكنني سمعتُ أنينَه». أدار ساشكا الشابَّ تجاهَه بحذرٍ. وجهُه كان مُعفراً بالثلج، وسترته مُضرَّجة بالدم. أمسك ساشكا بيده، ثم قال: «يوجد نَبْض. إنه حيٌّ».

قرَّر جينكا: «إلى العربة».

تعاوَنَ كيشا والكلب في نقله إلى العربة، وقال ساشكا لجينكا:

- «لا أفهم شيئاً! لا يُمكِن أن يكونَ وحْدَه، كما أن إطلاق النار كان آتياً من عدة بندقيات».

- قال جينكا: «يُخَيَّل إليك». ودفعه في ظهره. «تحرَّك، هيا، لا وجودَ لأحدٍ هنا بعدُ».

عادت المجموعة إلى الشاحنة. وضعوا الجريحَ فيها، وركبوا أيضاً.

تفحَّصَ الكلب الجرح، وضمَّدَه بقدرِ ما استطاع.

- «أنا بالتأكيد لستُ خبيراً، لكنَّ وضْعَه خطير. إذا وصل حياً، يجب نقله إلى المشفى».

«إذا وصل حياً!» فكَّرَ ساشكا: «كيف ظهر هذا الشاب؟ من المؤكَّد أن أحداً كان يسنده أو يحمله. لماذا فرُّوا هاربين؟ هل اعتقدوا أن جنودَ إنسك هم مَن يُطلِق النارَ فتركوا الجريحَ وهربوا. قامةُ الشاب بطولِ قامتي، وهو خفيفُ الوزن. يبدو مُراهِقاً».

أبعد ساشكا الكلب بلباقةٍ، ليتفحَّص الجريح عن كثب. سُمِع أنينُه مجدداً، وفتح عينَيْه فجأةً، عيناه زرقاوان، مألوفتان. أوشك ساشكا أن يصرخ: «إيليا!» خلد الجميع للنوم، وظلَّ ساشكا ينظر إلى إيليا، الذي راح لتوِّه في غيبوبةٍ، بينما راحت الأفكار تتزاحم في رأس ساشكا.

فكَّرَ ساشكا: «هل عرفتَني؟ كيف وصلتَ إلى هنا؟ ولماذا ترتدي لباسنا؟ مَن الذي كان يُطلِق النار عليك، نحن أم جنود إنسك؟ أين اختفى مَن قادك إلى هنا، فأنت لا تستطيع التحرُّكَ وحدَك؟ إيليا، لا تَمُت، لا بدَّ أن نتحدَّث! هناك أشياء كثيرة لم أفهمها! لا تمُت، أرجوك!»

تناهى إلى ساشكا صوتُ كونكوف: «اخرس، يا يِرخوف. كفاك ترديد: لا تَمُت، لا تَمُت. ما حاجتُك إلى هذا المعوَّق؟»

قال الكلب، وهو ينحني فوق ستارة السرير: «إنه يحب الناس، فَلْيُجالِسه إذاً، بينما أنام قليلاً».

كزَّ ساشكا على أسنانه حتى لا يتكلَّمَ بصوتٍ عالٍ، كان عليه إعلامُ الجميع بأن هذا إيليا ڤيتروف، الخائن العميل، لكنهم لن يَنْقلوه حينها وسيَعدمونه في البَرِّيَّة. كان ساشكا يفكر في سِرِّه وهو يتأمَّل وجهَ صديقه السابق الشاحب: «إيليا هو سبب وجودي الآن في وحدات المغاوير. بالتأكيد، هناك في المشفى سيُحقِّقون معه؛ مَن هو؟ ولماذا هو هنا؟ ثم سيأتي دور المكتب الخاص و..». وهزَّ ساشكا رأسه، حتى لا ينخرط في تصوُّر ما قد يحدث لإيليا. لربما، يَستحقُّ إيليا ذلك؟ ولربما، يكون من الأفضل أن يُجهز عليه بيده، ثم يُخبِر الجميعَ بأمره. فكَّرَ ساشكا وهو ينظر إلى إيليا عبر شُعيرةِ تحديدِ الهدف: «إلى تلك النقطة بالذات، فوق عينَيْك. ستَنطلِق الرصاصةُ وتُحِيل خلايا دماغِك إلى مَزيجٍ لَزِج. تُرى، هل كنتَ ستستطيع أن تُطلِق النار عليَّ إذا كنتُ راقداً هكذا فاقداً الوعي؟»

تخيَّلَ ساشكا نفسه مكان إيليا، لكنه سرعان ما طَرَد هذا الهاجسَ الذي جعله يشعر بالاستياء. «لقد خُنتَنا جميعاً، يا إيليا. كرايف مات، وكذلك أنا يُمكِن اعتباري ميِّتاً. كل ذلك بسببك. وضْعُكَ أيضاً لا تُحسَد عليه. هربتَ، وصِرتَ من جماعةِ إنسك الأنذال. وما الذي تَغيَّرَ؟ كان يُمكِن أن نظلَّ طَلبةً في الحربية، ولا نشارك بالمعركة، ونبقى فَخْراً لمدينتنا، وأملها الكبير. أمَّا الآن، فأنت أسيرٌ على وشك الموت، وأنا عنصرٌ من المغاوير؛ أيْ سافلٌ ووَغْدٌ. وخفَضَ ساشكا السبطانةَ إلى قصبةِ أنف إيليا، حيث الندبة التي خلَّفَها ارتطامُ وجهه أثناء التزلُّج في ذاك الشتاء. بالتحديد عندما كان الموت يحصد الشبابَ في الأنقاض الجنوبية بالمئات بسبب الإنفلونزا. في ذلك الوقت لم يَكُن هو وساشكا يعرفان بذلك. كانا سعيدَيْن بالشتاء الاستثنائي البارد، بفرصة التزلُّج الحقيقي والتراشُق بكرات الثلج. انزلق إيليا، آنذاك، فجُرِح أنْفُه وحاجبه. انبجَسَ الدمُ مُباشَرةً، وانخرط الاثنان في ضحكٍ متواصل لم يَستطيعا الخَلَاصَ منه. لعله شيءٌ مضحك أن ينزلق الإنسان من أعلى التلة وقدماه نحو الأمام، ثم ينقلب مندفعاً على وجهه. مساءً راحت والدةُ ساشكا تُنظِّف جرحَ إيليا وهي تَتأسَّف عليه. واقترحت تطهيرَه بالمعقِّم الأخضر، لكنه رفض؛ إذ خَشِي أن يسخروا منه في الفيلق حين يَعُود وأنفُه أخضرُ كأحمق. ليلاً، بعد أن خلد إيليا للنوم، بحَثَ ساشكا عن المعقِّم الأخضر ومسح به أنفَ إيليا وحاجبَه. وفي الصباح، ظلا يركضان في البيت يقهقهان، حتى أمسَكَ به إيليا وانطرح فوقَه يطلب منه أن يَعتذِرَ إليه، فيضحك ساشكا ويَعتذِر، ثم يضحك ثانيةً.

اهتزَّت الشاحنة، فانزاحت السبطانة عن أنف إيليا. أفاق ساشكا وتلفَّتَ حوله بدهشةٍ ليرى جينكا يُحدِّق إليه بعينَيْن واسعتَيْن. بلع كونكوف ريقَه، ودون أن يُزِيح نظرَه عن البندقية، قال بتوتُّر بالغ:

- «لا تفعل ذلك ثانيةً. أنت مُخطِئ».

أنزَلَ ساشكا سلاحَه، وأومأ برأسه واستند إلى حافةِ العربة، وراح مجدداً يُفكِّر: «لم يكن بمقدور إيليا أن يَعلَم أنهم سيطردونني من الفيلق. لا بُدَّ أن نتحدَّث. يجب أن نوضِّح كلَّ شيء. من السهل أن أقتله بالرصاص، وأستطيع القيامَ بذلك متى شئتُ».

- «ساشكا!»

ونظر ساشكا إلى جينكا.

- «دَعْني أحملُ سلاحك».

فكَّر مخاطباً نفسه: «يخشى أنني أُصِبتُ بالجنون. هو مُحِقٌّ تقريباً».

ثم رد: «أنا على ما يرام».

قال كونكوف: «حاذِرْ». كمَن يُخامِره الشكُّ.

كانت الشاحنة تسير عبر السهوب المتجمِّدة، والشباب نائمون.

أمسك ساشكا بيدِ إيليا، وجَسَّ نبْضَه. «فقط، ابْقَ حياً، سنتحدَّث ونوضِّح كل شيء، أنا لستُ حاقداً عليك تقريباً، لم يكن بمقدوري قتلك. مَنْ يُصدِّق أنني كنت سأنظر إليك من خلال آلية التسديد. فيما مضى، كانت فكرةُ إطلاق النار عليك وكأنني أُطلِق النارَ على نفسي. لقد كنَّا أُخْوة، يا إيليا. الآن أنت عدوٌّ. عدوٌّ؟ كيف تَجْرؤ! لربما، آنذاك في البَرِّيَّة، أردتَ قتلي، فقط خانَتْك عزيمتُك؟»

شقَّقَ إيليا عينَيْه مجدداً، ونظر إلى ساشكا.

قال ساشكا هامساً: «هذا أنا. إيليا، هذا أنا، ساشكا يِرخوف. أتَسمَعني؟»

طبعاً، إيليا لم يعرفه، فهو على الأغلب لا يدرك مكانَ وجوده. حلَّ ساشكا سترةَ إيليا ورأى الضمادَ مبللاً. انتابه الرعب فجأةً. تهيَّأ له أن هذه

الدماء تَقطَر منه هو، وليس من إيليا، ولن يعيش بعد ذلك سوى ساعاتٍ معدودة.

أخيراً وصلَت العربة إلى مركز الانطلاق. حدَّثَ ساشكا نفسه وهو يقفز إلى الخارج من العربة: «وهكذا انتهت المعركة! لماذا هاجَمَنا جيشُ إنسك؟ لماذا احتلوا مَخْفرَنا الجنوبي؟ لقد هُزِموا على أية حال. ما حاجتهم للحرب؟» لم يَجِد أيةَ إجابات.

سارَعَ الشُّبَّان بتسليم أسلحتهم للرائد، وانصرفوا إلى مَقرَّاتهم. توجَّهَ جينكا إلى القيادة لاستلامِ المُخصَّصات المالية، وثبَّت شيز ما تبقَّى من الشمعة فوقَ صخرةٍ وراح يُصلِّي. أما ساشكا وكيشا فجلسا قُربَ إيليا، وذهب الكلب لإحضار نقَّالة المشفى.

قال كيشا: «لم يَسبق لي أن رأيتُ هذا الشابَّ من قبلُ، بينما سنُبتلَى الآن بنقله إلى المشفى».

- «نحن سنحمله؟»

- «كلَّا، ستنقله العربةُ إلى مستشفانا. خدماتُه جيدةٌ، وإن كانت مُكلِّفة».

- «أثناء مرضي عند كاتيا، تحدَّثوا عن مَشْفى حكومي هنا، كما أذكر. أعتقد، أنه مجَّانيٌّ؟»

أكَّد كيشا: «أجَلْ مجَّانيٌّ، لكنه يَقضي على مَن فيه. لا يذهب إليه إلا المتسوِّلون».

عاد ساشكا ينظر إلى إيليا ثانيةً. لا حاجةَ لأية وثائق في المشفى الحكومي، وهناك قد يكتشفون أنه ليس من المغاوير، وقد يموت قبل أن يعرفوا عنه شيئاً. خُيِّل إلى ساشكا أن إيليا مات حقاً، فأمسَكَ بيده مرعوباً ليدرك أنه ما زال حياً.

وصل الكلب مع مُمرِّض يرتدي مِئْزراً أبيض، فحملا إيليا بخِفَّة إلى النقَّالة ووضعاه في سيارة الإسعاف. كَمْ كان ساشكا يرغب في مُرافَقته، لكنه لا يملك الحُجَّة.

بادَرَه كيشا: «دَعْنا نذهب إلى البيت؛ سيبدأ جينكا توزيعَ الأموال. وحبَّذا لو نذهب إلى الحمَّام، فنستحمُّ ونغسل ملابسَنا، ثم نزور كاتيا».

- «كيشا، لن يكون بوسعي إخبارُها شيئاً عن أبيها. لربما لم تعرف بعدُ. لا أستطيع فعل ذلك».

قرَّر كيشا: «بالعكس، يجب أن نزورها؛ فقد تحتاج ووالدتُها لمساعدةٍ ما. إن لم نُساعِدهما نحن، فمَن سيفعل؟»

فكَّرَ ساشكا: «لا بأس. أولاً سنذهب إلى كاتيا، ثم نعرِّج على المشفى. لا بُدَّ أن أتحدَّث إلى إيليا، قبل أن يقع في أيدي المكتب».

23

كانت شقتهما باردةً جداً. أخبرهما الرجلُ المتسوِّل الذي يَقطن الأنقاضَ المجاوِرة، والمُوكل إليه حراسة المبنى، أنه لم يحدث شيءٌ يُذكَر في غيابهم. انبرى يُحدِّثهما: «طلبوا إليَّ أن أفتحَ لهم الشقةَ وهدَّدوني بالقتل، لكنني صوَّبتُ نحوَهم البندقيةَ التي سلَّمتُموني إيَّاها فوَلَّوا هارِبين. كما أتى صبيٌّ ما لبث أن غادَرَ. تقاضى الرجل ماركاً من كلٍّ منهما لقاءَ خدماته، وذهب ليُسلِّم البندقيةَ للخل.

أشعل كيشا الموقدَ مُستخدِماً بقايا الخشب والكرتون، وانشغل بتقويمِ مجموعة المسامير التي حملها من المعركة. فتح شيز جهازَ التسجيل، فانساحت منه موسيقى هي خليطٌ من صريرٍ وصأصأةٍ أشبه بزعيق الجرذان.

تمتم كيشا باستغراب، وهو يدق المسمار بلوح الآجر: «من أين جاء بهذا الشريط؟! بودي تكسيره، لكن شيز يُحسِن إخفاءَه دائماً. حمداً لله على أنه لا يُشغِّل المسجِّلة إلا نادراً.

استلقى ساشكا على أريكته، تلفَّعَ بالغطاء وأوشك أن ينام. دخل الكلب في تلك اللحظة وطلب مساعدتَه في نقلِ أمتعته إلى الغرفة التي كانت لأوليغ والشكَّاء في السابق.

تعمَّدَ كيشا التزامَ الصمت، في حين نهض ساشكا وراح يَجرُّ نفسَه لمُساعَدة الكلب.

في الشقة القديمة، حيث أقامت مجموعةُ الذئب سابقاً، كان رجالُ الخَل يعملون على قدمٍ وساق. تنهَّدَ الكلب بصوتٍ مسموع، ودخل إلى غرفته. ما لبث أنْ هرع من الغرفة شابٌّ نحيل يُدعَى «المبحوح» وهو يَفرُك أسفلَ ظهره، حيث تلقَّى ضربةً لتوِّه، وينوح:

- «لماذا يضربني ماكس! لم آخذ شيئاً تقريباً. أصلاً ظننتها أغراضَ الذئب».

في ذات الوقت أخرج الكلب من الغرفة صرتَّيْن غير كبيرتَيْن، ورماهما على الأرض، ثم دخل المطبخ.

قال غاضباً: «تباً! كادت أغراضي أن تُسرَق. عُدْنا في الوقت المناسب».

غادَرَ المبحوح المطبخَ بحكمةٍ إلى غرفةٍ أخرى في الحال.

أحضَرَ الكلب قطعةً من النايلون، بسَطَها في الممر وراح يُلقِي فوقَها الكتبَ من الخزانة، ساعَدَه ساشكا في حَزْمها وحملها فوق كتفه إلى الدور العلوي.

قال الكلب وهو يَترنَّح تحت ثِقَل حمله: «هؤلاء البرابرة! كيف لم يَدُرْ بخَلَدهم أن الكتبَ أفضلُ مصدرٍ للف السجائر؟! أمَّا النايلون، فسأضعه غطاءً إضافياً للنافذة، فوق الذي وضعه أوليغ، فأحتفظ بالدفء في الغرفة، ويسمح بمرور الضوء من أجل القراءة».

تساءل ساشكا: «من أين لكَ كلُّ هذه الكتب؟»

- «بعضٌ منها من البيت، والبعضُ الآخر اشتريته هنا. المشرَّدون يَبِيعونها أو يُقايِضونها مُقابلَ مائةِ غرامٍ من الكحول... مَصادِرُها مختلفة».

وضع الكلب الصرتَين على الأرض، وراح يرتِّب الأغراض في أماكنها، يساعده ساشكا في ذلك. تبيَّن، أن لدى الكلب كثيراً من الثياب، لا سيما الشتوية. أوضح مكسيم: «إنها من حياكة أمي». من بين باقي الأغراض، ميَّزَ ساشكا لوحةً جميلة في إطار، ومجموعةً للمكتب مُؤلَّفة من بقيةِ قلم رَصاص، ودفترٍ رثٍّ ومِمْحاةٍ جديدة.

قال الكلب شارحاً: «أحياناً أُدوِّن بعضَ الأفكار؛ لكيلا أنسى الكتابة، وربما أعجزُ عن التفكير أيضاً».

ما إن رجع ساشكا إلى غرفته، حتى سارَعَ كيشا بإعلامه أن ڤيتكا جاء إليه، ودعا ساشكا لإقامةِ صلاةٍ على أنغامِ موسيقى تطهيريةٍ لتمجيد العقلَيْن الأسود والنَّيِّر.

قال كيشا، وهو يحاول إصابة مسمار صغير: «لعلَّ غرفته قارسة البرودة؛ ولذلك يدعونا إليه عسى أن نُدفِئ الغرفةَ بأنفاسنا. إنه أحمق، خيرٌ له

لو أشعل حطباً، لكنه يُدرِّب روحَه على تحمُّل البرد».

سأل ساشكا: «وهل يمرض شيز؟»

- «مستحيل! مرةً واحدة فقط كاد يموت فيها من البرد في غرفته شتاءً. كنتُ حينها جديداً هنا. أخذه أوليغ إلى غرفته ووضعه في سريره. كان حينها قد بدأ بترتيلته «أوومـ... ـم». تجمَّدَ أنفُه وأذناه وظلَّ عَصِياً على المرض. كان أشدَّ جنوناً في السابق. أمَّا الآن، فحاله أفضل».

جاء جينكا إلى الغرفة، وبدا غاضباً.

قال بفظاظة: «أيتها البهيمتان، ما لكما تجلسان ها هنا، خذا نقودَكما واذهبا لاستلامِ المؤونة. لن أذهب بعد اليوم، لستُ بغلاً هنا».

ابتعَدَ جينكا، فتمتم كيشا قائلاً:

- «أصبح جينكا وَقِحاً! فيما مضى، كان يندفع بنفسه لجلْبِ المؤن، لا يَنبِس ببنتِ شَفة، كان يُلبِّي طلباتِ أوليغ كأنها أوامر. أمَّا الآن، فيَطمَح أن يُعيَّن قائدَ المجموعة». توجَّه الشابان شاتِمَين إلى محطة الباص.

في ساعةٍ متأخرة من المساء، دخل الكلب وبيده حقيبةُ ظهْرٍ قديمة، عسلية اللون.

قال: «هذا ما تبقى من أغراضِ أوليغ والشكَّاء. ماذا سنفعل بها؟ ليس بوسعي النومُ وهي على مقربةٍ مني».

اقترح كيشا: «لربما من الأفضل إعطاؤها لساشكا، ليس لديه الكثير من الثياب».

قال ساشكا وكأنه يصرخ: «لا أريدها!»

اقترح كيشا: «دَعُونا نبيعها للخل، أو لأي شخص كان، ونشتري بثمنها شاهداً نضعه على ضريح أوليغ؛ إذ إنهم سيَكْتفون بغَرْزِ عصا تَحمل تاريخَي الولادة والوفاة، ليس أكثر».

وافَقَ الكلب: «حسناً، لكنني سأترك الحقيبة هنا».

في اليوم التالي، استيقظ ساشكا باكراً جداً، مُدرِكاً أن أكثر ما يَتُوق إليه هو رؤية إيليا. عليه الذهاب لمُقابَلته قبل أن ينطلق الشُّبان إلى المقبرة.

انسلّ بخِفةٍ من تحت الغطاء، وارتدى ثياباً مدنية وخرج إلى مدخل البناء.

عند السُّلَّم كان ڤـيتكا شيز يغمس عوداً خشبياً في علبةِ دهانٍ أسودِ اللون، ويكتب على الحائط: «قسطنطين لوبيمكِن عام 170-195». وكتب اسمَ أوليغ بالأعلى، وإلى اليسار قليلاً أدرَجَ أسماءَ كل عناصر وحدة الذئب. آخِرُ كلماتٍ مكتوبة كانت الأقصَرَ: «الجقل. قُتِل في عام 190». تنهَّدَ ساشكا وتابَعَ طريقَه على درجات السُّلَّم وَثْباً.

كان المشفى في بناءٍ أرضيٍّ رماديٍّ قاتم. تطاوَلَت حوله شجيراتُ حور وبتولا عارية، وتوقَّفَت أمامه عربةُ إسعافٍ وحيدة. دفع ساشكا البابَ الخشبي ليَجِد نفسَه في ممر صغير فيه طاولةٌ قُربَ الحائط، تجلس خلفها امرأةٌ يَصعُب الجزْمُ بعُمْرها، مُنهمِكة في حياكةِ شيءٍ ما. ما إن رأت ساشكا حتى ألقَتْ ما في يدها، وتناوَلَت القلمَ مُباشَرةً.

- «هل جئتَ للمُعالَجة، أم لزيارةِ أحدٍ ما؟»

تحدَّث ساشكا، وهو يَتخوَّف من أن يسمع نبأَ وفاةِ إيليا: «بالأمس نقلوا جريحاً في صدره إلى هنا».

- «لا بأس أنك جئت. أنت قائده؟»

تمتم ساشكا بعباراتٍ لا معنى لها، لكن المرأة كانت قد نهضت، فأمسكت به من مِرفَقِه، وقادته قُدماً عبر ممراتٍ مُظلِمة، وهي تفتح باباً تِلوَ آخَر، إلى أن دخلا أخيراً إلى مكتب الطبيب.

قالت المرأة: «جاء هذا يزور المريض الذي خضع للعمل الجراحي». واختفت فوراً.

قال الطبيب: «رائع. اجلس لو سمحت».

جلس ساشكا وهو يحسُّ بقشعريرةٍ سَرَت في أنحاءِ جسمه.

- «أنا إيغور إيفانوفتش، وأنتَ ما اسمك؟»

- «ألِكساندر يِرخوف».

كتب الطبيب في دفتر: «سنكتب هذا إذاً. أأنت قائدُ هذا الشاب؟»

حاوَلَ ساشكا الإجابة، لكن الوقت لم يُسعِفه.

- «نجحت العملية، وترتَّب عليها أن تَدفع مجموعتُكم مبلغ سبعين ماركاً. أتدفع أنت، أم عن طريق الرائد؟»

سحب ساشكا النقودَ من جيبه على عَجَلٍ.

- «هذا جيد». تأكَّدَ الطبيب من الأوراق المالية وأودَعَها في جرَّار الطاولة. «لكن ما زالت لدينا مشكلةٌ بعد. مرؤوسك هذا، قد لا يعيش حتى بعد العملية؛ فهو بحاجةٍ إلى نقل الدم. وهذا مُكلِّف اليوم، لذا سنكون بحاجةٍ إلى استشارة الرائد. يعني، أننا سنُضِيف أعباءً مالية جديدة على حسابِ مجموعةِ ألكسندر يِرخوف».

- «لا حاجة إلى ذلك». أجاب ساشكا بسرعة. انتابه هلع شديد؛ فهكذا سيعرف الجميع أن إيليا ليس من عناصر المغاوير. «لا ضرورةَ لهذا، أنا لستُ القائد. هذا شقيقي، اندفَعَ للمعركة من تلقاءِ نفسه، ومن غير إذنٍ. قائدُ وحدتنا لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر».

قال الطبيب: «جيد جداً». ثم راح ينظر بإمعانٍ إلى ساشكا. «ما اسم جريحنا هذا؟»

أجاب ساشكا: «إيليا يِرخوف. أرجوك ألَّا تخبر الرائد بذلك، حتى لا يُعاقِبنا. سأحاول بنفسي تدبُّرَ الأمور المالية».

وقف الطبيب، وراح يَذْرع الغرفةَ ذهاباً وإياباً وهو يُشبك يدَيه خلفَ ظهره. ظلَّ ساشكا جالساً وقد جفَّتِ الدماءُ في عروقه من شدة الخوف. سيتَّصِلون من المشفى بالرائد الذي سيُخبِر مكتبَ الاستخبارات، ثم سيُلقَى القبضُ على كلَيْهما، فيُحقِّقون معهما ويُعدَمان رَمْياً بالرصاص.

قرَّرَ الطبيب أخيراً: «لا بأس، ما دمتما شقيقَيْن، فهذا سيُخفِّف الكثيرَ من المشاكل؛ إذ يُمكِن مُحاوَلةُ نقلِ الدم بشكلٍ مُباشِر، وستَتحمَّل فقط ثمنَ الجهاز. المبلغُ الإجمالي ثلاثُ ماركات. لن تَبْخلَ بالدم من أجل أخيك، أليس كذلك؟»

هزَّ ساشكا رأسَه بحماس، فتضاحك الطبيب.

- «اجلس هنا. سنُجرِي الآن التحليلَ لتحديدِ الزمرة الدموية».

انصرف إيغور إيفانوفتش، وانتاب الرعبُ ساشكا ثانيةً. وزَّعوا عليهم في الفيلق لوحاتٍ صغيرة عليها الزمرة الدموية وعامل الريسِس. حينَها لم يُعِر ساشكا أيَّ أهمية لذلك، ولم يسبق له أن سأل عمَّا نُقِش على لوحته. والآن،

من شدة ما تملّكَه من رعب، نسي ما كان في لوحته هو الآخَر. «إن لم تتوافق زمرتا الدم، فسيَطلب الطبيبُ إلى الرائد دفْعَ التكاليف وينفضح كل شيء. ماذا أفعل؟» وصلت الممرضة واقتادت ساشكا إلى غرفةِ المَخْبَر، وأخذت منه عينة التحليل. ظلَّ ساشكا جالساً، على سريرٍ مُغَطى بالمشمَّع، يُراوِده إحساسٌ بأنه خلال دقائق سيُولِّي هارباً. أخيراً عادت الممرضة برفقةِ الطبيب.

أخبره الطبيب: «زمرتا الدم مختلفتان، لكنهما صالحتان لعمليةِ نقل الدم».

ألبسوا ساشكا مريلةً بيضاء، تَفُوح منها رائحةُ الدواء إلى حدٍّ يثير الغثيان، واقتادوه إلى غرفةٍ للعمليات غُلِّفت جدرانُها بألواح السيراميك الأزرق الفاتح. وجعلوه يستلقي على السرير. وبينما راحت الممرضةُ تُخرِج أنابيبَ غريبة، جاؤوا بإيليا على نقَّالة. كان شاحباً مثل الطباشير. أشاح ساشكا بوجهه حتى لا يرى ما سيجري. كان خائفاً وحزيناً من أجل صديقه. وُصِّلت الأنابيب تجمع بينهما، فأشاح ساشكا بوجهه ثانيةً. فكَّر ساشكا: «أمرٌ غريب! أريدُ قتلك تارةً، وأرغبُ في إنقاذك تارةً أخرى! أحمق أنت، يا ڤـيتروف! كم أنت أحمق!»

أدرك ساشكا فجأةً أن إيغور إيفانوفتش، والممرضة، وإيليا، ينظرون إليه نظرةً غامضةَ المغزى.

سألته الممرضة: «هل تشعر بدُوَار؟»

أجاب ساشكا، وهو ينظر في عينَيْ إيليا: «كلَّا».

- «لم يَبْقَ سوى القليل».

كان الدم ينساب ببطءٍ عبر الأنابيب من ساشكا إلى إيليا.

فكَّرَ ساشكا: «الآن أصبحنا أخَوَيْن حقاً».

قال الطبيب منحنياً فوق إيليا: «أيها الصبي، أترانا أمامك؟ قُلْ أيَّ شيء».

ظلَّ إيليا صامتاً وعيناه مُعلَّقتان بساشكا. أدرك ساشكا الأمر: «لقد عرَفني!»

اقتادوه مُباشَرةً من غرفة العمليات إلى الشارع. قالوا إن بإمكانه الحضورَ يومياً، أمَّا اليوم، فمن الأفضل أن يبقى مستلقياً. اقترب ساشكا من

أحدِ محلات القطاع الخاص، فابتاع رغيفاً كبيراً من خبزِ الذرة الصفراء، وعاد باتجاه الأنقاض.

24

بادَرَه كيشا مُوبِّخاً: «أين كنت تتسكَّع؟ تهيَّأنا لزيارة أوليغ في المقبرة، ونحن لا نعرف لك أرضاً. بعثُ كلَّ الأغراض ونجلس هنا أنا وماكس في انتظارك مثل صيَّادَين في البَرِّية».

راح ساشكا يُبرِّر له: «لا بأس، لا بأس. لم أعتقد أنك ستُنجِز الأمرَ بهذه السرعة».

نفض كيشا يده: «ليس لديك ما تفكِّر فيه أصلاً. غير كاتيا، ربما».

صمت ساشكا، وأحسَّ فجأةً بالذنب؛ إذ لم تخطر كاتيا بباله قَطُّ منذ عَوْدتِه إلى المدينة.

كان ساشكا يعرف جيداً مقبرةَ الضباط؛ هنا يرقد جَدُّه، ووالدُه، وخالُه، وعددٌ من أصدقاء والده. سَلَك ساشكا والكلب وكيشا الطريقَ الرئيسية إلى المدافن.

قال كيشا: «هناك مدافنُ المغاوير، في عمق الزاوية. التربة هناك سيئة، أشبه بالمستنقَع. تقود الطريقُ المباشِرة إلى ورشةِ شواهد القبور. أعرف صاحبَ الورشة؛ طلب مني أن أعمل معه، لكنني في هذا المكان سأموت من الخوف ليلاً، أما هو فيُقِيم هنا في كشكٍ للحراسة ولا يأبه بشيء».

توقَّفَ ساشكا، ثم انعطف إلى ممر فرعي وتوجَّهَ إلى شاهدٍ رمادي معهود، وتَبِعه الكلب بشكلٍ عفوي.

جأر كيشا من المقدمة: «أين عَلِقتما أيها المُغفَّلان؟»

التزم ساشكا الصمت، وأجاب مكسيم وهو يَتمعَّن في المدفن:

- «كُفَّ عن الصِّيَاح في أرجاء المقبرة، يا إنوكينتي، هذا غير لائق».

نظر ساشكا إلى الكلب بامتنان.

- «هنا يرقد والِدِي أَلِكساندر يِرخوف، وهناك على مسافةٍ أبعدَ قليلاً، حيث الجزء القديم، يرقد جَدِّي أَلِكساندر يرخوف».

قال الكلب بشرود: «إنك تَنحدِر من سلالةٍ عسكرية! أنت سليلُ ضبَّاطٍ!»

عاد كيشا إليهما.

- «ما الأمر؟ هل سيَطُول بكم المقامُ هنا؟»

قال ساشكا: «فَلْنذهب». دون أن ينظر إلى الضريح. وحدَّث نفسه: «ما الذي جاء بي إلى هنا؟ هل لأقول لأبي إن أمي ماتَت بسببي؟ من حسن الحظ، أن الأموات لا يعرفون شيئاً». ذهبوا إلى الورشة. ظلَّ كيشا طويلاً يتَّفِق مع العجوز على صنعِ الشاهد لقبر أوليغ، أو ربما كان يثرثر معه. بينما جلس ساشكا والكلب على السُّلَّم يتبادلان أطرافَ الحديث.

- «وأنت يا ماكس، أين أبوك؟»

هزَّ الكلب كتفَيْه.

- «لم يَتسنَّ لي أن أتعرَّف على هذه الشخصية العديمة المسؤولية؛ فقد اختفى حالما علم أن حضرتي أنوِي القدوم إلى هذه الدنيا. فعِشت في كَنَف جَدَّتي؛ كانت امرأةً حكيمة، مُتعلِّمة، تُحدِّثك عن كل شيء دون الرجوعِ إلى الكتب. لكنها ماتَت باكراً، فاضطرت أمِّي أن تُبتلَى بي وحْدَها».

- «كيف أَذِنت لك بالذهاب إلى الأنقاض؟»

- «إنني ولدٌ بالغ، كما أن النقاش معي صعب، إذا ما قرَّرتُ شيئاً. هل كانت ستربطني؟!»

تعجَّبَ ساشكا: «أَلَا ترغب في العودة إلى البيت؟»

- «وما الفائدة؟ ليس هناك فَرْق، يا ساشكا. فمدينتُنا كلُّها عبارة عن أنقاض. لكن هنا يبدو ذلك واضحاً وفظاً، أمَّا في المركز فالأنقاضُ مَطْليَّة ومُمَوَّهة».

قال كيشا بحماسٍ وهو يقف على مدخل الورشة: «هيا بنا. لقد اتفقنا. غداً سيَضع الرجلُ الشاهدَ بنفسه. فَلْنَزُرِ الضريح. اشتريتُ مشروباً من الرجل».

بالفعل، كان قبر أوليغ في الزاوية الأبعد من المقبرة. وهناك، بالفعل، عصا عليها لوحةٌ بلاستيكية. تمعَّنَ ساشكا فيها، وبشكلٍ عفوي حسَب السنوات

التي عاشها أوليغ؛ ثمانية عشر عاماً وعشرة شهور. جلس كيشا القُرْفصاء، ثم نَزَع سِدَادةَ الزجاجةِ بأسنانه، وجرع منها. قطَّب وناوَلَها إلى ساشكا. أخذ ساشكا عدةَ جرعات، فانتابَتْه مُباشَرةً نوبةُ دُوَار.

- «ماكس، خُذْ».

أخذ الكلب جرعةً أيضاً، وتنهَّدَ.

- «نخْبُ أوليغ. كان رجلاً طيباً. من النادر أن نلتقي بأمثاله في جُحْر الجرذان الذي نسكنه».

من جهة الممر الرئيسي، لاحَت قامتان تقتربان. تمعَّنَ ساشكا فيهما، فرأى امرأةً سمينة ترتدي مِعطَفاً رمادياً، ومعها صبي صغير في سترة قصيرة وجزمة من الكاوتشوك، يمشي وهو يدسُّ يدَيْه في جيبَيْه، ويركل ما يُصادِف قدمَه من العُلب المعدنية الفارغة. ثم رفع رأسَه باتجاهِ الشُّبان وصاح بأعلى صوته:

- «كيشا!»

الْتَفَت كيشا، وأوضح لساشكا:

- «إنه پـاڤـْلِك، شقيقُ أوليغ. ويبدو أن تلك هي والدتُه».

لم يكن پـاڤـْلِك يُشبِه أخاه الأكبر؛ كان نحيلاً بعينَيْن زرقاوَيْن خائفتَيْن، ووجهٍ شاحبٍ حتى الزُّرْقة. تخطَّى أمَّه وركض باتجاه كيشا وسارَعَ بالقول:

- «تريد أمي أن تُرسِلَني إلى ميتم الجيفيين. لا أريد ذلك. هناك يضربون الأطفالَ ويبعثونهم إلى الحرب. ابنُ جيرانِنا بيتكا فانفجَرَ به لَغَمٌ. أنا خائف! خُذْني معك إلى المغاوير».

قال كيشا: «أنتَ ما زلتَ صغيراً! لن يسمحوا بذلك».

اقتربت والدةُ أوليغ، ودُهش ساشكا؛ كم بَدَت مُسِنَّةً وبَشِعة، ذات وجهٍ منتفخ، وشعرٍ وَسِخ مربوط برِباط رخيص. تَفُوح منها رائحةُ كحولٍ كريهة وشيءٍ محروق.

قال الكلب بصفته الأكثر ثقافةً: «مرحباً».

لم تُجِبْه المرأة. كانت تنظر إلى الزجاجة في يدِ ساشكا، ثم تقدَّمَت فاحتضَنَتْه وتعلَّقَت بكتفَيْه وراحت تتضرَّع:

- «بنيَّ، أحتاج جرعةً. ألمَّتْ بي مصيبة! قُتِل ولدي... ولو جرعةً واحدة..».

تشنَّجَ ساشكا. انتفض وأبعَدَ يدَيْها عنه.

قالت: «أعطِني، أرجوك، أنت شابٌّ طيب».

اقترح الكلب: «ما رأيُكَ أن نغادر، يا ساشكا؟ لقد أمضينا هنا بعضَ الوقت، يكفي هذا».

ما تبقَّى في قعر الزجاجة راح يتراقص بالتناغُم مع ارتعاشِ يدَيْ ساشكا.

تذكَّرَ ساشكا الصِّبْية في ستراتهم الحمراء؛ كانت أعمارُ أصغرهم تتراوح بين سبع وثماني سنوات؛ أيْ بعمر پـاڤـْلِك. سبع سنوات! سن الالتحاق بالصف الأول في المدرسة. على الأغلب، لن يدخل پـاڤـْلِك المدرسة، لن يدخلها بسببِ هذه المرأة المُدمِنة على الكحول ذاتِ المِعطَف الرمادي. عضَّ ساشكا شفتَيْه كي يَكتمَ صُراخَه. كي لا يصرخ مُجدداً؛ لأن ما يحدث ليس عدلاً؛ ليس عدلاً أن تموت أمُّه، وتظل هذه المرأةُ البدينة على قيْدِ الحياة! ليس عدلاً أن يُقتَل أوليغ! ليس عدلاً أن تكون لأوليغ أمٌّ كهذه!

سمع ساشكا صوتَها المتوسِّل ثانيةً: «أَعْطِني، أَعْطِني جرعةً؛ أنا في محنة..».

ألقى ساشكا نظرةً أخرى على پـاڤـْلِك، ثم شرب ما تبقَّى في الزجاجة ورماها.

- «تعالَ إلينا، متى شئتَ. يُمكِنك العيش معنا. فَلْتذهب إلى الجحيم تلك الأمُّ التي تَبعَث بك إلى الألغام! هيا بنا، لنَبتعِد عن هنا».

نهض كيشا والكلب معاً، وتَبِعا ساشكا.

بعد عِدَّة أمتارٍ فتح كيشا فمه:

- «مهما يكن..».

جأر ساشكا: «اخرس! أمَا عاش الشكّاءُ معنا؟ فَلْيأتِ هذا كذلك! لو كان أوليغ حياً لما تَخلَّى عن صبي صغير كهذا! أمَّا هي... فإنها سافلة!»

قال كيشا حانقاً: «كنتُ مثلَك سأدعو پـاڤـلِك! ولكن لماذا أسرفتَ هكذا في الشراب؟ فقد عزمنا الذهابَ إلى كاتيا!»

أدرك ساشكا حقاً أنه ثَمِل بالفعل: «هذا ليس شأنك! ليس من شأنكما كم سأشرب! كنتُ سأُقتَل بسببكما! وما كان أحدٌ سيزور قبري. لأنني لست القائد! وأنت يا كيشا تَنْوي زيارةَ كاتيا؟ وما حاجتُها إليك، أيُّها المِغْوَار القَذِر! ستجد في المدينة رجلاً أفضلَ منك، أيها الجربان!»

ضاقت عينا كيشا من شدة الحقد. غَرَز يدَيْه بقوةٍ في سترة ساشكا، هزَّه بعنفٍ وألقاه أرضاً، وابتعد مُسرِعاً.

جلس ساشكا قائلاً: «فَلْتذهب، يا أحمق!»

أصلَحَ الكلب وضْعَ نظارته قائلاً: «ساشكا، لا تغضب. معك حق، فَلْنذهب إلى البيت».

نهض ساشكا مُمسِكاً بسورِ حدِّ القبور. استغرب وهو يشعر أن كلَّ ما حوله يدور. سار في الممر، وساعَدَه الكلب على الصعود إلى الحافلة، ويبدو أنه أوصَلَه إلى البناء، لكن ساشكا لا يذكر.

استيقَظَ في غرفة مكسيم الذي كان يأكل طعاماً مُعلَّباً.

سأل ساشكا: «أين كيشا؟»

- «ذهب إلى المدينة بعدَ أن أَمْطَرك بالشتائم. هل يُؤلِمك رأسك؟»

أجاب ساشكا مُقطِّباً: «كلَّا. شكراً لاستضافتي».

ذكَّرَه الكلب وهو يتابع تناوُلَ طعامه: «بالأمس، تشاجرتَ أنت ويانسِن».

دخل ساشكا غرفتَه، ثم أشعل الموقد وراح يُعِدُّ الشاي. فكَّرَ ساشكا: «كيشا، الأحمق، ذهب وحْدَه إلى كاتيا، تُرى عمَّا سيُثرثِر هناك؟ هل كنتُ سأرافقه لو لم نتخاصم؟» ثم أدرك أنه لم يكن ينوي الذهابَ إلى مركز المدينة، وكان لا يبالي بما سيقوله كيشا لكاتيا. كله كذب. لا يمكن البَوْح بالحقيقة. فكَّرَ بحقدٍ مفاجئ: «آه، كاتيا، كاتيا! كلكنَّ سواء! كلُّ ما يَشْغل بالَكُنَّ هو أن تَتزوَّجْنَ، ومِن بعدها فَلْيَكُن الطوفان. لا تُفكِّرين إلا في الحب. دائماً

تقول ساشِنكا، ساشِنكا... بينما لا يَرُوق لها أصدقائي. لا كيشا، ولا إيليا. إيليا! أتُدرِك أنك حطَّمْتَ حياتَك وحياتي؟ عَبَثاً تبرَّعتُ لك بدمي، فأنت كنت تنوي قتلي! سأذهب وأطلق عليك النار. ولماذا أفعل ذلك؟! بل سأُبلغ عنك المكتب، وأَدَعهم يَدقُّون عظامَك!» تكوَّرَ ساشكا، فقد شعر فجأةً ببردٍ شديد. صبَّ السائلَ الساخن وأطبق كفَّيه على القَدَح. «ليس لديَّ أحد. لا أحدَ ولا شيءَ. كان لديَّ أمي، وما عادت موجودة، وكان إيليا، ولم يَعُد كذلك». راح ساشكا يجرع السائلَ الساخن، ويشعر بالدفء والسكينة. «لا بأس، يا أنذال، عيشوا. أمَّا أنت، يا ڤـيتروف، فستَشْرح لي كل شيء. وأنا سأُقرِّر ماذا سأفعل بك. لن أذهب إلى كاتيا. مَنْ أنا بالنسبة لها؟»

عاد كيشا مساءً، سمع ساشكا وقْعَ خطواته، لكنه لم يَلْتفت نحوَه، وظلَّ يَتفرَّس في صورةِ دبَّابة على الجدار فوق سريره.

- «اسمع، يِرخوف، هناك على مَقربةٍ يَبِيعون حبوبَ الصويا بأسعارٍ رخيصة، دَعْنا نشترك ونَبْتاع بعضَ الأكياس، أو نشتري الجريش. عندما كنتُ أعيش مع والدي في المزرعة، كنا دائماً نتناولها مع لحم الغنم. يُباع لحمُ الغنم أيضاً، لكنه غالي الثمن هذه الأيام. لقد جئتُ بقِطَع من الكرتون من عند كاتيا، كي نُشعِل بها الموقد. بالمناسبة، كاتيا سألَت عنك؛ أين أنت، وغير ذلك. قلتُ لها إنك تكاسَلْتَ في المجيء اليوم. أَعْطَتني بعض الكرتون، وكانت حزينة. قلت لها: لا تحزني. كلنا سنموت. قُتِل بعض عناصرنا أيضاً. كانت ترتدي شالاً أسود، لا يليق بها أبداً!»

خشخش كيشا بالكرتون ورماه في الموقد. خلف النافذة تعالى صُراخُ شُبَّانٍ ثَمِلين. كان الاحتفال بالنصر على الجبهة الجنوبية مستمراً في المدينة. حدَّث ساشكا نفسه: «يتعاطى جينكا المشروبَ كالآخرين. وكيشا يثرثر بخصوص الجريش. وڤـيتكا لا بُدَّ أنه يُصلِّي. وكأنَّ الحرب لم تكن قَطّ. أمَّا الشكَّاء فلن يأتي أبداً ليُدخِّن سيجارة عندنا خفيةً عن أوليغ».

- «ما بك، ساشكا؟ أراك كئيباً! أنادِمٌ أنت لأنك لم تذهب إلى كاتيا؟»

اعترف ساشكا: «لا يَعْنِيني أمرُها».

- «أنت أحمق! حَذارِ، إن لم تذهب إليها، فستُغرَم بي. أنا أيضاً شابٌّ وسيم، لست بأسوأ من الآخَرين!»

نظر ساشكا إلى كيشا، وشعر برغبةٍ في الضحك.

قال ساشكا بحماس: «شابٌّ جميلٌ! ما شاء الله! بَطَل المغامرات النسائية!»

عاد ساشكا يشعر بالكآبة: «آه يا كيشا، كيشا! وما نَفْعُ الجمال؟ ها هو إيليا الوسيمُ حقاً، طالما كانوا يختارونه للتقدُّم في النسق الأول أثناء الاستعراضات. ماذا حلَّ به الآن؟ أُصِيب برصاصةٍ في صدره، وهو الآن راقدٌ في المستشفى وحيداً. وحتى أنا، الوغد، أذكره بالسوء. وقد يكون فارَقَ الحياةَ الآن».

نهض ساشكا، وراح يَذْرع الغرفةَ ذهاباً وإياباً بعصبية قائلاً: «بالتأكيد، إيليا مات. أيُعقَل أنَّ بوسعِ دمي إنقاذَه، إن لم تُنقِذْه العملية! بينما أنا المعتوه، أتساءل عما سأسأل إيليا، وربما لم يَعُد موجوداً أصلاً».

اقترح كيشا: «هيا نشرب الشاي. سرقتُ بعض الشاي من شيز بينما كان يَدْهن الجدار. تصوَّر، إنه أحياناً يُدخِّن الشاي بدلاً عن التَّبْغ. أيُمكِن أن يكون مَخْبولاً بهذا الشكل؟!»

صباحاً باكراً، نهض ساشكا محاولاً ألَّا يُوقِظ أحداً، وغادَرَ المبنى. في الأسفل، فوقَ أكياس الرمل، كان شابٌّ من وحدة الخَل نائماً بسلام. تضاحك ساشكا: «يا له من حارس فاشل!» قطع الطريق حتى المشفى راكضاً. كان خائفاً ألَّا تَتسنَّى له الفرصةُ لأن يرى إيليا، وأن يدفنوه في مكانٍ لا يعرفه. لسببٍ ما، كان ساشكا على يقينٍ من أن إيليا مات. تَبيَّنَ أن بابَ المشفى مُقفَلٌ، فراحَ ساشكا يَطْرقه بقبضته ثم بقدمَيْه.

أطلَّتِ الممرضةُ الناعسة على الشارع قائلةً: «ما هذا الضجيج؟ آه، أهذا أنت؟! المتبرِّع بالدم. هيا، ادخل. استعاد أخوك وعْيَه بالأمس، لقد تجاوَزَ مرحلةَ الخطر. لا يتكلَّم، ربما بسبب الصدمة الناتجة عن الإصابة. أترغب في زيارته بغرفته؟

أومأ ساشكا برأسه على عَجَل. ناوَلَته الممرضة الرداءَ الأبيض، ونعلَيْن رقيقَيْن، وقادته عبر الممر باتجاهٍ مُغايِر للاتجاه الذي سلَكَه أمسِ.

- «إلى هنا».

فتح ساشكا البابَ ودخل؛ فرأى غرفة صغيرة، بها سريران، تتوسَّطهما طاولةٌ صغيرة، وعلى أحد السريرَيْن يَرْقد إيليا تُغطِّيه مُلاءَةٌ بيضاء حتى ذقنه.

جلس ساشكا، قال وهو يلمس بحذرٍ يد صديقه: «إيليا! إيليوخا[25]، استيقظ، هذا أنا، جئتُ إليك!»

فتح إيليا عينَيْه.

بدأ ساشكا هامساً: «أفهم أنك لا تريد التحدُّث معَهم، تَخْشى أن يعرفوا عنك كلَّ شيء. أنا طُرِدتُ من الفيلق، اعتقاداً منهم أني شريكك. إيليا، عليك أن تشرح لي كلَّ شيء!»

تناهى إلى سمعه وقْعُ خطواتٍ عبر الممر، فصمت ساشكا. كان إيليا يُحدِّق في وجهه. غاب صوتُ الخُطى، فتابَعَ ساشكا حديثه. كان مثل كيشا، يتحدَّث دون توقُّف:

- «إيليوخا، أَخبِرني بكلِ شيء، سأفهمك، كنا دائماً نُفضِي أحدُنا إلى الآخَر بكل شيء! أنا مستاء جداً لأنني لا أفهم شيئاً. بعدَ أن طردوني لجأتُ إلى وحداتِ المغاوير، وتوالَت أحداثٌ كثيرةٌ بعد ذلك، كلُّ حدَثٍ أسوأُ من سابقه! لم أكن أتصوَّرُ في حياتي أن هذا كلَّه يُمكِن أن يَحدُثَ لإنسانٍ واحد. لقد أردتُ قتْلَك، إيليوخا، كيف كان لذلك أن يحدث؟ لقد كنَّا أصدقاء، لماذا أفسدتَ كل شيء؟ ما العمل الآن، قُلْ لي؟»

ظلَّ إيليا ينظر إلى ساشكا، دون أن يُجِيب. خارج النافذة بدأ الثلج يتساقط من جديد، وأحسَّ ساشكا بالكآبة. ظلَّ إيليا صامتاً. في الممرِّ سُمِعت خُطَى الممرضات وحفيفُ أقدامهن وثرثرتهن.

استنتج ساشكا: «لا تريد أن تُكلِّمني، أبداً... وستكون نهايتك، حتى إنهم لن يُطلِقوا عليك النار، سيَكْتَفون فقط بضربةٍ بمؤخرة السلاح. لقد قدَّمتُ لك دمي لكي تبقى حياً؛ أصبحنا أُخْوةً الآن، أنت وأَنا».

أغمَضَ إيليا عينَيْه.

- «وداعاً، إذاً. أردتُ الأفضل. كنتُ أُومِن أنك بريء».

أبكم ولا مُبَالٍ، حاله كحال إيليا الآن.

أطرق ساشكا. يَبْدو أن الكلام لا يُجدِي شيئاً هنا كما لم يُجْدِ صُراخُه سابقاً وهو يَشْكو قَهْرَه للخالق. كلُّ شيء مُقدَّر سلفاً، كلُّ شيء يسير تَبَعاً لخطةٍ غامضة لم تَأْخُذ بعين الاعتبار أن ساشكا كائنٌ حي. مكتوب: «أنت ستَفْقد صديقك». والأصحُّ أخاك، ولن يكون بالإمكان تغييرُ شيء.

نهض ساشكا وغادَرَ.

غريبٌ أن كيشا والكلب كانا يَلْعبان الورقَ بسلامٍ وسطَ الصالة. تخطَّاهما ساشكا، وعرَّجَ إلى غرفةِ كونكوف. كان جينكا قد نقل سرير أوليغ، وفرش فوقه مُلاءةً مُخطَّطة وَسِخة.

- «يجب قَرْعُ الباب، قبل الدخول».

أومأ ساشكا برأسه وتكوَّرَ على نفسه. في غرفة جينكا صقيعٌ لا يُطاق، إنها لا تُدفَّأ أبداً. كالعادة، تَناثَرَت فوق الأرض القَذِرة بقايا أوراق الصحف والعيدان وسِدَادات من الفلين لزجاجات المشروب. كُدِّست الأمتعةُ في صندوقٍ خشبيٍّ، بينما غطَّى جينكا النافذةَ بقطعةٍ من النايلون دونَ أن يُفلِح في جعلِ المكان أكثرَ راحةً ودفئاً.

تعجَّبَ ساشكا، كيف يُمكِن العيشُ وسطَ هذه القذارة. وأكثر ما أثارَ استغرابَه هو وجودُ جينكا في البيت، وأنه ليس ثَمِلاً. فكلُّ الذين اعتادوا المشروبَ شربوا في هذه الأيام حتى الثُّمالة، لا سيما أن الدراهمَ التي وصَلَتهم بعد المعركة كافية لأن يبتاعوا الكثيرَ من هذا السُّمِّ القاتل.

- «ماذا دهاك؟! عمَّ تبحث؟»

- «هل لديك أي مشروب؟»

تضاحك كونكوف قائلاً:

- «أنتَ لستَ ممَّن يشربون، يا يِرخوف. على أية حال، لا يهمني الأمر، اشترِ إذا شئت».

تناوَلَ جينكا النقودَ وأخذ المَطَرة من الصندوق، سكب كأساً منها، وأعطاها لساشكا.

- «أَعِد المَطَرةَ. لا تَنْسَ! بالمناسبة، هذا ليس أيَّ مشروب، إنه كحولٌ ممزوج بالماء. جلَبْتُه لنفسي».

- «ولماذا لا تشربه؟»

- «لأني سأزور أهلي. وإذا شمَّ والِدي رائحتَه، فسيَمرض قهراً. فهو مُدمِن».

- «إذاَ، والِداك حيَّان؟

قال جينكا، وهو يدفع ساشكا خارجاً: «نعم. هيا، انصرف، وهل يَعْنِيك هذا؟»

وقف ساشكا عند الباب: «نعم، ولماذا لا تُقِيم معهما؟»

- «لا راحةَ لي معهما. دائماً يردِّدان: لماذا وُلِدتَ؟ لماذا وُلِدتَ؟... إنهما كالوحوش. هنا، أنا سيِّد نفسي. يكفي هذا، انصرف، وتجرَّع هذا السُّمَّ بعيداً».

- «أَلَا تُشارِكني؟ لا يَطِيب لي الشربُ بمفردي».

- «اذهب، اذهب. كان ليوفا يُقِيم معي، ويدعوني دائماً لمشاركته، وفي الصباح يُجهِز على الكحول بمفرده. لا يهمه شيء، وأنا الضحية. قد تكون أنتَ مِثلَه أيضاً».

عاد ساشكا إلى غرفته، جلس على سريره وبيده مَطَرةُ جينكا. لا يستطيعُ أن يفهمَ كيف لشخصٍ عنده أُسْرة، مهما كانت أوضاعُها، أن يُفضِّلَ التسكُّعَ هنا في الوَسَخ، يأكل الجرذان، ويسحب الجثامين من أرض المعركة! أهذه هي الحرية؟!

- «لَكنتُ هربتُ من هذه الحرية حالاً، وإلى غير رجعةٍ. ولكن، إلى أين؟» أخذ ساشكا جرعةً وقطَّب. «أمرٌ غريب! كيف يَكذب جينكا على والدَيْه ليُخفِي عنهما طريقةَ حصوله على المال؟ أَمْ أن الكذبَ هيِّنٌ عليه؟ لا أظن أني كنتُ سأجرؤ وأخدع أبي وأمي. هل أستطيع؟ كذبت على أمي مرَّةً واحدة فقط». كحول ممزوج بالماء، لكنه ثقيلٌ جداً. شرب ساشكا واستلقى على جنبه. قال في سرِّه: «سامِحِيني يا أمِّي، ظننتِ أنني ضائع وكنتِ قَلِقةً علَيَّ. لقد أحبَبْتِني دائماً. حتى إن إيليا كان يَحسدني على ذلك. الآن بيني وبينه عداوة. الكلُّ في اعتقاده، صاروا أعداءً له، فهو يتيمٌ مثلي». أحسَّ ساشكا بأنه ثَمِلٌ، لكن التفكير لم يُفارِقه. تذكَّرَ يومَ جاؤوا بإيليا إلى الفيلق، بعده بيومٍ واحد. يومَها ظنَّ ساشكا أن ڤيتروف أنانيٌّ ومغرور. يصعب على شخصٍ مثلِه أن يكون طبيعياً، ذلك مستحيل. لكنَّ إيليا أثبَتَ أنه طيِّبٌ ومَرِحٌ، ورائعٌ في كل شيء. تصادَقا على الفور، ولم يَفترِقا بعدها قَطُّ. ثم تَبيَّنَ أن إيليا وحيدٌ تماماً، ليس له أي أقرباء، وأنه جاء من دارِ أيتامٍ إلى الفيلق. أخبره إيليا: «لقد زارنا القائد، ووزَّعَ الحلوى على المتفوِّقين في دراستهم، ثم اقترب مني حارسُه الشخصيُّ وقال: لقد أعجِب بك القائد، وستُنقَل إلى سَرِيَّة المراسم. غداً ستَلْتحق بالفيلق».

هزَّ ساشكا رأسَه قائلاً لنفسه: «لا حاجةَ للتفكير بإيليا، هو الآن لا يرغب حتى في الحديث معي». اختفت تلك الأفكار، وشعر بالارتياح. تأمَّلَ ساشكا صورةَ الدبَّابة المعلَّقة فوق سريره، وتخيَّلَ أن إيليا يُلوِّح له بالسبطانة ويُحيِّيه، ثم يطل رأسُ كيشا من فتحتها ويصيح:

«الآن أنا صديقك، يا سانيوك، الآن لن أخونك أبداً!»

صاح ساشكا في سرِّه رداً عليه: «كيشا، أنت صديقي المفضَّل! سامِحْني!» وفوراً أدرك أنه صاح بأعلى صوته، وكيشا حقاً بجانبه.

تمتم كيشا مستاءً: «أنا صديقك، ولكنك مُدمِن كحول! بِكَمْ تشتري المشروب؟ يُمكِنني أن أبيعك مَطَرةً بخمسةٍ فقط، إن أردتَ. ما زال عندي».

لاذ ساشكا بالصمت، وأغمَضَ عينَيْه. وأخذه النعاس، وأحسَّ بأن كيشا أحكَمَ فوقَه الغطاء.

25

مرَّتْ عدةُ أيامٍ على هذه الحال، يستيقظ ساشكا في الصباح ويذهب إلى المحطة لشراء المشروب والسجائر. لا يَذكر شيئاً مما يحدث بعد الظهر. في صباح أحد الأيام، فُوجِئ بأنَّ دراهمَه نَفَدَت، وهو بحاجةٍ إلى المشروب. حدَّثَ نفسَه: «بكل بساطة، تشرب حتى الثُّمالة وتقضي النهارَ في النوم، فلا يُزعِجك أحدٌ ولا يُصِيبك شيء». فتَّشَ ساشكا في حقيبةِ ظهره، أخرَجَ منها قميصَه، ثم قبض على صَبيٍّ هزيل من المجموعة المجاوِرة. حاوَلَ الصبي التملُّصَ في البداية، لكن ساشكا ضربه على رقبتِه فرضَخَ الصبي لأوامره وذهب إلى الجيفيين وهو يُولوِل ويشتم. عاد بزجاجتَيْن خضراوَيْن لا يُعرَف ما بداخلهما. أخفى ساشكا إحداهما بعيداً عن كيشا، وشرب الثانية. كان ما بداخلها مُقرِفاً جداً. لم يَصْحُ ساشكا من غيبوبته حتى المساء. وجد نفسَه في غرفةٍ باردة لم تُدَفَّأ؛ ربما هي غرفةُ كيشا الذي لم يكن موجوداً طوال النهار. خمَّنَ ساشكا: «لعله ذهب إلى كاتيا». ونهض باتجاهِ أنابيب المياه ليشرب. في الغرفة الكبيرة، كان يجلس الكلب وإيديك الأرنب خلف الطاولة، فاستغرب ساشكا.

بادَرَه الأرنب: «أهلاً، يا صاحبي. هل تحتفل بالتَّصْل؟»

صحَّحَ الكلب عبارتَه: «بل بتَصيُّدِ الجراثيم المعوية».

قال الأرنب: «الكحول يقتل كلّ الجَلاثيم». ثم نهض قائلاً: «إلى اللقاء، سأذهب، فالتَّجْوالُ ليلاً في أدغالكم شيء مزعج».

بادَرَ الكلب: «جاءنا إيديك بشاب جديد. هو الآن عند الخَل. لا بأْسَ به، صاحب عضلات».

شرب ساشكا الماءَ الصَّدِئ الطعم، ثم غسل وجهه، وذهب إلى غرفته.

قال الكلب وهو يَتْبع ساشكا: «ذهب كيشا لزيارة الفتاة. وقد هدَّد بأن يُوسِعَك ضرباً لأنك لا تشتري المشروبَ منه، بل تأتي بمشروبٍ مُقزِّز من الجيفيين. لكنه يُشفِق عليك. هو منزعج طبعاً، لكن ليس بسببِ الدراهم فقط. على العموم، يُمكِن أن يضربك عاجلاً أو آجلاً».

تمتم ساشكا: «مَن مِنَّا الذي سيضرب الآخر».

- «كلَّا، يا سانيوك، أعتقد أنه يجب تأديبُك، وإلَّا قادَك المشروبُ إلى الجنون. أو ربما... إلى الموت. لا يجوز أن تتعامل مع جسمك بهذا الشكل».

- «وما حاجتي إلى هذا الجسم؟ ما الفائدةُ منه؟!» اقترب ساشكا من سريره، وفتح الزجاجة الثانية.

بالطبع، لم يستطع إن يشعر بعودةِ كيشا؛ إذ أطبَقَ عليه نومٌ ثقيل. لم يَحلُم ولم يَهْذِ. تلاشى كلُّ شيء حوله.

استيقظ ساشكا ظُهراً. ظلَّ مدةً طويلة لا يَقْوى على فتح عينَيْه. سمع صوتَيْن يتردَّدان في الغرفة، أحدهما صوتُ كيشا، يتكلَّم عن الدبابات، والآخَر كان يُجِيبه، لا يعرفه. أخيراً شقَّق جفنَيْه. كان كيشا مشغولاً بفكِّ جهازٍ مُعقَّد، وعلى مَقربةٍ منه جلس شابٌّ متوسطُ القامة، على وجهه ابتسامةٌ عريضة وله أنفٌ شامخ وعينان رماديتان ساخرتان.

قال كيشا: «ها هو ذا سانيوك يصحو أخيراً. عندما لا يكون مريضاً أو ثَمِلاً، فهو إنسانٌ رائع. رامٍ ماهر. رصاصتُه إلى الجبين مُباشَرةً. في المعركة الماضية قتَلَ حوالي عشرةً من جنود إنسك».

اقترب الشابُّ الغريب من سريرِ ساشكا، ومدَّ يده للتعارُف:

- «يورا روشِّيك. المقيم في البناء الثاني والعشرين».

أضاف كيشا: «لقد أُبِيدت مجموعتُه بالكامل».

مدَّ ساشكا يدَه المرتجفة بخمولٍ وصافَحَ الشاب.

تساءل يورا: «ماذا تعلمون عن ڤيتكا هذا؟ أرسلني جينكا بالأمس لأسكن معه. لقد تحدَّثْتُ إليه، كَمْ هو حَصِيف! يتحدَّث بغموض، كلَّمَني عن شيءٍ اسمه سيدهارتا، وعن روح الميت ليوڤـا، وكذلك... عن العقل الأسود! قال أشياءَ غريبةً عنك، يا ساشكا، لم أفهم منها شيئاً. هل هذا شيء طبيعيٌّ؟»

تمتم ساشكا: «طبيعيٌّ». وانطلق يغسل وجهه.

كان الماء بارداً جداً ومُنعِشاً، عندما يَضَع ساشكا كفَّيْه الرطبتَيْن على صدغَيْه، يشعر بشيءٍ من الراحة في رأسه فلا يعود الألمُ شديداً. بالرغم من طعْم الصدأ في الماء، جرع ساشكا عدةَ جرعاتٍ منه حتى شعر بتجمُّدِ أسنانه. أخيراً التفت ليجد ڤيتكا أمامه. كان شيز ينظر إليه مُكوِّراً عينَيْه.

قال بصوت بارد: «تصرُّفاتُك سيئة. ما دمتَ حريصاً على ضبابيةِ عقلك الباطن، فلن تتحرَّر أبداً من القدر الأسود، ولن تَتنوَّر روحُك. لقد أوشكتَ أن تبلغَ التجلِّي، لكنك الآن مشدودٌ إلى لُجَّةِ الطيش. لا يُبلَغ الخُلُود بالطرقِ السهلة. ما يَجْعلك تتطهَّر هو السَّقَمُ والصومُ والإقلاع عن التفكير. تذكَّرْ، ليس السهلُ هو الحقيقي».

قال ساشكا باستياء: «اسمع، يا شيز، أليس سواء عندك ما سيَؤُول إليه مصيري؟ الأجدى، أن تصبَّ لي مشروباً، أو تقدِّم لي سيجارة، فنتكلَّم حينها».

أجاب شيز: «كما الريح، تدفع الغيوم شمالاً وتدفعها جنوباً، ستَزِف لحظةُ الحقيقة والنقاء. هي آتية؛ بعد عشرين أو ثلاثين. بوسعك التفكُّر». وانصرف.

حينما خرج ساشكا إلى الممر لم يكن هناك أحدٌ. قد يكون تجدُّدُ الصداع في رأسه من جرَّاء مشروبه أمسِ، ولربما من كلمات شيز. في الغرفة، كان كيشا مستمراً في فكِّ قطعةِ الحديد، ويورا يجلس في ذات المكان.

- «تلك الفتاة صدَّعَت رأسي وهي تقول: هيَّا، دَعِ التدخين، وإلَّا فسأُقلِع عن حبِّك. لكنني لم أكترث، فتركتها ووجدتُ فتاةً أخرى. أنا لا أُطِيق أن تُثقِل عليَّ بقرةٌ بأوامرها. لها ثديان لا بأسَ بهما، لكنها حمقاءُ بالإجمال».

كان كيشا يستمع إلى مناجاةِ يورا بابتسامةٍ ساخرة، ثم التفت إلى ناحية ساشكا قائلاً:

- «لقد احتفظتُ بالماء المالح من مُخلّل الخيار من أجلِك، سرقتُ عُلْبةً منه بالأمس. أنت بصفتك صديقاً لي، سأتقاضى منك قرشين فقط. يُمكِنك دفْعُها لاحقاً».

قال يورا باستغراب: «أنت أيها الميكانيكي، أَلَا تُعطِي شيئاً مجاناً؟»

تمتم ساشكا وهو يبحث في جيوبه عن القروش: «سأخبرك لاحقاً ما الشيء الاستثنائي الذي يُوزِّعه مجاناً بعد أن يتناول غداءً دَسِماً».

الماء المالح لم يُجْدِ نفعاً، وإن كان قد أطفأ ظمَأَه قليلاً. ظلَّ كيشا مُنهمِكاً في الجهاز لبعض الوقت، ثم ذهب إلى جينكا بحثاً عن قطعةِ غيار.

تساءل يورا: «هل هذا الذي يعتمر القبعةَ حانقٌ دائماً؟ طلبتُ منه اليومَ مُرافَقتي إلى المدينة. أعرف بعض الفتيات هناك، يَقُمْنَ بالخدمة كما يجب. يحلم القائدُ بخدمةٍ مثلها. لكن كيشا، صاحِبُك هذا، قال: «لا، إنني أجمع المال لشراء شركة»».

أكَّدَ ساشكا: «تقصد مزرعة».

عاد كيشا، ونظر إلى يورا، ثم إلى ساشكا، وتقدَّمَ من الطاولة لينشغل مجدداً بأعماله هناك. تقلَّبَ ساشكا في السرير بعضَ الوقت، وهو يستمع إلى ثرثرةِ الشابَّيْن. تبيَّنَ أن يورا مثل كيشا ثرثارٌ من الدرجة الأولى. نفَدَ صبره أخيراً قائلاً:

- «كُفَّا عن الهذر، أنتما كالنساء في البازار. لو أقمتما معاً لَمَا عرفتما الصمتَ أبداً».

اقترح عليه كيشا: «اذهب ونَمْ عند الكلب. هناك لن تَسْمع إلا حفيفَ ورقِ الكتب. أو ربما يكسر الصمت من أجلك، فيُلقِي عليك محاضرةً عن أضرارِ تَعاطِي الكحول».

نهض ساشكا واقفاً وهو ينظر بحقدٍ إلى كيشا، وانطلَقَ بالفعل إلى غرفة الكلب.

تناهى إليه صوتُ يورا: «زميلك هذا، كأنه ليس على ما يرام».

عقَّبَ كيشا بفتور: «كلَّا، إنه شابٌّ جيد، لكن أمَّه تُوفِّيت منذ زمن قريب».

لم يكن الكلب يُصدِر حفيفاً بورقِ الكتب، بل كان جالساً على سريره يحاول إدخالَ الخيط في ثُقْب الإبرة، يبدو أنه كان من الصعب عليه رؤيةُ ثُقْبِ الإبرة من خلالِ نظارته التي امتلأت عدساتُها بالخدوش، لذا باءَت كلُّ محاولاته بالفشل.

قال إذ رأى ساشكا: «هه، تمزَّقَ سروالي في المعركة، ولم أجد وقتاً لإصلاحه. أيُمكِنُك مُساعَدتي في إدخال الخيط في ثُقب الإبرة؟ كان بإمكاني طلب مساعدة يانسِن، لكنه قد يَطْلب مني بعضَ القروش لقاء هذه الخدمة؟ لم يَمْضِ وقتٌ طويل على مُصالَحتِنا».

تناول ساشكا الإبرة منه صامتاً، ودفع الخيطَ باتجاه الثُّقْب عبثاً عدة مرات، وشرع في السباب.

تساءل الكلب: «يداك ترتجفان؟ هذا نذيرُ سوءٍ. شيز كان سيقول إنه مُؤشِّر الموت. بالمناسبة، لماذا أتيتَ إليَّ؟»

تمتم ساشكا، وهو يتكور على الأرض في إحدى الزوايا: «جئتُ لأستمع إلى مواعظك. إن أزعجتَني وأنا نائم، فسأقتلك!»

تنهَّدَ الكلب واستأنف عمله. عندما سمع ساشكا صوتَ يورا مجدداً، ظنَّ أنه يحلم، فانقلَبَ على جنبه الآخَر. لكن الصوت ظلَّ مسموعاً، بل بات أيضاً أكثر وضوحاً.

- «قالت لي الممرضة: «دَعْني أُدلِّكُك». أجبْتُها: «هيَّا». وما إن بدأت، حتى أمسكت بيدها».

تعالَت قهقهةُ الكلب وضحكةُ كيشا الخفيفة.

استطرد يورا: «أَمْضينا وقتاً... ثم تناوَلْنا الطعام. جاءتني بالغداء إلى السرير، ثم استلقَت إلى جانبي».

قال الكلب: «أنت، يا يورا، خبيرٌ في «الكاماسوترا»».

لم يفهم يورا، فتساءل: «ماذا؟»

قال الكلب موضِّحاً: ««الكاماسوترا» كتابٌ قديم في ممارَسة الحب، كان قبل الحرب».

أكَّدَ كيشا: «كاماسوترا، بالضبط، إنه لقبٌ جاهزٌ له».

وافَقَ يورا ببساطة: «لِيَكُن، كما ترغبون. لا يهمني الاسم، المهم أن تُعجَب بي الفتيات».

رفَعَ ساشكا ياقةَ سترته عالياً مُحاوِلاً أن يغطي أذنَيْه، لكن الضحك كان عالياً للغاية.

قال كيشا أخيراً: «كم أنت بارعٌ في الكذب! كلُّ هذا ليس صحيحاً، أليس كذلك؟ لا شكَّ أنك ابتدعْتَه كله. كان الشكَّاء أيضاً يُثرثِر بخصوصِ الفتيات، لكن دون تفاصيل».

أكَّد الكلب: «بالتأكيد، كان الشكَّاء كاذباً. مَن كان بحاجةٍ إليه؟ بل هو أيضاً لم يكن قد نضج جنسياً بعدُ».

فكَّرَ ساشكا بغضب: «يضحكون على الشكَّاء! لقد حرموني النوم، يا لهم من أنذال!»

تساءل يورا: «وهل هناك صورٌ في الكتاب القديم قبل الحرب، الذي شتَمْتَني به؟»

سأل الكلب: «الكاماسوترا؟» ويبدو أنه تهيَّأَ ليتكلَّم عن الصور، غير أن ساشكا لم يكن مُستعِداً للاستماع لهذا الحديث. فنهض وهو يَكاد أن يصرخَ من ألمِ رأسه، ودفع كتفَ يورا برفق قائلاً:

- «كاماسوترا، كاماسوترا! إنك مثل داءِ الزُّهْري يمشي على الأرض!»

نظر يورا إلى الشابَّيْن، وكأنه في حيرة؛ هل يَلطم ساشكا، أم يتحاشى ذلك. وخرج ساشكا قبل أن يسمع ردَّه. فوق الأكياس، عند المدخل، كان يجلس غوغا مع بندقيته. استلقى ساشكا بجواره، وسأله بقليلٍ من الأمل:

- «ألديك مشروبٌ؟ أريده مجاناً، فأنا مُفلِس».

قال غوغا وهو ينظر إلى ساشكا بمواساة: «لو كان معي لَكنتُ أعطيتُك، لكننا لم نترك قَطْرة، لقد انتصرنا! بالأمس تعذَّبتُ مثلك. لديَّ بعضُ الحشيش، برسمِ الاقتراض طبعاً».

رفض ساشكا: «احتفِظ به لنفسك، ما دمتَ بلا مخٍّ. لستُ حشَّاشاً».

- «حقاً؟ مظهرك لا يوحي بالعكس».

أعرض ساشكا عنه، وحاوَلَ أن يغفو، لكن النوم ظلّ عَصِياً عليه. أحسَّ بالغثيان، وبطنينٍ في رأسه أشدَّ من الذي عانى منه بعد المرض. ملأ فمَه مذاقٌ مقرف واجتاح الألمُ عظامَه. فكَّرَ ساشكا: «سأموت. سأموت الآن، فوراً». مرَّ الشُّبَّان بجواره، منهم مَن كان يترنَّح بالكاد مُحافِظاً على توازنه، ومنهم الحانق من شدة السُّكْر، وآخَرون طبيعيون.

تراءى لساشكا أنهم جميعاً لا يَرُوحون ويَجِيئون هكذا دون هدف، وإنما يَجُولون مُتعمِّدين، ليَحُولوا بينه وبين النوم.

سأله غوغا فجأةً: «هل غفوتَ؟ أمسِك البندقية، سأقضي حاجتي سريعاً وأعود».

أمسَكَ ساشكا البندقية، وضَعَها تحته، وأطبَقَ جَفْنَيْه مجدداً. يبدو أنه بعد ذلك غطَّ في النوم حقاً؛ إذ سرعان ما انتشله صوتُ كيشا من الظُّلْمة:

- «غوغا، أنت مُكلَّف بمهمةِ حراسة، لا يَجُوز أن تُغادِر المكان. كان بإمكانك قضاءُ حاجتك هناك في الزاوية، بدلاً من الابتعاد».

قال يورا مُعزِّزاً موقفَ كيشا: «مكانه في مستشفى المجانين، وأنت تُوكِل إليه حمْلَ سلاحِك. يقول الشباب إنه قتَلَ زملاءَ له. عليكم تسليمه قبل فوات الأوان».

تَدخَّلَ الكلب فجأةً: «اخرس. أنت لا تعرف الرجل، وتَحشر نفسَك فيما لا يَعْنِيك!»

تعجَّب ساشكا: «عَمَّ يتحدثون؟» ثم أدرك: «أنا مُستلقٍ فوق السلاح، وهم لا يَجْرؤون على سحبه!» فتح عينَيْه، ثم سحَبَ السلاحَ وناوَلَه لغوغا.

دعاه كيشا: «فَلْتَعُد إلى البيت، سانيوك. المكانُ هنا باردٌ للنوم».

تنهَّدَ الكلب: «لقد استلقى فوق السلاح، مثل كلبٍ على كومةِ القشِّ. لا يأكله، ولا يسمح لحيوانٍ غيره بأكله».

نهض ساشكا، ونظر إلى الكلب عابساً، ثم إلى يورا وكيشا وقال:

- «هكذا إذاً، ما إن ساءَت حالتي حتى بدأتم تَتعاملون معي كأني كلب! لا سيما أنت، يا يانسِن، أيها البخيل النَّتِن!»

صعد ساشكا السُّلَّم، في حين ظلَّ الآخرون في الأسفل.

قال الكلب: «أرأيت، يا كيشا؟! وقد كنتما صديقَين. كفى». حدَّثَ ساشكا نفسَه وهو على سريره: «أشعر بأن حالتي سيئة جداً. لن أعود للشرب أبداً. أموت، ولا أعود للشرب. لأنني لو عدتُ فسأموت». ظلَّ ساشكا يتقلَّب، ويشتم ويشعر بأن حاله يزداد من سيئٍ إلى أسوأ.

مساءً وصَلَ يورا ومعه كومةٌ من الثياب، وانهمَكَ في فَرْشها في الزاوية.

- «شكراً، كيشا، لأنك آويْتَني هذا اليوم. ڤـورونتسوف هناك زرع أرض الغرفة بالشموع، ويرسم بالطباشير أشكالاً على الأرض، ويدعوني إلى «الغدَّار» [26]، ولا يشرح لي ما هو «الغدَّار». كيف أستطيع النوم؟»

قال كيشا ناصحاً: «حاوِلْ أن تُحدِّثه عن النساء. هل حاولتَ؟»

- «حاولتُ، فراح يُحدِّثني عن مائةِ يومٍ من الصمت. رجلٌ مُعقَّد! بالمناسبة، بالأمس، كان يُصلِّي من أجل هذا؛ يِرخوف. يقول إنه لم يَعُد أمامَه وقتٌ طويل، بعدَ عشرين يوماً سيموت».

حدَّث ساشكا نفسه: «مخطئون، سوف نرى مَن سيموت أولاً». تابَعَ الشُّبَّان أحاديثهم بعض الوقت، ثم استسلموا للنوم. أوى ساشكا إلى فراشه أيضاً.

صباحاً، تبيَّنَ ساشكا أن رأسَه لا يُؤلِمه تقريباً. كان يورا وكيشا جالِسَين قُربَ الموقد يشربان الشاي.

قال يورا: «اتَّضَح أنها ليسَت ابنة المنطقة؛ عرفتُ أنها من سكان الصحاري، فاندهشتُ! ثم فكرت: «إنها امرأةٌ كأية امرأة، لا فرْقَ عندي». السيئ أنني لا أفهم ما تقوله، ولا يروق لي أن أصمت».

قال ساشكا وهو يبحث في حقيبته عن فنجان: «مرحباً، أيها الثرثاران! هل ستَبخَل عليَّ بالشاي؟»

تمتم كيشا: «نعم سأبخل، فما حاجتُك إلى الشاي الآن؟ أنت اختصاصيٌّ في نوعٍ آخَر من المشروب».

- «قد أكون أقلعتُ عن هذا؟»

- «ربما أقلعتَ، لكنَّ ذلك ليس واضحاً حتى الآن. انتقِلْ للإقامة مع شيز، يا سانيوك، سيُصلّي عليك عندما تموت، يُزعِجني السكنُ معك».

سكب ساشكا فنجاناً من الشاي.

- «هل ستنتقل؟ وأنا سأبقى مع يورا». وراح كيشا يرقب ساشكا، ولم يكن واضحاً إن كان جاداً فيما يقول.

قال ساشكا: «خَسِئتما! أخشى عليك منه يا كيشا، فقد يَغْتصبك».

أحسَّ يورا بالإهانة: «ماذا تقول؟ أنت تنبح طوالَ الوقت؛ مَن سيرضى بالعيش معك!»

جزم ساشكا: «لا أرغبُ في السكن معك في أي ظرف».

نهض يورا واقفاً، ووضع كأسَه على الطاولة وغادر.

- «كيشا، لا تُغادِر، حسناً؟ لا أريد أن أخاصمك». وأمسك ساشكا كيشا من كُمِّه: «أعدك بأنني لن أعود للشرب».

- «لا يهمني، يا سانيوك. لقد جِئتَنا شاباً طيباً، حتى إننا أصبحنا صديقَيْن، لكنني الآن لا أدري، هل أنت صديق لي أم لا؟!»

قال ساشكا بصوتٍ خفيض: «ألِفتُ ذلك بسبب أعزِّ صديقٍ لديَّ، بسببه وجدتُ نفسي في هذا المستنقَع. مَن هو الآن بالنسبة لي؟»

قال كيشا بحنقٍ وهو يشرب الشاي: «لو كنتُ مكانك لَنسيتُ أمرَه نهائياً. حتى هنا يمكن العيش بشكلٍ طبيعي، لا أحدَ يَصبُّ الكحولَ في فمك عنوةً. أسهلُ على المرء أن يصبح خنزيراً. أنت الآن تشبه المرحومَ ليوشا».

- «دَعْنا من ذلك».

- «لن أَدَع ذلك! إمَّا أن تُقلِع، وإما أن تذهب إلى شيز، أنا سأسكن مع يورا».

قال ساشكا: «هل يوجد لدينا شيء يُؤكَل؟ أريد طعاماً».

وافَقَه كيشا: «بالطبع تريد طعاماً؛ إنك لم تأكل شيئاً طوال فترة تَعاطِيك الكحول. وفَّرنا الكثير بفضلك. هل تفتح العُلْبة، أم أفتحها لك؟»

تساءل ساشكا: «لقاءَ خمسةِ قروش؟»

أجابه كيشا: «أحمق أنت! أنا أتطلَّع للأفضل».

- «شكراً». وراح ساشكا يفتح الصفيحةَ المعدنية بيدَيْن مرتجفتَيْن، وسرعان ما باتَت الصفيحة فارغة، فطلب المزيد.

- «يَجدُر بك أن تغتسل؛ تَفُوح منك رائحةٌ كريهة! فَمُك أيضاً يحتاج إلى غرغرة. كاتيا تدعوك لزيارتها، لقد أخبرتها بأنك مُتوعِّك بعض الشيء؛ فلن أصطحبَ معي معتوهاً لزيارةِ فتاة. خلال أيامٍ ثلاثة، إذا استعدتَ عافيتَك فسنذهب معاً لزيارتها».

أومأ ساشكا مُوافِقاً، وفَمُه مَحْشوٌّ بالطعام. تمتم كيشا بأشياء أُخرى، ثم مدَّ يده إلى ساشكا.

- «أُعلِن السِّلْم».

حدَّثَ ساشكا نفسَه وهو يجلس على حافة النافذة يتأمل الأنقاض: «فعلاً، ماذا أصابني؟! أوشكتُ أن أصبح مُدمِنَ كحول بسببِ ڤـيتروف. حزنتُ لأنه يرفض التحدُّثَ معي. فَلْيَمُت هناك وحيداً. كيشا أفضلُ منه بكثير».

- «ربما من الأفضل الآن الذهاب للاستحمام؟ ونغسل ستراتنا، لتجفَّ غداً، وقد نذهب مُباشَرةً. لقد اشتقت إلى كاتيا».

سَخِر ساشكا قائلاً: «روميو!»

- «هل تشتم؟»

- «كلَّا، هذا اسمُ عاشقٍ معتوهٍ ورَدَ في أحدِ الكتب. إن كنتَ لا تُصدِّق، فتأكَّدْ من ماكس».

- «أوه، أنا أُصدِّقك». ولاذ كيشا بالصمت، ثم قال: «وماذا حدث مع روميو هذا؟»

قال ساشكا بجدِّية: «لقد مات».

تساءل كيشا وهو يُلقِي قِطَعَ الكرتون في الموقد: «مات؟! إذاً الكتابُ لا يتحدَّث عني. كاتيا الآن بأمسِّ الحاجةِ إلينا. أنت لم تذهب في المرَّة السابقة، للأسف. والدتها تَبْكي طوالَ الوقت. تقول: «قتلوا ابني، وقتلوا زوجي، لماذا

أعيش بعدُ». وتضطر كاتيا للاستماع إلى ذلك كلّ يوم. لو جئتَ، لَخَفَّفْتَ عنهما».

بعد الاستحمام جلس الشابان قُربَ الموقد يحرسان الثيابَ المعلَّقة لكيلا تَحترِق.

كان الجوُّ دافئاً في الغرفة، حيث اجتمع ساشكا وكيشا، ويورا والكلب، وجاء شيز ومعه إبريق الشاي.

تساءل كيشا فجأةً وبصوتٍ خفيض: «اسمع، سانيوك، لقد لفَتَ نظري ونحن في الحمَّام وجودُ كدمةٍ زرقاء على يدِكَ بالقُرْب من وريدك؟ هل أخذتَ حقنة؟»

تهرَّبَ ساشكا: «تبرَّعتُ بالدم مقابلَ بعض المال».

- «أوووه! خشيتُ أنك تتعاطى المخدِّرات. وهل يدفعون كثيراً؟»

- «يدفعون قليلاً».

- «لا تَتبرَّع بدمِك مرةً ثانيةً! الأفضلُ أن تسرق شيئاً وتبيعه، ذلك لا يضرُّ بصحتك».

قال ساشكا: «لن أكرِّر ذلك». وراح يحدِّق في النار وهو يشعر وكأنه بدأ يعيش حياةً جديدة.

تساءل الكلب: «والآن، هل سنستمع مجدداً لصديقنا المهووس جنسياً؟ أو أن يِرخوف سيَحْكي لنا عن الشياطين الذين قضى وقتَه في اصطيادهم؟»

قال كيشا: «دَعْه وشأنه».

اكتفى الكلب بهز كتفَيْه، ثم قال:

- «إذاً، يا كاماسوترا، ربما تُطرِبنا بالعَزْف على الدونغ بو لا؛ فقد جلبتَها معك ورميتَها في غرفتي عبثاً».

قال يورا باستياء: «إنها بالالايكا، وليست دونغ بو لا». وخرج ليعود وبيده آلةٌ غريبة لم يَرَ ساشكا مثلَها من قبلُ. كانت البالالايكا مُغطَّاة بعباراتٍ مكتوبة عليها: «جئتُ من عند يوريك»، «فوفان العاشر من مايو»، «المغاوير هم الأفضل».

دندن يورا بأصابعه قليلاً، ثم غنَّى بصوتٍ مزعج:

«تهبُّ الريح من الشمال،

ثم تهبُّ من الجنوبْ.

أَسرِعي إليَّ،

يا صديقتي اللعوبْ!»

قال ڤـيتكا: «الابتذالُ لا يُزَيِّن مَن يَتعذَّب». وخرج.

لم يسمع يورا ما قاله ڤـيتكا، واستمر يصرخ على وقْعِ دندنتِه أغنيةً عن طائرَيْن نقَّارَيْ خشب، وعن حِصانٍ يرتدي سترة، ونساءٍ يَسْبحْنَ في بحيرة، وعن آلة بيانو. بعدها ألقى آلته جانباً وسأل الشباب وهو يَنظر إليهم مَزْهواً:

- «كيف وجدتم ذلك؟»

قال الكلب بشيءٍ من السخرية: «يبدو مؤثراً!»

قطَّبَ ساشكا جبينَه؛ إذ إن غناء يورا لم يُحرِّك فيه شيئاً إلا نوبةً جديدة من الصداع. ظلَّ الشباب مدةً طويلة يشربون الشاي ويثرثرون. جالَسَهم ساشكا بعض الوقت، ثم انسحب إلى سريره بهدوء.

26

أمضى ساشكا اليومَيْن التاليَيْن وهو شِبهُ نائم، لا ينهض إلَّا لتناوُلِ الطعام أو الماء. كان يشعر بعطشٍ دائم، أحسَّ أن رأسَه ثقيلٌ جداً، تَجتاحُه نوباتٌ من القشعريرة بين البرد والسخونة. قال الكلب إن هذا ما يحدث لمَن في مثل حالته. المهم الآن ضَبْطُ النفس وعدمُ شراءِ أي مشروب. وضبط ساشكا نفسه بالفعل. تابَعَ كيشا معاناةَ صديقه ووَاسَاه، لكنه لم يَكُفَّ عن تذكيره بمسؤوليته عمَّا أصابه، وبأنه هو مَن اختار لنفسه هذا النمطَ من الحياة. في صباح اليوم الثالث، نفَدَ صبره:

- «كفى، كفاك مُلازَمة للفراش. هيا بنا نذهب إلى كاتيا! وَلْيَصْحُ ضميرك! الفتاةُ تسأل عنك بشكلٍ دائم، وأنت راقدٌ هنا، لا تُحرِّك ساكناً!»

- «لا بأس، سأذهب. كفَّ عن توبيخي».

أصلح كيشا وضع قبعته قائلاً: «إنك تضطرني لأن أوبِّخَك؛ تتمطّى كالميت، موجودٌ، وغير موجود! انهَضْ، اغتسِل، وارْتَدِ بزَّتَك العسكرية، فهي تجعلك أشبهَ بالرجال».

تَذمَّر ساشكا: «أيعني هذا أن كاتيا سترى استعراضاً اليوم؟» لكنه تناوَلَ بزَّتَه وراح يرتديها. «بدلاً من أن تَنشغِل بإصدار الأوامر، أعطِني شيئاً آكله».

أجاب كيشا: «لا وقتَ لدينا. كاتيا ستُقدِّم لك الطعام. لو فوَّتْنا الحافلة، فسنُضطر أن نذهبَ مشياً في الوَحْل».

اعترف ساشكا: «تَباً للطعام، أشعر بحاجةٍ مُلِحَّة إلى التدخين. لكن ليس لديَّ مال. اشترِ لي بعضَ السجائر بالدَّيْن».

- «سأبتاعها لك، فقط تحرَّكْ أسرع».

أحاطت بالمدينة من جميع الجهات غيومٌ رمادية كالحة وكثيفة، وبَدَت ثقيلةً جداً، لو وقَعَت على الأرض لحطَّمَت كلَّ ما عليها. هبَّتْ ريحٌ جنوبية رطبة حاوَلَت عبثاً أن تبدِّدَ الغيومَ العنيدة. شرع ماء الثلج يذوب ويقطر عكراً من أسطُح المنازل. وصل كيشا وساشكا إلى المحطة، وابتاع كيشا تبغاً وورقةَ جريدة وعلبةَ ثقاب. وصلَت الحافلة، اختارا أفضلَ مقعدٍ فيها وجلسا، بعد أن طردا عنه صبياً من المغاوير يشبه الشكَّاء. انطلقَت الحافلة مُصدِرةً صريفاً باتجاه المدينة.

هناك، في مركز المدينة الذي لم يَزُرْه ساشكا منذ وقتٍ طويل، لم يَطْرأ أيُّ تغييرٍ على البيوت، ولا على الأشجار، غير أن المارَّة الآن يُفسِحون لهم الطريقَ باحترام، وكأنهم ليسوا أولئك الذين كانوا يَرْمقونهم باحتقارٍ فيما مضى. لكنهم في الماضي كانوا يَبْدُون مواطنين مَيْسورِي الحال، واثِقين من أنفسهم. أمَّا الآن، فكأنهم بُهِتوا وفقدوا تلك الثقة. لم يَعُودوا يُثِيرون الحسَد، بل يُثِيرون الشفقة. كان المَدَنِيُّون ضعفاءَ، فهم لم يَخُوضوا غِمارَ الحرب، ولم يَعْرفوا ماهيةَ الموت، لم ينزلوا إلى الأقبية المليئة بالموت، ولم يُلاقوا الموتَ في الشاحنات. إنهم يعيشون حياةً هادئة رتيبة؛ العمَّال، والحرَّاس الليليون، والأطباء، والمدرِّسون، والعاطلون عن العمل... أخبَرَهم أحدٌ ما بأن الجنود هم مَن يُقاتِل في الحرب، وهم يقتلون فيها، وأنَّ الجندي يجب أن يُحترَم؛ لهذا السبب يَنظر المَدَنِيُّون الآن إلى كيشا وساشكا بطريقةٍ مختلفة؛ أي باحترام.

كان كيشا يسير صامتاً، يدسُّ يدَيْه في جيوب سترته الخاصة بجنودِ الدبابات، وساشكا يبتسم للمارَّة كلهم ببَلاهةٍ، وكيشا يَرمُقه بحذرٍ مُستهجِناً سروره. أمَّا ساشكا فقد أدرك قبل دقيقةٍ فقط، أنه بدأ يَحترم نفسه. في نهاية

المطاف، ليس مهماً إنْ كان من المغاوير أو مِن غيرهم، المهم أنه شارَكَ في الحرب. المهم، أنهم انتصروا. وليس صحيحاً أنه لا يَصلُح جندياً، تلك كانت نقطةَ ضَعْفٍ قديمة. لقد نجا وسطَ ظروف لا يَتخيَّلها رِفاقُه السابقون في الفيلق.

طلب إليه كيشا: «حبذا لو تتوقَّف عن التدخين حين نقترب من بيت كاتيا؛ فهي لا تطيق المدخِّنين».

هزَّ ساشكا كتفَيْه.

- «وأنا لا أُحاوِل كسْبَ إعجابها».

تَنهَّد كيشا قائلاً: «أنت أحمق!»

بدا الأمر مضحكاً لساشكا. هكذا هو كيشا دائماً؛ عندما لا يجد ما يقوله، يَنْعت ساشكا بالأحمق.

لَمَحَتهما كاتيا عبر النافذة، فانطلقَت لاستقبالهما عند المدخل. لقد تغيَّرَت كثيراً عمَّا رآها ساشكا آخِرَ مرَّة. لقد ضَمَر وجهُها وتكدَّرَ. كانت الآن تقف على مدخلِ البناء تُحدِّق في وجهِ ساشكا، وكأنه فجأةً بَدَا لها غريباً أيضاً.

كان كيشا أول مَن خرق الصمت قائلاً: «قد تُصابين بالزكام». حينها انتبه ساشكا أيضاً إلى أنها ترتدي ثياباً خفيفة؛ قميصاً ليلكي اللون، وسروالاً عسكرياً كان في السابق جزءاً من بدلة، وعلى رأسها منديل صوف أسود اللون، قبيح وغير ملائم.

قالت كاتيا ناظِرةً إلى ساشكا وهو يرمي عُقْبَ سيجارته في نُقْرَةِ ماء: «كنتُ أنتظرك».

نطق ساشكا بصعوبةٍ أخيراً: «ها قد جئنا، أنا وكيشا. دَعُونا ندخل، لربما تُصابين بالزكام حقاً».

كرَّرت كاتيا: «كنت أنتظرك. خشيتُ أن تكون قُتِلت، وأن كيشا يكذب علَيَّ. خفْتُ كثيراً».

تقدَّمَت خطوةً فالْتَصَقَت بساشكا، وانخرطَتْ في البكاء.

تمتم كيشا بصوتٍ خافت: «حيوان، كم جعلها تتعذَّب!»

وقف ساشكا وهو يشعر بذَنْب كبير. كلّ ما كان بوسعه فعله، أنه احتضَنَ كاتيا بإحدى ذراعَيْه بطريقةٍ خَرْقاء، وراح يُؤشِّر باليدِ الأخرى لكيشا كي يفعل شيئاً. تَلكَّأ كيشا قليلاً، ثم شدَّ كاتيا من يد ساشكا ودفَعَها إلى الداخل.

- «هيا، هيا، ادخلي، البردُ قارسٌ خارجاً. سندخل معكِ. لقد جِئنا لمُساعَدتك، إن كنتِ بحاجةٍ إلى شيءٍ. ماذا تفعلين الآن؟ بِمَ كنتِ مشغولةً قبل وصولنا؟»

مسحَت كاتيا دموعَها وتابَعَت البكاء، ثم أدركَت المطلوب منها.

- «أنا... أنا وأمي كنَّا ندهن السقفَ بالكِلْس».

دُهِش كيشا: «ماذا؟»

- «عندما ذهب والدي، قال إنه حين يعود سيُجرِي بعضَ الإصلاحات في غرفتهما، واشترى الدهان. تقول أمي إنه ما دام والدي كان يرغب في ذلك، فلا بد من أن نُنجِزه».

أخيراً خرج ساشكا عن صمته قائلاً: «بالتأكيد، نحن سنُساعِدكما. أليس كذلك، يا كيشا؟»

قال كيشا فَرِحاً: «بلى بالتأكيد، كَمْ من الأسقف دَهَنتُ! في بيتنا، وفي مدرسة القرية، وفي الثكنة. أنا أُتقِن ذلك».

قالت كاتيا وقد هدأت: «لقد انتهينا من السقف، لكن علينا أن نَدهن الأرضَ كذلك».

خلع ساشكا سترتَه العسكرية، علَّقَها بالمِشجَب، ثم نزَعَ كنزته كيلا تتلوَّث بالدهان، وتَبِعَ كاتيا إلى الغرفة التي لم يَدْخلها سابقاً. عبقَت الغرفةُ برائحةِ الدهان، وبَدَت الثُّريَّا الثقيلةُ بزجاجاتها المتدلية على طولِ محيطها الدائري مُلطَّخةً ببعضِ البُقَع البيضاء. توجد في الزاوية خِزانةُ ثيابٍ أُلصِق عليها تقويم، وعلى امتدادِ الجدار الآخَر طاولةُ مكتبٍ وأريكةٌ مَطْويَّة لإفساح المجال للتصليحات. كانت في الغرفة رفوفٌ خشبية أيضاً مثل الرفوف التي في غرفة الشكَّاء وأوليغ تماماً.

كانت والدةُ كاتيا جالسةً على مقعدٍ خشبي بجوار النافذة، وأسبَلَت يدَها التي تَحمل الفرشاةَ فراحَت قطراتُ الكِلْس تَتساقَط على الأرض ببطء.

قال ساشكا: «مرحباً، ڤيرا إيـڤـانوڤنا. جئنا لمساعدتكما. ما الذي علينا فعله؟»

لم تُجِبْه والدةُ كاتيا، فقال كيشا:

- «يجب أولاً غسْلُ الأرض، وبعد أن تجفَّ يُمكِننا مُباشَرة الدَّهْن. كاتيا، هل خَلَطْتِ الدِّهان؟»

هزَّت كاتيا رأسَها نافيةً.

تابَعَ كيشا: «نحتاج إلى عصاً. وأَحضِري لساشكا دَلْوَ ماءٍ مع قطعةِ قماش».

شعر ساشكا بارتياحٍ كبير، إذ بدأ كيشا يُصدِر أوامره، ولم يَبْقَ أمامَه سوى التنفيذ. تَبيَّنَ أن ذلك يُرِيحه من التفكير ويجعل الأمورَ أكثرَ بساطةً. تناوَلَ ساشكا الدلْوَ من كاتيا وراح يَمْسح الأرضيةَ بالمِمْسَحة. عندما أصبح قريباً من النافذة، أمسكَتْ والدةُ كاتيا بكتفِه وجذبَتْه نحوَها قائلةً:

- «لقد كنتَ في الجنوب؟»

هزَّ ساشكا رأسه بالإيجاب.

- «أَلَمْ تَرَ غريشا [27] هناك؟ أَلَمْ تَلْتقِيا؟»

قال ساشكا، وهو يلتفت جانباً: «كلَّا». وتابَعَ مسْحَ الأرض.

- «للأسف. لَطالما أراد أن يتحدَّث إليك. كان يُرِيد أن تَبْقى معنا، لكنك غادرتَ».

لاذ ساشكا بالصمت.

قالت ڤـيرا إيـڤـانوڤـنا فجأةً: «لقد أحضروه فـي نعشٍ مُقفَل، ولم يَأْذنوا لنا برؤيتـه. ربما وقَعَ خطأ؟ يحـدث ذلك. يُخطِئون أحياناً فيدفنون الشخصَ حياً. قد يكون جريحاً، أو فاقِداً وعْيَه، أو أسيراً. أنا لم أَرَه ميتاً، لِمَ لا يُمكِن أن يكون حياً؟»

وتسمَّرَ ساشكا في مكانه. مات كرايف، هذا مُؤكَّد، لكنْ لا يَجُوز البوْحُ الآن بذلك لهذه المرأة التي أنقذَتْ حياةَ ساشكا، لا يجوز إخبارَها صراحةً عن الانفجار الذي أَوْدى بحياةِ زوجها، وعن سببِ إقفال التابوت.

تمتم ساشكا: «قد تحدث أخطاء. سأذهب لتبديل الماء».

خرج ساشكا إلى المدخل وسكَبَ الماءَ من الدَّلْو. شعر أن عينَيْه رَطِبتان، فراح جَفْناه يَرِفَّان لكيلا يستسلم للبكاء. لم يَفْهم لماذا يرغب في البكاء. قبل حينٍ بَدَا له أن كلَّ شيء على ما يُرام، كما يجب أن يكون. ظلَّ واقفاً يرتجف من البرد، ويشعر بأنه كان من الأفضل ألَّا يحضر إلى هنا. امرأتان مَفْجوعتان، أيُّ شيءٍ أشدُّ رعباً من هذا! كلَّا، لن يعود إلى هنا ثانيةً. كاتيا ستتعذَّب، ثم تنساه، وقد تُعجَب بكيشا.

مسح ساشكا عينَيْه، دلف إلى الحمَّام، فوضع الوعاءَ تحت الصنبور وراح ينظر في المرآة. نفس الشيء الذي رآه يوماً، كَمْ هو هزيلٌ ومُعذَّب! لقد بَدَا الآن أسوأ؛ كأنه على فراشِ الموت. حاوَلَ أن يرسمَ ابتسامةً على وجهه، غير أن شفتَيْه المتشقِّقتَيْن من البرد تشنَّجَتا في تعبيرٍ ساخر، وظلت عيناه كئيبتَيْن. ما الذي جذَبَ كاتيا إليه؟

تناهى إليه صوتُ كيشا: «هل ذهبتَ إلى إنسك لجلب الماء؟ لَكنتُ مسحتُ الأرضَ مائةَ مَرَّة».

تَذمَّرَ ساشكا: «امسحها!»

وجد كيشا قطعةَ قماشٍ ثانية، وانطلق الاثنان معاً يُنظِّفان الأرض.

اقترح كيشا: «يجب أن نُزِيح الخزانةَ لكي نَدْهن الأرضَ تحتَها، ثم نُعِيدها إلى مكانها. كاتيا، هل هي ثقيلة؟»

- «نعم، ثقيلة. وهناك حقيبةٌ فوقَها. أَنزِلْها، لئلا تَسقُط فوقَ رأسك».

صعد كيشا السُّلَّم المعدني وأنزَلَ حقيبةً برتقالية رثَّة.

قالت الأم بصوتٍ خافت: «يجب رَمْي هذه الأغراض في الزُّبالة، ومعها الحقيبة، من فضلكما. الحاويةُ قريبة، خلف البناء. وأنا سأُعدُّ الطعام».

قال ساشكا: «سأرميها». وسحب الحقيبةَ نحو الباب.

بالفعل، كانت الحاوية خلفَ المنزل تماماً، وكانت النُّفايات تُرحَّل في فتراتٍ مُتباعِدة، مما جعلها الآن كومةً مُتكدِّسةً كريهةَ الرائحة، مُؤلَّفة من قشورِ الخضار ومادةٍ لَزِجة، وهياكلِ عظامِ الكلاب. أراد ساشكا رمْيَ الحقيبة فوق هذا الرُّكام، لكنه لسببٍ ما توقَّفَ وراح يفتح أقفالَها اللامعة؛ وجد في داخلها ثياباً مُستعمَلة، ومَناشف مُمزَّقة، وبطانية صوف رثَّة. فكَّرَ ساشكا: «هذا

حُلْم الجيفيين. أتمنى أن آخذها إلى الأنقاض، ولكن أين أخبِّئها الآن؟» تَلفَّتَ حوالَيْه، هل يراه أحد. أبعَدَ بقدمَيْه قِطَعَ النايلون والأسمال والرماد، ووضع الحقيبة، ثم غطَّاها بالنُّفايات.

حين عاد ساشكا كان كيشا يخلط الدهان، وكاتيا جالسة على مَقربةٍ منه، تَنظر أمامَها بعينَيْن فارغتَيْن، وتعضُّ على شفتَيْها.

قطع كيشا الصمت: «خلطتُ الطلاء. هيا يا ساشكا إلى العمل. تلك هي الفرشاة. أتقِن عملك».

أزاحا معاً الخزانةَ وراحا يَطْليان الأرضيةَ الخشبية تحتها. نسي ساشكا أمرَ كاتيا إذ تبخَّرَت من ذاكرته إلى مكانٍ ما. لم يَبْقَ أمامَ الأعيُن سوى الأرض المَطْلية بالدهان الأحمر الداكن. كانت الفرشاةُ القديمة تَبْسط طبقةَ الطلاء الكريه الرائحة بصعوبة، والأسوأ من ذلك أنها تُلوِّث اليدَيْن بالمادة الدبقة الشبيهة بالدم اللَّزِج. أشاح ساشكا بنظره عن اليدَيْن وراح ينظر إلى الغرفة. بدا له أن كلَّ الذين ماتوا في الحرب، إنما ماتوا هنا حصراً، وهنا أراقوا دماءَهم التي سمَّاها الناس طلاءً. غزا الدُّوَارُ رأسَه، وأحسَّ بالغثيان يعتصر حنجرتَه، فانطلق سريعاً إلى الخارج مُوشِكاً أن يُسقِط والدةَ كاتيا أرضاً. في الشارع، تنهَّدَ بقُوَّةٍ واستفرغ على الطريق مُباشَرة.

قال وهو يَئِنُّ: «شيء مُقرِف. يا للقرف!»

أمسَكَ ساشكا بالجدار، ليَطْبع عليه أصابعَه الملطَّخة بالطلاء. ليتَ الأرضَ ابتلعَتْه لكيلا يَعُودَ إلى هذا البيت أبداً. هنا عاش كرايف، وقُتِل فيما بعدُ، وهنا عاش ولَدُه، وهذا قتلوه أيضاً. هنا تُقِيم والدةُ كاتيا، التي قَتَلوا زوجَها وولَدَها، وتُقِيم كاتيا، التي فقَدَت أباها وأخاها، ولعلها الأكثرُ تعاسةً بين الناس. انتابَتْه نوبةٌ أخرى، أفرغَت ما بداخله من عُصَارةِ المَعِدة، كان ذلك مُؤلِماً ومُقزِّزاً.

تناهى إليه صوتُ كاتيا خلفَ ظهره: «ساشا، أنت بخير؟»

لم يُجِب، فقط كان يَلتقِط أنفاسَه بصعوبة. ولمح الفرشاةَ التي في يده المرتجفة، فأَفْلَتَها وسقطَت في الممشى.

رفَعَت كاتيا الفرشاةَ قائلةً: «سأُنهِي العملَ بنفسي، هيا بنا». وشدَّتْه من مِرفَقه. سار إلى جانبها بصعوبة، لتدخلَ به إلى المطبخ، فإلى المغسلة، ثم عادت لتُكمِل الطلاء. كانت والدةُ كاتيا تقلي البطاطا، وتُقشِّر البصل.

تساءلت الأم: «لستَ على ما يرام؟ إني مِثلَك، تُثِير رائحةُ الطلاء الغثيانَ لديَّ. لذلك لم أُمارِس هذا العمل قَطُّ. كان غريغوري يَتولَّى القيامَ بهذه الأعمال آخِرَ مرة، قبلَ رحيلِ ولَدِنا ساشكا. حينَها، غيَّرَا ورقَ الجدران إلى اللون البُنِّي الذي كان ساشكا يحبه. كان يحب الأشجار، لا سيما الصنوبر، بجذوعه البُنِّيَّة. هكذا كان يقول. كما اشتريا هذا الأثاث؛ هو وغريغوري.

لم يَعُد ساشكا يَقْوى على الاستماع إليها. لم يَبْقَ من مُدرِّبه السابق إلا الخِزانات وكلام والدة كاتيا. ولم يَبْقَ من ابنها ساشكا حتى الكلام. فقط السرير الذي قد يكون شغَلَه أحدُ المغاوير، وإلَّا انتهى ذِكْره أيضاً إلى الأبد.

تابَعَت الأم حديثها: «ما إن وُلِدت كاتيا، حتى ابْتَعْنا لها سريراً، وعندما عاد أخوها من المدرسة، أخرَجَها من السرير وحملها بين يدَيْه في أرجاء البيت. فرأيته ووبَّخْتُه». وضعَت المِقْلاةَ على لوحِ تقطيعِ الخبز على الطاولة. «هل أنْهيتُما العمل، يا كاتيا؟ نادي إنوكينتي، البطاطا جاهزة».

جلسوا يأكلون. كان كيشا مُعْتَداً بنفسه، وينظر إلى كاتيا، أمَّا هي فكانت تنظر في طبقها، بلا شهية، تَعْبث بحبَّات البطاطا. وراح ساشكا يُحدِّث نفسَه، لو كان أكبر عمراً، لَكان يُمكِن أن تُصبِحَ زوجةً له، ولكانت سعيدةً بذلك. وفكَّرَ أيضاً، هي تحبه حقاً، وهو يُسبِّب لها الألمَ بتَعامُله هذا. يجب أن يقول لها؛ هو أيضاً مُعجَبٌ بها، لكنَّ ذلك لن يكون تصرُّفاً صحيحاً؛ لأن كيشا أفضلُ منه بكثير؛ لذا عليها أن تَمْنح حبَّها لكيشا، وليس له إطلاقاً. لكن الوقائع تَسْلك طُرقاً غبية جداً. أتى ساشكا على وجبته، وطلب زيادة، وظلت كاتيا صامتة. ثم تكلَّمَ كيشا، فاستعرض بطولاتِ وحدتِه، وهو يكذب ويزيد. وبالتفصيل المُمِلِّ وصَفَ استلامَ مكافأةِ المعركة وبالَغَ في قيمتها.

قاطَعَه ساشكا: «كيشا، لقد داهَمنا الوقت».

تساءلت الأم باستغراب: «هل ستُغادِران؟ اعتقدتُ أنكما ستَبِيتان الليلةَ عندنا».

أجاب ساشكا مُقطِّباً: «لدينا أعمال، علينا أن نتسلَّم الأطعمةَ المحفوظة اليوم. وتنتظرنا مَهامُّ أخرى».

نظر إليه كيشا كمَن ينظر إلى رجلٍ مخبول، وآثَرَ الصمت. كاتيا أيضاً لاذَت بالصمت، وكأنها لا تُصدِّق ساشكا. أصلاً، لم يكن ذلك بذي أهمية.

قالت والدة كاتيا: «ما دام الأمر هكذا..».

قال كيشا: «سنأتيكم غداَ».

قال ساشكا: «كاتيا، أتَسمحين بِبِضعِ كلماتٍ على انفراد؟ هناك خارج البيت». ونهض واقفاً.

أومأَت كاتيا بالمُوافَقة، ارتَدَت سترتها وخرجت.

أصدر ساشكا أوامرَه، وهو يتبعها للخارج: «كيشا، حاوِلْ أن تساعد بنَقْل الأطباق إلى المطبخ».

وقفا عند المدخل.

- «كاتيا..». وصمت ساشكا حائراً من أين يبدأ، ثم قال: «اعذريني. تسير الأمور على نحو سيئ..». وفكَّرَ أنه من الصعب وصْفُ حياتهم دون استعمالِ كلماتٍ بذيئة. «هذه الحرب... لقد تغيَّرتُ كثيراً، لم أَعُد مَن كنتِ تَعْرفينه. أنتِ تَذكُرينني منذ أيامِ الفيلق..». تلكَّأَ ساشكا في حديثه. «لن تستطيعي التواصُل معي، إذا ما عرفتِ عني كل شيء. هكذا».

أجابت كاتيا: «هذا لا يهمُّ، المهمُّ أنك حيٌّ. كنتُ أخشى أن يَقْتلوك، لا سيما بعد أن أخبروني بمقتل بابا. صديقتي تعرف شاباً قتلوه أثناءَ المعركة. طالِبٌ برتبة ضابط، لكنه أكبرُ عمراً منك، يتخرَّج هذا العام... أقصد كان سيتخرَّج... كنت دائماً أفكِّر: المهمُّ أنه ليس أنت. علَّمني أحد معارفي كيف أُصلِّي، فصلَّيْتُ».

قال ساشكا بمرارة: «أنا عَصِـيٌّ على الموت، لسوء الحظ».

اعترضت كاتيا: «ماذا تقول؟! لا يجوز لك أن تموت. فأنا أحبُّك، هل تفهمني؟»

نطقت كاتيا هذه الكلمات الأخيرة بتَأَنٍّ وبصوتٍ يُشبِه الصراخ. هذا كل شيء. ظلَّ ساشكا صامتاً، لا يَجْرؤ على أن يُفصِح عن الأهم. هذا كان أصعبَ عليه من أن يَقتل أحداً. ما أصعب أن تقول: «لا يُمكِننا أن نكون معاً». لشخصٍ يحبك بشدة، ويُصلِّي من أجلك، وربما لا تزال على قيدِ الحياة بفضلِ ذلكَ وحده.

تضرَّعت كاتيا: «أرجوك، لا تَمُت».

أومأ ساشكا برأسه راضخاً، ثم الْتَصَقت كاتيا به تُلامِس عنقَه بوَجْنتها، وأحسَّ هو كيف انساحت دموعُها الدافئة تحت ياقته.

قال ساشكا: «كل شيء سيكون على ما يُرام. اعذريني».

قالت وهي تبكي: «لا بأس. أنا أعرف، قريباً سيكون عيد ميلادك. عرفت ذلك، أيامَ الفيلق، من وثائقك. الخامس من كانون الأول، صحيح؟»

أومأ ساشكا برأسه ثانيةً.

فقالت: «أنتَ بالطبع، لن يكون بوسعك دعوتي لزيارتك هناك. إذاً، يجب أن تأتيَ أنت. لا بأس، ستَسْعد أمي أيضاً بذلك».

قال ساشكا: «سأجيء بالتأكيد».

انطلقَت كاتيا تَسْتدعي كيشا من الداخل، وظلَّ ساشكا وحيداً، يُراوِدُه إحساسٌ بأنه معتوهٌ ناكِرٌ للجميل.

انسدلَتِ الغيومُ الداكنة ستاراً كثيفاً حجَبَ السماءَ والشمسَ وهي تَجْنح للمَغِيب.

هناك، خلف تلك الغيوم يوجد الإله الذي صلَّتْ له كاتيا، ويُصلِّي له شيز طوالَ الوقت. وربما الإله الذي صلَّت له كاتيا هو مَن استجاب. لعله غيرُ إلهِ شيز! وقد يكون لكلِّ إنسانٍ إلهٌ. وتلك النجوم ثقوبٌ صغيرة، تُراقِب الآلهةُ من خلالها مَخلوقاتها البشرية، وتَرى أفعالَهم خلال اليوم.

إذا كان الأمر كذلك، فلن ترى تلك الآلهةُ اليومَ شيئاً البتَّة. بسبب الغيوم. صُفِق الباب. اقتربا كيشا من ساشكا، وفي إثره كاتيا.

سألته كاتيا: «هل أنت تُدخِّن؟ سأُعطيك سجائرَ والدي». وناوَلَته عُلْبتَي سجائر مفتوحتَيْن.

دسَّهما ساشكا في جيبه قائلاً: «شكراً».

بَدَا كيشا وكأنه غاضب، وهو يقول: «هيا بنا. لضرورةِ الذهاب إلى الأنقاض. سنطل عليكم، يا كاتيا، مرةً أخرى».

ما إن ابتعدا حتى الْتَفَت ساشكا ليَطْمئِنَّ أن كاتيا غابَت خلف الباب، وسرعان ما اتَّجَه صوْبَ الحاوية.

شرح لكيشا: «الحقيبة هنا». وراح ينبش النُّفايات.

تمتم كيشا: «لا بأس، فعلتَ شيئاً مفيداً هذه المرةَ. ظننتُك أحمق».

وافَقَه ساشكا: «أنا، يا كيشا، حقاً أحمق. سأجرُّ الآن هذه الحقيبةَ عبر المدينة كلها».

وجدا بين الرُّكامِ قِطعتَيْ حبلٍ حزَمَا بهما قبضةَ الحقيبة المهترئة، وحملاها معاً بصمت. عند المحطة تساءل كيشا:

- «ساشا، لماذا رفضتَ المبيتَ هناك؟ لديهم دِفءٌ، وراحة، وكنا سنُوفِّر بعض الحطب. كما أن كاتيا هناك».

- «كيشا، لا أستطيع أن أقدِّم لها شيئاً. أفهمتَ؟ إنها تنظر إليَّ بشكلٍ... أنا أعرف كيف يُمكِن أن يكون الرجلُ الحقيقي؛ يجب أن يكون كما كان أبي، كما كان كرايف. أمثالُهما جديرون بالعِشْق. أما أنا فلستُ كذلك. أنا مُعجَب بها، لكنني لا أملك الحقَّ في تدمير حياتها».

استشاط كيشا غضباً: «لا يُمكِنني ذلك... ليس من حقي... شيء سخيف! هل تعرف كم أَثْقَلْتَني باستقامتك! وهل أنا أيضاً، في رأيك، لا أستطيعُ أن أتزوَّجَها؟ حتى لو اشتريتُ ورشة؟»

- «أنت تستطيع».

- «إذاً، افعل شيئاً! دَعْها وشأنها! أُحدِّثها عن مَشاعري، فتُردِّد: «ساشنكا، ساشنكا..». أُقسِم، كان الأفضل ألَّا تكون حياً!»

قال ساشكا بسخط: «كيشا، لكنه ليس ذنبي! إن أردتَ، يُمكِنني أن أذهب الآن لأقول لها إن في حياتي فتاةً أخرى غيرها!»

- «حَذارِ أن تفعل ذلك». تقدَّمَ كيشا باتجاه المحطة يَسْحب الحقيبةَ خلفه. «إيَّاك أن تُسبِّبَ لها إزعاجاً، وإلَّا نلْتُ منك!»

- «اضربني! أُقسِم لك أني لن أردَّ عليك».

- «هه، هذا ما تقوله الآن! وإذا ثملتَ فستُطلِق عليَّ النارَ من سلاح شيز. حين تكون ثَمِلاً تُصاب بالجنون. ممنوعٌ عليك تَعاطي المشروب. كان الأجدر بك شراء هديةٍ لكاتيا، فأنا قد اشتريت. وإلَّا، يُمكِنك شراءُ نصفِ كيسٍ من الفحم. لقد استلمتَ مكافأةَ المعركة، وأنفقْتَها على المشروب. كومةً ماركات!»

توقَّفَا، أَنزَلا الحقيبةَ على نشارةٍ منثورة، وتبادَلَا مواقعَ يدَيْهما. خطر في بال ساشكا أن كيشا لا يعلم شيئاً بشأن الدراهم التي دُفِعت لقاءَ عمليةِ إيليا.

ولو عرف بذلك، لَكان أدانه أيضاَ. لا بأسَ، دَعْه يعتقد أن الدراهم أنفِقَت على الكحول.

أسرع كيشا بالقول: «كاتيا فائقة الذكاء، تتحدث دائماً في علم النبات. عن كلِّ منطقةٍ، وماذا يُزرَع فيها. عندما نكون معاً، تُحدِّثني دائماً عن مختلِف أنواع العلوم. اليومَ راحت تسألني إن كنتُ أومِن بالله. في باقي الوقت لا تتحدَّث إلّا عن علم النبات. طبعاً عندما لا تتحدَّث عنك، أيها المعتوه».

تابَعَا سيرَهما باتجاه البيت بصحبةِ الحقيبة العتيقة، المَحْشوَّة بحاجياتِ الرجل الذي غادَرَ هذاالعالَم. هذا بالطبع لم يَعُد غريباً أو مُستهجَناً، بل هو شيءٌ جميل عُثِر عليه، وحظٌّ وفيرٌ يَسْتدعي السرور.

27

كان يورا روشيك ينتقل ليسكن في غرفة الكلب. أخرَجَ حقيبةَ ظهره، وآلتَه الموسيقية، وفراشَه، وهو يَشْكو أمرَه لساشكا الجالس في الغرفة الكبيرة:

- «أنتقلُ لأسكن مع ماكس؛ لأن شيز لم يَعُد يُطاق مُطلقاً! يقول إنني سأموت بمرضِ الزُّهْري. أليس معتوهاً؟ فأنا أحمي نفسي دائماً! يقول: إذا أراد اللهُ أن يأخذَ روحَ أحد، فلن يَحُول دونَ إرادته شيء».

أجاب ساشكا جاداً: «هل تعلم أن لدى ڤـيتكا موهبةَ التنبُّؤ؟»

قال يورا: «صديقكم ڤـيتكا مُصابٌ بالعَجْز الجنسي!» ثم تَفَل وهو يحمل أمتعتَه ويغادر.

قال ساشكا مُعقِّباً: «لا تَقُل «صديقكم»، بل قُلْ «صديقنا»».

لم يُجِب يورا؛ كان يتحاشى أن يَنخرط مع ساشكا في أي حديث. ربما كان يخافه، وربما لم يَجِده نِداً للحديث معه. خارجَ النافذة المغطَّاة بالأقمشة الرثَّة، بدأ المطر يتساقط بكآبةٍ وكأنه نزل استجابةً لأفكارِ ساشكا الكئيبة مثله. راح ساشكا يُحدِّث نفسه: «تُرى، لماذا حبَسَ كيشا نفسَه حتى الآن في غرفته، ولم يذهب لزيارة كاتيا؟» لربما هي الآن في انتظارهما، لا سيما ساشكا. لقد حاوَلَ أن يَتخيَّلَ كيف يجب على الشاب أن يَتعامل مع فتاةٍ يَعْشقها؛ قبلَ كل شيء، يجب تقديمُ الهدايا لها، من قبيل الدُّمى القماشية اليدوية الصُّنْع كالتي تُباع في الأكشاك. ثم، حسب التقاليد المتعارَف عليها، يُقدِّم الأزهار. في

الحقيقة، لا توجد أزهار الآن، يُمكِن جمْعُها صيفاً من البراري. بعض طَلَبة الحربية الأقدم الذين لديهم صديقات، كانوا يُقدِّمون أزهاراً بَرِّيَّة تَفُوح منها في المَهْجع رائحةٌ تُدوِّخ، تَطغى على رائحةِ البزَّات العسكرية ورائحةِ الجريش المعهودتَيْن. وكأنَّ الشُّبَّان العاشِقِين يخرجون للتَّجْوال مع صاحباتهم أزواجاً مُتشابِكي اليدَيْن أو الذراعَيْن، يَضُمُّونهن ويَهْمسون بآذانهن تُرَّهاتٍ سخيفة. تخيَّلَ ساشكا كاتيا وإلى جانبها كيشا. لا يرغب في أن يتخيَّل نفسَه في موقفٍ سخيف كهذا. لكن كاتيا في غاية اللطف والجمال. كان رائعاً منها أنها اعتنَتْ به يومَ مرضه. وهو ما زال، حتى الآن، يَسْعد لرؤيتها، ومُشاطَرتها الحديث. لماذا لم يُغرَم بها حتى الآن كما هو حال كيشا؟ فيُعرِض عن الدنيا بما فيها، ويَنطلق إلى كاتيا؟ دون أن يتساءل إن كان يَحِق له مُصاحَبتها أم لا.

حكَمَ ساشكا على نفسه: «ببساطة، أنا لستُ كُفْئاً لأن أكونَ عاشقاً حقيقياً؛ لأن مَن كانوا غالِين علَيَّ ماتوا، أو غدروا بي. ربما لستُ أنا المذنب، قد تكون مَدِينتُنا مدينةً فاشلة. من العبثِ هنا التفكيرُ بالحب والسعي إليه. البَغْضاءُ أسهلُ. هذا يُمكِن اعتيادُه. سكانُ المدينة لا يحبون المغاوير، ولا يطيقون «الأخْوة الحُمْر». نحن أيضاً لا نحب «الأُخْوة»، ونَعُد سكانَ مركزِ المدينة نُفايات. قد يكون ذلك بدافعِ الغيرة. القيادة العليا لديها مكتبُ تحقيقاتٍ لا يطيق جميعَ المشبوهين، يُلقِي القبضَ عليهم ويقتلهم. الكلُّ في المدينة يكرهون سكانَ إنسك، والجميع يكرهون أحداً ما. لربما هنا تَكمُن غايةُ المدينة؛ كُرْهُ الجميع. أمَّا الحب فهو تَفاهة. لو كانت مَشاعِرُ الحب هي الضابطَ الوحيد لَكان الجميعُ تَعايَشوا، لَكان من السهلِ على الأعداء احتلالُ مدينتنا. فقط في الحكايات، يحب الجميع بعضهم بعضاً».

دخل الكلب، وسأل وهو ينظر إلى ساشكا بتَمعُّنٍ:

- «هل يبدو كيشا طبيعياً؟ أتعرف ماذا ابتاع مني؟»

- «ماذا؟»

- «كتاب البيولوجيا! مُقابلَ سبعةِ ماركات! من حُسْن الحظ أني لم أستخدمه كورق سجائر. وطلب مني أيضاً كتابَ «كاماسوترا»، لكنني أتْلفتُه في الصيف الماضي من أجلِ لفِّ السجائر».

جزم ساشكا: «المعتوه! العاشق كيشا، يَتغلَّب على البخل!»

قال الكلب: «الحبُّ يُغيِّر الإنسانَ نحوَ الأفضل».

ثم أردف: «على العموم، تَحدُث أشياءُ غامضةٌ هنا في وحدتنا. صباحاً، أعلَنَ ڤـيتكا أنه سيتخلّى عن قيادةِ المجموعة، وسيَمثُل كونكوف أمام اللجنة الطبية».

- «أيُّ لجنةٍ هذه؟»

- «سيَلْتحق بالقوات المسلَّحة النظامية، أَلَمْ تسمع بذلك؟»

- «كلَّا! من أين لي أن أعلم؟»

- «منذ زمنٍ طويل وهو ينتظر بلوغَ السابعة عشرة. حتى إنه لم يشرب في يومِ ميلاده. عمُّه في سلاح الحوَّامات، سيتقاعد الآن. وسيَشْغل جينكا مكانَه. سيُطارِد سكانَ البوادي بالحوَّامة. أليس محظوظاً؟»

ردَّد ساشكا بخمول: «بلى». انتابَتْه الغيرةُ فجأةً.

انقضى النهار بطوله وكيشا يُحاوِل جاهداً استيعابَ كلِّ ما يَرْويه كتابُ علم الأحياء هذا، على أنغامِ آلةِ يورا الموسيقية ودندنتها.

مساءً حضَر شيز، واقترح على الجميع عقْدَ اجتماع، ما داموا مُتحلِّقين بأغلبيتهم حولَ الموقد. تذكَّرَ ساشكا أن الكلب تحدَّثَ عن شيز في الصباح، لكنه تذكَّرَ ذلك بلا مُبالاة. لا يهمُّه لمَن سيُوكِل أمرَ قيادةِ المجموعة.

- «جئتُ لِأُحِيطَكم علماً بقراري التخلِّي عن مهمة قيادة المجموعة. مهامُّ القيادة هذه باتَت تَتعارَض وتَطلُّعاتي الحياتية. اعتباراً من هذا اليوم سأكون مُستعِداً لأرى مكاني إما كونكوف وإما يِرخوف. دَعُوني أسمع اختيارَكم».

قال الكلب: «المؤكَّد ساشكا يِرخوف! كونكوف جينكا سيُغادِر».

استغرب كيشا: «إلى أين سيغادر؟»

تضاحك جينكا، وهو يحتضن بكفَّيْه فنجانَ الشاي الساخن: «أكنتم تعتقدون أنني سأظلُّ معكم، أيها البلهاء، حتى أُحالَ للتقاعُد؟ خَسِئتم!»

تساءل ساشكا: «ماكس، يورا، كيشا... أهؤلاء ليسوا في الحسبان؟»

تنهَّدَ الكلب: «أنا أضعُ نظارات، والرائد لا يحترم لابِسي النظارات. كيشا سينشغل بالسرقة فوراً، ويورا مُستجَد. فلا بديلَ لك، ساشكا. عليك أن تتولّى

المهمة».

نهض شيز قائلاً: «هذا يعني أن قائدَ مجموعتكم الآن هو يِرخوف. هذا ما تَوقَّعتُه، مهمةٌ تناسبه جداً، أما أنا فضِقْتُ ذرعاً بها». وانطلق إلى غرفته.

صاح كيشا: «إذاً، انتهى أمرنا. ضاعت أجورنا؛ سيدفعها ساشكا لقاءَ مشروبه. الدراهمُ تَتبخَّر لديه بسرعة».

اعترض ساشكا: «لقد أقلعتُ، يا كيشا، انتهى كل شيء. ولا حتى غرام واحد».

ضحك يورا بصوتٍ عالٍ، وقطَّبَ كيشا وجهَه.

قال مُضِيفاً: «كان الأفضل أن تختاروني. ما الذي أصابَ شيز فجأةً؟ كم كان مُتحمِّساً في قتال المتشردين، والآن يبدو هو نفسه كداعية للسلام. يِرخوف سعيدُ الحظ؛ يتقاضى القادةُ أجوراً أعلى، كما أنه سيُوزِّع الأغذيةَ المحفوظة».

قاطَعَه ساشكا: «اسمع، يا يانسِن، أنت لا تتحدَّث إلَّا عن الطعام. أجل، عن الطعام. تُرَى، هل تحب مدينتَنا؟»

أعلن كيشا بصوتٍ مسموع: «إنها آخِرُ همومي».

قال يورا وهو يضرب ركبتَيْه بيدَيْه: «يا للحب! أيها الأبلهان، إنه يذهب بعقولنا! ما رأيكما في أن نقصَّ شعورَنا، يا شباب؟ ساشكا، أنت شعرك جميل وهو أشعث، أمَّا كيشا فعندما يخلع القبعة... لو أنني امرأة، لَهلكتُ من الرعب!»

أحسَّ كيشا ببعضِ الحَرَج، واحمرَّتْ وَجْنَتاه خجلاً.

قال أخيراً: «لا بأس. أنا أيضاً أردتُ أن أقصَّ شَعْري، لكن الوقت لم يُسعِفْني. لدينا هنا الشاب «جون»، هو مُستعِدٌّ مقابلَ نصفِ لترٍ لحلاقة أي رأس. سعرٌ زهيد، ولا حاجةَ إلى الذهاب بعيداً. دَعُونا نَقْصده مُباشَرةً».

سُرَّ يورا: «رائع!»

«جون» شابٌّ من وحدة الخَل، مُنتفِخ الوجه لإفراطِه في الأكل، حلَقَ لكيشا رأسَه بيدٍ لا ترتجف، وبينما كان يورا يضحك على المسكين، قصَّ شَعرَ ساشكا أيضاً. ثم حاوَلَ يورا أن يُناقِش جون بخصوص قَصَّات الشعر المُعاصِرة،

لكن الأخير اكتفى برفرفةِ جَفْنَيْه بغباء، وحلَقَ رأسَ يورا على الصفر أيضاَ. وبعد أن استمَعَ إلى شتائمِ يورا القَذِرة، ابتسم بتسامُح وردَّ عليه بشتيمة، ثم توارى في غرفته وهو يَقْبِض على قنينته التي حصل عليها أجراً.

قال يورا مُعاتِباً: «يا لها من خدمةٍ أسدَيْتَها لنا، يا كيشا! حلَّاق بارع، حلَّاق بارع! كيف سنُقابِل الفتيات بهذه المناظر؟ بعضهن لا يَلْتفِتْنَ إلى المظاهر، إلا إذا كانت الفتاة محترمة».

قاطعَه كيشا: «ما كان عليك أن تَسْخر مني! كما أنها أرخصُ الأسعار؛ ثلاثةُ رؤوس مقابل قنينةٍ واحدة».

فتح ڤـيتكا الباب، فتأمَّلَ الثلاثةَ ولم يبتسم، بعكس ما كان يُنتظَر منه، وقال:

- «أنتم الآن تُشبِهون قُدامى البوذيين؛ حَلِيقو الرؤوس مثلهم. لا بأس، لديكم زائرٌ هناك. اذهبوا للترحيب به».

كان يُمكِن لأيٍّ كان أن يأتي ضيفاً، لكنَّ قلبَ ساشكا انقبَضَ لسببٍ ما؛ ظنَّ أنه إيليا، جاء ليَعْتذر ويحكي كلَّ شيء. اندفع ساشكا داخلَ الغرفة ليجد فوق سريره پـاڤـْلِك بثيابه الوَسِخة، ووجهه مُتورِّم من شدة البكاء. وبجواره جلس الكلب يَمْسح شفتَيْه بقطعةِ قماشٍ مُبلَّلة. ويحمل جينكا بيده كأساً من الماء.

قال ساشكا مرعوباً: «من أين وصلتَ هكذا؟»

تعالى نحيبُ پـاڤـْلِك مجدداً.

قال مكسيم: «لا يُفصِح عن شيء. أعتقد أنهم أَوْسَعُوه ضرباً في البيت».

جلس ساشكا بجواره قائلاً: «يجب نقْلُ الصبيِّ إلى المشفى، ويجب إعلامُ الشرطة للتحقيق مع عائلته».

صَفَر جينكا ودوَّرَ إصبعَه عند صدغه وهو يقول:

- «ما بك يِرخوف؟! هل أنت مجنون لتبلغ الشرطة؟! سيَعْتقلونك فوراً، أيها الأحمق».

- «وما علاقتي أنا؟»

- «مَن سيُصدِّق أنك لستَ أنت الفاعل؟ سيَسْتدعون والِدَه فتَذُوق طعْمَ قبضته، ويتَّهِمُك الفتى بكل شيء. ثم يَعْتقلونك، وقد يُعدِمونك. حسب ما يُقرِّره القاضي».

راح پـاڤـْلِك يَنْقل ناظِرَيْه بين جينكا وساشكا، وهو يَمْسح دموعَه عن وَجْنَتَيْه.

قال ساشكا غير واثقٍ: «أيُعقَل ذلك؟! أيمكن أن يحدث هذا؟!»

أحسَّ جينكا بغضبٍ مُفاجِئ: «كلَّا، مثل ذلك لا يحدث. وكأنني، أيها الجاهل، أقصُّ عليك حكايةً قبل النوم!»

ذكَّرَه ساشكا: «جينكا! لماذا تَصْرخ في وجهي؟ أنا الآن بمثابةِ قائد المجموعة».

قال جينكا: «اذهب إلى الجحيم، ما أنت إلا قائدٌ للجوارب». ودقَّ بفنجانه على حافة النافذة. «سأجمع حاجياتي اليومَ وأغادر. منذ الآن، لم أعُد من المغاوير. انتهى. أنهيتُ علاقتي هناك في المكتب، وهذه براءةُ ذمتي». وضَعَ جينكا إيصالاً أمام ساشكا وغادَرَ.

تضاحك يورا بغباوةٍ في إثره.

قال ساشكا متأملاً: «لا بأس، لا حاجةَ إلى الشرطة. يُمكِنك، يا پـاڤـْلِك أن تُقِيم معنا هنا. لستَ مضطراً للعودة إلى البيت».

تنهَّدَ كيشا وهو يَقِف خلف ساشكا، وتناوَلَ كتاباً بالياً، على مَقربةٍ منه، وراح يُقلِّب صفحاتِه مُستعِيناً بضوءِ الفانوس. ومسح ساشكا بيدِه على رأس پـاڤـْلِك، وشعره المُلبَّد الذي لم يعرف الحمَّام منذ زمن.

تضاحك يورا بسخرية: «يا لك من أمٍّ حَنُون! ڤـيتكا رجل طيب، أعلَنَ فوراً: هذا الصبيُّ لن يعيش طويلاً. بل وبيَّنَ أفضلَ طريقةٍ للموت».

قال ساشكا: «كيشا، لا بُدَّ من إعدادِ سريرٍ من أجل پـاڤـْلِك. هل ما زال لدينا بعضُ الألواح الخشبية؟»

أجاب كيشا، دون أن يَرْفع ناظِرَيْه عن الكتاب: «الألواح موجودة. لقد أصاب دماغي الدُّوَار من هذه التُّرَّهات. سراخس وأشنيَّات وطحالب! ما حاجةُ الإنسان لمعرفتها، ما دامت لا تنبت عندنا هنا! ولا يمكن أكلها!»

تضاحك ساشكا قائلاً: «أنت ساذج، يا كيشا! يجب أن تعرف هذه المعلومات في حال عزمتَ على مُغادَرة مدينتنا الرائعة باتجاه الجنوب، مثلاً. هناك، حصرياً تنبت الأشنيات، كما سَمَّيتَها».

- «لن أذهب إلى أيِّ مكان، لستُ منزعجاً هنا. ما الذي ينتظرني هناك في الجنوب؟ هناك، كما يقولون، الرمالُ حتى الرُّكب، والحرارةُ عاليةٌ تُذِيب الدبَّابات. أيُمكِن العملُ بالمزارع في مثل هذا المكان؟ كلَّا، يا سانيوك، أنا لستُ معتوهاً!»

تنهَّدَ ساشكا، وأخذ يفتح علبةَ لحمٍ لإطعام الصغير.

حدَّث نفسه: «عجباً! يبدو لي أن ما أفعله الآن، عليَّ فعله من أجل أوليغ. وإن لم تَطُل فترة تعارُفنا، فنادراً ما كنا نتبادل الحديث، ولم يَسْبق لي أن وعدْتُه بشيء. لكنني أشعر وكأنَّ أوليغ ينظر إليَّ».

استيقظ ساشكا ليلاً على سماع صوتٍ غريب. أدار رأسه ليرى الصغيرَ پـاڤـْلِك يبكي إلى جانبه.

- «ماذا أصابك؟ لِمَ تبكي؟ هل تشعر بألمٍ ما؟»

تلعثم الصغير: «أبداً، أنا خائف. قد تطردني من هنا، أو يَجِدني والدي، ويُسلِّمني للجيفيين. هم يَدْفعون عشرين ماركاً لمن يُسلِّمهم ولداً. ما إن يحتاج والدي للدراهم حتى يأتي إلى هنا أيضاً».

مسح ساشكا مجدداً رأسَ الصغير بيده، وأحكَمَ الغطاءَ حوله بعناية، وقال: «لن يأتي. وإذا جاء فسأُحطِّم وجهه! كُفَّ عن البكاء، كيشا سيُعِدُّ لك غداً سريراً لائقاً، لقد وعَدَني بذلك. ستضع فوقَه فراشَ الشكَّاء، وسأعطيك غطاءً جديداً تقريباً أهداني إياه أحد الضباط».

تمتم الصغير بصوتٍ ناعس: «سأكبر وأصبح قائداً، مثل أخي أوليغ».

تنهَّد ساشكا وهو يغفو.

في اليوم التالي، بدا جَلِياً أن القيادة ليست مجردَ مُرتَّبٍ من خمسين ماركاً بدل الثلاثين السابقة، وشريطٍ مع حرف «ق» فوقَ الأكمام، ذاك الحرف الذي راجَت عنه حكايةٌ في الأنقاض، مُفادُها أن هذا الحرف لا يشير دائماً إلى كلمة «قائد»، بل في معظم الأحيان هو إشارةٌ إلى كلمة «قرد». تبيَّنَ أنها مسؤوليةٌ فيما يخص وثائقَ عناصر المجموعة، وهي حوارٌ مُزعِج مع الخَل، الذي بات الآن رئيسَ ساشكا المُباشِر.

نقل الخَل صورةً عن الأوضاع المستجدة إلى ساشكا باختصار، على إثر ذلك صار واضحاً لساشكا أن النظامَ الصارم السائد في الوحدات توقّفَ العملُ به منذ موتِ الذئب. وتابَعَ الخَل يقول وهو يُطوِّح برجلَيْه فوق الطاولة، في غرفة الذئب التي صارت قَذِرة، إن ساشكا لم يَنَلْ إعجابَه يوماً؛ لأنه يبالغ في الغرور. والآن يَحْظى بإعجابٍ أقلّ؛ لأنه ليس على قدْرِ مسؤوليةِ منصبِ القائد. على مَقربةٍ من الخَل جلس غوغا وشابٌّ آخَر يُطلَق عليه اسم زومبي، وكان الأخير يتضاحك مع كل كلمةٍ يقولها الخَل مُستعرِضاً أسنانه المنخورة. ختم الخَل حديثه بقوله: «إذاً، إن صدَرَ أيُّ فعلٍ عن المُغفَّلين الذين تترأَّسهم، فسأقتلك دون أن ألجأ لأية تحرِّيات قانونية. أفهمتَ؟ أعِدْ ما قلتُه لك». كرَّرَ ساشكا، وهو يَكزُّ على أسنانه، ما قاله له الخَل الذي أضاف قائلاً: «اصعدْ إلى الدور الثامن حيث الشقة التي إلى اليمين، وانظر إلى الأسفل. إذاً، لو حدث شيءٌ فإنك ستُلقِي بنفسك من هناك، ونَعُدُّه حادثاً مُؤسِفاً سببُه تَعاطيك الكحول. ثم نبكي حزناً عليك».

غادَرَ ساشكا غرفةَ الخَل غاضباً، ينتابه الاشمئزاز؛ لم يَسْبق له أن وقَعَ تحت إمرةِ قائدٍ كهذا، ويبدو أن من الصعب الآن تبديله. وقف ساشكا، عند السُّلَّم، يحاول تهدئةَ نفسه، ثم تابَعَ إلى الأعلى، إلى الشقة التي أشار إليها الخَل. كان واضحاً، أنه نادراً ما يَصِل أحدٌ إلى هنا. ولماذا؟ هناك حائطٌ بأكمله غير موجود، لا بدَّ أن قُنْبلةً نسفَتْه من الأساس. الألواح الخشبية المتهالكة، التي تغطِّي الأرض، والمَكْسوَّة بالثلج الكثيف الذي ينساب ماءً مثلجاً معجوناً ببقايا رُكام الكُتَل الإسمنتية القَذِرة. والريح تَزْأر، عابثةً بالحشوة وبالشرائح الخشبية المدلَّاة من أجزاء السقف المتهاوِي. وعبر الضباب الرطب لاحَت ملامحُ الأدوار المجاورة الكالحة.

جلس ساشكا، بعض الوقت، بجوارِ الفتحة في الجدار، أمسَكَ بحجرٍ صغير وطوَّحَه إلى القاع. وسرعان ما استذكر قولاً قديماً لشيز:

«انهيارُ الحجارة هُراء، أمَّا انهيارُ الروح فهو النهاية».

آنَذاك، لم يفهم شيئاً، لكن شيز كان مُحِقاً! لذا، فكلُّ ما حولنا سيئ؛ لأن الأرواح حولَنا أصابها الدمار. لا أحدَ يحتاج إلى مدينةٍ بيوتُها بيضاء، لا أحدَ يفكِّر بها. حتى هو نفسه، لم يَعُدْ يُفكِّر بمدينةٍ مُسالِمة منذ زمن. ونهض ساشكا واقفاً، وتساءل: أيُعقَل أن تكون تلك هي الحقيقة؟ أنْ لا حاجةَ إلى المدينة! وإلَّا لَكانت عُمِّرت منذ زمنٍ بعيد. كان بمقدورِ الآلاف من الرجال الأصِحَّاء أن يشتركوا في بناء المدينة حجراً تِلوَ حجر، دون أن يحاربوا، لكنهم ببساطةٍ ليسوا بحاجةٍ إلى تلك المدينة، مثل الغيوم المُثقَلة بالماء، فهي ليست بحاجةٍ إلى الرياح. لن يتغيَّر شيء مما حولنا، وسيظلُّ ساشكا مُجرَّدَ آمِرٍ في هذه

الأنقاض إلى أن يُقتَل في المعركة، أو إلى أن يحسبه الخَل مغروراَ. وقف ساشكا، وهو يشعر برغبةٍ كبيرة في تجرُّع المشروب، لكي يَحُول دونَ تسلّل الأفكار الهدَّامة إلى رأسه. ولكنه وعَد، قال كلمته. ولماذا؟ لأن الشرب سينتهي عاجلاً أم آجلاً، وسيرى الدمارَ حولَه من جديد.

28

بينما كان ساشكا يبحث عمَّا يجب، أو لا يجب فعله بشأن قيادة المجموعة، ظلَّت الوحدة العسكرية تعيش حياتها الاعتيادية. كان كيشا يختفي في المدينة من الصباح حتى حلول المساء، وهو يُقسِم أنه لا يزور كاتيا، وإنما يُتابِع أعمالاً على درجةٍ من الأهمية. أما يورا فكان يذهب برفقةِ كيشا، لكن غيابه في المدينة لا يطول، بل هو يعود بسرعة، وكعادته يَحْمل ما يتيسَّر له من طعامٍ حصل عليه من إحدى صاحباته. وبقي پـاڤـْلِك مثلَ ظلٍّ للكلب الذي تورَّطَ وقرأ له قصةً من كتاب للأطفال وجَدَه صدفةً عنده، فأخذ پـاڤـْلِك يَطْلب منه أن يقرأ له المزيد. وحاوَلَ الكلب جاهداً التملُّصَ من إلحاحه، لكنه سرعان ما وَجَد كُتَيِّباً يَحْوي خُطبَ القائد العام وأقوالَه، فراح يَقْرؤها على مسامع الصغير إلى أن فقد أيَّ رغبةٍ في الاستماع إلى قراءته. بالطبع، لم يكن الصبي يعرف القراءة، ولا حتى الأبجدية. وتبيَّنَ أنه مثلَ كيشا، من حيث تَوْقه إلى سرقةِ كلِّ ما يُصادِفه في طريقه، وكان كذلك شبيهاً بالشكَّاء، يلجأ إلى العويل ما إن يُكتشَف أمرُه.

مرَّت الليالي الأولى وپـاڤـْلِك ينام نوماً سيئاً قَلِقاً، يقفز من سريره عند منتصف الليل وهو يصرخ، فيهرع الجميع لتهدئته. ثم أصبحت الأمورُ على ما يُرام. ولم يَعُد پـاڤـْلِك يطلب العودةَ إلى منزله.

الميزة المفاجئة لقائدِ المجموعة تمثَّلَت في مجانية الاتصال الهاتفي في مركز القيادة، وكذلك في النادي المخصَّص للمغاوير. اتصل ساشكا بكاتيا. لم تكن مكالمةً ناجحة، بل كان سيْرُ الحديث أسوأَ ممَّا هو عليه عادةً. لكن ساشكا، بعدَ أن استمع لتنهُّدات كاتيا الكئيبة، حدَّدَ وعْدَه لها بأن يَزُورها في يوم عيدِ ميلاده. وأخبرها مُتباهِياً أنه أضحى قائداً لمجموعةٍ هنا. لم تَغْتبط كاتياً بذلك، وراحت تَرْجوه أن يُغادِر وحدات المغاوير، وهذا ما أفشَلَ المحادَثةَ نهائياً. فوضع ساشكا السماعة، وفكَّر في أن كاتيا لا تُبدِي احتراماً للجنود البُسَطاء، وهذا سيئ طبعاً. أيُعقَل أن تكون هي كغيرها من سكان مركز المدينة؟ لماذا إذاً تَسْعى خلفه؟ فهو أحدُ عناصرِ وحدةِ المغاوير. غريبٌ هو عالَم الفتيات!

في يوم الرابع من كانون الأول عاد كيشا فجأةً على غير عادته، وخاطَبَ ساشكا بحماس:

- «تمَّ الاتفاق! سأشتري ورشةً في المركز لتصليح وصيانة الأجهزة الكهربائية. عملٌ مُربِح. لا نصنع أجهزة جديدة، والجميع يريد اقتناءَ أجهزةِ

الراديو، وآلات التسجيل. طلب مني صاحِبُها أكثرَ من ألف، لكنني ساوَمْتُه على أقلَّ من ذلك. ويُمكِنني استئجارُ غرفةٍ قريبة هناك بمبلغٍ زهيد».

تمتم ساشكا: «تهانيَّ لك. وأنت أيضاً ستُغادِرنا؟»

أكَّدَ كيشا: «سأغادر، بعد تلك المعركة الملعونة لم يَعُد بوسعي النظرُ إلى البندقية. ثم إن كاتيا لا تريد أن يكون زوجُها مُقاتلاً. سنتزوج قريباً».

- «أواثقٌ أنت أنها ستَقْبل بك؟»

- «بالتأكيد، قد تَصدُّني في البداية، غير أنها ستُوافِق في النهاية. أنت لا تريدها، ما عساها تنتظر؟ قُتِل والِدُها، ولا بُدَّ لها من مُعِيل وراعٍ. في مثل هذه الحال لا يبقى أمامها إلا الزواج».

- «كيشا، أَلَا تعتقد أن زواجَك هذا مُبكِّرٌ جداً؟»

- «هذا مُبكِّر بالنسبةِ لك أنت، يا سانيوك، سأبلغ الثامنةَ عشرةَ في الربيع القادم. هل فهمتَ أيها الصبي؟»

قال ساشكا: «أجل فهمت. لكن كاتيا لن تَقْبل بك. أُراهِنك على مائة مارك!»

نفض كيشا يده قائلاً: «أنت ليس لديك هذا المبلغ. ماذا ستفعل غداً؟»

- «عموماً، لقد وعدتُ كاتيا بزيارتها، ولكن ما دمتَ قرَّرتَ الارتباطَ بها، فلن أذهب».

سمح له كيشا بأريحية: «كلَّا، يُمكِنك الذهاب للمرة الأخيرة؛ فهذا عيد ميلادك».

انصرف كيشا، وراح ساشكا يحدِّث نفسه؛ هناك شيءٌ غير طبيعي! سابقاً، كان يُحبِّذ أن تختارَ كاتيا كيشا، ثم اتَّضَح أن ذلك أيضاً ليس صحيحاً. لربما، خشي أن يظلَّ وحيداً في وحدته العسكرية من دون كيشا. مهما يكن، فهو صديق، وإذا تزوَّجَ فلن يدعوه حتى لزيارته، حتى لا يُسبِّبَ إزعاجاً لكاتيا. وضع ساشكا إبريقَ الشاي على الموقد، ثم استلقى، وتغطى ببطانية، وراح يتخيَّل كاتيا بفستانها الجميل وطرحتها البيضاء، وكيشا ببدلةٍ مدنية. «ثم سيُرزَقون بأطفال». وشعر ساشكا بضجرٍ ثقيل.

دخل شيز، ووضع إبريقَه بجوار إبريق ساشكا، وأخرج قليلاً من السكَّرين.

قال ساشكا بلا مُبالاة: «وَقِح أنت، يا ڤـيتكا. تدخل غرفةَ قائد المجموعة دون دعوة».

حدجه ڤـيتكا بنظرةٍ شاردة.

سأله ساشكا دونَ أملٍ في أن يُجِيبه: «اسمع، يا شيز، ما هو الحب؟»

أعلن ڤـيتكا بثقةٍ: «مرضٌ، ودواؤه الناجع هو الموت. أنت! آملُ أنك لستَ واقعاً في الحب؟»

- «لا أعلم، أردتُ أن أسمع وجهةَ نظرك. لكنني أعتقد أن الحب ليس ما أُحسُّه أنا».

قال شيز: «ليسَت كلُّ فكرةٍ حقيقة».

- «ڤـيتكا، أيُمكِنك التنبُّؤ بالمستقبل؟»

- «أنا لا أتطلَّع إلى المستقبل، يكفيني الحاضر. المستقبل هو دائماً الموت، أمَّا الحاضر فهو الحياة. هذا، طبعاً، إن كنتَ تَعِي ذلك».

- «أنت دائماً تندب الموت؛ ذاك سيموت، وهذا أيضاً. فَلْتَشنق نفسَك، لن يَمْنعك أحدٌ».

- «لم يَحِن الوقت؛ لم يَحِن بالنسبة لي، ولا لك. حان وقتُ الآخرين، نحن آخِرُ مَن سيحين وقتهم».

- «كلَّا، يا شيز، قد أكون أنا التالي. لا أريد الحياةَ بعدُ، لقد تعبت».

- «صلِّ واطلبْ من الله أن يأخذك إليه». ثم سكب شيز الماء الساخن وألقى فيه السكَّرين.

قال ساشكا: «إيمانك عبث، يا ڤـيتكا».

تَوجَّهَ شيز بدعائه إلى السقف: «إلهَنا الذي في السَّمَوات، فَلْيَتقدَّس اسمُك، ويتعزَّز مَلَكوتُك، أتوسَّلُ إليك أن تنقذ روحَ عبدِك أَلِكساندر. امنحْ عقلَه السَّكِينةَ والسُّلْوان. امنحه القوةَ لتثبيتِ إيمانه وافتَحْ عينَيْه، ما دام لا يُبصِر. اهْدِه إلى طريقَ الصواب، واحفَظْه من الضَّعْف».

نظر ساشكا إلى شيز، وهو يشعر بدبيبِ القُشعريرة في ظهره.

تابَعَ شيز دعاءه: «أَنقِذْنا، يا إلهي، نحن عبادَك الآثِمين، واغفِرْ لنا، إننا نجهل ما تَقْترِف أيدينا». خَبَتْ شُعلةُ الموقد، فظنَّ ساشكا أن تلك شمعةٌ تحترق، وتابَعَ ڤـيتكا هذيانَه، لكن ساشكا لم يَعُد يسمع شيئاً، كأنه طار بعيداً خارج الغرفة المتهالِكة. لقد أحسَّ بالسَّكِينة والانشراح، وتبخَّرَت أفكاره، وغزا رأسَه دُوَارٌ مريح.

بدا صوتُ ڤـيتكا الصاخب فَظاً وناشزاً حين قال: «أفهمتَ، يا بِرخوف؟ هكذا يجب أن تكون الصلاةُ، حتى يتمكَّنَ الإله من سماعك. انتبه، كاد الماء أن يتبخَّر في إبريقك».

أبعَدَ ساشكا الإبريقَ عن المَوقِد، ووضعه على حافةِ النافذة، ثم الْتَفَت إلى شيز الذي سكب لنفسه الماءَ المغليَّ في كأسه وراح يَرشفُ شايه. فكَّرَ ساشكا وتساءل أكثر من مرَّة وهو يَندسُّ في فراشه: «هل هو معتوه أم ماذا؟» أحسَّ برغبةٍ عارمة في النوم. استيقظ في منتصف الليل. كان كيشا ويـاڤـْلِك مُستغرِقَيْن في نومٍ عميق. لم يفلح صقيعُ الليل بعدُ في طرْدِ الدِّفْء من الغرفة، وثَمةَ شعورٌ لذيذٌ يُعربِد تحت الغطاء. تقلَّبَ ساشكا لبعض الوقت، ثم راح يُحدِّث نفسه: «ما أسعد كيشا! سيتزوج قريباً». تخيَّلَ كيشا جالساً في المقعد الأخير من حافلةٍ تَئِزُّ وتخبُّ عبر الطريق الصحراوية. بجواره جلسَت كاتيا وساشكا أيضاً، وعلى ركبتَيْه يجلس پـاڤـْلِك في زيٍّ مدرسي. كيشا ببذلته الأنيقة الرسمية؛ سترة بَنَفسَجيَّة فاخرة، وسروال أسود يلمع، ويعتمر قبعةَ جنودِ الدبابات. ابتسم كيشا بغباء. أما كاتيا فترتدي ثوباً أسود، وتغطي رأسَها طرحةٌ بيضاء.

تساءل پـاڤـْلِك: «إلى أين نحن ذاهبون؟»

أجاب كيشا: «إلى المزرعة؛ سنحتفل هناك. لقد دعوتُ الجميع: جينكا، وماكس، ويورا، والشكَّاء، والذئب».

قال سائق الحافلة: «لن يحضر الذئب». وعرف فيه ساشكا صوتَ ڤـيتكا الرزين. «إلهي، احفظ روحَ أَمَتِك كاترين، امنَحْها السَّكِينة واهْدِ عقلَها السُّلْوان. بقي عشرة».

بكى كيشا، وراح يَمْسح دموعَه بقبعته الشبيهة بالخوذة. كاتيا لم تكن إلى جانبه.

كان يصرخ: «لقد تخلَّتْ عني! كلُّكم تخلَّيْتُم عني!»

راح ساشكا وپـاڤـْلِك يُواسِيانه: «كيشا، لا تَبْكِ».

هنا، لاحَظَ ساشكا أن الحافلة لا تتَّجِه إلى أيِّ مكان، وإنما تقف وسطَ المقبرةِ؛ المقبرةِ ذاتِها حيث دُفِنت أمه. والأدقُّ، أنْ ليست الحافلة هي التي تقف هناك، وإنما هيكلها المشتعل الذي يَنْفث الدُّخَان. المقبرة كلها كانت معصوبةً بالضباب، الرطب البارد.

صاح پـاڤـْلِك بمرحٍ وركض: «عُرْسٌ! عُرْسٌ!»

قال الشكَّاء مُنتعِشاً باسطاً كفَّه وعليها سِكينٌ صغير لبَرْيِ الأقلام.

- «هذا ما أهداني إياه كيشا». وشارَكَه ساشكا فرحتَه، ولاحَظَ باستغراب أن كفَّ الشكَّاءِ لم تَكُن باردةً إطلاقاً.

واقترب كرايف ببزتِه العسكرية.

قال مبتسماً: «لقد وجدتُ لك مكاناً مناسباً. لا بُدَّ من مُغادَرة وحدات المغاوير؛ ستنتقل للعيش معنا».

سمع صوتَ والدة كاتيا خلف ظهره: «حقاً، ساشكا، ابْقَ معنا».

- «لا أستطيع». واستدار ساشكا عائداً، لكن لم يكن هناك أحدٌ. حتى كرايف اختفى.

هناك في المقبرة، المتَّشِحة بستارٍ كثيفٍ من الضباب، خيَّمَ صمتٌ ثقيل. وتراقَصَت عبر العتمة شواهدُ الأضرحة. تقدَّمَ ساشكا، وهو يُصارِع الرعب، باتجاه الشواهد، التي تزاحَمَت هناك، وهو يُحسُّ بالأوحال اللَّزِجة تحتَ قدمَيْه، دون أن يسمع دبيبَ خطواته عبْرَها؛ وكأنَّ الضبابَ ابتلَعَ كلَّ هذه الأصوات، وأحسَّ بشيءٍ مزعج غلَّفَ كيانه. وتسلَّلَ الخوفُ رويداً رويداً في غياهبِ وعْيِه، حتى نهاياتِ شَعرِ رأسه، باعثاً الغثيان. وشيئاً فشيئاً راح الضبابُ يفتح فاهَه الرطب اللَّزِج. تطاوَلَت شواهدُ الأضرحة وكأنها أنيابٌ تتهيَّأ لنهْشِه. وصاح ساشكا، دون أن يَسْمعه أحد. وظل الصمتُ مُقِيماً ومُوحِشاً. وتابَعَ سيْرَه على مَهلٍ تحت مظلةِ جبلِ الضباب الكتيم. فجأةً تبدَّتْ أمامه جُسَيْماتٌ معتمة. وتوقَّفَ ساشكا مرعوباً. كفَّت الجسيماتُ أيضاً عن الحركة. تقدَّمَ خطوةً، وثانية، وثالثة. غادَرَه الرعب، واكتنفه الفضول: «ماذا أمامي هناك؟» تراءَت له أشباح، ووضحَت مَعالِمُها؛ ڤـيتكا، وجينكا، والخَل. وقفوا جميعاً على مَقربةٍ من نعشٍ مُتهالِك يَرْقد فيه رجلٌ حجَبَه الضبابُ عن ساشكا.

نطق شيز: «كلّ شيءٍ بإرادةِ العقل الأسود». وراح يورا يَعْزف على البلالايكا لحناً حزيناً.

قال جينكا، الواقفُ بجواره، وهو يشير إلى النعش: «اذهب. طال انتظارُهم لك».

بدأ ساشكا يتقدَّم بخطواتٍ مترددة. الأوحال تتمطَّى تحت نعلَيْ ساشكا ويتعالى ارتطامُها الدبق. شقَّت أَسْدافَ الضبابِ تفاصيلُ شبحٍ مألوف: الجبين، الأنف، الشفاه. إنها كاتيا! تمدَّدت داخل النعش بثوبها الأسودِ المعهود. ارتمَت الطرحة على مقربةٍ منها؛ مُجعَّدة، لا حاجةَ إليها. حدَّث ساشكا نفسه: «ليس بوسعك أن تموتي؛ اليومَ ستتزوَّجين بكيشا». ظلت كاتيا راقدةً غير مَعْنيَّة بشيء. يداها الرماديتان على بطنها، ونعلاها الأسودان يَلْمعان تحت شعاعِ النور الخفيِّ.

زفر الأُفق بصوتِ ليوڤـا: «كُنْ صلباً، أخي، هذا يحدث أحياناً». ولم يستغرب ساشكا مطلقاً أن ليوڤـا دعاه بالأخ.

أوجَزَ شيز: «انتهى كل شيء. بدأ يوم جديد».

أحسَّ ساشكا بإشفاقٍ على كاتيا، وبشكلٍ أكبر على نفسه. ولسببٍ ما تذكَّرَ دِفْءَ جسدها الهانئ، ويديها، وصوتها الهادئ الحزين، الذي تَجلَّى في لقائهما الأخير حين قال لها: «أنا لم أَقُل لكِ إنني أحبكِ، ولن أقولها لكِ بعد الآن».

انهمرَت دموعُ ساشكا على وَجْنتَيْه، وانتابه غثيانٌ مِلْحاح. اقترب الخَل، بدُخَانِ سيجارته النَّتِن، وجينكا الذي كان يَلُوك شيئاً ما، فوضعا الغطاءَ على النعش.

دوَّى صراخُ ساشكا فجأةً: «كلَّا، لا، لا! لا تفعل! كلَّا، لا، لا!»

تبيَّنَ أن كل ذلك كان حُلْماً، وتَقاطَرَ عناصرُ المجموعة كلُّهم إثرَ صُراخِ ساشكا الذي أمسَكَ كيشا بيدَيْه بقوة.

صرخ ساشكا مجدداً: «ابتعد! ابتعدوا جميعاً!»

قال الكلب: «اهدأ، سانيوك، نحن هنا. لا يجوز أن تُوقِظَ الجميع!»

قال ساشكا وهو يدفع كيشا بعيداً: «ابتعِدوا عني». وتناوَلَ إبريقَ الشاي عن رف النافذة، ودفع السائل الذي في جوفه، وشعر بالغثيان مجدداً. «اذهبوا

للنوم».

خرج حالاً شيز الواقف عند الباب، وتَبِعه يورا أيضاً.

أصلح الكلـب وضع نظارته قائلاً: «سانيوك، هل تعاني من أية مشاكل؟» ثم أطفأ الشمعةَ التي تنير الغرفة. عَمَّ الظلام وبَدَت الغرفـة فارغةً. توجَّسَ ساشكا.

صاح بعصبية: «أَشْعِل الشمعة، أَشْعِل الشمعة».

تنهَّدَ الكلب وهو يُشعِل عودَ الثقاب: «أرعبتَ الطفل، أيها القائد. إنه يبكي».

ومسح پـاڤـْلِك دموعَه.

- «أحسستُ بالخوف في البداية فقط».

- «اعذرني». تمتم بها ساشكا مُتهدِّجاً، وهو يغطِّي كتفَيْه؛ إذ شعر بقشعريرةٍ مُباغِتةٍ.

جلس كيشا إلى جانبه على السرير، وتنهَّد.

- «خُيِّل إليَّ أنني سأموت حين سمعتُ صراخَك».

وافَقَه الكلب: «أجل، إحساسٌ لا يُمكِن وصْفُه. سانيوك، عليك الاهتمام بمُعالَجة أعصابك. تُرى بماذا حلمتَ؟»

قال ساشكا: «تُرَّهات».

تضاحك كيشا: «أيُعقَل أن تُرَّهاتٍ تجعلك تصرخ هكذا. عندما كنتُ أتدرَّب على قيادة الدبَّابة، سقط نابضٌ معدني على قدمي؛ آنذاك تعالى صراخي تقريباً كما فعلتَ أنت الآن».

قال الكلب وهو يتثاءب: «لا بأس. سأخلد للنوم. بعد هزَّةٍ كهذه، أحتاج إلى ثماني ساعاتٍ أو تِسْعٍ من النوم؛ لذا، حَذارِ أن يَلْمسني أحدٌ قبل موعد الغداء».

تساءل كيشا: «هل أُطفِئ الشمعة؟ أيُمكِن ذلك؟»

أومأ ساشكا بالموافَقة.

- «ماذا كنتَ تفعل هنا بصحبة شيز؟»

- «جاء ليشرب الشاي، وقرأ بعضَ الصلوات والأدعية، وسرعان ما غالَبَني النعاس».

قال كيشا: «لا تَأْذن له بالدخول إلى هنا؛ فما إن يتحدَّث إليك، حتى تُصاب بمثلِ هذه الهواجس، وكأنه ناقلٌ للعدوى».

أَوْمأ ساشكا بالموافَقة أيضاً.

تذكَّرَ كيشا فجأةً: «اسمع، اليومُ هو الخامسُ من الشهر! هل وُلِدتَ في الليل؟»

هزَّ ساشكا بكتفَيْه.

جزم كيشا: «ربما، ليلاً. كل الأطفال، تقريباً، يُولَدون ليلاً. أنت بلغتَ السادسةَ عشرة. تَهانيَّ لك!»

أجاب ساشكا بصوتٍ خفيض: «شكراً». واضطجع قائلاً: «لا تُنجِب يا كيشا، أنت وكاتيا، ذكوراً، البناتُ أفضلُ».

وافَقَ كيشا مُتعجِّباً: «لا بأس. ولكن ما الفرق؟»

- «اخلد للنوم». استدار ساشكا باتجاه الحائط، وأغمَضَ عينَيْه.

وتلاشى الرعب تدريجياً، وشعر ساشكا بالدِّفْء والطمأنينة.

«إنه مجرَّدُ حُلم، لن يحدث ذلك. ولماذا تموت كاتيا؟ لا مبرِّرَ لذلك».

استيقظ ساشكا يُخامِره إحساسٌ بأن شيئاً ما حدث. شعر بقلقٍ شديد، وتمنَّى أن يعودَ إليه النعاسُ حتى لا يُفكِّرَ في أي شيء.

انشغل كيشا بتنظيفِ جزمته العسكرية وتلميعها مستخدماً مادةً لَزِجةً كريهةَ الرائحة. ولاحَظَ حالاً أن ساشكا استيقظ.

- «انهض، أيها المخبول. هل حلمتَ بشيءٍ؟»

- «كلَّا». أكرَهَ ساشكا نفسَه على النزول من سريره، وراح يغتسل على مَضَض. هناك كان يقف الكلب، يَمْسح نظَّارته بقطعةِ مِنْشَفة.

- «مرحباً. عيدُ ميلادٍ سعيد! هل سنحتفل؟»

تمتم ساشكا وهو يملأ راحتَيْه بالماء المثلَّج: «سنحتفل».

«لماذا تَعكَّرَ مزاجي؟ لا أُريد لكيشا أن يتزوَّج؟ فيما مضى كنتُ أتمنى ذلك. أتراني أحسده؟ أيُّ إنسانٍ أنا؟»

سأله الكلب: «هل سيَطُول انتظارك هنا؟ ستتجمَّد. الأفضلُ أن تذهب وتُحضِر المشروب من أجل عناصرك الأعزاء».

غضب ساشكا: «ستذهب أنت. أراك تَناسَيْتَ مَنْ منَّا القائد؟»

تضاحك الكلب ساخراً: «بالطبع، لا. هنا في وحدتنا، القائدُ دائماً أكبرُ المعاقين نفسياً».

رشق ساشكا الكلبَ بحفنةٍ من الماء البارد تحت ياقته، فانطلق وهو يَكِيل الشتائم، ليتدفأ عند الموقد. كان كيشا قد فرغ من تلميع حذائه بشكلٍ مُبهِر، وراح يَنفض عن سترته غباراً لا وجودَ له. وبادَرَ يحادث ساشكا: - «أراكَ مدعوكاً مثل خِرْقة وَسِخة!»

تمتم ساشكا ساخراً: «لست أنا مَن سيتزوَّج!»

قال الكلب وهو يبتعد أخيراً عن الموقد: «إذاً، أنت يا كيشا تخون أُخوتَنا في وحدات المغاوير، تُقايِضنا بشهواتك الجنسية المشبوهة».

فصفعه كيشا بلطفٍ على رقبته، قائلاً:

- «هل أبحث عن مَلذَّاتي الجنسية لديك؟»

وقف يورا عند عتبة الباب وبيده زجاجة مشروب: «أنت تتهيَّأ للمُغادَرة؟ رأيتُ أن نشرب قليلاً، طلباً للدِّفْء. لذلك، جئتُ بصديقاتٍ من نوعٍ معيَّن؛ بمناسبة عيدِ ميلادِ قائدنا، كما أنه ليس لهنَّ مكانٌ يَقْضِينَ الليلَ فيه. لا سيما أن الطفل پـاڤْلِك خرج مع شيز، فلن يُحرِجنا أحد».

رفض كيشا نيابةً عن ساشكا: «نحن في غِنى عن ذلك! نحن أيضاً سنغادر».

أوضح ساشكا: «أنت وحْدَك ستغادر؛ أنا قد أتأخَّر».

خرج الكلب ويورا من الغرفة، وتكدَّرَ وجْهُ كيشا.

- «هل جُنِنت؟ يرفض أن يزور كاتيا، أما مع فتياتٍ من هذا النوع، فأهلاً وسهلاً!»

تَذمَّرَ ساشكا وغادَرَ الغرفة: «لا تُقرِّر نيابةً عني».

انخرط الكلب في ثرثرةٍ مَرِحة مع فتياتِ يورا، وتعالى صَخَبهنَّ حوله. كُنَّ يَرْتدينَ ثياباً بسيطة؛ تنانير قصيرة من الجلد، وسترات قصيرة، إحداها من الفرو، واثنتان صيفيتان. تنتعل أصغرُ البنات حذاءً رياضياً، وزميلتاها تَنْتعلان حذائَيْن مُبلَّلَيْن.

الفتاتان الواقفتان مُتجاوِرتَين وتسهل رؤيتُهما في عتمةِ الممر، كانتا مُتبرِّجتَين بطريقةٍ مُنفِّرة؛ على وجهَيْهما طلاءٌ سميك، وعلى وَجْنتَيْهما غبارُ أصبغةٍ تساقَطَ عن الجفون والرموش. إحداهما بَشِعة وفمُها كبير، طوَّقَت بذراعَيْها رقبةَ الكلب والْتَصَقت به.

تضاحك يورا: «انظر، ما أفحشك يا مكسيم! من الواضح أن غياب النساء قد طال عنكم».

استند ساشكا إلى الجدار وهو يَرْنو إلى تلك الفتاة المنزوية هناك، كانت توحي بشيءٍ من الطِّيبة والتربية البيتية. اقترب منها يورا بغتةً، وأشعل لها سيجارة ودخل معها في حديثٍ. اقترب ساشكا منهما.

دسَّ يورا زجاجةَ المشروب في يد ساشكا قائلاً: «هل قرَّرتَ؟ لا بأس، سأنصرف. أُقدِّمها هديةً لصديقي وقائدي. أمَّا الزجاجة، فاحتفِظْ بها، سنشربها فيما بعدُ».

الفتاةُ متوسطةُ القامة، لا أثرَ لمساحيقَ تجميليةٍ على وجهها، ومثل كاتيا تَغْزو وَجْنتَيْها آثارُ نمشٍ طفيف. ظلَّ ساشكا يُحدِّق فيها. كان يورا قد قاد إحداهن إلى غرفةِ جينكا الخاوية، ومضى الكلب بالأخرى إلى غرفته.

مرَّ كيشا بالقرب من ساشكا والتفت قائلاً:

- «أنا ذاهبٌ إلى كاتيا. إن أردتَ يُمكِنك اللحاق بي».

التزم ساشكا الصمت. كان يدرك أنه يجب اللحاقُ بكيشا، لكنه لم يتحرَّك.

سألته الفتاة أخيراً: «ما لك تنظر إليَّ؟ قُلْ لي إلى أين سنذهب».

أشار إلى باب غرفته هو وكيشا: «إلى هنا». دخلت الفتاة وجلست على سريره.

سألها ساشكا: «ما اسمُكِ؟»

- «وما الفرق عندك؟» وحلَّت سترتها ثم سألت: «هل أخلع التنورة، أم يكفي هذا؟»

أحسَّ ساشكا بالارتباك؛ لا يعرف ماذا يفعل. تنهَّدَ وجلس في مكان كيشا، ودسَّ الزجاجةَ تحت السرير، ثم قال: - «دَعِينا نتحدَّث».

ضحكت الفتاة: «نتحدَّث؟! أمريضٌ أنت، أم أنك ما زلت طفلاً؟»

- «ليس بمقدوري فعلها هكذا، أعتقد أنه لا بُدَّ من بعضِ الأحاسيس والمشاعر. الإنسان ليس مجردَ حيوان».

- «فكَّرتَ إذاً؟» وضحكت الفتاة مجدداً. «وتُجِيد التفكيرَ أيضاً؟ والمشاعر سخافة. هل عشقتَ؟»

أجاب ساشكا: «أجل. لكن عبثاً. لا تُناسِبني».

- «بالطبع لا تُناسِبكَ، إذا كانت من مركز المدينة فهي لا تُناسِب شخصاً من قُوَّات المغاوير. لكن لا يَغُرَّنَّك أمْرُهن؛ فلسْنَ كلُّهنَّ مُحترَمات ورائعات. بعد أن يقع الشابُّ في حبائلِ إحداهن، لن تُمانِع في مُرافَقةِ أيِّ تاجرٍ كان. لديهنَّ دائماً نموذجٌ احتياطيٌّ، يافعٌ وساذجٌ مِثلك، يُصدِّق كلَّ شيء».

اعترض ساشكا: «لَسْنَ كلُّهنَّ على هذه الشاكلة».

- «بل كلهن! لا يَبْحثْنَ إلا عن الرِّبْح. وعنصرُ الصاعقة ليس ربحاً».

حدَّثَ ساشكا نفسه: «لعلها على حق! فكاتيا ستتزوَّج كيشا الذي لا تحبه؛ لأنه سيُغادِر وحدات المغاوير».

ولأن كاتيا لم تُوافِق حتى الآن، لم يخطر هذا ببال ساشكا. أحسَّ بغضبٍ مفاجئ.

- «لا يُمكِنكِ الحكمُ على الآخرين من خلال وجهةِ نظرك. أنتِ غبية!»

انحنَت الفتاةُ فوق الموقد لتُشعِل سيجارتها: «أنا غبية، وأنت عنصرُ مَغاوِير فاشل، ستُقتَل في المعركة، ولن يَذْكرك أحد».

قفز ساشكا ودفَعَ بالفتاة إلى الحائط. ارتطَمَت بقوةٍ وشهقت وهي تحتضِن رأسَها بيدَيْها. ثم أمسَكَها ساشكا من شعرها، ورفعها وهو يستشعر حَنَقاً متوحشاً. اضطرَّ أن يتمالك نفسَه كي لا يَضْربها مجدداً.

قال ساشكا، وهو ينظر في عينَي الفتاة المذعورتَيْن: «أهكذا تتعاملين مع قائد المجموعة؟! عليكِ الآن أن تتضرَّعي إلى الله، وإليَّ، أن تُغادِري هذه الغرفةَ بسلام، هل فهمتِ؟ سأدفنُ رأسَك الآن في هذا المَوقِد، وسنرى مَن منَّا الفاشل! أو قد أُدبِّرُ لكِ حادثاً مُؤسِفاً ويَترحَّمون عليكِ. أتفهمين؟»

صرخت الفتاة بحِقْد: «دَعْني». أفلَتَها ساشكا من قبضته، وتركها تغادر. نفضَت سترتها بصمتٍ وخرجت، وصفَقت الباب خلفها.

قال ساشكا، وهو يَذْرع الغرفةَ ذهاباً وإياباً مُلتقِطاً أنفاسَه بصعوبة: «يا لها من سافلة! كاتيا ليست هكذا. هذا ليس صحيحاً... سأموت في المعركة... أجل، سأموت، لكن ذلك ليس شأنها. الأفضل أن أكون رجلاً، وَلْتَقْتلني رصاصة، ولا أكون على شاكلتها... عليَّ أن أهدأ، لماذا فقدتُ أعصابي هكذا؟» أشعل سيجارة، واستغرب أنها تتراقص بين أصابعه. «ضربتُ فتاة، وأنا محقٌّ في ذلك. أجل، وأية فتاة هي، إن كانت على استعدادٍ لممارسة هذه البهيمية!»

أيُعقَل أن الإنسان في مدينتنا هذه، مهما اتَّصَف به من بشاعة، لا يستطيع أن يجدَ لنفسه عملاً لائقاً، حتى ولو عامل تنظيفات مثلاً، أو عاملاً في إحدى الورشات. نظر ساشكا إلى البصيص الأحمر في عقبِ سيجارته وهي تبعث الدُّخَانَ الكريه: «حياة تلك الفتاة مثل هذا البصيص تماماً؛ منظرها رائع، ودُخَانها نَتِن. وأخيراً سيَدُوسون عليها بأرجلهم، أو ستَشِيخ، ولن يكون أحدٌ بحاجةٍ إليها، لا تُحسِن عملَ شيء. ستَبِيت بين الأنقاضِ تَسْتجدي القروشَ لشراءِ رغيفِ خبزٍ أو حفنةِ جريش. سيمر المغاويرُ بجوارها ويَبْصقون في يدها الممدودة».

سرعان ما ألقى يورا نظرةً إلى الغرفة، وقال وهو يحكُّ خلف أذنه:

- «انتهيت بهذه السرعة؟! لا تَيْئس، يحدث هذا في الطفولة. يعني في الصبا.

التزم ساشكا الصمت.

تحمَّسَ يورا: «لا بأسَ، دَعْنا نشرب، سأجلب الأقداح. سأدعو الكلب، والفتاتَيْن أيضاً».

نفض ساشكا يده: «يُمكِنك دعوةُ الخَل، إنْ أردتَ. هذا الأمر لا يَعْنيني».

29

امتلأت الغرفة بالضيوف؛ الكلب، ويورا، وزوج ممَّن يَدْعونهنَّ صديقات، وغوغا، وبضعة شبابٍ مجهولين من الوحدات المجاورة. كان المشروبُ الذي أحضره يورا رديئاً جداً، لكنه سريعُ التأثير. بعد القَدَحِ الثاني مُباشَرةً، صارت الغرفةُ تتراقص أمام ساشكا. وراحت الفتاتان الجالستان تُحاوِلان تقبيلَه، فيَضيق نفَسُه من رائحة تبغهما الرخيص ومواد التجميل الرديئة. حاوَلَ ساشكا التملُّصَ منهما، لكنه سرعان ما استسلم أمامَ إصرارِ السمينة منهما فلوَّثَتْه. وعندما أفلت منها، انتبه فجأةً أن الجميع ينظرون إليه؛ تأخذ الغيرةُ المدعوِّين الجُدُد، والفتاة تَتِيه بفرحةِ الانتصار، بينما راح الكلب يَرْقب المشهدَ باهتمامٍ.

أخطَرَه الكلب بعد دقيقة: «أنت، أيها القائد، عليك ألَّا تُسرِف في الشراب؛ ستُوصَف بالحُمْق وأنت ثَمِل».

قالت إحداهما لتَشْفع لساشكا: «أنا أيضاً حمقاء، بل شديدة الحماقة أيضاً».

قال الكلب يائساً: «تباً لك! شخص كهذا يستعمل البندقية..».

- «لم يَعُدْ لديَّ رشَّاش، وإنما هذا». ورفع ساشكا يدَه بالمسدس، ثم أعاده إلى حزامه. «لكنه غير مَحْشُو؛ ما يعني أنكم في مأمن».

قهقه الجميع ما عدا الكلب.

بدأ يورا حديثه: «أثناء المعركة السابقة كان معنا المَدْعُو شورِك. زرنا المُزارِعات. كنَّ شابَّاتٍ حقاً..».

قاطَعَه ساشكا: «أنت لا تتحدَّث إلَّا عن النساء! سيكون لديك وقتٌ لذلك. نحن نحتفل بعيد ميلادي، أليس كذلك؟ قد لا يتكرَّر هذا. نحتاج إلى مشروب».

وافَقَه الكلب: «بالتأكيد. هذا سببٌ وجيه. لقد احتفلنا بعيد ميلاد الذئب، يومَها قال أيضاً: اشربوا للمرة الأخيرة».

تَذكَّرَ يورا: «أجل، في وحدتنا كذلك، وقبل المعركة احتفلنا بعيد أحدهم. الآن، صار سَماداً للسهوب».

اقترح ساشكا: «دعونا نشرب نخْبَ أصدقائنا الشهداء».

سكب ساشكا ما تبقَّى وأحضر صفيحتَيْن من الطعام المعلَّب؛ إحداهما صفيحته، والأخرى تَخصُّ كيشا. أخذ لنفسه قطعةً، وأعطى الباقي للآخرين. كانت الفتاتان آخِرَ مَن جاء دوره، فراحتا تَمْسحان بأصابعهما الدهونَ العالقة وتُصدِران صوتاً مع المضغ وتتضاحكان. تخيَّلَ ساشكا أن كاتيا تفعل ما يَفْعلْنَ، فأحسَّ بالاشمئزاز وأشاح بنظره بعيداً. كاتيا ليست هكذا، كاتيا لطيفةٌ وخيِّرة. إنها وحيدة. حدَّثَ ساشكا نفْسَه: «هي الآن بحاجةٍ للدعم، للمساعدة. حين كنتُ مريضاً هبَّت عائلةُ كرايف لمساعدتي. أشعلت كاتيا الشموعَ. ذهب كيشا اليومَ لزيارتها وحده. بالتأكيد، هو أفضلُ مني بكثير؛ رجل حريص، لا يتعاطى الكحول أبداً، وقد يُصبِح تاجراً غنياً».

الفتاة التي هربت من غضبِ ساشكا ربما كانت مُحِقَّة؛ التجارة حِرْفةٌ مُربِحة. إذاً، كاتيا ستلتقي بكيشا، ثم ستتزوَّجه، وتُنجِب له أطفالاً. أمَّا ساشكا المِغوَار، السكِّير، والعصبيُّ المزاج، ليس له أيُّ مستقبل. اللهمَّ إلا صديقات من نوعِ الجالسات إلى جواره.

لسببٍ ما، خيَّمَ الصمتُ داخل الغرفة؛ لا تُسمَع نغماتُ آلة يورا، ولا ضحك ولا ثرثرة. التفت ساشكا ليرى الكلب وحيداً، جالساً على سرير كيشا، يُحدِّق بإمعانٍ داخل الخوذة، التي في يدَيْه.

سأل ساشكا: «أين الجميع؟»

قال الكلب وهو يضع الخوذة: «لقد انصرفوا وأنت تحلم شارداً. لقد نفَدَ الكحول، فذهبوا إلى الخَل. هو أيضاً عنده احتفالٌ ما».

تمتم ساشكا: «طريف! وأنت لماذا لم تذهب معهم؟»

قال الكلب: «يَكْفيني ما حدث، وأنت أيضاً يَكْفيك. كنتَ ستذهب لمكانٍ ما».

- «نعم، إلى فتاة. وأنت، يا مكسيم، هل كنتَ تُواعِد الفتيات؟»

استوضح الكلب: «مثل اللواتي كُنَّ معنا اليومَ؟»

- «كلا، أقصد الفتياتِ الطبيعيات، الطالبات مثلاً».

- «أنا لست جذَّاباً، بل مِغْوَار. لا أَرُوق للفتياتِ الطبيعيات».

- «هل أحبَبْتَ مرةً في حياتك؟»

تنهد الكلب وارتدى الخوذة: «أحبَبْتُ. وماذا في ذلك؟! واعترفت لها بذلك. طبعاً، مَن أحبَبْتُها سَخِرَتْ منِّي؛ قالت إن مشاعري المريضة تُثِير أعصابَها. شتَمَتْني، وعموماً كأنها تقول لي: اغرب عن وجهي يا مكسيم. ربما كانت على حقٍّ. فيما بعدُ فكَّرتُ بعمق..».

- «أكان ذلك منذ زمان؟»

- «منذ زمان بعيد بعض الشيء». انطلق الكلب خارجاً وقال: «سآخذ قسطاً من الراحة، وأنصحك بالشيء نفسه الآن».

شعر ساشكا بنفسه ضائعاً؛ إذ ظلَّ وحيداً في الغرفة، فخرج ومضى لا يهمُّه إلى أين، حتى ولو إلى الخَل، المهم ألَّا يبقى هنا.

عبر الممر، اصطدم بشيز، الذي راح يتأمَّله. وتريَّثَ ساشكا في انتظارِ سماعِ كلماته المعهودة، لكنه لاذ بالصمت.

- «ما لك ضَجِرٌ، يا شيز؟ اليومُ عيدُ ميلادي. هاتِ زجاجةً وتعالَ إلى القائد لنحتفل».

- «هذا لن يساعدك بشيء».

قال ساشكا وهو يبتعد: «غبي!»

بعد عشر دقائق حصل ساشكا على نصفِ زجاجةٍ من بيرا الشعير، وذهب بها إلى غرفةِ الخَل. على العتبة لفحَتْه حرارة المكان، كما في الحمَّام، وكان الهواء مُشبعاً برائحةِ مشروبٍ رديء. لم يَبْخلوا بالفحم هنا. تناهَتْ إلى سمعه عبْرَ المطبخ أنَّاتُ الفتاتَيْن مقابلَ مائدةِ الشراب والطعام والمُعامَلة الحسنة. في الرُّوَاق، كان ثَمةَ شابٌّ منبطح على وجهه. تخطَّاه ساشكا، ووجد نفسَه في غرفةٍ سكَنَ فيها الذئبُ سابقاً. كان فيها شُبَّانٌ من الوحدات المجاورة، منهم غوغا وجون ويورا. قابَلُوه بتَرْحابٍ وأجلسوه على أريكةٍ ناعمة رثَّة، طَرِية ومُتهالِكة على مَقربةٍ منهم. وسرعان ما ظهر الخَل عند العتبة وهو يُزرِّر سرواله على عَجَل، وحين رأى ساشكا عرَضَ عليهم مشروباتٍ مختلفة.

- «دَعْنا نشرب أيها القائد، من حُسْن الحظ أني لم أقتلك بعدُ».

أكثر ساشكا الشربَ فازداد توتُّره، واختلَطَت الأمور في رأسه مع كلمات الكلب، وكلمات الفتاة التي هربت منه، وكلمة كاتيا «أُحِبك». وانصهر

كل ذلك في قنوطٍ يائسٍ ثقيل.

سأله يورا وهو يجلس على حافة الديوان: «لماذا لم تذهب إلى صاحبتك؟ لماذا ذهب إليها كيشا؟»

كان يورا ثَمِلاً جداً، سترتُه مفتوحة، ويَلْمع رأسُه الحليق المتعرِّق.

- «حقاً!» وطوَّح ساشكا برأسه المخمور. «ما الذي دفع به إلى هناك؟»

اقترَحَ عليه يورا: «فَلْتَتحقَّق بنفسك من السبب».

نهض ساشكا، ولوَّحَ بيده، فكاد يقع.

- «لا بأسَ، يا شباب، استمتعوا، إني ذاهبٌ إلى نعجتي».

غوغا السكران وبضعُ نُسَخٍ من الخَل لوَّحوا له بأيديهم.

- قال يورا مُتلعثِماً: «وأنا معك أيضاً».

خرج الاثنان إلى الشارع. طبعاً، لم يكن هناك أي حافلة، فتابَعَا طريقَهما مَشْياً على الأقدام.

تساءل ساشكا بين فينةٍ وأخرى: «لماذا نحن ذاهبان إلى هناك؟»

ذكَّرَه يورا: «لزيارة صاحبتك».

بدا الطريق مفروشاً بحُفَرٍ صغيرة، مَلِيئةٍ بطبقةٍ لَزِجة من الطين؛ فشعر ساشكا بالغثيان وتقيَّأ مرتَيْن، لكنْ ظلت حالتُه سيئة.

قبل الدخول إلى بيت كاتيا، ابتاع يورا زجاجةَ مشروبٍ إضافية. تناوَلَ ساشكا منها عدةَ جرعاتٍ وهو يُقاوِم الاشمئزاز، وكذلك يورا، ثم لفَّ الزجاجةَ بأوراقِ صحيفة.

قال وهو يغمز بعينه: «سنُخفِيها عن الفتاة».

فتحت كاتيا الباب وهي باسمة.

- «كنتُ متأكِّدةً من مَجِيئك. بالرغم من كذب كيشا بأنك لن تأتي.

أمي ليست في البيت. أنا وكيشا وحدنا هنا».

تساءل ساشكا بغباء: «وحْدَكما؟» كان قد استعادَ شيئاً من وعْيِه بعدَ مسيرٍ طويل، لكنَّ ذهنَه ظلَّ مُشوَّشاً.

تقدَّمَ كيشا من خلف كاتيا، ونظر إلى الاثنين مُعاتِباً.

- «تترنَّحان إلى هذا الحد! يا للعار!»

تعجَّبَ ساشكا: «عارٌ علَـيَّ؟ وأنت، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل أذنتُ لك؟ تتجاهل الأنظمةَ والقوانين؟ قبل المغادَرة يجب إعلامُ قائدِ وحدتك».

أجابه كيشا: «أنت وغدٌ، ولستَ قائداً».

دَعَتْهم كاتيا: «دعونا ندخل. سأعدُّ لكم الشاي. هيا».

غمز يورا ساشكا بعينه، وقال هامساً:

- «ماذا كانا يفعلان هنا وحدهما؟ خمِّنْ أنت. لم يَأْتِ إلى هنا من دون هدف؛ لا بدَّ أن يكون قبَّلَ كاتيا، وربَّما أكثر. وسمحَتْ له كاتيا لأنه عريسٌ مُربِح». ودارت الدنيا بساشكا.

قال كيشا حانقاً، وهو يمسك بياقته ليمنعه من السقوط: «أنت حشرة! إنك لا تستطيع الوقوفَ على قدمَيْك! اعتبرتك إنساناً حين طلبتُ منك أن تُرافِقَني إلى هنا!»

حاولَت كاتيا أن تتدخل قائلةً: «لا حاجةَ إلى تأنيبه، كيشا، هو لا يَقْصد ذلك. هو معذور؛ اليوم عيد ميلاده».

- «أجَلْ، أيها الأنذال، عندي عيد. اليوم عيد ميلادي. وأنتِ، وصاحِبُكِ كيشا، ماذا عندكما؟» وبكل ما أُوتِي من قوةٍ دفع ساشكا كيشا بعيداً، وأسند كاتيا إلى الجدار. امتزجَت كآبتُه بالغضب فجأةً، فتفوَّهَ بكلماتٍ وألفاظٍ نابية لم يستخدمها سابقاً. لكنه الآن لم يَعُد يبالي بشيء، يريد أن يتسبَّبَ بأكبرِ قدْرٍ من الألم لهذه الحمقاء التي تفكِّر في كيشا، ولكيشا ولنفسه. صرخ ساشكا: «نعم، عندي عيد! أنا اليومَ حيٌّ! وغَداً قد أُقتَل في المعركة؛ قد يَسْتدعونني في أي وقتٍ وأُقتَل! سيأتي الأرنب ويسألني: «هل أنت على استعدادٍ للتضحية بدمك؟» بماذا ستُجِيب، يا يِرخوف؟ ستقول: «حاضر!» إننا نموت مثل الكلاب! أوليغ، درَزَته طلقاتُ دبابة، ولم يَبْقَ من الذئب شيء، وأبوكِ قُطِعت رجلاه. رأيتُه بأمِّ عينَيَّ! مات ميتةً رهيبة! لذلك أحكموا إغلاقَ النعش، لكيلا تُصابي بالجنون عندما تَرَينه! وكثيرون غيره... أنتم لا تعرفون شيئاً! أحوالكم على ما يُرام! ليس عندكم أي حرب. سكان مركز المدينة كلهم لا يبالون بأن من

الممكن أن نكون قتلى. ليتهم يأخذونكم إلى السهوب! ماذا كنتِ تفعلين هنا أثناء الحرب؟ كنتِ تذهبين إلى مدرستك القَذِرة؟ تُشرِفين على تكاثُرِ الجرذان وتربيتها؟ هل عرفتِ طعْمَ الجرذان؟»

انهمرت دموعُ كاتيا على وَجْنتَيْها.

- «ما لكِ تَبْكين؟ حالتُك سيِّئة؟ وليس سيِّئاً أن تشربي الشاي هنا، بينما يَقْتلون الآخَرين؟ وكذلك الانتقال من شابٍّ إلى آخَر ليس سيِّئاً؟ أليس صحيحاً؟ ساشنكا، ساشنكا، ثم بقفزةٍ واحدة: كيشنكا، كيشنكا!»

مدَّ ساشكا يدَه إلى حزامِه وسحَبَ المسدس.

- «والتلويح بالمسدس على مَقربةٍ من وجهك، هل شَعرتِ بذلك ولو مرةً واحدة؟»

وصوَّبَ مسدسه إلى وجه كاتيا. ظلَّتْ كاتيا تَبْكي بصمت.

- «لا تخافي، ليس مُلقَّماً. طبعاً أستطيع أن ألقِّمَه وأقتلك، لكني لن أفعل. عليكِ الابتهال لربكِ الذي يَخْلق بهائمَ على شاكِلتِكِ. بالمناسبة، أشكركِ على الشموع؛ لقد قايَضْتُها بهذا المسدس الرائع».

أنزل ساشكا يده والتفَتَ نحو كيشا، الذي تسمَّرَ في مكانه وابيضَّ لونه كالثلج.

قال ساشكا أخيراً: «هيا، تَبادَلا القُبلات». ثم غادَرَ الغرفة.

بَدَتِ الطريق إلى البيت طويلة جداً، وعلى مَقربةٍ من الأنقاض لم يَعُد ساشكا يَتعثَّر ولا يترنَّح، وراح يشتم نفسَه بأقذع الألفاظ. كان من المستحيل تغييرُ ما أقدَمَ عليه. عندما دخلا الأنقاض، تناوَلَ ساشكا المسدسَ ولقَّمَه. تردَّدت في مكان قريبٍ أصواتُ مَغاوير سكارى وضحكات صديقاتهم. عاوَدَ ساشكا شعورٌ بالوحدة كاد يَنْساه. بَدَا له حُلْمه بالأمس أهونَ بكثيرٍ من هذا الواقع. فجأةً وتحت قدمَيْه، علا صراخُ شيءٍ ما داكن، انطلق بعيداً. أمسَكَ بالمسدس وأطلَقَ مرةً واحدة، ثم مرةً أخرى. «جاء غَدُ الجرذِ أخيراً. فمتى يأتي غَدِي أنا؟»

اقترب وقْعُ خطوات من بعيد، خرج من العتمة شابٌّ ثَمِلٌ فجأةً.

تساءل الشاب: «لماذا تُطلِق النار؟»

- «لا لشيء، لديَّ فائضٌ من الطلقات».

تمتم الشاب: «فَلْتُعطِني إياها».

- «خُذْ». ناوَلَه ساشكا المسدس، وانطلق مبتعداً. صرخ الشابُّ في إثره مُتعجِّباً. لكن ساشكا لم يَعُد يسمعه.

كان الزومبي جالساً على أكياس الرمل، يُعالِج بأصابعِه لفافةَ التَّبْغ، وهو يَتْفل تحتَ قدمَيْه بين الفينة والأخرى. حاوَلَ ساشكا أن يتخطَّاه، لكن الزومبي مدَّ قدمَه مُحاوِلاً إيقافه.

شتمه ساشكا وهو يرتمي إلى جواره: «أمعتوهٌ أنت؟ ماذا دهاك؟»

ضحك الحارس ببلاهة: «لا، أريدُ لفافةً منك لأزفَّ لك خبراً».

- «أيُّ خبرٍ هذا؟»

- «اللفافة أولاً».

أخرَجَ ساشكا من جيبه قليلاً من التَّبْغ مع قطعةٍ من أوراق الصحف.

- «يَكْفيك هذا. هاتِ الخبر؟»

- «هناك شابٌّ معتوه يبحث عنك. أبله، يرتدي قميصاً في هذا البرد القارس، وعلى صدره فتحة تُشبِه آثارَ طلقة. أردتُ إبعادَه، لكنني فكَّرتُ أنه قد يَرُوق لك ذلك». ثم قال الزومبي وهو يبتسم كاشفاً أسنانَه المتكسِّرة: «إنه هناك، بالأعلى».

نظر ساشكا ناحيةَ السُّلَّم باستغراب، وهو يحدِّث نفسه: «مَنْ بحاجةٍ للبحث عني؟!» في الغرفة الكبيرة، جلس شيز على كرسيٍّ متصدِّعٍ، يقصُّ على مسامع پـاڤـْلِك شيئاً ما.

كان بابُ غرفةِ الكلب ويورا مفتوحاً، والكلب نائمٌ على الأرض، وعند العتبة تَلْمع نظارةٌ مكسورة. رفع ساشكا الإطار، ورماه فوقَ السرير وتابَعَ إلى غرفته. على مَقربةٍ من الموقد جلس شابٌّ بقميصه النظامي الأسود، وهو يُلقِي قِطَعَ أغصانٍ يابسة في النار. اقترب ساشكا وجلس إلى جواره.

قال إيليا: «مرحباً. كل عامٍ وأنت بخير!»

30

راح ساشكا وإيليا يَرْشفان الشاي الساخن من فنجانَيْن معدنيَّيْن مُضعضَعَيْن.

حدَّق إيليا في المَوقِد وهو يزمُّ عينَيْه، أمَّا ساشكا الذي استعاد وعْيَه كلياً، فنظر إلى إيليا.

قال أخيراً: «ظننتُ أنك مُتَّ».

- «ولكنك أنقذتَني».

- «ومكتب التحقيقات؟»

- «وصل في الصباح عددٌ من الرجال المجهولين، لم أنتظر لمعرفةِ سببِ مجيئهم، انسللْتُ عبر النافذة، وأطلقتُ ساقَيَّ للريح. ولكنك عَبَثاً، يا ساشكا، أخبرتَهم باسمك، الآن يُمكِنهم أن يَجِدوني عندك».

- «وماذا قلتَ لهم أنت؟»

- «التزمتُ الصمتَ طوالَ الوقت، وأقرَّ الطبيبُ أنني في حالةٍ سيئة».

- «كيف تمكَّنْتَ من ذلك! فأنت منذ أيام الفيلق لا تطيق الصبرَ نصفَ ساعة من دونِ ثرثرةٍ. حتى أثناء الاجتماع الصباحي لا تكفُّ عن الحركة، تَتُوق إلى التحدُّث. مرَّتْ أيامٌ كثيرة!»

قال إيليا بعبوس: «يَتُوق الجميع إلى الحياة».

- «ولماذا تركتَني في البَرِّية؟ ضربتَني على رأسي وتخلَّيْتَ عني. كان يُمكِن أن أموت هناك؟»

- «وجَّهتُ لك ضربةً خفيفة، وانتظرتُ حتى تيقَّنتُ أنهم جاؤوا لأخذك. حينَها لم أَعُد خائفاً عليك من الموت».

قال ساشكا بنبرةٍ إنتقامية: «لم تَعُد خائفاً عليَّ! هل تعلم كَمْ مرة كدتُ أموت! أنت المذنب. لقد طُرِدتُ بسببك».

قال إيليا بعصبية: «لم أكُنْ أعلم، يا ساشكا. لقد صفحتَ عني، كان بإمكانك ألَّا تنقذني، لكنك فعلتَ».

قال ساشكا: «أنا لستُ مثلك. ثم إن شيز هو الذي أنقذك».

اعترف إيليا فجأةً: «على العموم، تَسِير أموري بشكلٍ سيئ».

- «أتعتقد أن حالي أفضل؟ لقد أوقعتَ بي. وليس وحدي؛ نُقِل كرايف إلى وحداتِ المشاة بسببك، وفيما بعدُ قُتِل على الجبهة الجنوبية. أما ڤـاسيل وماكار وڤـوڤـكا، فطُرِدوا جميعاً.

جاء عناصرُ من المكتب لمُقابَلة والدتي. لماذا؟ لماذا هربتَ إلى إنسك؟ هل تستطيع الاعترافَ الآن؟»

أقَرَّ إيليا: «أستطيع. لكن، حَذارِ أن تضحك. أنا نفسي أعرف أنني أحمق، ولكنْ آنذاك بَدَا لي أنني على صواب..».

صمت إيليا قليلاً، ثم رجَّ ما تبقَّى من الشاي في الفنجان، وهو يُحدِّق أمامَه:

- «لقد هربتُ إلى والدي».

ذُهل ساشكا: «إلى والِدِك؟! أنت ليس لديك أب!»

اقترب إيليا من النافذة، ووقف وهو يُدِير ظهرَه لساشكا: «بالطبع، كلَّا! فقط، عندما أعلَمُوني أنه موجود صدَّقتُ ذلك».

- «مَن أخبرك بذلك؟»

- «أحدُ الضباط في الفيلق. لا داعيَ لأنْ تعرف اسمه. أنت، يا ساشكا، لا تفهم... أنت لم تَعِش في دار الأيتام. وأمك لم تَكُن على شفا الموت».

لاذ ساشكا بالصمت.

- «هي أخبرتني أن والدي كان جندياً واختفى. يعني أنه قُتِل، وليس له قبر. وأنت تعرف كيف كانوا يتعاملون معنا في الميتم، لا سيما أولئك الذين ليس لديهم أهل أو أقرباء». تردَّدت نبرة الإهانة في صوت إيليا: «وليس في الميتم وحده، حتى في الفيلق، لم يكن هناك مَن يَعُدُّني كالآخرين؛ لأنني نشأت في دار الأيتام. مهما فعلت، وكيفما كان تحصيلي، أظلُّ غريباً. وحينها أخبرني ذاك المدرِّب أنه يعرف كلَّ شيءٍ عني، وأن والدتي أخفَتِ الحقيقةَ عني وكذبَت خوفاً من العار؛ لأنها أنجبَتْني من أحدِ جنودِ إنسك، عندما احتلوا قريتَنا في تلك الحرب. قال لي: أتريد معرفة والدك؟»

- «وأنت وافَقْتَ طبعاً».

- «وأنت، أَمَا كنتَ ستوافق؟ لكنه، طلب مني ما اعتقدته آنذاك شيئاً تافهاً؛ أن أُوصل ظرفاً ورقياً إلى إنسك، قال إنه سيُعطِيني خريطةً وعنواناً في إنسك وأسلِّم الظرف. ثم يُمكِنني البقاءُ هناك والبحث عن أبي. الآن أدركتُ أنه هو نفسه كان يَنْوي الفرارَ، لكنه عجَزَ عن التواصُل معهم، وهكذا كلَّفَني بالمهمة، أنا الأحمق، فربما تنجح المحاوَلة».

- «ماذا يعني ذلك؟ هل غرَّرَ بك؟»

- «بالطبع. أخذوا مني الرسالة، وأشبعوني رَفْساً، ثم أرسلوني إلى كتيبة التأديب. مُقارَنةً بها، بَدَا لي الميتم حُلماً جميلاً. رموا بنا في ساحةِ المعركة لحظةَ اتَّضَحَ مَن المنتصر. اقتادونا إلى المذبحة. أنا واثنان من المقاتِلين أصابَنا الهلعُ، فقرَّرنا الهربَ إليكم. قلت يُمكِننا الالتحاقُ بوحدات المغاوير. حصلنا على ثيابنا العسكرية من جثث القَتْلى. ولسوء حظي، أُصِبتُ في صدري، وظننتُ أنني سأموت، ثم أَفَقْتُ، فوجدتُ نفسي في شاحنة، وأنت تنظر إليَّ، وأَفَقْتُ مرةً ثانية، ومن جديدٍ رأيتُكَ أنت. حسبتُ أنني أَهذِي. لا يمكن أن أصدِّق أننا الْتَقَيْنا. وها أنا ذا الآن جئتُ لأشرحَ لك كلَّ شيء. لم يَعُد لي مكانٌ هنا، ولا في إنسك. سيَجِدونني ويقتلونني. فلا تَحْقد عليَّ».

تنهَّدَ ساشكا: «لن أحقد عليك».

كانت ثيابُ إيليا خفيفة، فنالَ منه البرد وهو في طريقِه إلى الأنقاض، وقد يكون الخوفُ أثَّرَ عليه بشدة أيضاً؛ فالبردُ والألم والرعب هي ما تحصل عليه في هذه المدينة من دونِ مُقابِل، أمَّا السعادة والدِّفْء فيَحْتاجان إلى دأبٍ وعناءٍ كبيرَيْن. وكذلك الحال في إنسك، وربما في كل مكان. في كل مُدنِ الكرة الأرضية، ربما باستثناءِ مدينةٍ واحدة.

سأله ساشكا: «إيليا، هل سمعتَ بمدينةِ السعادة في الجنوب؟»

أكَّد إيليا: «أجَلْ سمعت. هناك، في إنسك، في كتيبة التأديب، تحدَّثَ الفتيان عنها. ليس فيها أنقاض، ولا يَقْتل أحدٌ فيها أحداً».

- «والتَّبْغ في الشوارع».

تنهَّدَ إيليا بعمق قائلاً: «ربما!» وانكمش من ألمٍ انتابه: «تباً، لا يتوقف الألم».

اقترب ساشكا من صديقه ووقف بجانبه: «إيليا، أنت وصلتَ إلى إنسك. هل تظن أننا معاً نستطيع أن نصِلَ إلى تلك المدينة؟»

- «كلَّا، ليس لدينا أي خريطة، ولا شيءٍ آخَر. سنَهْلك في البراري. وأنت، يا سانكا، ما حاجتُك للهرب إلى هناك، هل تتخلَّى عن والدتك؟»

- «لقد ماتت. بمرض القلب».

سأله إيليا بإشفاق: «بعد أن طردوك؟»

- «لقد حاولتُ إخفاءَ ذلك عن الآخرين. وعبثاً الْتَحقتُ بوحدات المغاوير. ثم عُيِّنتُ قائداً للمجموعة. وأي قائدٍ أنا؟!» حرَّكَ ساشكا الفحمَ في المَوقِد بقضيبٍ من الحديد وهو يقول: «أيضاً... أتَذْكر كاتيا كرايف؟»

وأومأ إيليا برأسه.

- «أنا أُحبها». لأول مرَّة يقول ساشكا ذلك بصوتٍ مسموع؛ بدا ذلك غريباً.

- «أوه! أهذا دافعٌ لأن تُغادِر المدينة؟!»

- «أجَلْ. لقد أسمعتُها اليومَ كلاماً نابياً، ورفعتُ المسدسَ في وجهها. كنتُ أسوأَ من الخَل، قائدنا. هي ليست مُذنِبةً في شيءٍ أبداً، إنها تحبني. كانت تحبني... الآن انتهى كلُّ شيء، أصبحت تَكْرهني. معها حق؛ لأنني أصبحتُ شريراً بعد الحرب. حاولتُ الانتحارَ في المعركة، لكنني جَبُنتُ. لو كنتُ نثرت دماغي يومَها لَجنَّبْتُ نفسي هذا العناء المقيت».

- «ربما يُمكِن التفاهُمُ معها؟ قد تُسامِحك؟»

- «كلَّا، يا إيليا، هذا ما لا يُمكِن غُفْرانه. لقد بدا لي سابقاً أنني لا أحِبُّ كاتيا. أمَّا الآن، فقد تأخَّرتُ كثيراً. وصديقي يَنْوي الزواجَ منها الآن. يجب أن أدَع الأمورَ تسير بسلام. قد أرتكِبُ حماقةً ما؛ لذا، لا بُدَّ من الهرب».

ساد الهدوء، باستثناء هسيسِ النيران في المَوقِد الذي يَغْمر الغرفةَ بالدفء والدخان.

- «لستَ على حق، يا ساشكا. لا يَجُوز لك الهربُ كيفما اتُّفِق. ما تقوله مُحزِن، لكنه ليس سبباً للموت».

راح ساشكا يَذْرع الغرفة ذهاباً وإياباً: «معتوه! يبدو لي الآن أنك أغبى مني. أنت لا تدرك ذلك! لم يَبْقَ هنا شيء! لا شيءَ لك ولا لي أيضاً. أمَّا هناك، فربما نَصِل! قد يُحالِفنا الحظ!»

قال إيليا: «الهرب الآن جنونٌ».

كرَّر ساشكا: «جنون؟! بالتأكيد! يُمكِنني أن أعرِّفَك على شخصٍ يُخبِرك كلَّ شيءٍ عن الجنون».

- «سنهلك».

- «سنهلك، حتى ولو لم نهرب».

قال إيليا بصوتٍ أجَشَّ، وهو يلتفت مجدداً صوْبَ النافذة: «ماذا تعرف عن الهرب؟!» وانفتح البابُ تحت وقْعِ ضرباتٍ مُلِحَّة.

جأر كيشا عند العتبة: «ساشكا، أيها البهيمة!» ثم رأى إيليا: «مَن عندنا هنا، زائر جديد؟ كأني أعرف وجْهَه».

- «نعم، تعرفه، لقد حمَلْناه يومَ العاصفة، هل تذكر؟ ها هو جاء إلينا».

- «من حُسْن الحظ أنه جاء، وإلَّا كنت سأُوسِعك ضرباً، يا ساشكا!»

تنهَّدَ ساشكا: «دَعْنا من هذا الآن. كيشا، أنا حقير، لم أكن على حقٍّ. لقد أهنتُ فتاةً طيبة، هي الآن لا تُطِيق رؤيتي».

قال كيشا بسوداوية: «ظنُّك خاطئ. ظلَّتْ بعدها نصفَ ساعة تَنُوح: كم أنت طيب! وكم ظلمَتْكَ حياتُنا القَذِرة! أمَّا أنا فمن شدة غضبي منك، طَرَدت روشيك وأنا أركله، وكنتُ سأُوسِعك ضرباً، لكن من حُسْن حظك أن هذا الشابَّ قد وصل الآن».

أكَّدَ ساشكا: «من حُسْن حظي حقاً. الآن سنُغادِر أنا وإيليا هذا المستنقَع. إلى هناك، حيث البشرُ بشرٌ حقاً، وليسوا دِيداناً».

- «مهما أقول لك، يا يِرخوف، فأنت لا تستمع إليَّ، ثم تقوم بتصرُّفاتٍ حمقاء». وسكب كيشا بقايا الشاي، وشربها على عَجَل. ثم أخرَجَ من جيبه شيئاً ألْقاه على سريرِ ساشكا قائلاً: «هذه لك، أيها السكِّير، هديةُ عيدِ ميلادك. من كاتيا».

رفَعَ ساشكا الكرةَ الصوفية ذات العينَيْن.

- «هذا كوزكا، قالت كاتيا إنه يَجْلب الحظ. هل ستَتزوَّجان؟»

تنهَّدَ كيشا: «كلَّا؛ فأنا لا أعجبها. عبثاً اشتريتُ ذاك الكتاب، ربما أبيعه لك».

تضاحك ساشكا: «لا حاجةَ إلى ذلك؛ معرفتي بالبيولوجيا ضئيلة، درَسْناها في المدرسة».

قال كيشا: «لستِ على ما يُرام». ثم خلع قبعتَه وألقاها جانباً. «أنا أحبُّ كاتيا. من أجلها، كنتُ سأُغادِر وحدات المغاوير، وكنتُ أستعدُّ لشراء الورشة. أمَّا الآن..».

انخرط إيليا في نوبةِ سعالٍ عند النافذة. صمت كيشا، وجلس على سريره وهو يَحْتضِن بيدَيْه رأسَه الحلَيق.

اقترح ساشكا على إيليا، وهو يشير إلى السرير الشاغر: «إيليا، يجب أن تخلد للنوم».

رفض إيليا: «أنا بحاجةٍ لأن أبقى وحدي بعض الوقت، سأجلس في مكانٍ ما، وأفكِّر قليلاً».

قال ساشكا: «إذاً، دَعْني أقودك إلى غرفةِ جينكا، سأُقدِّم لك سترتي. إليك الحطَبَ، ستُوقِد النارَ وتُفكِّر. غداً، نُعالِج كافةَ قضايانا. رأسي يُؤلِمني من أثر احتفالنا اليوم. والصباح قريب».

دخل كيشا إلى غرفة شيز، حامِلاً پـاڤـْلِك النائم ووضَعَه في فراشه. أحكَمَ ساشكا الغطاءَ فوق رأسه، واستلقى وهو يُنصِت إلى هسيسِ بقايا الفحم المشتعِل في المَوقِد، وفحيحِ جرذٍ خلف الحائط، مصحوبٍ بأنفاسِ كيشا وپـاڤـْلِك. تلاحَقَت أحداثُ اليوم في مُخيِّلتِه تِباعاً، بدءاً من الحادثة المشؤومة مع الفتاة وحتى عودة إيليا. كان خلاصُه الوحيد في أن يَفْتح عينَيْه ويُنصِت.

نفض ساشكا عنه الغطاء، وجلس أمامَ المَوقِد الذي يتصاعد دُخَانُه خيطاً خفياً في أرجاء الغرفة. كان ساشكا يحاول بتلويحةٍ من يده تشتيتَ الدخان، فيتفرَّق ثم يعود يتصاعد من جديد. تبسَّمَ ساشكا قائلاً: «حاكم العالم». ثم نهض، فارتدى سترتَه الدافئة، وأغلق الباب خلفه وغادَرَ.

كان ثَمةَ هدوءٌ بالغ يَسُود الشقة، حتى بات صوتُ وقْعِ خطواتِ ساشكا يتردَّد صدى في أُذنَيْه. ركض ساشكا عبر السُّلَّم إلى الشارع، إلى الصقيع والريح، عندها فقط شعر بالراحة. جلس القُرْفصاء عند المدخل، فوقَه سماءٌ صافية وآلافُ النجوم. كلُّ الآلهة هناك تنظر إلى ساشكا عبر آلاف الفتحات، هازئةً به، فتَمْتلئ نفسُه بمزيدٍ من الرعب. ربما كان إلهُ كاتيا أشدَّهم غضباً، يتهيَّأ لشرْخِ السماءِ بشعلةِ برقٍ خاطف. بَدَا له ذلك واقعياً، فغاص رأسُه بين كتفَيْه، وبات ينتظر بين لحظةٍ وأخرى انفجارَ سلسلةٍ من الرعود، وهو ذاهلٌ لا يجد مَلاذاً يَحْميه. وهل من مَهْرَبٍ لأحدٍ من إله؟! وشدَّ قبضةَ يده في جيبه بحنقٍ واخِز، فلامَسَت أصابعُه شيئاً ناعماً.

قال ساشكا مرتبكاً: «إنه كوزكا».

وفجأةً أدرَكَ لماذا لم يَقْتله إلهُ كاتيا حتى الآن. فهي مَن شفعت له. لقد حَمَتْه بتعويذتها البسيطة. تنهَّدَ ساشكا وضغط على الهدية في يده. سيكون كلُّ شيء على ما يُرام. ستَعُود المياه إلى مَجاريها. لقد عاد إيليا. إنه ليس مذنباً؛ لقد خدعوه، وهو لا يُضمِر السوءَ لأحدٍ. وساشكا أيضاً لا يُرِيد الإساءةَ لأحد، سيذهب إلى كاتيا ويَطلُب منها العفْوَ، ويحاول شرْحَ كل شيء. وإنْ لم تَمْنَحْه عفْوَها ورِضاها، فسيذهب إليها المرةَ تِلوَ الأخرى؛ مِقْدار ما يتطلَّبه العفو.

تَعِبَت الآلهة وهي تنظر إلى ساشكا، وبدأت النجومُ أيضاً تتلاشى، تُفسِح الطريقَ لأشعة الشمس.

31

صباحاً، أحسَّ ساشكا بتعَبٍ شامل. من مكانٍ ما، سُمِعت تمتماتُ شيز مُتواتِرة، ومُبهَمة، وأكثرَ شَجَناً من المعتاد، وكانت تتحوَّل إلى «آومـ... ـم... ـم» المعهودة. كان النوم مستحيلاً على وقْعِ هذه التراتيل؛ لأنها كانت تتطلَّب من ساشكا الإنصاتَ ومحاوَلةَ فهْمِ مفرداتها. وكأنَّ شيز كان قادراً على قولِ أشياءَ تحلُّ كلَّ المشاكل. أزاح ساشكا الغطاءَ عنه فلفَّه صقيعُ الغرفة، وانتعل حذاءَه، واقترب من باب شيز. قرع الباب. انقطع الهذر هناك، فقرع الباب مرةً ثانية، وأخيراً فتح ڤـيتكا.

- «ڤـيتكا، ماذا كنتَ تَهْذر الآن؟»

قطَّبَ شيز حاجبَيْه، وقال عابساً، بعد أن شبك يدَيْه على صدره:

- «أنا لم أقُل ذلك من أجلِك. وإن كنتَ جئتَ تَطلَب نصيحتي، فلن تحصلَ عليها. لا يَرُوق لي أن أخطِّطَ حياتَك بدلاً منك».

وسرعان ما صُفِق البابُ المتقشِّر، في وجه ساشكا.

فكَّرَ ساشكا وهو يشعر بالإهانة: «اذهب إلى الجحيم». واستأنف ڤيتكا تمتمتَه. وقف ساشكا قليلاً، ثم توجَّهَ إلى الباب المجاوِر. كانت غرفة جينكا المهجورة باردةً، تلعب فيها الريحُ من كثرةِ الشقوق في جدرانها. تعالى صريرُ الباب، بالرغم من مُحاوَلة ساشكا فتْحَه بهدوء. كان إيليا مُتكوِّراً على شبكِ سريره المعدني العاري. سمع صريرَ الباب، فرفَعَ رأسَه مُتسائلاً.

قال ساشكا: «أردتُ التأكُّد إن كنتُ رأيتُكَ بالأمس حقيقةً أم تخيُّلاً وأنا سكران. هل أيقظتُك؟»

أجاب إيليا وهو يَسْعلِ عقِبَ كل كلمة: «لستُ نائماً. البرد شديدٌ هنا. كنتُ أُفكِّر. هل استرحتَ قليلاً؟»

اعترف ساشكا: «كلَّا، النومُ يُجافِيني. لَكَمْ تواترت الأحداث بالأمس».

- «كان الأجدر بي ألَّا أجيء. لقد فهمت. قد أسبِّب لك الأذى مجدداً».

جلس ساشكا بجواره على السرير: «دَعْ عنك هذا الأمر. ستنضمُّ للمجموعة، لن يَصِلِ إليك أحد. وفي الربيع سنُغادِر المدينة. إلى حيث يَعمُّ الدِّفْء، وسنصل بالتأكيد».

قال إيليا بأسى: «ساشكا، أنا في عِداد الأموات. أتعرف ما أريد؟ أُريد أن أسدِّد حساباتي. إنني مُحاطٌ بالديون في المدينة؛ أنا مَدِينٌ للكثيرين، وآخَرون مَدِينون لي. لقد عرفتُ الكثيرَ خلال الأشهر الثلاثة. هل تعلم، الناس في إنسك مثل الناس هنا. عبثاً كانوا يقولون لنا في الفيلق إن الحياة هناك أسوأ ممَّا عندنا، وإنه لا شيءَ هناك سوى الجوع، والأوبئة، ومصنع حربي. هذا ليس صحيحاً؛ كلُّ شيءٍ هناك كما هو هنا؛ الفيلق، والأنقاض، والقائد العام، والمَعامِل، والتُّجَّار والمُسِنَّات يَحمِلْنَ الأكياس. حتى «الأُخْوة الحُمر» موجودون هناك، مع فارقٍ واحد هو أنهم يَعُدوننا أعداءَهم، ونحن نَعُدهم أعداءَنا. بالمناسبة، هل تذكر اليافطة: «نحن حُماة المدينة»؟ رأيتُ الشيءَ نفسه في إنسك، لدرجةِ أنني ضحكت. حقاً، لن ألتحق بالمجموعة، لقد شبعتُ من الحرب حتى التُّخْمة. سأنتظر أسبوعاً، وقد أُفلِح في إيجادِ مكانٍ لي. هذا أفضلُ لي، ولك».

تنهَّد ساشكا: «أجل، هذا يبدو أفضل. ولكن، ماذا عن المكتب؟»

- «سأتدبَّر أمري بطريقةٍ تَجْعلني لا أفكِّر في المكتب إطلاقاً. لن يَتمكَّنوا من الوصول إليَّ».

- «لن يصلوا إليك، حتى وأنت هنا».

- «هاه!» بَدَا أن إيليا أراد أن يضحك، لكنه شعر بألمٍ مُباغِت، فانخرط في سعالٍ طويل، أطلَقَ بعده بعضَ الشتائم، ثم تابع: «أتعتقدُ أن المكتب هنا لا يَعْتمد على المُخبِرين؟ ربما حتى داخل الوحدة هنا، لديهم مَن يُزوِّدهم بالتقارير. هل دقَّقتَ النظرَ في عناصر مجموعتك؟»

حاوَلَ ساشكا إقناع صديقه: «كلَّا، هنا ليس لأحدٍ علاقة بالمكتب. أتظنني لست خبيراً بالآخرين؟»

- «أعتقد ذلك». نهض إيليا ونظر عبر النافذة إلى طلوع الصباح. «بالمناسبة، ما هي مشاريعك اليوم؟»

- «لا أدري. ربما أذهب إلى مقرِّ القيادة، فقد يَدْفعون الرواتب. أتَذْهب معي؟»

- «كلَّا، سأنتظرك هنا. أريد -إن لم يكن صعباً عليك- أن تشتري لي دواءً، سأكتب لك اسمَه على ورقة».

- «سأشتري لك دواءً، وثياباً دافئة».

- «أنت خيرُ صديقٍ حقيقي، يا ساشكا. لكنني لا أعرف متى أستطيع أن أردَّ لك ديونَك، اعذرني».

قال ساشكا: «أنا لستُ صديقاً لك، أنا أخوك. لا حسابات بيننا».

ما إن خرج ساشكا من الغرفة، حتى سمع صراخاً وإطلاقَ نارٍ في مكانٍ ما من المبنى؛ تلك رشقات رشَّاش. خرج الكلب وكيشا ويـاقـْلِك من غُرَفهم.

تساءل الكلب وهو يُصلِح إطارَ عدساته المهشمة، ويزمُّ عينَيْه: «أية مصيبة وقعت؟»

خمَّن كيشا: «قد يكون الخَل يَتسلَّى وهو سكران، هذا فأْلٌ سيئ. الأفضل ألَّا تتقدَّموا عبرَ السُّلَّم».

تنهَّد ساشكا: «يجب أن أذهب إلى القيادة، ومن ثَم إلى الجيفيين».

أكَّدَ الكلب: «وأنا أيضاً سأذهب إلى الجيفيين؛ لا أرى شيئاً من دون نظَّارة. سأقصد المركز، هناك يبيعون المستلزمات الطبية».

تساءل كيشا: «ستقصد القيادةَ لأجل المرتَّبات؟ سأُرافِقك على أية حال».

توقَّفَ إطلاقُ النار، بعدَ دقيقةٍ، اقترح ساشكا:

- «ما دام طريقُنا في الاتجاه نفسه، فَلْنذهب معاً. وكلٌّ منكم يَسْتلم دراهمه».

قال پـاڤـْلِك فَرِحاً: «وأنا معكم أيضاً».

امتعض كيشا: «لن نَصْطحبك! هناك ستبدأ بالنقيق: «كيشا، أريد هذا، أريد ذاك..». أنتم، أيها الأطفال، كلكم هكذا. وربما تحاول سرقةَ شيءٍ ما، فيُمطِروننا بالرصاص».

قال پـاڤـْلِك متزلفاً: «كيشا، لن أفعل، صدِّقني. لن أنقَّ، ولن أسرق. فقط اشترِ لي بعضَ حبَّات الشوكولا، حتى ولو كانت صغيرةً».

ضحك ساشكا والكلب معاً، ودسَّ كيشا يدَيْه في جيبَيْه.

- «لستُ مضطراً لأن أشتري لك شوكولا. وجدت غبياً!»

مع ذلك، فقد أصرَّ پـاڤـْلِك على مُرافَقتهم. ظل كيشا، كعادته، يثرثر طوالَ الطريق إلى القيادة، وتعمَّدَ تجاهُلَ أحداث الأمس، فراح يتحدَّث عن الأسعار في المدينة، وعن الأحذية العسكرية التي أخفاها الضباط في المستودَعات، وعن الكلب الذي سيُضطر لدفعِ ما لا يقلُّ عن نصفِ مرتبه لإصلاح عدساته. كان الكلب يضحك وهو يَقْتفي خطواتهم، مُتعثِّراً، باحثاً عن مَواطِئَ جديدةٍ آمِنة لقدمَيْه.

كان الهدوء سائداً في مقرِّ القيادة البارد، الناضح بالرطوبة. بعض المراسلين يلعبون النرد. استدعى الرائدُ ساشكا إليه، وحدَّثه، وهو يشتم بعدَ كل كلمة، عن ضرورةِ وقْفِ تعاطي الكحول، لا سيما في المبنى الحادي والثلاثين. ثم تطرَّقَ بصوتٍ خفيض إلى استفزازاتٍ مُحتمَلة من جانبِ قوات وزارة الداخلية ومكتب الاستخبارات، وعن ضرورةِ حماية عناصرنا في أي ظرفٍ كان. وخلص الرائد إلى القول: «إذا حدَثَ شيءٌ، فلن يكون أيٌّ من

المغاوير مسؤولاً عنه». فكّرَ ساشكا: «أيُّ استفزازات؟ مَن يفكر فينا ليُحاوِل استفزازَنا!» أخيراً، طلب من ساشكا التوقيعَ على كشوفٍ خاصة بالمواد الغذائية، وعلى طلبٍ للدعم، وسلَّمَه مُرتَّبات الشهر الماضي. فأخذوا نقودَهم فَرِحين، واقترح كيشا التصرُّفَ في جزءٍ من مرتَّب شيز، فوافَقَه الكلب على ذلك. لم يَقُل ساشكا شيئاً، وبحركةٍ استعراضية دسَّ مرتَّبَ شيز في جيبه الداخليِّ، وأعطى بضعةَ قروش من مرتَّبه الخاص لـپـاڤـْلِك ليشتري بذورَ عباد الشمس. وانطلَقَ الجميع باتجاه المحطة، ومن هناك إلى مركز «الأُخْوة الحُمر» التجاري الذي لا يُشبِه إطلاقاً مخزنَ الجيفيين في الضاحية. فهو من أشهر المحلات في المدينة؛ بناء كبير، يَعجُّ بالزبائن من جميع المناطق المحيطة بالمدينة. هنا، يُمكِن شراءُ كلِّ ما يَخْطر على بالِ إنسان، بدءاً من رغيف الخبز، حتى أكثر الأشياء غرابةً. نادراً ما كانت تأتي والدةُ ساشكا إلى هذا المكان بسببِ غلاءِ أسعاره. تأتيه فقط في بداية العام الدراسي لتشتري منه الزيَّ المدرسي، وعند حلولِ عيد رأسِ السنة تَشْتري بعضَ الألعاب النادرة، من قبيل اللعب التركيبية من قِطَع الألومنيوم، أو قِطَع تجميع الطائرات والسفن. وقبل العيد بوقتٍ طويل كان ساشكا يبدأ بعَدِّ الأيام الباقية، وعند استلامه العلبةَ الكرتونية الموعودة لا يَفْتحها مُباشَرةً، وأحياناً يحاول أن يَتلمَّسَ محتوياتها وهو مُغمِض العينين، ليستطيعَ تحديدَ ماهيةِ اللعبة من خلال أجزائها في الداخل.

على وقْعِ اهتزازات الحافلة العتيقة، راح ساشكا يُفكِّر في نوعِ الهدية التي سيختارها لكاتيا؛ إذ يجب عليه الذهاب، إن لم يَكُن اليومَ فغداً، للتصالُح معها. وكان الكلب أيضاً مهموماً بأفكاره، بينما بدا كيشا، من خلال حركات شفتَيْه واستخدام أصابع يدَيْه، مشغولاً ببعض العمليات الحسابية. وكان پـاڤـْلِك أيضاً صامتاً، يَقْضم البذورَ التي اشتراها، كمَن لا يُصدِّق فرحتَه بعدُ.

في المركز التجاري قرَّرَ ساشكا شراءَ علبةٍ من الشوكولا الحقيقية كتلك التي تذوَّقَها مرَّةً وهو صغير. كان ثمنُ هذه الشوكولا غالياً جداً، ولكن ما دام تصرُّفُ ساشكا يومَها كان شديدَ الفظاظة، فلا بدَّ من أن تكون الهديةُ فاخرةً.

على الرغم من أن الوقتَ باكرٌ، كان المركز التجاري مُكْتظاً بالمشترين. ولاحَظَ ساشكا، فيما عدا الباعة، عدداً كبيراً من الحرَّاس بستراتهم الحمراء، يَرْقبون الزوَّارَ، لا سيما ذوي الثياب الرثَّة. وانصرف أحدُهم لمتابَعةِ ساشكا نفسه. بالتأكيد، شابٌّ مثل ساشكا، من وجهةِ نظرِ الحارس، لا يَصْلُح إلَّا لخطْفِ رغيفٍ من خبز الذرة الصفراء، وليس لشراءِ علبةٍ من الشوكولا.

اقترح عليهم الكلبُ الانتشارَ عبر الأقسام والتجمُّع بعد نصف ساعة عند المدخل. زاغت عينا ساشكا بين أنواع العُلَب المختلِفة الألوان على الرفوف. ما كان يُخِيفه إلا الأسعار. كان ثمنُ قطعَةِ الشوكولا التي يَقْطعها البائعُ بناءً على طلبِ سيدةٍ أنيقةِ المظهر، خمسةَ ماركاتٍ مقابلَ المائة غرام. بالجوار، على الرف، كانت عِدَّةُ عُلَبٍ من الشوكولا. إحدى العلب كان وزنها 450 غراماً، وثمنها أربعين ماركاً! ربما لأن الشوكولا فيها لم تكن وُضِعت كيفما اتُّفِق، بل كانت مصفوفةً على شكلِ أزهارٍ وقلوبٍ في علبةٍ برَّاقة، سطْحُها شفافٌ، وملفوفة بشريطٍ ليلكي. تردَّدَ ساشكا عِدَّةَ دقائق، ثم قرَّرَ أنه لا يليق به أن يشتري شوكولا مقطَّعةً بالسكين. ألقى إليه البائعُ نظرةَ شك، وحدَّق إلى علامةِ القائد على صدره، ثم أطال تفحُّصَ الماركات بأصابعه ليتأكَّد من أنها ليسَت زائفة. وأخيراً صارَت العلبةُ في يدَيْ ساشكا، فدسَّها في عبِّه لكيلا تسقط أو تتغضَّن، أو يَحْملق إليها العابرون. في قسمِ الصيدلة أخذوا من ساشكا ثمانية ماركات ثمنَ دواءٍ على شكلِ مسحوقٍ في قارورةٍ بلاستيكية مسدودة بلفافتَيْن من الورق مربوطتَيْن بقطعةِ مطاط، بدلاً من الغطاء. لم يَبْقَ معه ما يكفي لشراء الثياب، فقرَّرَ ساشكا أن يدفع بسترته إلى إيليا، وأن يكتفي بلباسه الرسمي. عند المدخل وقَفَ الكلب في انتظاره يَتِيه بعدستَيْه الجديدتَيْن. وسرعان ما تلفَّظَ بالشتائم: - «لصوصٌ هؤلاء الأُخْوة! ثمنُ قِطعتَي الزجاج عشرون ماركاً! ليتهم لا يَرَون النور!»

ثم وصل كيشا وبيده كيسٌ ورقيٌّ، ويـاڤـْلِك يَلْعق بلسانه كرةً من السكر على عصا صغيرة ودقيقة.

في طريق العودة، وجد ساشكا نفسَه يضحك تارةً ببلاهةٍ خالصة، وتارةً أخرى يختار الكلماتِ التي سيتحدَّث بها إلى كاتيا. وتخيَّلَ أن كل ما كان يَجُول في ذهنه، انعكَسَ بوضوحٍ على وجهه؛ لأن كيشا لم يَتوقَّف عن النظر إليه بحَذَر. وسأله أخيراً: - «هل اشتريتَ هديةً لكاتيا؟»

أومأ ساشكا بالإيجاب وهو يشير إلى حواف علبة الشوكولا. صَفر كيشا، ولكنه لم يَقُل شيئاً، وظلَّ ينظر بعيداً عبر زجاج الحافلة. فكَّر ساشكا وهو يبتسم: «الغيرة تأكله». أحسَّ بالإشفاق عليه، لكن دون جدوى، فقد سبَقَ السيفُ العذل.

في مقر الوحدة، انتظر ساشكا حتى غادَرَ كيشا الغرفةَ، ثم أخفى الشوكولا داخل الحقيبة بين الثياب الرثَّة، ودفع بالحقيبةِ تحت السرير، وغطاها بحقيبة ظهره. ثم نظر إليها من بعيدٍ ليتأكَّد من عدم رؤيتها. ليس من باب عدم الثقة بكيشا، لكنه خَشِي أن يَبِيعها كيشا، أو يُقدِّمها بنفسه.

ذهب ساشكا إلى الغرفة الثانية. كان إيليا لا يزال نائماً، مُتكوِّراً في سريره، وما إن سمع وقْعَ خطوات، حتى رفع رأسه: - «هل عدتَ؟»

قال ساشكا وهو يمدُّ يدَه بالدواء إلى إيليا: «أجل. ابتعتُ لك الدواء، أمَّا الثياب فلا. الدراهمُ المتبقية ذهبَتْ ثمناً للشوكولا. سأذهب لمُصالَحة كاتيا. يُمكِنك حالياً ارتداءُ سترتي، إنها دافئة».

أومأ إيليا برأسه، ونثر قليلاً من الدواء في راحةِ يده وقذفه في فمه. انتابه سعالٌ شديد، وسأله بعد انقضاء النوبة: - «هل أقلعتَ عن فكرةِ مُغادَرة المدينة؟»

- «ولماذا حكمتَ عليَّ هكذا؟»

- «إذاً، عبثاً تذهب للمُصالَحة. أنت لن تجرَّ الفتاة عبر السهوب. دَعْها تُسِيء الظنَّ بك، يَسْهل عليها نسيانُك».

- «ربما تريد هي أيضاً الذهابَ».

- «هل تنوي قتْلَها؟ فأنا لا أراهن بقرشٍ واحد على أننا قد نَصِل، وخاصةً مع فتاة».

هزَّ ساشكا كتفَيْه.

- «لا أعلم. أحوالُ الجميع هنا سيئة. أنا، وهي أيضاً، هناك سيكون الوضْعُ أفضلَ. فقط لا تتعجَّلْ. لا بُدَّ من التفكير جيداً، قد نصل إلى حل، لربما نستطيع الاتفاقَ مع أحدِ الطلبة لتُنقَلَ إلى الجنوب. يقال إن مجموعاتٍ منهم تُنقَل للحراسة هناك. ولربما بطريقة أخرى. نحتاج إلى مزيدٍ من الوقت».

خفض إيليا نظرَه، وأدرك ساشكا أن صاحبَه لا يَثِق بشيء، ولا ينتظر شيئاً. ولا حاجةَ به لوقتٍ من أجل التفكير، فهو لن يفكِّر. قرَّرَ ساشكا: «لا بأس، لا بأس، سأفعل ذلك بنفسي. سأُخرِجكما من هنا. أنت أيها الأخ، وكاتيا أيضاً».

32

عند المدخل كان من المفروض أن يقوم بالمناوَبة شبابٌ من وحدة الخَل، غيرَ أن ساشكا علم مساءً أن القائدَ ما زال ثَمِلاً. وهو نفسه لم يكن موجوداً مع أصحابه، والشاب المبحوح الذي كان يُناوِب عن الجميع دائماً، أُصِيبَ بمرضٍ معوي، ولم يكن بمقدوره المرابَطةُ عند الباب. الأرنب -الذي

وصل صباحاَ- طقطق بلسانه مستاءً، وقال إنه لا بدَّ من إعلامِ الرائد بتقاعُس الخَل عن تنفيذ مهامه. وَلْتَقُم وحدة ساشكا مُؤقتاً بمهامِّ الحراسة. وسرعان ما غادَرَ. أدرَكَ ساشكا أنه هو مَن سيُضطر للمُناوَبة بنفسه. لا يمكن الاعتماد على شيز، مثلاً. والكلب غادَرَ لزيارةِ والدته في المدينة، ويورا اختفى دونَ أن يَطْلب إذناً، وكيشا ذهب إلى المستودَع للوقوف على حقيقةِ الشائعات بخصوصِ توزيعِ الأحذية الجديدة، حتى پـاڤـْلِك لم يَكُن موجوداً. لم يَبْقَ هنا أحدٌ سوى ساشكا وإيليا. انطلق ساشكا إلى غرفةِ الخَل التي لم تكن مُقفَلة، فوجد البندقيةَ مُلقَاة على الأرض. الْتَقَطها وعاد مُسرِعاً للأسفل. اختار القائد توقيتاً سيئاً للسُّكْر، سيئاً جداً؛ كان بوسع ساشكا الذهابُ إلى كاتيا، لكنه سيظلُّ هنا في انتظارِ أحدٍ ما يَنُوب عنه، ما إنْ فرغ من صبِّ جامِ غضبِه على تتالي الظروف بهذا الشكل الغبي، حتى سمع دبيبَ أقدامٍ خلفه. إنه إيليا، وقد ألقى على كتفَيْه سترةَ ساشكا.

- «إنك تتألَّم، تبدو مُنهَكاً. أتريد الذهابَ إلى كاتيا؟»

هزَّ ساشكا رأسَه بالإيجاب، فتضاحك إيليا ومدَّ يدَه إلى البندقية.

- «يُمكِنك الذهاب الآن، سأظلُّ هنا في انتظارِ أحدِ عناصرك».

مرَّ شيز على مَقربةٍ منهما وبيده إبريقُ الشاي، ملأه بماء الثلج الذائب من تجويفٍ في أحد الألواح الإسمنتية بالقرب من مدخل البناء، ونظر بهدوء إلى الشابَّيْن.

- «في الوحدة المجاورة سيموت الجميع؛ أحدهم هناك مُصاب بالتيفوئيد، بسبب المياه الملوَّثة التي نَشْربها أحياناً نحن أيضاً. أنت، أيها الروح، تتطلَّع إلى الانعتاق، ليس ذلك ببعيد».

خاطَبَه ساشكا: «انصرِف، وانعَقْ في شقتِك؛ لقد قرَّرتُ ألَّا أموت الآن».

صعد شيز السُّلَّمَ وهو يترنَّح بصمت.

- «أحقاً ستقوم بالمُناوَبة؟ شكراً لك. كأني أجلس على كومةٍ من الإبر. سآخذ الهدية وأنطلِقُ فوراً».

ما إن صعد عِدَّة درجاتٍ حتى ناداه إيليا:

- «ساشكا، أريد أن أقول لك شيئاً. إذا حدث يوماً أن اعتقَلَك المكتبُ بسببي، فلا تُدافِعْ عني. بالعكس، قُلْ إني قمتُ بتهديدك، وأنت رفضتَ إيوائي

هنا، أفهمت؟ حمِّلْني كاملَ المسؤولية، ما عدتُ أبالي بشيء. أمَّا أنت، فقد يُطلِقون سراحَك».

وضَعَ ساشكا إصبعَه على صدغه وحرَّكها.

- «لم تتعرَّض لإصابةٍ في رأسك لتتفوَّهَ بسخافاتٍ كهذه. ما الذي سيأخذني إلى المكتب؟ سأتَّفِق مع كاتيا على كل شيء. ما إن ينتهي الصقيع حتى نغادر! تجنَّبِ الأفكارَ السيئة. بعد كل ما حدث لنا، أخيراً سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام!»

ظلَّ إيليا ينظر إلى ساشكا النظرةَ الذابلة نفْسَها التي نظرها إليه بالأمس، وهو لا يُصدِّق ما يسمع. سحب ساشكا الحقيبةَ من تحت السرير، وأدخل يدَه فيها. لم يجد العلبة. ذُعِر ساشكا وراح يعبث بمحتوياتها مستغرباً. ثم نفض كاملَ ما بداخلها على الأرض. لا أثرَ للشوكولا هناك، جلس على السرير. ظلَّ جالساً دونَ حَرَاكٍ مُحاولاً التفكُّر، وتعليل ما يحدث. من جديدٍ راح يُقلِّب كلَّ أمتعته، عبثاً. لا وجودَ للعُلْبة. انطلق إلى الغرفةِ الكبيرة على أملٍ وحيد هو البطش بكيشا؛ لأنه الوحيدُ القادر على سرقة العُلْبة المشؤومة ليَمْنع ساشكا من مُصالَحةِ كاتيا. قال ساشكا بحقد: «خَسِئت! مهما يكن، فسأتصالح معها». لكن كيشا لم يكن في تلك الغرفة أيضاً.

نزل السُّلَّمَ راكضاً، لوَّحَ بيده لإيليا وتابَعَ إلى الشارع. وغيرَ بعيدٍ عن المبنى لفَتَ انتباهَه شيءٌ ما، يعرفه؛ الشريط الليلكي. اقترب قليلاً، ورأى العلبةَ مُجعَّدةً بين النُّفايات. ركَلَها برجله على مَهَلٍ وراح يَرْقبها بعناية. كلَّا، ليس كيشا مَن أخذ الشوكولا؛ كيشا لا يُمكِن أن يأكلها، يُمكِنه بيعها، لكنه لا يأكلها. إذاً مَن؟ الكلب؟ أبداً. شيز؟ لا تَشْغله مثلُ هذه السخافات؛ علبةِ شوكولا! غاب يورا مساءَ أمسٍ وصباحَ اليوم. لم يَبْقَ إلَّا پـاڤْـلِك، بالأمس أيضاً رافَقَهم إلى المركز التجاري. رَكَلَ ساشكا العلبة. كان عليه أن يَحْملها معه ما دام قد اشتراها. والآن ماذا يفعل؟ هل يضرب الصبي؟ وما الفائدة؟! مُؤسِف جداً أن يأتي شقيقُ أوليغ بِفِعلةٍ كهذه؛ ففي ذلك شيءٌ كريه يُثِير الاشمئزاز؛ فهو ليس مُتسوِّلاً أو شحَّاذاً، بل هو شقيقُ القائد، الرجل الطيب. بصق ساشكا وتابَعَ سيرَه باتجاه المحطة. لا يُمكِن الحديث عن أية هدية بديلة قبل أن يَحِين موعدُ المرتَّب القادم، ولا بدَّ من الاعتذار بأسرعِ وقتٍ ممكن.

ما إن وصَلَ إلى بيتِ كرايف حتى كانت سحابةُ الحقد على پـاڤْـلِك قد انقَشَعَت، واختفَت معها أيضاً الثقةُ بأن ما يفعله ساشكا نفسُه صحيح. فجأةً شعر بالرعب، وانعطف نحوَ كومةِ النفايات التي دَفَن فيها الحقيبة من قبلُ. التفَّ حول الحاوية وراح يَنْظر إلى بيت كاتيا الذي يَصْعب تمييزُه عن غيره من

المباني المتشابهة. تخيَّلَ نفسَه عند مدخلِ بيتها ورأى كاتيا نفسَها وهي تنظر إليه بحقدٍ وعدمِ اكتراث. قالت كاتيا: «بعدَ الكلام الذي قلتَه لي، أعتقد أنه لا حاجةَ إلى وجودك هنا». أدرك ساشكا فجأةً أنه ليس بوسعه تصوُّرُ كاتيا وقد اعتراها الغضب، فهي لم تَغْضب منه قَطُّ؛ وهذا ما جعَلَه أكثرَ حيرةً. بعد أن نعَّمَ الثلج حول الحاويات وهو يَجُول في مكانه، وجد ساشكا نفسَه يدخل بوابةَ المدخل بخطواتٍ متثاقلة وهو يحثُّ نفسَه فقط بـ «لا بُدَّ». توقَّفَ خلفَ السور لحظات، ربما تُطِل كاتيا عبر النافذة، لكنه فهِمَ أنها حتى لو أطلَّت من النافذة، فلن تخرج إلى الشارع. مَن يعرف سببَ مجيئه. قد يكون ثَمِلاً ومعه سلاحٌ أيضاً.

صعد ساشكا وقرع الباب. بعد نصفِ دقيقةٍ ظنَّ بارتياحٍ أن كاتيا خارج البيت، وأنَّ كلَّ شيءٍ تأجَّلَ. لكن كاتيا فتحت الباب، وقَفَت على العتبة وهيِ تسدُّ البابَ بجسدها. شعر ساشكا بهبوطٍ في كيانه، وبجفافٍ في حلقه، وأدرَكَ الآن بوضوحٍ أن كاتيا لن تغفر له، وأنها لا تطيق رؤيتَه. طأطأ رأسه، وتبادَرَ له أن وَجْنتَيْه أحسَّتا بوقْعِ الصفعةِ القادمة. كان مُرعِباً جداً أن يَسْمع الكلمةَ التي بوسعها فعْلُ ما عجزَت الرصاصات عن فعله يومَ المعركة. إنها تَنْغرز في جسمه، وتقتل الأملَ في المستقبل، وتُلغِي كلَّ ما تبقَّى في روحه لم يُدنَّس بعدُ. ظلت كاتيا صامتة، وأدرَكَ ساشكا كَمْ هي حانقةٌ عليه. وذلك بالضبط حين تأكَّدَ هو الأحمق كَمْ يحبها، وحينَ قرَّرَ أن يَهَبها كلَّ شيءٍ يستطيعه؛ مدينة بلا حرب.

نطقت كاتيا أخيراً: «ادخل. وإلَّا اندفع الهواءُ البارد إلى الداخل، نظامُ التدفئة عندنا يَكاد لا يعمل».

هزَّ ساشكا رأسَه مُحاوِلاً التأكُّدَ من حقيقةِ ما سمعه، وراح يُحدِّق في وجه كاتيا. بَدَت غيرَ غاضبة، لكنها مُرهَقة، لم تَذُق الليلةَ الفائتةَ طعمَ النوم. الغرفةُ باردةٌ حقاً؛ لذا ألقَتْ كاتيا على كتفَيْها سترةً صوفية كبيرة وفضفاضة، تدلَّتْ حتى ركبتَيْها، وارتدت سروالاً سميكاً، وجواربَ صوفية. خطر في بالِ ساشكا أنه إذا خلع سترته الرسمية فسيتجمَّد من البرد، ومع ذلك خلعها؛ لكيلا يُضايِق كاتيا بهذا اللباسِ الرسمي الذي لا تُحِبُّه.

قالت كاتيا: «سأُعِدُّ الشاي. لكن ليس عندي ما يُؤكَل».

- «لستُ جائعاً».

خرجت كاتيا إلى المطبخ، وقال ساشكا في سرِّه إذا تجرَّأ پـاڤْـلِك وجاء إلى هنا، فسينال منه شرَّ جزاء.

رجعت كاتيا، وجلست تنظر إلى ساشكا وهي فيِ حالةِ تَرقُّب، فقال:

- «أعرف أنكِ لن تَغْفري لي. لكنني جئتُ طالباً المغفرةَ منك. أنا نَذْلٌ طبعاً، ولكن ما قلتُه آنذاك ليس هو ما أعتقده».

قالت بصوتٍ خفيض: «أعرف ذلك، لستُ حانقةً عليك».

- «حقاً؟»

لاذت كاتيا بالصمت، ثم قالت: «بالطبع. مهما يكن، فأنت إنسانٌ طيِّب، ولو كنتَ سيئاً لَمَا جئتَ، أليس كذلك؟»

راح ساشكا يتأمل وجهَ كاتيا، فبدا له الآن فجأةً أروعَ وجهٍ على وجه الأرض.

استأنفت كاتيا: «لا خبزَ لدينا لليوم الثاني؛ المخبز مُعطَّل، ولا يَجْلبونه لنا من أماكنَ أخرى. وقريباً سيحلُّ عيدُ رأس السنة. سيَهْدون والدتي بعضَ المواد الغذائية. أنا أحبُّ هذا العيد. وأنت؟»

- «وأنا أيضاً».

- «كيف احتفلتَ به المرة السابقة؟»

تبسَّم ساشكا: «أنا! احتفلتُ به في البيت. أعطونا إجازة. جارنا هناك ساعَدَ والدتي في جمْعِ بعض الأغصان، وعملنا منها شجرةً صغيرة، زيَّنَّاها ببعض ألعابي التركيبية وما تبقَّى من الزينة القديمة، وصنع إيليا من القطن نُدَفَ ثلجٍ.

- «وهل تمنَّيتَ أمنية؟»

- «أمنية؟ ربما، لكني لا أذكر ماذا كانت بالضبط. قد أكون تمنَّيتُ النجاحَ في دراستي. أُدرِكُ الآن أن أمنياتي كانت دائماً سخيفة».

- «بعد تلك الرحلة في الخريف حين رأيتُك في الفيلق، كانت أمنيتي في رأس السنة يومَها أن أُعجِبَك ونَبْقى معاً دائماً. هل تَفْهمني؟ للأسف، لم تتحقَّق».

- «لماذا لم تتحقَّق؟» التفت ساشكا نحوَها، وحدَّق في عينَيْها، بدا أنها تكاد تبكي. «لقد تحقَّقَت أمنيتك تماماً! كاتيا، أنا مُعجَب بك جداً، جداً! فقط لم أفهم ذلك حينَها لأني لم يَسْبق لي أن عرفتُ الحب. لم أكن أعرفُ كيف يَحدُث

ذلك! الآن أعرف جيداً! سأحدِّثُك فيما بعدُ عن شيءٍ ما، على جانبٍ كبير من الأهمية. في الجنوب، خلفَ إنسك، هناك مدينة رائعة..».

حكى ساشكا لكاتيا عن الكتاب الذي قرأه، وعن مدينةٍ آمِنة رآها في المنام، وأنهما سيَذْهبان إليها في الربيع عبر السهوب.

كان يَتكلَّم بلَهْفةٍ، فيَغْلط ويَخْلط الأمورَ ويتعجَّل ليقول كلَّ ما في نفسه، خشيةَ أن ينسى أيَّ شيء. وحين أنهى كلامَه نهضت كاتيا.

- «سيتبخَّر ماءُ الشاي في الإبريق، انتظر».

عادت تَحْمل فنجانَيْن.

- «ساشا، ما كنتَ تتحدَّث عنه ليس إلا أسطورة عن الجنَّة. أشياء موجودة في العهد القديم. عندما تَسُوء حالُ الإنسان ينتقل إلى الإيمان بأن كل شيء سيَغْدو جيداً، وإلا فإنه سيُجَنُّ. في الواقع لا وجودَ لهذه المدينة».

ظلَّ ساشكا صامتاً تحت هوْلِ الصدمة. لم تُصدِّقه كاتيا. كان يَتوقَّع أيَّ ردٍّ منها، أمَّا ألَّا تَحْمل كلامَه على مَحْمَل الجد!

- «هذه المدينة موجودة، وسأجدها حقاً. هل ستُرافِقينني؟»

- «كلَّا».

لقد انتهى كلُّ شيء. لم يَعُد هناك إلَّا الرحيل. لكن كاتيا أخذَتْ فجأةً يدَ ساشكا بحذر.

- «لا تذهب. سوف تموت، وأنا لا أُريد ذلك. أتمنى أن نظلَّ معاً، أنا وأنت هنا، وسيكون كلُّ شيء كما نشتهي. لو تُغادِر وحدات المغاوير، وتبحث لنفسك عن عملٍ، وأنا أيضاً سأجد عملاً مناسباً، فآنذاك نستطيع أن نعيشَ ببساطة، مثل الجميع. هل تَفْهمني؟ لا تُحارِب. وعندئذٍ حتى مدينتُنا ستكون كأنها آمِنة».

تأمَّلَها ساشكا؛ بَدَت الآن ناضجةً، أنضجَ منه بكثير.

- «كلَّا، لا يمكنني ذلك. ليس عدلاً أن تعيش ولا تَعِي ما يدور حولك. حتى لو كنت قادراً على ذلك، فماذا عن أولادنا؟ أنتِ تريدين أن تتزوَّجيني؛ أيْ أنكِ ستُنجِبين أولاداً، أليس كذلك؟»

أومأت كاتيا برأسها.

- «الإنجاب هنا لا يجوز. هذا جريمة».

قالت كاتيا: «إنه الفرح. انظر إلى نفسك. هل اقترف والِداك جريمةً حين أنْجَبَاك؟»

أجاب ساشكا غير واثقٍ: «لم يكونا يعرفان كلَّ شيءٍ عن مدينتنا. أمَّا أنا، فقد عرفتُ كلَّ شيء».

قالت كاتيا ضاحكةً، وهي تقترب منه: «يا لك من أحمق!» فاحتضَنَته، وأسَرَّت في أُذنِه، وهو يحسُّ بدِفْءِ أنفاسها: «لستَ بحاجةٍ إلى هذه الحكاية الساذجة عن الجنَّة، فأنا بحاجةٍ إليك. وأنت تعرف ذلك منذ زمنٍ بعيد. إن كنتَ تريد لي الخيرَ، فكُنْ إلى جانبي بكل بساطة، وكفى. إنني لا أريد شيئاً آخَر!»

لا شيءَ آخَر؟ هل يَعْني أنه غالٍ عليها إلى هذا الحد؟ وأغمض ساشكا عينَيْه. الآن، بَدَتْ له فِعلتُه يومَ عيد ميلاده أشدَّ دَناءةً. فدفعه ذلك لأن يُقدِم على فِعْلِ شيءٍ أكثر نقاءً. ولكن ما هو؟ لا تنوي كاتيا مُغادَرةَ المدينة، وهي مُحِقة على طريقتها، طبعاً. وإذا لم يَصِلا إلى تلك المدينة؟ وإذا ماتت في السهوب؟ كيف سيستطيع العيشَ بعدها؟ إنها مُحِقة، وإيليا مُحِقٌّ أيضاً. يجب رفْضُ الحرب، ببساطة. ولا شيءَ آخَر! انتهت الفكرة. حينها لا بُدَّ أن يَعُمَّ السلام، ولو ظاهرياً فقط.

نطق ساشكا: «كاتيا». وعاد إلى الصمت.

ظلَّ صامتاً، وكوَّر عينَيْه، يريد أن يخبرها بأنه لن يذهب إلى أيِّ مكان، غير أن شيئاً ما حالَ بينَه وبينَ ذلك. إنه لا يَقْوى على التخلِّي عن إيمانه بتلك المدينة، التي ربما لم يَكُن لها وجودٌ في يومٍ من الأيام. هنا لامَسَت يدُ كاتيا قصبةَ أنفِه، فتنهَّدَ وقال: - «سيكون ما تريدين. إذا رفضتِ فلن نُغادِر. سأبدأ بالبحث عن عمل».

التصقَتْ كاتيا به، وانخرطَتْ في بكاءٍ مفاجئ. فأدرك ساشكا أنه لا يعرف إطلاقاً كيف يُطَمْئِنها. راح يتمتم ذاهلاً: «توقَّفي، كلُّ شيء على ما يُرام». وأطلَقَ يده تَمْسح شعرَها، ثم جفَّفَ الدموعَ عن وَجْنتَيْها، بينما ظلت تَنشِج وهي تحاول أن تبتسم عبر الدموع.

- «كاتيا، كفى بكاءً. لقد قَبِلتُ بكل ما تريدين. لن أغادر أبداً. كفى كاتيا».

أمسك بيدها التي بَدَت صغيرة جداً، ناصعةَ البياض وناعمةً مُقارَنةً بيدَيْه الداكنتَيْن اللتين تكسَّرَت أظافرُهما وشقَّقَ الصقيعُ أصابعَهما. ربما لم يَحِقَّ له

بعدُ الاقترابُ منها ولمسها، ولكنه تناوَلَ يدَها وقبَّلَ أصابعها.

- «سأفعل ما تريدين».

- «كل شيء، كل شيء؟»

- «بالطبع».

- «أَسمِعْني إذاً بعضَ الشعر؛ الشعر الجميل جداً».

بدأ ساشكا يُسمِعها أشعاراً جميلةً وطويلةً لشاعرٍ قديم، تتحدَّث عن فتاةٍ كان يحبها. أصاخَتِ كاتيا إليه، وأحسَّتْ بالارتياح. سُمِعَ صوتُ الباب، وبدا الصوت لساشكا صاخباً ومُفاجِئاً، مثل الطلقة، فالْتَفَت. دخلَت ڤيرا إيـڤـانوڤـنا والدةُ كاتيا، تبسَّمَت كأنها لم تَرَهما مُتعانِقَيْن، أو ربما كأنَّ ذلك ما يجب أن يكون.

بادَرَها ساشكا: «مرحباً».

- «مرحباً، ساشِنكا. كيف أحوالك؟»

أجابت كاتيا نيابةً عنه: «ماما، إنه سيترك وحدات المغاوير، لقد وَعَدني».

أومأَت الأم برأسها، ودخلَت غرفتها. وتذكَّرَت كاتيا الشاي الذي برد.

قال ساشكا هامساً: «ثَمةَ شيءٌ مُضحِك؛ فقد اشتريتُ لك شوكولا، لكنَّ أحدَ الصِّبْية سرَقَها وأكلها، وترك العلبةَ فارغةً. كنتُ خائفاً من المجيء، ظننتُكِ لن تُسامِحيني».

ظلَّ ساشكا عند كاتيا حتى حلول الظلام، ثم أدرك فجأةً أنه لا يَحِقُّ له المبيتُ هنا؛ فهو الآن بمرتبةِ قائد. وبالرغم من مُحاوَلات ثَنْيه عن المغادَرة، آثَرَ الخروجَ راجلاً، في هذا الوقت المعتِم والمتجمِّد، إلى منطقة الأنقاض. عند المحطة تناوَلَ حجراً ثقيلاً بعض الشيء، تحسُّباً لأيِّ اعتداءٍ مفاجئ، لكنَّ الأمور مرَّت بخير. خلال الطريق، كان يصفر مَرِحاً. لكنَّ الفَرْحةَ العارمة التي غَمَرَته، والمجنونة أحياناً، ظلَّت تبحث عن مُتنفَّسٍ لها. راوَدَتْه رغبةٌ في الصراخ عالياً عبْرَ الأنقاض، وفي قذْفِ الحجارة على الجرذان، والأفضل أنه رغب في إطلاق رشقةَ رصاصٍ في سماءِ الليل التي منَحَتْه أخيراً نعمةَ الراحة والسعادة.

إلى هناك، حيث إلهُ ساشكا، الذي قرَّرَ أخيراَ أن يَمْنحه فرصةً، مُتنفَّساَ، ويهدي إليه السعادة. فكَّرَ ساشكا: «لقد كنتُ محقاَ، كنتُ محقاً! محقاً! لن يحدث أيُّ شيءٍ مكروهٍ بعد الآن، أيُّ شيء!»

33

لم يكن أحدٌ بالقرب من المدخل. ساءَت أوضاعُ إيليا، فاضطرَّ لمُغادَرة مَقرِّ الحراسة. أحسَّ ساشكا بشيءٍ من الحرج، فقد كلَّفَه بالحراسة وغادَرَ. يجب أن أعرِّج عليه. قرَعَ البابَ طويلاً، ولم يَفْتح أحدٌ أخيراً، ظهر الكلب عند العتبة، بَدَا عليه القلقُ. رأى ساشكا فتنفَّسَ الصُّعَداء، وأفسَحَ له المجالَ للدخول، ثم أسرَعَ وأقفلَ البابَ بإحكام.

- «أين كنت تتسكَّع حتى حلول الظلام؟»

- «هل حدث شيء؟» ونظر ساشكا في عتمة الغرفة.

قال الكلب بلهجةٍ جادَّة: «لقد حدَثَ ما هو أكبرُ من توقُّعاتك».

دخل ساشكا إلى الغرفة، فوجد مكسيم يجلس على السرير وقد أشعَلَ المصباح وراح يَعُدُّ:

- «أولاً، شقيق أوليغ مفقود. بحَثَ عنه كيشا في الجوار من دون جدوى».

قال ساشكا: «لقد هرب عائداً إلى البيت؛ سرق شيئاً ما، واختفى قبل أن أُلقِّنَه درساً».

- «إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس. فَلْنُتابِع. اليوم، نهاراً، بعث حبيبُنا الأرنب إلينا دوريةً من قِبَل الرائد في مهمةٍ تفتيشية حولَ قيادةِ الخَل للوحدة. وَجَدُوه ثَمِلاً في البناء الآخَر. وهناك خبرٌ نادرٌ مُفرِح؛ بندقية الذئب التي ورثها الخَلُّ عنه، يُقال إنها إمَّا سُرِقت، وإمَّا هو نفسه ألقى بها في مكانٍ ما. فَلْنُتابِع. نوبةُ الحراسة عند المدخل، مهمةُ الآمِر يِرخوف. لم يكن موجوداً هناك يِرخوف نفسُه، ولا حارسٌ آخَر بديلٌ له. اختفت كذلك بندقيةُ الصيد؛ سلاحُنا للدفاع عن النفس. ألقَت الدوريةُ القبضَ على الخَلِّ الذي كان موجوداً، ووعدوا بالتحقيق شخصياً مع يِرخوف. مفهوم؟»

اقترَبَ ساشكا من الكلب: «انتظر. ماذا تقول؟ لقد كلَّفْتُ مُناوِباً هناك. أمَّا أنتم فقد هربتم كلكم؛ لذا كلَّفتُ العنصرَ الجديد بالحراسة».

تساءل الكلب بهدوء: «أوه! وأين هو عنصرك الجديد هذا؟ ثم إن صاحبك هذا، يا ساشكا، لم يُسجِّلْه أحدٌ في المجموعة. هذا يعني أنك تَدْفع

بالسلاح لأيِّ شخصٍ كان. والسلاح ليس لك، فأنا المسؤولُ عنه أمام الرائد. وأنت تعلم أن قيادتَنا تَبْخل حتى بالطلقة الصَّدِئة. قد يَكْتفون بتوجيهِ إنذارٍ لك ما دام عددُنا الآن قليلاً هنا».

قال ساشكا: «لا يهمُّني». أثار حفيظتَه شيءٌ آخَر: إلى أين ذهب إيليا؟ فهو لا يعرف أحداً في المدينة، ومن الخطر عليه التَّجْوال. بل هـو يَحْمل سـلاحاً أيضاً. أيُعقَل أن يَقْصد المركزَ وبيده بندقية؟ لا يُمكِن، مستحيل! وتقدَّمَ ساشكا من الباب مُفكِّراً: «ربما يعود، ويُعِيد البندقية، ولن نُسأل عن أي شيء».

تنهَّدَ الكلب: «هناك خطرٌ آخَر؛ إذا اكتفوا بإعفاءِ الخَل من منصب القيادة، دونَ إنزالِ أي عقوبةٍ أخرى به، فقد يلجأ إلى قتْلِك؛ لأنك خدعتَه، فلو كان هناك حارسٌ لَمَا انتبه أحدٌ إلى أن القائدَ ثَمِلٌ».

- «وسلاحه، هل أنا أيضاً مَن سرقه؟»

- «يستطيع أن ينسى هذا الموضوع؛ فهو لن يُوجِّه الصفعةَ إلى نفسه، ستكون أنتَ كبشَ الفداء».

أطفأ الكلب المصباحَ واستعدَّ للنوم، كأنه أبلَغَ كلَّ ما يريد إيصالَه، وبذلك تنتهي مهمته. ذهب ساشكا إلى غرفته. كانت الجمراتُ المتبقية في المَوقِد تُضفِي بعضَ الإنارة عليها. جلس فوق السرير، فأحسَّ بشيءٍ تحته، مدَّ يده باحثاً فوجد جزمةً. تفحَّصَها، لا بأسَ بها، لكنها ليست جديدة. يبدو أن كيشا أحضَرَها من المُستودَع. نظر ساشكا باتجاهه فأدرَكَ، من خلال العتمة، أنه يَتكوَّر هناك تحت غطائه. ابتسم ساشكا. مهما يكن، فكيشا صديقٌ جيد، أمَّا كاتيا فهي أفضلُ فتاة في العالَم. هذا يَعْني أنه رجل محظوظ. سيعود إيليا بالتأكيد. ربما يُحاوِل تسويةَ أموره، فهذا ما يَسْعى إليه، وقد يكون احتفَظَ بالسلاح لأنه لا يَعْرف لِمَن عليه أن يُسلِّمه. وضع الجزمة تحت السرير، وأحكَمَ حولَه الغطاء. تذكَّرَ فجأةً كيف احتضن كاتيا اليومَ؛ لقد بدا ذلك رائعاً.

سُمِع قرعٌ مِلْحاحٌ على الباب الخارجي، أيقَظَ الوحدةَ بكاملها في ساعةٍ مُبكِّرة. كانوا يَطْرقون البابَ وكأنهم على يقينٍ من أن الباب لن يُفتَح، فتَهيَّؤوا لتحطيمه.

كان ساشكا ومكسيم أولَ مَن خرج إلى الممرِّ، وتَبِعهما كيشا وشيز.

صرخوا من وراء الباب: «إدارة الشؤون الأمنية. افتحوا».

تقدَّمَ شيز مُتخطَياً ساشكا الذي وقف مُتسمِّراً من هولِ الصدمة، وفتح الباب. اقتحَمَ الغرفةَ على عَجَلٍ خمسةُ رجالٍ مُسلَّحين، في اللباس المموَّه. صوَّبوا أسلحتَهم إلى الشُّبَّان مُباشَرةً، فبَدَا ذلك لساشكا والآخَرين تصرُّفاً مُتوحِّشاً. مهما يكن، فإنهم في عقْرِ دارِ وحداتِ المغاوير. خلفَ ظهورِ أولئك الرجال، وقَفَ شابٌّ بَهِيُّ الطَّلْعة، ذو عينَيْن زرقاوَيْن طيِّبتَيْن وابتسامةٍ لطيفة، يرتدي معطفاً جلدياً ويعتمر قبعة. استعرض بنظرتِه الثاقبة الشُّبَّانَ المذعورين وقال:

- «المطلوب قائدُ المجموعة ألِكساندر يِرخوف. أنصحُ بعدمِ التستُّرِ عليه».

تَساءَل ساشكا مذهولاً: «ومَن أنتم؟» وهو ينقل ناظِرَيْه من رجلٍ إلى آخَر، على الرغم من الثقة التامة بانتمائهم إلى المكتب.

امتدَّت يدُ الرجل الذي بَدَا أنه المسؤول هنا، إلى جيبه الداخلي، وأخرَجَ بطاقةً صغيرةً، زواياها سوداءُ لامعة، وقد رُسِمت عليها أحرفٌ ذهبيةُ اللون: «وكالة الاستخبارات - الإدارة الأمنية» بسَطَها أمامَ الجميع، ثم أودَعَها جيبَه ثانيةً.

- «هل من أسئلةٍ أخرى؟ إذن، أين يختبئ يِرخوف؟»

قال ساشكا، وهو يتصنَّع الابتسامَ عبثاً، فقد بَدَت ابتسامتُه مثيرةً للشفقة: «ما الذي يَدْفعني للاختباء؟ فأنا لم أرتكب أيَّ مُخالَفة!»

هزَّ الشاب الجميل رأسه.

- «يِرخوف، هيَّا معنا إلى الفرع لتدقيق بعض المعلومات. لا حاجةَ بعدُ للقلق، عدمُ الامتثال حماقةٌ. هيا بنا».

تقدَّمَ ساشكا خطوةً إلى الأمام وسمع صوتَ كيشا:

- «سانيوك، خُذِ القُبَّعة».

قال الجميل بأناة: «المكانُ لدينا دافئٌ هناك في الفرع، ولا حاجةَ لأغراضٍ زائدة».

خرج ساشكا إلى السُّلَّم، وخلفه الرجالُ المسلَّحون.

أصدَرَ أحدُهم الأوامر: «اليدان خلف الرأس، باتجاه الحائط».

لامَسَت السبطانةُ الباردة قفا ساشكا، وراحَت الأصابعُ المَرِنة تبحث داخلَ الجيوب وتُلقِي بكلِّ ما في داخلها خارجاً؛ علبة فيها سيجارتان، وبضعة قروش، الجُعَل كوزكا، والناب المحنَّط. «فتَّشناك. انزل!»

امتثَلَ ساشكا للأوامر. بدا كلُّ شيء غريباً جداً؛ الموكبُ المؤلَّف من خمسةِ عناصرَ مُسلَّحين، الجيوبُ المقلوبة، وشيءٌ مُنتظَرٌ لم يتحقَّق في هذا الصباح.

سار ساشكا عبر الأنقاض دون أن يَلْتفت، وإن لم يَمْنعه أحدٌ من ذلك. يَخُوض أكوامَ الثلج الرطبة، مُتوقِّعاً رشقةً في ظهره عند أحد المداخل القَذِرة، أو بجوارِ كومةِ نُفايات الخشب؛ لأن عمليةً كهذه لا يُمكِن أن تكونَ سليمةَ العواقب. في الشارع، كان المارَّةُ من الشباب يتراجعون عند رؤيتهم، أو يُغيِّرون طريقَهم خوفاً، وكأنهم صادَفوا قططاً سوداء ما هي إلا فَأْلُ نحسٍ. عند المحطة كانت بانتظارهم عَرَبةٌ، حافلة صغيرة قديمة عليها ساترٌ قماشي. كان السائق مُنشغِلاً بالمحرِّك، وحين رأى القادِمين أغلَقَ صندوقَ العَرَبة الأمامي وشرع في تدوير المحرِّك الذي راح يَعْطس ولا يستجيب. نجح السائق أخيراً في تدوير المحرِّك وهو يشتم الشمعات والكربوراتور وجشع القيادة. فانطلَقَت الحافلةُ الصغيرة تَجْأر وتَعْوي، وهي تَطْوي الشارع القَذِر. جلس اثنان من الحَرَس على جانِبَيْ ساشكا، وعندما حاوَلَ ساشكا أن يدسَّ يدَيْه الباردتَيْن في جيبه، ركَلَه الحارس المُقابِل بجزمته.

نصحه الوسيم: «أَبْقِ يدَيْك ظاهرتَيْن، ولا تَأْتِ بحركاتٍ زائدة».

تلفَّتَ ساشكا مثل فريسة، وفكَّر في أن هذا الذي يحدث له علاقةٌ مُباشِرة بإيليا؛ فقد هرب وقبضوا عليه في المدينة. بالتأكيد استُجوِب، والاستجواب في المكتب يجعل الإنسانَ يَقْبل الاعترافَ بأي تهمة. ظلَّ الحرَّاس صامتين بينما تابَعَت العَرَبةُ تقدُّمَها بين المطبَّات، وانقلَبَ خوفُ ساشكا إلى رعبٍ. هو أيضاً، لو حاوَلوا استجوابَه لَباح بكلِّ ما يعلم؛ هروب إيليا إلى إنسك، ونقله جريحاً من السهوب إلى المشفى، أليس كذلك؟ قد يكون أوفر حظاً من الآخرين، وقد يَلُوذ بالصمت! توقَّفَت العَرَبة في مركز المدينة، أمام مبنى أصفرَ كالحٍ. عند بابه المعدني وقَفَ شُبَّانٌ طِوالُ القامة بلِباسهم الأخضر وأسلحتهم الرشَّاشة. تَباعَدوا بصمتٍ وأفسحوا الطريقَ لساشكا. دخل الوسيمُ خلفَه دون جَلَبة. في الصالة، خلف طاولة المكتب، جلس حارسٌ ضخمٌ يرتدي بزَّةً خضراء، مثل الحرَّاس في الخارج. تفحَّصَ ساشكا بنظرةٍ، ومن دون أن يَلْتفت إلى الوثائق الممدودة بيد الضابط الوسيم، رسَمَ ابتسامةً عريضة.

قال الوسيم: «نحن سنتوجَّه إلى مكتبي مُباشَرةً، وأنتم جَهِّزوا السافل؛ قد نحتاجه».

وأدَّى المُناوِبُ التحيةَ العسكرية.

قال الضابط بتسامح، وهو يشير إلى باب في نهاية الممر: «هيا بنا، أيها المتَّهم». تقدَّمَ ساشكا نحوَ الباب المشار إليه، وهو يقرأ على اللوحة: «كبير المحقِّقين في قسم الجنايات الخاصة؛ يان شيتينكِن». فتح الضابطُ البابَ ودفع ساشكا أمامه. وبالرغم من العتمة الضاربة في المكتب، استطاع ساشكا تمييزَ طاولةٍ تتكوَّم فوقها الأوراقُ، وكرسيٍّ وَثِيرٍ خلْفَه. وأمامَه رأى كرسياً صغيراً مُغلَّفاً بقطعةِ بلاستيك أسودَ. وكانت على طولِ الجدار خِزانةٌ مليئة بأضابير كرتون، وخَزنة معدنية مَطْليَّة باللون الأزرق، وثلاجة صغيرة على طاولةٍ بقوائمَ عوجاء. على واجهةِ الثلاجة صورةٌ للرئيس، مأخوذةٌ من تقويم السنة الماضية. مثل هذا التقويم، كان دائماً يتدلَّى في ثُكْنة الفيلق فوق واجهةِ نقطة الحراسة. ثَمة صورةٌ أخرى للرئيس بحجمٍ عادي في إطارٍ ذهبي كالح ثُبِّتت على الجدار خلف طاولة المحقِّق. كانت الزخارف على الستائر تتناسب مع لون إطار الصورة، وهي معيَّنات ذهبية باهتة على قماشٍ أخضرَ أكَلَ الزمانُ عليه وشَرِب.

أمر الوسيم وهو يشير إلى الكرسي الصغير القريب، ويخلع معطفه: «اجلس».

جلس ساشكا، وعلَّقَ المحقِّق مِعطفَه على مِسمارٍ خلف الباب، ثم تنهَّدَ مُرهَقاً، وجلس مُحاوِلاً إضاءةَ مصباحٍ لم يَستجِب له. شتم بصوتٍ خفيض: «قطَعَ الأوغاد التيار الكهربائي مرةً أخرى!» وفتح الثلاجة على مَهل، فتناوَلَ شطيرةً من اللحم، وشمَّ رائحتها. يبدو أن رائحتَها أعجَبَته، وشرع يتناول إفطارَه بشهيةٍ.

قال وهو يمضغ طعامه: «والآن، أيها السيد المغوار، ألكسندر يِرخوف، كما أذكر. أنا، يان شيتينكن، المحقِّق في الدائرة الأمنية. سأقول لك مُباشَرةً إن أمورَك لا تُبشِّر بخير، بل أخشى أيضاً، ضِمنَ المُعطَيات الموجودة، أن تُعدَم غداً رَمْياً بالرصاص، دون أن يتَّسِعَ لنا الوقتُ للحديث. على أية حال، لا تزال هناك فرصةٌ لإنقاذك، إذا اعترفتَ بصدقٍ وشفافية».

تَسمَّرَ ساشكا رعباً، كأنه فقَدَ القدرةَ على الحركة. لم يكن يَتوقَّعُ صباحاً كهذا. نهض المحقِّق واقفاً، اقترب من النافذة وأزاح الستارة وقد تلوَّثَت بالدهن من أصابعه، لينساب الضوءُ عبر المكتب، ثم غاص يبحث عن وثائقَ داخل الخزنة. أخرَجَ من هناك إضبارةً ورقيةً دقيقة، ونقل ناظِرَيْه إلى ساشكا.

- «هل تَنْوي قول شيء؟»

- «لستُ مُذنِباً».

تساءل الضابط: «يبدو أن ذاكرتَك ضعيفة؟ أحياناً، نتعامل مع أشخاصٍ ضِعافِ الذاكرة. نِصْفُهم تَعُود ذاكرتُهم نَشِطة، كسابقِ عهدها وبإرادتهم، والنِّصْفُ الآخر لا بدَّ من إكراههم على ذلك. أنا شخصياً أطمعُ بالأسهل والأفضل، وأنصحك أن تتذكَّرَ. كنا نستطيع أن نقتلَك برصاصةٍ فوراً، نستجوبك لتبرئة الضمير فقط. لحُسْن حظك، لسنا في إنسك، بل نعيش في مدينةٍ مُتحضِّرة. لذا يجب تقديرُ مدينتنا وحمايتها، والدفاع عنها، وليس العكس. الآن يُمكِنني استدعاءُ رجلٍ يَقُودك إلى الفِناء، وينتهي الأمر. أم أن الأجدى، أولاً، قتْلُ كل عناصر وحدتك؟ جزاءَ التواطُؤ. ما رأيك؟

سأل ساشكا بصوتٍ خفيض: «ما ذنبي؟»

تضاحك المحقق: «هااا، بل متى كنتَ بريئاً؟ بدءاً من اللحظة التي غادَر فيها صديقُك المفضَّل المدينةَ بهدف الخيانة. آنذاك تخلَّيتَ عن الخدمة في قوَّاتنا بشكلٍ يبعث على الريبة، ولربما هم طردوك. لم يَعُد هذا مهماً الآن في مثل هذه الحال، ليس بمقدورِ أحدٍ الاعتقادُ بأنك وعدتَ صديقَك بالإيواء بعد عودته».

اعترض ساشكا: «نحن لم نتَّفِق على أي شيءٍ». الآن اتَّضَح كلُّ شيء؛ لقد أوقفوا إيليا بالتأكيد، في المدينة، وأغلبُ الظنِّ مع سلاحٍ بيده. إذا كان الأمر كذلك، فلن يُمكِن لأيِّ اعترافٍ أن ينقذ ساشكا، وليس هناك أي أمل.

- «لَمْ تتَّفِقا إذاً؟» واصطنع المحقِّقُ نظرةً مريبة. «أجل؟ آنذاك، لماذا نقلتموه إلى المدينة؟ لديَّ الإثباتات. ذاك التاريخ، وذاك الشهر، أُصِيب، ونُقِل إلى المشفى التابع لمنظمة «المغاوير». قُلْ لي، هل هذا مُصادَفة؟»

التزم ساشكا الصمتَ.

- «لدينا أيضاً ورقةٌ صغيرة». ورفع المحقِّق بإصبعَيْن من يده ورقةً كُتِبت بخطٍّ ركيك وكثيف. «استجوابُ أحدِ موظفي المشفى المذكور أعلاه. أنت يا يِرخوف رجلٌ ماكر؛ قمتَ بخداع عناصر الكادر الطبي البُسَطاء، وآوَيْتَ عدوَّ المدينة في مَشْفاهم، وسجَّلْتَه باسمِ عائلتك. لقد أنقذتَ حياته، بدلاً من أن يُقتَل هناك في السهوب جزاءَ ما ورَّطَك فيه. لذا، فليس من العبث طرْدُكَ من الفيلق؟ هذا يعني أنه لم يُوقِع بك، هذا يعني أنَّ كل شيءٍ كان مُدبَّراً. لماذا لا تتكلَّم؟»

كان ساشكا ينظر إلى المحقِّق ويتمنَّى لو كان بإمكانه أن يهشِّم وجهَه اللطيف، أن يُوجِّهَ إليه ضربةً بقبضته بين عينَيْه.

- «لا تنظر إليَّ هكذا، أقرأُ بوضوحٍ ما كُتِب على جبينك، كَمْ أنت حاقد عليَّ، وناقِم. اطْمَئِن، فأنت أيضاً لا تَرُوق لي». وقف المحقِّق وراح يَذْرع المكتب ذهاباً وإياباً. «وهل يُمكِن لخائنٍ أن يفوز بإعجابِ أحد؟»

- «أنا لستُ خائناً؛ لقد حارَبْتُ دفاعاً عن مدينتي».

توقَّفَ المحقِّقُ على مَقربةٍ من النافذة، وراح ينظر عبرَها، ثم قال:

- «أنت خائن، يِرخوف، بالإضافة لكونك أحمقَ. وإلَّا لَكنتَ فكَّرتَ أنه لا جدوى من استفزازي، بل على العكس يجب الإسهامُ في كشف الجريمة. حتى إذا وضعوك في النعش، تظل على الأقل شبيهاً بنفسك. هل تريد ذلك؟»

ظلَّ ساشكا صامتاً.

- «وهكذا، سأمنحك دقيقتَيْن إضافيتَيْن بعدُ، لتستجمع أفكارك. ثم تبدأ منذ وقتِ دراستك في الفيلق. وستتحدَّث بالتفصيل، كيف، ومتى، ومَنْ هداك إلى فكرةِ بدءِ التنسيق والعمل لحساب إنسك. لا أنصحك بالكذب؛ لأن اعترافات ڤـيتروف موجودةٌ لديَّ أيضاً».

- «أيُّ اعترافات؟» كان ساشكا ينظر إلى ظهرِ المحقِّق الذي لم يكن يلتفت إليه، وكأنه ما زال يتحدَّث مع شخصٍ آخَر يقف خلف النافذة.

- «اعترافاتٌ دقيقة. لقد خانَك صديقُك، لكنك تقلق عليه. عبثاً تفعل ذلك. صديقك نَذْل؛ فارٌّ وقاتل، لا يُقدِّس الصداقة. وبكلمة واحدة، ليس فيه بارقة أمل. سيخنقك مقابل المال من دون أن يرفَّ له جَفْن».

صاح ساشكا: «أنت تكذب! إيليا ليس مذنباً! لقد ذهب إلى إنسك ليبحثَ هناك عن والده. لقد خدَعُوه!»

استدار المحقِّقُ ونظر إلى ساشكا بفضول: «يا للوقاحة! وأنت، يا يِرخوف، سفيهٌ أيضاً. فَلْتَعْلم أننا هنا في هذه المؤسسة اعتَدْنا الكلامَ بصوتٍ أخفضَ من نَبْرتك».

طأطأ ساشكا رأسه. لا جدوى البتة، أي شيء يقوله يتحطم على عِناد هذا الرجل الوديع العينَيْن. أحسَّ ساشكا بتعَبٍ لا حدودَ له، وشعر بالنعاس. وقف شيتينكن على مَقربةٍ منه، يتمايل على كعبَيْه، بدا وكأن حماسه لمُتابَعة

هذا الاستجواب قد خبا. ذلك، يجب ألّا يحدث! لا يجوز اتهامُه بشيءٍ لم تَقْترفه يداه! هزَّ ساشكا رأسَه وهو يستجمع أفكاره. لا يجوز أن تَضْعُف، لا يجوز أن تَرْتبك. حتى كاتيا كانت تقول إن الإنسان عندما يكون على حق، يُمكِنه إثباتُ ذلك. يكفي أن تحاجج بهدوءٍ وبمنطق. وهذا بالضبط ما حاوَلَ ساشكا أن يفعله.

قال يخاطب المحقِّقَ: «لقد اختلطت الأمورُ عليك، أنت تَحْكم علينا سلفاً بأننا مجرمان، وهذا غير صحيح. عندنا في الفيلق ضابط، لا أعرف مَن هو، قام بخداعِ إيليا. لم يَخُن إيليا مدينتَه، ولم يكن لديه أسرار. وأنا أيضاً، لم أَخُنْها، صِدْقاً. هو صديقي فقط. لقد وجدتُه جريحاً في البراري. هل كنتَ ستتخلّى عن صديقك وهو جريح؟»

أجاب المحقِّق وهو ينقر بأصابعه على حافة النافذة: «بِرخوف، أصدقائي لا يَجُوبون السهوب، هنا وهناك».

- «كنتُ واثقاً أنه لا يُمكِن أن يقومَ بفعلٍ سيئ؛ لذلك قبلتُ به في المجموعة. فهل إقامتُه هنا في الأنقاض تُسِيء لأيِّ شخصٍ كان؟»

قُرِع الباب، وانفتح قبل أن يُؤذَن بذلك، ودخل رجلٌ مُسِنٌّ، يرتدي سترةً رمادية مدعوكة.

- «ماذا؟ أيها المغوار القملة، هل وقعتَ؟!» وانقضَّ على ساشكا. «قريباً، سنُرسِلكم كلكم، يا أصحاب القمصان السوداء، إلى الجحيم!»

بادَرَه المحقِّق: «اهدأ، يا سيوما».

- «لماذا أهدأ؟! دَعْني أُحطِّم وجهه».

- «لا حاجةَ لذلك الآن. من الأفضل أن تتعارفا؛ هذا ألكسندر بِرخوف، طالبٌ سابق في المدرسة الحربية، وهو حالياً قائدُ مجموعةٍ في وحدات المغاوير. يا له من منصبٍ يُحسَد عليه! هل رأيتَ المعتوهين الذين يُخرِّجُهم الفيلق؟ يعجزون عن التفوُّهِ بجملةٍ مفيدة، سوى: «عمَّاه، لستُ مذنباً». يَدَّعون أنهم يُعلِّمونهم اللغات وما شابه».

- «لا حاجةَ للتهكُّم، دَعْني أُسدِّد له لكمةً على أُذنه».

قال المحقِّق موضِّحاً: «كلَّا، لم أُكمِل استجوابَه بعدُ. إذا مات قبل انتهاءِ المحضر، فسنُضطر لكتابةِ تفسيراتٍ مُتعِبة نبرِّر فيها لتوفلت سببَ تخلُّصِنا من كلبٍ من كلابه».

قال سيوما بحقدٍ وهو يغادر: «توقّلت سينتهي قريباَ. حينها سأمزِّق هؤلاءِ الأنذالَ بيديَّ».

قال شيتينكِن حين أُغلِق الباب: «لا تغضب على زميلي. فقد اغتَصَب المغاوير ابنته؛ لذلك ينتقم منهم. وإن كان، والحق يُقال، لا أحـدَ يحبكم هنا. دَعْنا نُتابع، أين توقَّفْنا؟ آه، قلتَ إنك أنت وإيليا ڤـيتروف من أشرف الناس، ولم تُسبِّبا أيَّ أذى لأحد. أجل. ولكنك يا يِرخـوف، لا تُحسِن الكذب. أحدُ الفتيان الذين حقَّقتُ معهم هنا، كان يَبْتر أصابعَ الفتيات، ولكنه كان بارعاً في الكذب، يجعل الإنسانَ المثقَّف يستمتع بالاستماع إليه، أمَّا أنت... فواضح أنك مِغوَار أبله، لا خيالَ لك، عذراً منك، ولا عقل».

- «لم أكذب عليك بكلمة».

هزَّ شيتينكِن رأسه: «أجل، أجل، ذاكرتُك سيئةٌ حقاً. لقد تحدَّثنا حول هذا الموضوع، لا بأس. سأضطر أن أخبرك عن كل شيءٍ بنفسي. إذاً، قرَّر أحدهم، مدرِّبُ قتالٍ قريب، هِرمان ميدكوف، التواصُلَ مع إنسك، واختار لهذه الغايةِ اثنَيْن من تلاميذ المدرسة العسكرية؛ ڤـيتروف، ويِرخوف. فوافَقَا، بالطبع. لا أعرف إن كان ذلك طَمَعاً بالمال، أم انسياقاً وراء رغبةٍ رومنسيةٍ لممارَسة الجاسوسية. وأثناء التدريب، على مسافةٍ قريبة من مواقع القوات المُعادِية، انطلق إيليا ڤـيتروف ومعه ظرفٌ يحتوي معلوماتٍ سرية ومهمة تاركاً سَرِيَّته. بينما كان يِرخوف ساشكا يغطِّي هربَه. هل تريد أن أحدِّثَك عن الحجة المريبة المتمثِّلةِ في اللطمة القوية على رأس ساشكا، هل نتحدَّث عن ذلك؟ أرى أنك تذكر. فَلْنُكمِل. وفي إنسك تعاوَنَ إيليا مع السلطات استعداداً ليعودَ إلينا بمهامَّ جديدةٍ. لست أدري كيف كنتَ تتواصل معه، فهذا ما أتمنى سماعَه منك، يا يِرخوف. على أية حال، فقد اتفقتما على أن تَلْتقيا في منطقةِ المخفر الجنوبي، حتى إن إيليا تَدبَّرَ اللباسَ الرسميَّ وارتداه؛ تحسُّباً لأي طارئ. ولكن، ولسُوء حظه، أصابته طلقةٌ طائشة. ذلك يحدث. أنت حاوَلتَ إنقاذَ صديقك. أدخلَتْه المشفى، ومن ثَمَّ نقلتَه إلى المجموعة، وأعطيتَه سلاحاً أيضاً. وقد حاوَلَ ڤـيتروف أن يَقْتل به ميدكوف. هنا يَحضرني سؤالٌ آخر: ما الهدف؟ فقط، لا تُعاوِد الحديثَ عن حكايةِ الأب الضائع. لقد سمعتُها أكثرَ من مرَّة. حكاية نَتِنة. فأنت لا تظنُّ أن العاملين في مديرية الاستخبارات معتوهون، يُصدِّقون كلَّ ما يُقال؟»

تجمَّدَت أوصالُ ساشكا. أطلق إيليا النارَ على مدرِّبِ قتالٍ قريب. هذه كانت حساباته في المدينة! كل ما تبقَّى مجردُ هذيان!

ذكّرَه المحقق: «إذاَ، هل أنتظر منك يا يِرخوف حديثاَ مترابطاَ منسجماَ حول كل علاقاتك؟ لقد كشَفْنا بعضَها، على أية حال. فمَن غيرك انضَمَّ إلى منظمتكم الإجرامية؟ النقيب كرايف، أليس كذلك؟ حاوِلْ أن تتحكَّم في أعصابك. هل ظننتَ أننا لن نعرف ذلك؟ عبثاً. منذ وقت قريبٍ أيضاً كنتَ في بيت كرايف. بالرغم من أن النقيب قُتِل. فما الهدف؟ مَن تعاوَنَ معكما أيضاً؟ زوجتُه؟ ابنتُه؟ لقد بعثتُ لهما تبليغَيْن. غداً ستَمْثُلان أمامي».

صاح ساشكا مذعوراً: «لا حاجةَ لذلك! لا علاقةَ لهما بشيء! لقد ذهبتُ إلى كاتيا كرايف لأني مُعجَبٌ بها».

- «مُعجَبٌ بها؟ هذا أفضل. يعني أنك لن تسمح بمجيئها إلينا. هناك كثيرٌ من الإشاعات المُخِيفة عن عملنا هنا، وهذا ربما يُثِير قلقَها».

كرَّر ساشكا بيأس: «لا أعرف ماذا أقول. أنا لم أفعل شيئاً. ليتك تُصارِحني بماذا يجب أن أعترف!»

تنهَّد المحقِّق.

- «يِرخوف، أنت لا تقول سوى التفاهات. أبدو وكأنني رجلٌ وغدٌ هنا، وأنت حَمَلٌ بريءٌ. كلَّا، أيها السيد المغوار. أنت نفسك ستَتذكَّر كلَّ شيء، وتُحدِّثني عن ذلك. ستُمضِي هذه الليلةَ في الزنزانة، استجمِعْ أفكارَك وأخبِرْنا بكل شيء. ولإنعاش ذاكرتك، سأرتِّبُ لك لقاءً شائقاً».

خرج المحقِّق إلى الممر. نادى شخصاً وعاد مُسرِعاً. نظر إليه ساشكا بانتظارِ أيِّ شيءٍ. بَدَا أن هناك أمراً جَلِياً؛ ما دام ساشكا لن يبوح بشيء، ولن يُوقِّع على شيء، فلن يقتلوه. هناك حساباتٌ خاصة بين توقُّلت والمكتب. فهل يستطيع مُواجَهة هذه التحدِّيات؟ قد يُحضِرون كاتيا ويُمطِرونها بالأسئلة، فتَنْخرط في البكاء. وقد تتعرَّض فجأةً لصَفْعة؟ هزَّ ساشكا رأسه؛ مُؤلِمٌ جداً حتى مجرد التفكير في ذلك.

فُتِح الباب فجأةً، ودخل إيليا يَقُوده الحارس. شكلُه جعل ساشكا يرتجف مذعوراً؛ سترة ساشكا التي ارتداها إيليا مُمزَّقةٌ بالكامل ومُلطَّخة ببُقَعِ دمٍ داكنة وقَذِرة. يَتدلَّى رسغا يدَيْه كأنَّ أوتارَهما تقطَّعَت، وجهُ إيليا المألوف بداً لساشكا كتلةً من قشرةِ دمٍ جاف سوداء مُحمرَّة، ظلت عيناه وحدهما زرقاوَيْن كما كانتا من قبل. يبدو أنه لا يدرك إلى أين اقتادوه، ولماذا. راح ينظر بذهولٍ إلى الستائر الشاحبة بصمت.

صاح شيتينكِن متباهياً: «هكذا! انظر فِعلَ رجالنا. إنهم يضربون ضرباً مُؤلماً، ولكن بحرص. لا يَسْلم أيُّ عضوٍ من جسم الإنسان، ولكنه يمشي، بل قد يتكلم أيضاً». ناداه المحقق: «إيليا ڤـيتروف». فارتجف إيليا وترنَّحَ، ثم نقل ناظِرَيْه من الستائر إلى المحقِّق.

- «هل تعرف هذا الرجل؟» وأشار بيده إلى ساشكا.

نظر إليه إيليا مُطوَّلاً، وكأنه يُحاوِل أن يتذكَّر مَن هو، ثم حرَّكَ شفتَيْه فقط:

- «سانيوك..».

- «انظر، سيد يِرخوف، ها هو صديقك. هل تريد أن تصبح مثلَه؟ تقول عيناك إنك لا تريد؛ لذا عليك التفكير بجدِّية وأنت في زنزانتك».

- «بماذا سأفكِّر؟ ماذا تريدون مني؟ أنتم لن تُطلِقوا سراحَ إيليا، ولا سراحي، ربما. هل ستُعدِمونا رَمْياً بالرصاص أم ستضربوننا حتى الموت؟ ليتكم تُطلِقون علينا الرصاص».

كاد ساشكا يختنق من شدَّة الرعب.

طلب شيتينكِن إلى الحارس، وهو يشير إلى إيليا: «جورا، تفضَّل، وأخرِجْ هذا العَفِنَ بعيداً عن هنا».

نظر إيليا للمرة الأخيرة إلى صديقه ساشكا. بَدَا وكأنه سيقول له شيئاً على درجةٍ من الأهمية، ربما كان أهمَّ شيءٍ في حياته، لكنه لم يستطِع.

ارتجفت يده قليلاً، ثم تدَّلَت إلى جانبه.

فهمَ ساشكا تماماً: «إنه يُودِّعني». فهُمَا لن يَلْتقيا أبداً بعد اليوم. وسالت دموعُه على وَجْنتَيْه.

قال المحقق: «كُفَّ عن البكاء. ربما تأثَّرتَ لأنني لم أطلب إلى صديقك أن يجلسَ ويرتاح؟ على أية حال، لم يَعُد يستطيع الجلوس».

صاح ساشكا في وجهه: «اخرس! اخرس!»

ولطم المحقِّقُ ساشكا على وَجْنته: «أوووه! ولِـمَ هذه الهستيريا؟ اصمت، يا جرز المغاوير، وإلَّا جعلتك مثلَه».

بكى ساشكا بصمتٍ. «أوباش. لا يُمكِن لشيءٍ أن يتغيَّر. لقد قُتِل إيليا، وأنا أيضاً سأموت. حبذا لو قتلوني مُباشَرةً، بلا تعذيب».

استدعى المحقِّق حارساً آخر:

- «خُذْ هذا الصبيَّ إلى الزنزانة. لا تُبالِغ في ضربه؛ ما زال لديه وقتٌ للتفكير».

تضاحك الحارس:

- «هيا، أيها القَذِر».

ترنَّحَ ساشكا في الممرِّ المعتم، ثم دفعه الحارسُ باتجاه السُّلَّم وأضاء المصباح.

- «إلى الأسفل، أيها الجَرْو».

نزل ساشكا طائعاً إلى القبو. هناك، على جانِبَي الممر الضيِّق، الرطب، رأى أبواباً فردية صَدِئة بأقفالٍ كبيرة. بعضها كان مُوارَباً.

- «ارفع يديك». فتَّش الحارس جيوبَ ساشكا بسرعةٍ، وتلمَّسَ جسده أيضاً. «انزع الحزام».

امتثل ساشكا للأمر. دسَّ الحارس الحزام في جيبه، ثم أخذ ساشكا من ياقته ودفعه بكل ما أُوتِي من قوةٍ باتجاه الحائط. عصف الألمُ برأس ساشكا وكتفه، وغامَت عيناه.

أوضح الحارس: «هذه سلفة لك، وغداً أُسلِّمك الباقي. كفى حملقةً، تَعالَ، اقترِب. فتح الرجل أحدَ الأبواب وأمسَكَ بأكمام ساشكا ثم قذفه بحركةٍ حادة إلى عُمْق الزنزانة.

- «اجلس، وانتظر».

أدرك ساشكا أن باب الحرية قد أُغلِق في وجهه، فجلس على الأرض.

ظلامٌ دامس داخل الزنزانة وصمت. ابتعد الحارس، ولم يكن أحدٌ بجواره. تلمَّسَ بيدَيْه ما حوله، وأدرك أن الأرض رطبة وقَذِرة. هذا كل شيء. الآن، لا بدَّ من الموت. غريبٌ ألَّا يكون شيز إلى جواره الآن، ذاك الذي يتحدَّث كثيراً عن الموت، وأننا مع ذلك يجب ألَّا نموت. ماذا كان بوسعه أن يقول الآن؟

حدَّث ساشكا نفسه: «ليتهم قتلوني بالرصاص حالاً. ولكن لا بدَّ في البداية أن يُعذِّبوني. لربما يحلم إيليا أيضاً بإطلاق رصاصة الرحمة عليه». هنا راح ساشكا يبكي. ورَداً على دموعه أَضِيء المصباح فوقَه في اللحظة نفسها. دفع ساشكا برأسِه إلى الخلف وراح يتأمَّل الضوءَ الشاحب بوَجَلٍ. إنارةٌ في مثل هذا المكان! لا يُعقَل. لا بُدَّ أن هناك خطأً ما.

تلفَّتَ ساشكا حوله. بَدَت الزنزانة مثل كيسٍ حجريٍّ. طولها متران، وعَرْضها متران. تتساقط عبرَ الجدران قطراتٌ عَكِرة برتابةٍ واخزة، ويلف المكانَ صقيعٌ، حين يتنفَّس من فمه يخرج البخار. جلس على مَقربةٍ من الباب، قبالتَه على الجدار ثُبِّت مقعدٌ معدني صَدِئ. هناك فتحة في إحدى الزوايا خُصِّصت كمرحاض. نهض ساشكا ليجلس فوق المقعد، ترنَّحَ من ألمٍ انتابَ رأسَه. انقلب كلُّ ما حوله، واضطرب تنفُّسُه، فجثا على ركبتَيْه وهو يحتضن رأسَه بيدَيْه.

تذكَّرَ بصعوبة: «لقد ضُرِبتُ مرَّةً واحدةً فقط، فلماذا أشعر بكل هذا الألم؟» نبضٌ مُتسارِعٌ في الرأس ووجع. استشعر حرارةً مُفاجِئة. خلع سترتَه وما تحتها، وظلَّ في قميصه الداخلي. تراجَعَ الغثيان والألم بعضَ الشيء. نهض متثاقلاً، واقترب من المقعد وفرش ثيابه، ثم انطرح فوقها وهو يرقب مصباحَ السقف، كما كان يرقب ضوء الشمعة يوماً ما. غير أن هذا النورَ لم يَبْعث فيه الطمأنينةَ ولا الارتياح.

كان التيار الكهربائي يتذبذب، والأسلاك داخل الكرة الزجاجية تضطرب تارةً، وتنقلب إلى ديدانٍ دقيقة يصعب تتبُّعها تارةً أخرى، ويزحف البردُ مُتلفِّعاً بالعتمة، ومع إشعاعاتِ الضوء يعمُّ جوٌّ خانق وغثيان. أحسَّ بأنه يفقد عقله. أحياناً يريد أن ينزع ثيابَه كلها، ينتابه شعورٌ بضرورة البحث عن ثيابٍ أكثر دفئاً. أن يستلقي تارةً بلا حَراكٍ، أن يجري في الزنزانة تارةً أخرى، أن يَقْرع بقوة على الباب لعلهم يفتحون. تتراقص جدرانُ الزنزانة برتابةٍ، وفي لحظةٍ ما يتراءى لساشكا أنها تتقارب لتندمج. تتقارب لتَعْتصره. هكذا ببساطة. ولا حاجةَ لهدْرِ الطلقات. هذا ما حدث مع إيليا أيضاً. اعتصرَتْه الجدران، فبدا على هذه الحال.

تذكَّرَ ساشكا وجهَ إيليا، فتقيَّأ. وقَعَ على الأرض ولم يَلْحظ أنه تلطَّخَ بالوَسَخ الذي خفَّفَ من غليان المكان. راحت النوبات تتوالى أكثر: في البداية غشَّتِ العتمةُ عينَيْه، ثم أحسَّ بالاختناق، تدحرج على الأرض تحت وقْعِ صداع رأسه الشديد، وأخيراً استسلم للتقيُّؤ. رعبٌ يكاد يكون جنوناً، متى سيَعْدمونه؟ اليوم، أو فيما بعدُ؟ كيف سيفعلون ذلك؟ وبأية وسيلة؟ وقد لا يعدمونه؟ حينها ما هو مصيره؟ كان يُراوِد ساشكا الصراخ بأعلى صوته هرباً مِن هذا الرعب

الذي لا يُجارِي ما اختُبِر سابقاً. لم يكن يخشى الطلقة، ولا أن تتوقّف حياته في لحظةٍ ما. كَمْ مرة كان مُستعِداً لذلك! ما كان يخيف ساشكا هو أن يقوم بذلك أناسٌ وبشكلٍ غير عادل، وإنما تَبَعاً لإرادتهم فقط. وهو لن يكون بمقدوره منْعُهم، ولن يكون بوسعه الهرب، ولا المقاوَمة. وهذا لن يكون موتاً في المعركة، وإنما موتٌ غبيٌّ رخيصٌ ومجانيٌّ، بل مُخْزٍ أيضاً. ولا مجالَ لتلافيه. لا شيء إلا انتظار ثقيل قانط، مِلْحاح. مجرد وقتٍ لا لزومَ له، ويجب عليه أن يعيشه.

راح ساشكا يَذْرع أرض الزنزانة ذهاباً وإياباً؛ ثلاث خطوات في اتجاه، وثلاث خطوات في الاتجاه الآخَر. يزحف الوقت ببطءٍ مثل السلحفاة دون أن يصل أحد، سواء لاقتياده إلى ساحة الإعدام، أو لمتابَعة التحقيق معه. لا أحدَ يذكره في هذا العالَم. حتى لو انتحبتَ، حتى لو ضحكتَ، حتى لو متَّ. العالَم ليس بحاجةٍ إلى الخَوَنة والعملاء. الإله الذي يستطيع إنقاذَه لا يراه عبر جدرانِ القبو الإسمنتية.

لم يأتِ الحارس في اليوم التالي ربما. ظل ساشكا مضطجعاً على الأرض، لا يَعِي إن كان نائماً أم لا، ويحلم بشيءٍ واحد فقط؛ أن يموتَ بأسرع ما يمكن.

34

سمع ساشكا عبر صداعِ رأسه المِلْحاح: «ماذا بك أيها المسخ، هيا، سنعبث معاً بعض الوقت؟ انهض، أَلَا تسمع؟»

لكنه لم يتحرَّك، لم يكن يدرك، أحقاً فُتِح الباب أم أنه الهذيان المعهود. لكنَّ لكمةً قوية على بطنه أكَّدَت واقعيةَ ما يحدث.

قال الحارس بفخر: «أنا دائماً أصفع الوجه».

بينما كان ساشكا ينهض تلقَّاه الحارس ودفَعَه بمهارةٍ فسقط على الأرض، وقهقه ساخراً، ثم لوى ذراعَه حتى طقطقت ورفعه بحِدَّةٍ ليَقِف.

- «هيا، هيا، كفاك استرخاءً».

تابَعَ ساشكا سيْرَه، وذاك يدفعه من الخَلف. تضاحك الحرَّاس القريبون. «إلى أين يدفعون بي؟ ليُعدِموني بالرصاص؟ أم لا؟ قد يُجهِزون عليَّ ضرباً

بأعقابِ أسلحتهم. ذلك مُؤلِم جداً». وتابَعَ تقدُّمَه ببطءٍ ثقيل، وشرع جسمُه يؤلمه من شِدَّة الرعب، وكأنهم أشبعوه ضرباً ولكماً.

- «أَلَا يمكنك أن تُسرِع أكثر، يا طِرْحَ الغنم؟» وتلقَّى ساشكا ضربةً قوية على كتفه.

قادوه إلى نفس المكتب الذي زاره بالأمس. كان شيتينكِن جالساً يحتسي شاياً أو قهوةً من فنجان يَغْمِس فيه البسكويتَ اليابس. نظر إلى ساشكا، إلى ثيابه الملطَّخة، وأشاح عنه باشمئزاز.

قال المحقق وهو يضع فنجانه على الطاولة: «استناداً لشكلك الخارجي، يبدو أن حرَّاسَنا لم يُلاطِفوك كما يجب، هل تُقدِّر ذلك؟»

هزَّ ساشكا رأسَه بقوة. الآن أضحى جاهزاً لكل شيء، لأن يُعدِموه أخيراً رَمْياً بالرصاص، ويَكُفُّوا عن تعذيبه.

وضع المحقِّق ساشكا عند حدِّه: «لا حاجةَ بنا لحركات حادَّة. إنها تزعجني. أنا اليوم، حسَنُ المزاج. مثلاً، هل تريد التدخين؟»

أحسَّ ساشكا برغبةٍ جامحة للتدخين، فأومأ برأسه أيضاً. أخرج شيتينكِن من دُرْج الطاولة علبةَ سجائر من نوعٍ جيد، وأعطى ساشكا سيجارة وأشعل له الولاعةَ وانتظر بصبرٍ حتى أشعَلَها.

قال وهو يضع الولاعة جانباً: «يبدو لي أنك اليومَ تخلَّصتَ من مزاجك العدوانيِّ. ذلك ليس مستغرباً. ذاتَ مرَّةٍ اقتَدْنا إلى هنا والِدَ إحدى الفتيات المحكوم عليهن بجناية، ثم اقتدنا الفتاة. ما إن رأى ابنتَه حتى أصابَتْه نوبة هستيريا؛ فسقط عن كرسيِّه وراح يتخبَّط ويضرب الحائط برأسه إلى أن ارتطم بزاوية المكتب ولوَّثَه بالدم. أمَّا أنت، فقد تمالَكْتَ نفسك وأحسنتَ التصرُّفَ». قال المحقق مُشيِراً إلى مقعدٍ صغير: «فَلْتجلس. لا تشعر بالحرج، عليه مُشمَّع مخصَّص للزوَّار، فلن يتلوَّث».

راح ساشكا يدخِّن سيجارته بيدٍ ترتجف، وينفث دُخَانَها الكثيف في المكتب.

- «لعلَّك تحسُّ بألمٍ في داخلك؟ هذا بسبب الجوع، وربما بسبب تعَبِ الأعصاب».

أومأ ساشكا موافقاً. حقاً، كان الألم يعتصره من الداخل، لا سيما تحت أضلاعه بسبب التقيُّؤ والجوع، أو بتأثير لكماتِ الحارس. ألمٌ ثقيل ومزعج.

قال المحقق: «لا بأس، هيا إلى العمل. حدِّثني عمَّا أعدَدْتَه خلال الليل».

أطفأ ساشكا السيجارة ودسَّها في جيبه: «أنا مذنب، فَلْتُعدِموني رمياً بالرصاص».

تضاحك المحقق مجدداً:

- «لماذا تَسْتبق الأمورَ؟ لا أظن أن تصرُّفَك حكيم».

وافَقَ ساشكا آلياً: «أجل». كلُّ ما قاله المحقِّق كان صحيحاً. بالطبع، لقد كذب عليه إيليا، وهو بالفعل لم يهرب إلى أي مكان، وتعمَّدَ أن يَلْقاهم في تلك الليلة العاصفة، بغيةَ أن ينقله ساشكا إلى المشفى ويتبرَّع له بدمه. بالتأكيد، إيليا هو المجرِم الأول بحقِّ مدينته، وساشكا لم يُبلِّغ عنه، ولم يُسلِّمه للسُّلطات، وأعطاه سلاحاً بدافعٍ شرير، ليَرتكِبَ جرائمَ جديدة. وكلُّ ذلك بمشيئةِ قوى خارقة وحاقدة للإيقاع بساشكا والاقتصاص منه. وهكذا، حان وقتُ الحساب. سيغادر ساشكا هذه الأرضَ التي خلقها الله فسيحةً وخاوية، وستظل هكذا أبداً، وسيبقى الثلج والغيوم، وكذلك الأنقاض. كان شيز يقول إنه لا وجودَ للموت على الأرض. كيف لا، وساشكا سيموت اليومَ؟ منذ بعض الوقت مات ليوڤـا والذئب وأوليغ... وكل الذين يعيشون الآن سيموتون أيضاً، حتى شيز، الذي قال بأنهما سيكونان آخِرَ مَن يموت. يكفي أن نقول: «آومـ... ـم... ـم».

نظر شيتينكِن باستهجان إلى ساشكا الذي أخذ فجأةً يهزُّ جذعَه إلى الأمام والخَلف على كرسيه هناك: «ماذا؟ هل نويتَ أن تصلِّي؟! أصحيحٌ ما تفعله؟! إني لا أفهم ما حاجةُ المتآمرين إلى أمثالك؟ أُراقِبك لليوم الثاني، ولا أجد فيك شيئاً سوى التخلُّف العقلي؟»

قال ساشكا مجدداً: «أجل، لقد أخفيتُ الهاربَ عن مكتب التحقيقات، وزوَّدتُه بالسلاح. والآن سيُعدِمونني».

خيَّمَ الظلام في الغرفة، ولربما كان هذا الظلامُ أمامَ عينَيْ ساشكا فقط. فالضبابُ يَكْتنفه من جميع الجهات. والمحقق يقول شيئاً في الضباب. تحدَّثَ طويلاً وبرتابة. لم يكن ساشكا يسمعه، غير أن الجملة الأخيرة كانت واضحة جداً:

- «أندريه، أخرِجْ هذا الهزَّاز من هنا، إنه يُحرِّك الهواء».

رفع الحارس ساشكا من ياقته وأخرَجَه إلى الممر وهو يركله؛ تعثّرَ ساشكا ووقع على الأرض، فاستشاط الحارسُ غضباً، وراح يَرْكله برجلَيْه حتى كاد ساشكا يختنق من تشنُّجات القِيء، وغاب عن الوعي. أفاقَ في الزنزانة، على الأرض الرطبة. حاق به صمتٌ مُطبِق، ولكن ضوءَ المصباح موجود. لعق بلسانه شفتَيْه المهشَّمتَين، وأحسَّ بعطشٍ شديد. سقطت من السقف قطرةٌ من الماء الراشح على كُمِّ قميصِ ساشكا، ولاحَظَ كَمْ أنَّ القميص قَذِر. تذكَّرَ ساشكا ثيابَ إيليا الملطَّخة وفكَّرَ في أنه لن يَقْوى على تحمُّل ذلك، لا بُدَّ أن يفعل شيئاً.

كان قد قرأ في طفولته عن مجرمٍ محكوم عليه بالإعدام، شنق نفسه داخل زنزانة. كانوا قد أخذوا منه الحزام، لكنهم تركوا كنزة الصوف التي يُمكِن حلُّ خيوطها. «أستطيع صُنْعَ حبل، ولكن... ولكن... أين أُثبِّت الحبلَ؟ لا يوجد..».

ظلَّ ينظر ببلاهة إلى المصباح يتدلَّى من السقف. كان يفكر: «إنه النور. الظلام في كل مكان، النور ليس موجوداً إلا هنا. لو خرجتُ من هنا، لَأطلقتُ ساقيَّ للريح هارباً، إلى هناك، حيث النور... إلى الجنوب، إلى الشمس. إلى تلك المدينة التي ليس فيها حربٌ، هناك لا يَقْتلون أحداً. الجميع أُخْوة». اخترق شعاعُ المصباحِ الباهت جسدَ ساشكا المتعَب، ليبعثَ فيه دِفْئاً غيرَ عادي وإحساساً هادئاً، وكأنه يرفعه عالياً. المدينة، بأبْنية ضواحيها، وثَلْجها الرمادي، ومركزها المتعفِّن، ظلت هناك في الأسفل؛ حيث المتشرِّدون والمَغاوِير الفقراء، وجنود القائد الأعلى المغرورون، والعمَّال السكارى. حلَّقَ ساشكا في الفضاء، يحتضن الغيومَ بذراعَيْه، ويعبُّ الهواءَ مِلْءَ صدْرِه فتَلْتئِم كلُّ جروحه. فكَّرَ ساشكا: «هذه هي السعادة، السعادة!» ثم طار عبر المدخنة الكبيرة السوداء نحوَ فضاءٍ مُشِعٍّ. إنها المدينة عينها، المدينة التي لا حرْبَ فيها. هناك الجميع مُستعِدُّون لقبوله. يَتناهى إلى مسامعه حفيفٌ بعيد، وغناءٌ عَذْب، فتابَعَ تحليقَه. أصبح أكثر قُرْباً من النور، أكثر قُرْباً، أكثر قُرْباً... ثم أدرك أن الضياء يبتعد، والمدخنة السوداء تنداح أكثر وتتَّسِع لتصهره بداخلها. سمع صوت شيز: «أنت لستَ جاهزاً بعدُ، لستَ جاهزاً، لستَ جاهزاً. ستعود فيما بعدُ، فيما بعدُ، فيما بعدُ..». حاوَلَ ساشكا الانعتاق، لكن العتمةَ لفَّتْ جسدَه بقوةٍ ومنعَتْه من الطيران، ألقَتْ به بعنفٍ على أرض الزنزانة. استطاع أن يلمح جسدَه مُكوَّراً هناك. تساءل وهو يندمج في جسده: «مَنْ أنا؟» في تلك اللحظة تعاظَمَ ألمُه، وتبيَّنَ له أن النورَ مِصباحٌ تتطاير حوله هبَّاتُ نسيم. وتحوَّلَت العتمة إلى صقيعٍ سَرى عبر خلاياه. نهض ساشكا مُتَّكِئاً على الجدار، وبرعب سمع وقْعَ أقدامٍ في الممر، وخشخشةَ مفاتيح.

تساءل الحارس أندريوشا وهو يدخل الزنزانة: «ألَمْ تَمُتْ بعدُ، أيها المخبول؟»

انفلَتَ أنينُ ساشكا الرتيب.

- «أنت خائف، أيها النذل؟» تضاحك الحارس بدناءة كأنه تضاحُكُ الموت. أمسك أندريوشا ساشكا من ياقته بعنفٍ تسبَّبَ في تمزيقِ قماشِ قميصه، وهزَّه بعنفٍ وأوقفه على قدمَيْه. لكن ساشكا وقَعَ ببطءٍ على الأرض. والحارس ينظر إليه بحنقٍ وكأنه يتساءل: «هل أرفعه، أم أقضي عليه هنا؟» ثم داس بقدمَيْه على يده الممدودة.

وصرخ الحارس غاضباً: «إن لم تنهض، فسأعلِّقك من أمعائك، أفهمت؟»

حاوَلَ ساشكا النهوضَ، لكنه لم يَستطِع. «الآن لن أرى مدينةَ السعادة أبداً». احتضنه الحارس بين يدَيْه باشمئزازٍ وجَرَّه عبر الممرِّ.

عند السُّلَّم المُفضِي إلى الأعلى، وقَفَ إيديك الأرنب وعددٌ من المغاوير. بعضُهم بثيابٍ رسميةٍ تابعة لمكتب الوحدات الخاصة، والبعضُ الآخَر مثل ساشكا؛ شبه عُراةٍ، ومُلطَّخون، ومُهَانون. أفلتَتْ يدا الحارس ساشكا فارتمى على الأرض.

بادَرَه الأرنب بتَرْحاب: «مَلْحَباً، يا صديقي». وحاوَلَ اثنان من الشباب مُساعَدتَه على النهوض. «جئتُ من أجلك. عبثاً يَحْتجزونك هنا».

تساءل ساشكا بصوتٍ أجشَّ: «إلى أين سيَأْخذونني؟»

- «لقد أطلقوا سَلاحك. اتفقوا مع اللائد. تحرَّكْ، هيا».

مشى ساشكا خلف مبعوث الرائد، يَخْطو متثاقلاً، والألمُ ينزُّ من جسمه كله ويصعب عليه التحكُّم في حركته. وصلوا إلى المدخل الأمامي من دون أن يَعْترضَ أحدٌ طريقَهم. كان الحرَّاس هنا يَنْظرون بازدراءٍ إلى المغاوير. أصدَرَ أحدهم سعالاً قوياً جعل ساشكا المرعوب يَنْتفِض وكاد ينزلق على سلالم المدخل. خلف السياج كان بانتظارهم الكلبُ وكيشا، وكاتيا تَحْمل بيدِها ورقةً رماديةَ اللون.

قالت كاتيا، وهي ترمقه بخوف: «ساشا، هل أطلقوا سراحك؟»

أجاب الأرنب بدلاً منه: «نعم».

طلب منهم كيشا: «دَعُونا نبتعد من هنا؛ ينظرون إلينا وكأنهم يريدون تمزيقَنا».

أكَّدَ الكلب: «الجنود النظاميون لا يطيقون المغاوير، تلك حقيقة».

تساءلت كاتيا بوَجَل: «هل ضربوك؟»

لاذ ساشكا بالصمت. كان يخشى أن يقع أرضاً، هنا أمامَ أعين الحرَّاس. أدرك الكلب ذلك، فأمسَكَ به من ذراعه، وأمسك به كيشا من الجهة الأخرى.

قال الأرنب: «شاحنتنا هناك. هيا بنا إلى الأنقاض، سننقلكم إلى المحطة».

راح المغاوير الذين أُفرِج عنهم يصعدون الشاحنةَ ببطءٍ إلى تحت المشمَّع مُنهَكين من شدة ما تَعرَّضوا له من ضرب، أو من عدمِ تصديقِ نبأ نَجَاتهم. تنهَّدَ الكلب بأسى، ثم نزع مِعطَفَه وغطَّى به كتفَيْ ساشكا. ومدَّ كيشا يدَه برفقٍ إلى كاتيا لتصعد معهم إلى العربة أيضاً.

انطلقوا يلفُّهم الصمت، عدا موقوفاً كان يَئِنُّ بين الحين والآخر، ويتمتم بكلام غامض. أمَّا ساشكا الجالس في المقدمة فجالَ في خاطِره أن ما يحدث ليس إلا خيالاً، وأنه في الطريق إلى ساحةِ الإعدام. وإلَّا، فلماذا لم يسمحوا له بأخذ حوائجه أيضاً؟ لقد حاوَلَ أن يجد شيتينكِن بين الجالسين، لكنه لم يَفْلح. بدلاً منه، وقَعَ نظرُه على كاتيا وهي تتأمَّلُه برعب. سوف يُعدَم الجميع! كلهم خانوا المدينة! وسيُعدِمون كاتيا أيضاً! حاوَلَ ساشكا أن يتذكَّر لماذا ستُعدَم كاتيا، ولم يَستطِع. ما علاقتُها بالمنظمة؟ هل كان يَزُورها إيليا؟ وهل خبَّأ ساشكا عندَها البندقيةَ المفقودة؟ أم أنهم سيقتلونها فقط لأن ساشكا عرض عليها الفرارَ معه؟ إنْ كان من أجل ذلك فقط، فكل ما يحدث ليس عدلاً. شعر بدُوَارٍ في رأسه، ووجْهُ كاتيا انخرط في الدُّوَار أيضاً مع حركةِ العَرَبة ومَن فيها من عناصر المغاوير.

- «ليس مُؤلماً أبداً». هذا ما استطاع أن يُسِرَّ به ساشكا إلى كاتيا في لحظته الأخيرة، ومال بجسمه على الشاب الجالس خلفه ويَئِنُّ. ودوَّت شتيمةٌ بصوتٍ مخنوق، وامتدت آلافُ الأيدي من جميعِ جهاتِ الشاحنة التي بَدَتْ فجأةً وكأنها عملاقة.

خاطَبَ ساشكا الأيدي الممتدة: «ليس هذا مؤلماً».

سُمِع صوتٌ مألوف: «ساشنكا».

شتم الكلبُ: «بِئْسَ المرأةُ أمُّك».

ثم خيَّمَ صمتٌ امتدَّت فيه الأيدي الغريبة لتَحْمل ساشكا من العَرَبة وتضعه على الثلج. ربَّتَ الأرنب بيده على كتف ساشكا، ورجاه: «لا تَسْعُل». بَدَت كاتيا وكأنها بَكَت طوالَ الطريق، وكانت عدستا نظّارة الكلب تتألّقان أمامَ عينَيْ ساشكا.

طلب ساشكا من الكلب: «أريد أن أُدخِّن». فاستجاب وأعطاه سيجارة.

سأله كيشا: «هل كانوا يُقدِّمون لك الطعامَ هناك؟»

أجاب الكلب: «يبدو أنه لا وقتَ لديهم، وأشكُّ في أن الطعامَ يدخل ضمنَ الخدمات التي يُقدِّمها المكتب».

طلب كيشا بجِدَّة: «ليتك تخرس، يا ماكس. انظر، فقد غدا ساشكا مُخْضَراً بسببِ تَبْغك. توقَّفْ، أفَهِمتَ؟»

هزَّ الكلب كتفَيْه، وأمسك بساشكا الذي كان يَرْمقهم بعينَيْن دامعتَيْن نتيجةَ سُحُبِ الدخان.

أضافت كاتيا: «إنه بحاجةٍ إلى مَرَق اللحم، وليس إلى التبغ».

وافَقَها كيشا قائلاً: «سنُسخِّن اللحمَ المعلَّب ونُجهِّز الحَسَاء». وخطف لفافةَ التبغ من يدِ ساشكا ورمى بها بعيداً. «أَلَم نَصِل بعدُ؟»

سأل ساشكا: «أين هم؟ متى سيكون إعدامنا؟»

قال كيشا باستغراب: «لقد فقَدَ صوابَه».

قال الكلب بصوتٍ عالٍ: «إنه الجنون». وتردَّد صدى الكلمة في أُذنَيْ ساشكا: «جنون، جنون، جنون». أضاف الكلب: «هذه حالة عابرة، ربما..».

جَرُّوا ساشكا عبر الأنقاض إلى مبنى الوحدات. ظلَّ خلفَهم مَن كانوا يرتدون لباساً مُموَّهاً أخضرَ، ينظرون إلى ساشكا بحقد. وكذلك المحقِّق شيتينكِن. لكن أوامرَه ظلَّت تُلاحِق ساشكا في كل مكان. وأكثر ما كان يتمنَّاه شيتينكِن هو موتُ ساشكا. أحد هؤلاء الثلاثة؛ كيشا، أو الكلب، أو كاتيا، كان يُخفِي مسدساً خلف ظهره. أحدهم كان يجب أن يَقْتل ساشكا. لقد ابتَكَر شيتينكِن طريقةً إنسانية جداً؛ إطلاق سراحه، ثم رَمْيه بالرصاص.

رجاه ساشكا: «هيا كيشا، أطلِق النار. أطلِق الآن، ما لك تَتعذَّب، أَطلِق».

رفع كيشا صوتَه عالياً بالشتائم، لكنه لسببٍ ما لم يُطلِق النار. رفض أن يُطلِق النار. ربما كان يجب على الكلب أن يقوم بذلك؟ فهو أكثرُهم حكمةً ويعرف كلَّ شيء. لقد قرأ في أحدِ الكتب يوماً أن ساشكا سيُقتَل حتماً. ولعلَّ شيز مَن كان ينتظر والمسدس معه.

تساءل ساشكا: «وشيز، هل شيز هو مَن سيُطلِق النار؟» ولم يكن الجوابُ إلا شتائمَ قاسيةً مُوجَّهة إليه، ولم يَشَأ أحدٌ أن يعترف.

توسَّلَ ساشكا إلى كاتيا: «فَلْتقولي أنتِ يا كاتيا، متى سيُطلِقون النارَ علَيَّ؟»

أجابت كاتيا: «لن يحدث ذلك أبداً، يا ساشنكا». وكانت تكذب.

قال كيشا: «إنه ثقيل». وأسقطوا ساشكا على الثلج.

الآن كان يستطيع أن يموت. أن يَسْتلقي على الثلج، ويتجمَّد. ربما هذا ما أمَرَ به شيتينكِن. كان شخصٌ ما يتنفَّس بصعوبةٍ وبصوتٍ مسموع عن اليمين، وآخَرُ يَنفُث الدخانَ بعصبيةٍ على وجهِ ساشكا. كانوا جميعاً يريدون أن يَرْموه ويتركوه. أرادوا الخَلاصَ منه. وهنا كان عليه أخيراً أن يموت. لم يكن مطلوباً إلا قول: «آومـ... ـم... ـم». وهذا ما فعله ساشكا. وهنا، أسرعوا وحملوه من جديد.

تساءَلَ ساشكا شاكياً: «لأي سبب؟» ولم يُجِبه أحد.

35

مرَّت عِدَّةُ أيام في فوضى غريبة. تارةً بدا وكأنَّ شيتينكِن وجنودَه جاؤوا ثانيةً لاستئنافِ كلِّ شيءٍ من جديد، وتارةً بَدَا أنه لن يأتيَ أحدٌ يوماً، وسيظلُّ ساشكا وحيداً إلى الأبد. ومن جديدٍ كان يأتي رجلٌ يُواسِي، ويطرح أسئلةً لا تنتهي، ويُقدِّم للناس الماء. كان هذا الرجلُ يأتي إلى ساشكا بوجهَيْن: أحدهما وجهٌ مرعوبٌ لكاتيا، والثاني مُطْمئِنٌّ وواثقٌ لشيز. وكان شيز يعطي حبوباً طبيةً ما، وكان كذلك يُشعِل الشموعَ فتزدوج في عينَيْ ساشكا، وأحياناً تتشظَّى آلافاً من الأضواء. حينها ظنَّ ساشكا أنها نجوم. كانت تبكي طول الوقت. وربما، لم يكن ذلك إلا ما تخيَّلَه ساشكا. قد تكون انطبعت في ذاكرته وهي تبكي، ولا

يتخيَّلها الآن إلا باكيةً. وكان الوجهان يتكلّمان أيضاً بصوتَيْن، يُقاطِع أحدهما الآخر، عن الله وعن الحياة.

كل ما كانا يقولانه، سمعه ساشكا مراتٍ عديدة. في الواقع، لم يكن الأمر كذلك؛ كان يتخيَّل أن الله لا يُرسِل من السماء إلى الأرض إلا المطر والثلج والغيوم. والقائد العامُّ إنسانٌ شاهَدَه ساشكا قبلَ وقتٍ طويل، وفي الحقيقة لم يَعُد الآن يَذْكره. مَن كان يَحكُم العالَمَ هو شيتينكِن الذي لم يكن هناك مَن يخافه ساشكا أكثرَ منه. هذا هو الرعب العظيم أمامَ كائنٍ جبَّار يعرف كلَّ شيء عن ساشكا، وعن باقي الناس في هذه المدينة. شيتينكِن هو مَن كان يُعاقِب ويَعْفو، وليس الله. هنا كان شيز وكاتيا يُخطِئان. ببساطة، هما لم يَكونا هناكِ ولا يعرفان... ما الذي كانا يَجْهلانه، لم يستطع ساشكا أن يَتذكَّر، وكأنَّ أحداً تعمَّدَ ومحا كلَّ الذكريات. لم يَبْقَ سوى الرعب، وصورةِ إيليا والمدينةِ التي لا حرْبَ فيها؛ المدينة التي رآها ساشكا بوضوحٍ كامل، وبات فجأةً يَتطلَّعُ إليها بإصرارٍ. تلك المدينة الرائعة كانت المكانَ الوحيد الذي يستطيع ساشكا أن يعيش فيه. صيفٌ، وسماء، وأعشاب، وبيوت نظيفة، وصداقة حقيقية، قديمة، بَعد كثير من الآلام في السهوب. هذه المدينة لمَن يستحقها، مِن هنا تنشأ الصعوبات. يجب الرحيلُ إليها بأسرع ما يمكن، حتى ولو كان شيتينكِن بالمرصاد. يجب الرحيلُ واصطحابُ الآخرين الذين يُرِيدون أن يعيشوا. وستُوافِق على ذلك حتى كاتيا، وإن كانت قد رفضَت من قبلُ؛ لأن ساشكا نفسه لم يكن يعيش حينَها برغبةِ الرحيل وحدها لا غير، ولم يكن يُلِحُّ، وسيُقنِعها الآن.

فتح ساشكا عينَيه، ولم يَرَ كاتيا، ولا شيز. كان الكلب جالساً إلى جانبه يتفحَّص أظافره. ثم الْتَفَت وحدَّق في ساشكا، كأنه لا يعرف ماذا ينتظر منه.

سأله ساشكا: «ماكس، هل ستُرافِقني؟»

- «إلى أين؟»

- «إلى المدينة التي ليس فيها حروبٌ ولا أمراض؛ حيث الجميع سعداء. هناك لا وجودَ لأنقاض، وتستطيع أن تتعلَّمَ في الجامعة».

صمت ساشكا؛ كانت الجملة طويلةً جداً، وهو لا يَقْوى على نطقِ جملةٍ ثانية.

سأله الكلب: «وهل تنوي الرحيل حالاً؟ اطمئِنَّ أيها القائد، إنك مُصابٌ بارتجاجٍ في الدماغ؛ ولهذا تَهْذِي. يبدو أنهم في المكتب ضربوك على رأسك، أليس كذلك؟»

حاوَلَ ساشكا أن يكون أكثر إقناعاً: «ليس بمقدور الجميع أن يَصِلوا إلى هناك، لكننا سنصل؛ أنا وكاتيا وأنت».

تضاحك الكلب: «شكراً على ثِقتك، لكن ما تقترحه انتحارٌ مُروِّع. الانتحارُ شنقاً أسهل منه بكثير، والنتيجةُ واحدة في كلتا الحالتَيْن».

قال ساشكا بأسى: «أنت لا تصدق. لا بأس، سأجد مَن يرافقني».

نصحه الكلب: «ولكن لا تَدْعُ كلَّ عابرِ سبيلٍ، وإلَّا فحظوظُك كبيرةٌ للعودة إلى المكان الذي أطلقوا سراحَك منه بمَحْضِ الصدفة. ولا أظنُّ أن عودتَك الثانية إلى هناك ستَنال منك إعجاباً أكبر».

استوى ساشكا جالساً: «اسمع، يا مكسيم، هل كنتَ على السُّلَّم؟ هناك كتبتُ أسماءَ كل الشبان الذين ماتوا. هل هذا، برأيك، شيءٌ طبيعي؟ قريباً لن يكون هناك مُتَّسعٌ للكتابة! ستفطس، ولا يكون باقياً مكانٌ لاسمك».

أجاب الكلب: «اطمئِنَّ، يُمكِن كتابته بأحرفٍ صغيرة، لستُ مغروراً».

صمت الاثنان. ماذا كان يُمكِن أن يُقال بعدُ للكلب الذي لا يُصدِّق بوجودِ مدينةٍ بلا حرب؟ إنه لا يحتاج إليها. لقد فَهِم ساشكا لماذا لا يَبْذل الكلبُ أدنى جهدٍ للوصول إلى هناك.

- «مكسيم، أين كاتيا؟»

أجابه الكلب: «نائمةٌ في غرفتي». وهو يعود من جديدٍ إلى أظافره، وكأنه لم يتَّخِذ للتوِّ أهمَّ قرارٍ في حياته، ولم يَخْتَرِ الحياةَ بدلاً من الموت. «إنها مُرهَقة. كانت تَعْتني بك وأنت نائم. تَذكَّرْ، هي وشيز، لهما الفَضْل في شفائك».

تساءل ساشكا ثانيةً: «شيز؟»

أكَّدَ الكلب: «نعم، شيز. بالرغم من غرابة ذلك. حاوَلْنا ألَّا نسمح بدخوله؛ فقد يُحاوِل أن يقتلك، لكنَّه قال حينَها إنك لن تموت؛ لأن هناك شيئاً مهماً لم تفعله».

قاطعَه ساشكا: «الآن سأفعله، بالتأكيد. اختاروا قائداً آخَر، سأتعافى وأرحل من هنا».

هزَّ الكلب رأسَه، وشرع يتحدَّث عمَّا يجري في المدينة؛ فقد عرف ساشكا أن القائد العام وتوقَّلْت تخاصما لسببٍ ما، وبقوةٍ مرةً ثانية، ولكن

«الأخْوة الحُمْر» ناصَروا توقّلت؛ ولذلك أطلقوا سراحَ كلِّ المعتقَلين من المغاوير الذين كانوا في سجنِ المدينة، وفي الدائرة الأمنية. ولم يَنْجُ ساشكا إلا لهذا السبب. أمَّا الجيفيون فقد استقدموا إلى المدينة بعضَ القوَّات الداعمة، ونشروها غيرَ بعيدٍ عن وحدات المغاوير. ظنَّ الكلب أن ذلك شيءٌ مهم، لكنَّه أخطأ. وعموماً، لم يكن ساشكا يستمع إليه جيداً، وأخيراً غلبه النُّعَاس، مُعتقِداً أنهم أطلقوا سراحَه لغايةٍ وحيدة؛ لكي يَجِد مدينةً آمِنة. وليس له عُذْرٌ إن لم يَجِدها.

سمع ساشكا فجأةً وهو نائم: «عُدْ، عُدْ. لقد آنَ الأوان!»

قال ساشكا: «سأعود!» وقفز على تَخْته.

كان كيشا وكاتيا يجلسان في عتمة الغرفة، جنباً إلى جنب قبالةَ ساشكا.

صاحت كاتيا: «ساشا!» واندفعَت نحْوَه تُحاوِل إعادتَه إلى وضعيةِ الاستلقاء. «لا يجوز أن تنهض بهذه السرعة».

نهض كيشا واقفاً أيضاً وقال: «سأتفحَّص الموقد. مهما يكن، يا كاتيا، آنَ لكِ أن تعودي إلى البيت. سأُرافِقكِ، وغَداً سأُلاقِيكِ أيضاً».

غادَرَ كيشا الغرفة، واندفعت كاتيا فعانَقَتْ ساشكا وهو لا يَعِي شيئاً غيرَ النداء الذي سمعه في المنام.

قالت كاتيا على عَجَلٍ: «ساشنكا، كلُّ شيء سيكون على ما يُرام! لقد أطلقوا سراحك. كلُّ ما أصابك كان بسببِ إيليا. مَلِيحٌ أنهم قتلوه. يا إلهي، يا ساشنكا، أنت جُنِنت فعلاً!» وبرقت الدموع في عينَيها. «لقد ضربوك هناك. إنهم رهيبون. قالوا لي إنك مذنب، ولكنك لستَ مذنباً».

حدَّثَ ساشكا نفسه: «عزيزتي كاتِنكا [28]. عزيزتي كاتِنكا، أنتِ مثل أمي، أنتِ من أفضلِ أهل الأرض. اذهبي معي».

- «آنَ لي أن أعود. كنت أنتظر، ومكسيم أَعلَمَني بأنك صحوت، عندما كنتَ نائماً. قلتَ أشياءَ مُخِيفة، حتى يوم مَرضِك عندنا هناك، لم تكن تَهذِي هكذا».

- «في هذه المدينة سنكون سعداء. ليس لي مَن يرافقني غيرك. صديقي المفضَّل، إيليا، لن يُرافِقني. أنت لم تَرَي ما فعله به شيتينكِن».

- «خطأ كبير أنك لم تَبْقَ يومَها عندنا. كان يُمكِنك مُتابَعةُ دراستك، ماذا أقول، إنك ستكمل الدراسة... ثم ننتقل للعيش في ضاحية. هناك يَبْنون مدارسَ وسيحتاجون إلى مُعلِّمين. هل قلتُ لك ما هي مهنتي في المستقبل؟»

- «لا يوجد هنا أيُّ مكانٍ نستطيع أن نعيشَ فيه سعداء. إن شيتينكِن في كل مكان. سيَجِدنا ويقتلنا. إن لم يَقْتلْنا نحن، فإنه سيَقْتل أولادنا..».

قُرِع الباب، فحاد ساشكا أخيراً بنظره عن عينَيْ كاتيا اللامعتَيْن، الغامقتَيْن، البليلتَيْن.

قال كيشا بصوتٍ عالٍ وواضح: «سانيوك، سأُرافِق كاتيا حتى البيت، ثم أعود وأُشعِل الموقد. هل تَشعُر بالبرد؟»

- «كلَّا».

قالت كاتيا: «ساشا، سأذهب الآن».

قال ساشكا وهو يحاول النهوض: «انتظري، سأُرافِقك يا كاتيا حتى العتبة. لا أستطيع أن..». وصمت ساشكا، يُحاوِل اختيارَ الكلمة المناسبة، «أَدَعك تذهبين».

قالت كاتيا هامسةً: «لا لزوم، اسْتَلقِ، اسْتَلقِ».

- «انتظري». قطَّبَ ساشكا حاجبَيْه، ونهض بصعوبةٍ واقترب من كاتيا.

أدار كيشا ظهرَه مُتفهِّماً الموقف. «كاتيا، أحبكِ. أنا... أريد أن أقول لكِ... رافِقِيني إلى المدينة التي ليس فيها حرب».

- «ساشنكا، إنك لا تستطيع الذهابَ إلى أيِّ مكان. أنت مريض، بل لا يجوز أيضاً أن تخرج من الغرفة».

- «يجوز لي». ونفض ساشكا رأسه، فدارت الغرفة ولكنه ظلَّ واقفاً، وقد استندَ إلى الجدار. «لقد قرَّرتُ أن أرحل، وبعد ذلك... استدعوني».

- «لم يَسْتدعِكَ أحد، لقد خُيِّل لك».

أجاب ساشكا بغضب: «كلَّا، لم يُخيَّل لي. سأرحل. اليومَ أو غداً. وأنا أرجوكِ للمرة الأخيرة: فَلْنَرْحل معاً. لا تخافي، سأجتاز معك السُّهب، ولن يحدثَ لنا أيُّ شيء».

قالت كاتيا بحنان، وهي تأخذ يده: «عليك ألّا تفعل ذلك، إن كنتَ تحبني فابْقَ. لا حاجةَ للرحيل».

صرخ ساشكا في وجهها: «حمقاء! حمقاء بلا مخ! ليس لك أيُّ مستقبلٍ هنا! أتفهمين أم لا؟ ستنقضي مائة سنة، ألف، وآلاف كثيرة من السنين ولن يتغيَّر شيء! كلكم لا تفهمون شيئاً، كلكم عميان! لقد رأيتكم! كنتُ في هذه المدينة. إنهم ينتظروننا. أنا، وأنت، ونحن جميعاً. سوف أرحل. اليوم أو غداً. وأنتِ إذا بقيتِ فستموتين!»

حاوَلَ ساشكا الإفلاتَ من يدَيْ كاتيا، بينما أسرَعَ كيشا لمساعدتها.

أردف ساشكا صارخاً: «بلهاء!» فطرحه كيشا على السرير وضغَطَ عليه بقوة، لكنه لم يهدأ. «أيُعقَل أنك لا تفهمين! ستموتون جميعاً!»

صرخ كيشا: «اخرس! فيما بعدُ ستندم من جديدٍ، وتحاول الاعتذار!»

صاح ساشكا غاضباً: «لا يهم! أنت ترى، إنها لا تريد أن ترحل معي! هل هذا حُبٌّ؟ أريد أن أُنقِذَها، وهي..».

نشَجَت كاتيا بصوتٍ عالٍ، بقوة. فتخلَّى كيشا عن ساشكا وراح يحاول تهدئتَها.

صرخ ساشكا: «وداعاً، إذاً! تزوَّجي كيشا، وأَنجِبا كثيراً من المعتوهين مثلي! وَلْيَرْكلوهم في المكتب! فهذا ما يَصلُحون له! وأنتِ ستنظرين إلى صورهم على الحائط وتَذْرِفين الدموع».

صاح به كيشا: «اسكتْ فوراً!» وحين رأى أنه عاجزٌ عن تسويةِ الأمور، ولا يستطيع منْعَ ساشكا من التورُّط في قول المزيد، سدَّدَ بقبضته ضربةً إلى وجه ساشكا.

تَسنَّى لساشكا أن يقول، قبل أن يفقد وَعْيَه: «حمقى!»

36

تناهى إلى سمعه عبر العتمة: «آومـ... مـ... ـم».

بدأ ساشكا يستعيد وعْيَه.

نادراً ما كان بهذا الانشراحِ وصفاءِ الذهن، ولم يكن يشعر بجسده.

فتح عينَيْه. كان الوقت ليلاً. يجلس شيز على مَقربةٍ من الشعلة المشتعلة، وهو يُردِّد كلمتَه المعهودة. أنزَلَ ساشكا رِجْلَيْه على الأرض وتلمَّسَ نَعْلَيْه، ثم دسَّ فيهما قدمَيْه، وخرج. في الغرفة الكبيرة مصباحٌ يضيء. خلف الطاولة، بالقرب من مصباح الكيروسين تجمَّعَ كلُّ فِتْيان الوحدة: يورا، والكلب، وكيشا، وتحت أقدامهم عِدَّةُ زجاجاتٍ أُلقِيَت على الأرض.

قال كيشا متلعثماً: «أوه، القائد! نحن هنا نشرب نخْبَ صحتك، ونتمنَّى لك ألَّا يَخْتلَّ عقْلُك، مثل شيز».

تساءل ساشكا بصوت خفيض: «وهل طالَت فترةُ غيبوبتي؟»

أخبره كيشا: «استمرت يومَين فقط. عندما غضبتُ وضربتُك، فقدتَ وعْيَك مرةً أخرى. وقلتُ لن أعتني بك ثانيةً، فلا حاجةَ لي بذلك. راح شيز يَسْقيك من خُزَعْبِلاته، ويَحْقنك بالمسكِّنات. كاد يستهلك كلَّ ما لدينا من أدوية».

قال الكلب: «قلنا إذا جعلك تتعافى، فأنت محظوظ؛ وإذا لم ينجح، فهو قَدَرُك. لكن بعد هذيانك، أعتقد أن من الأفضل لك أن تُغادِر».

قال ساشكا: «أعرف. وأنتم باقون؟»

أجاب كيشا نيابةً عن الجميع: «أجل، نحن باقون».

اقترح يورا: «دعونا نشرب أيضاً بضع قطرات». لكنَّ أحداً لم يؤيده.

- «وأين كاتيا؟»

- «لقد منعتُها من المجيء؛ أنت لا تُقدِّر العنايةَ بك. وحبُّ كاتيا لا يهمُّك نهائياً».

جلس ساشكا على مَقربةٍ من الفِتْيان.

سأله يورا: «وأنت واصَلْتَ هذيانك عن مدينةٍ ما، أتَذْكر؟ لم أفهم شيئاً».

تنهَّدَ ساشكا: «هذا ليس هذياناً، أنتم فقط لا تريدون الاستماعَ إلى أيِّ شيء. تَرضَوْن عن حياتكم هنا محرومين من أيِّ عدالةٍ. وستموتون جميعاً؛ لأنه

لا يستطيع البقاءَ حياً هنا إلا النذل، القوي، السريع، الذي يَحسب حسابَ كلِّ شيء، وليس بينكم مَن هو كذلك».

وجحظت عينا يورا: «حقاً، إنه شيز الثاني بلَحْمه ودمه».

قال ساشكا: «لا بأس». ثم نهض، واتجه إلى غرفته.

صرخ كيشا في إثره: «لا تذهب إلى هناك؛ كلُّ أمتعتك عند شيز منذ وقتٍ طويل. حتى تلك الأشياء التي رماها عناصرُ المكتب على السُّلَّم، لقد جمعتُها».

نظر ساشكا في وجه صديقه قائلاً: «كيشا، اعْتَنِ بكاتيا. لا تَتركْها وحدَها».

هزَّ كيشا كتفَيْه.

- «لست أدري. سأغادر وحدةَ المغاوير، وأسافر إلى الريف. لم يَعُد بإمكاني البقاءُ هنا؛ وجدتُ هناك مزرعةً جيدة، والمياه قريبة، والأهمُّ أنها زهيدةُ الثمن».

ربَّتَ ساشكا على كتفِ كيشا وانعطف إلى غرفة ڤـيتكا. كان شيز يجلس كحاله سابقاً، على مَقربةٍ من الشمعة، لكن هذه المرة كان صامتاً. تفحَّصَ ساشكا الغرفةَ، ورأى حقيبةً ظهره. فتحها، فوجد فيها بطانيتَه المثقوبةَ بطلقة، وفنجانَه وأشياءَ أخرى بقيت من كرايف. كان في جيبِ المحفظة النابُ المحنَّط، والجُعَل كوزكا، وكتابٌ قديم بعنوان «سدهارتا».

قال شيز: «هذا وضعته أنا. أنت تحدَّثتَ كثيراً عن الجنة، وكأنك كنتَ هناك حقاً. أتَذكُر؟»

- «يجب أن أصِلَ إلى المدينة التي لا حربَ فيها».

وافَقَه شيز: «أجل، هذه هي مهمتُك هنا. أنا سأرحل معك، أيتها الروح السوداء. تلك هي مهمتي؛ سأقوم بحراستك لأنك ضعيفٌ، ويجب أن تكون قوياً، من أجل تحقيقِ رسالتك».

لم يفهم ساشكا: «معي؟»

- «أجل، سنذهب معاً، عبر الثلوج إلى الجنوب. إلى الشمس. لقد قارَبَت شموعي على النفاد. يعني، آنَ الأوان».

وخاطَبَ نفسه: «ثم يقولون إنه غيرُ طبيعيٍّ. تخلّى الجميعُ عني، في حين أنه على استعدادٍ للذهابِ معي إلى المجهول. أم أنه يعرف شيئاً ما؟ شيز يستطيع أن يعرف، فهو دائماً على حقٍّ تقريباً. وهو دائماً يَعِدُ الجميع بالموت، أمَّا أنا، فقد انبرى لمُعالَجتي!»

- «وهل تظن، يا ڤـيتكا، أننا سنصل؟»

- «كلُّ شيء بمشيئة الله». قال شيز بلا مُبالاة، وهو يشير إلى صُرَّةٍ على حافة النافذة: «هناك خليط من الأعشاب، إنها ستساعدنا».

- «لعلها صُرَّةُ تَبْغ».

لم يُجِبْه شيز، راح يخلع اللوحات والأجراس المعلَّقة على الجدار، وفجأةً رماها في وعاءٍ مع العيدان المشتعلة.

قال موضِّحاً: «لا يَجُوز اصطحابُ المصائب القديمة إلى الحياة الجديدة».

راح ساشكا يتأمل النارَ المشتعلة. أمسَكَ بالجُعَل القماشي وتأمَّلَه للمرة الأخيرة. إنه طِلَسمٌ سيئ لم يَجْلب السعادةَ لا لأسرةِ كرايف، ولا له. رمى ساشكا بكوزكا في النار، وراح الصوف الاصطناعي يطقطق منصهراً في اللهب.

- «لا بأس، يا ڤـيتكا، سأذهب لأجلب مُخصَّصاتنا الغذائية، وماءً للشرب، وسأترك المفتاح للفِتْيان».

كان الفِتْيان يُتابِعون ساشكا، وهو يَضَع في حقيبته الأغذيةَ المعلَّبة، وزجاجاتِ المياه البلاستيكية.

سأل كيشا بجفاء: «سترحل حالاً؟ ما إن تَماثَلْتَ للشِّفاء، حتى تهيَّأتَ للفِرَار؟»

أجاب ساشكا بتَأَنٍّ: «إذا حاولتُ الانتظار، فسأتأخَّر مرةً أخرى. ثم إنني لستُ وحدي؛ سيذهب شيز معي».

انبرى كيشا يضحك هازئاً: «شيز؟ فريقٌ ما أَفْضَله!»

قاطَعَه ساشكا: «الزم الصمت، لم أَعُد قائداً الآن. سيَحلُّ مكسيم مكاني. وأنت، يا كيشا، لم أطلب منك أن تَسْخر مني. إذا شئتَ يُمكِنك أن

تُرافِقَنا أنا وشيز، حتى الشريط الشائك».

أعرض كيشا بوجهه عنه: «كلا، رافَقَتْكم السلامة، اذهبا وحْدَكما».

فجأةً قال يورا: «سأذهب لوداعكما. وأنت، يا ماكس؟»

فكَّرَ الكلب قليلاً.

- «لا بأس، حرامٌ ألَّا تُودِّع رجلاً أسنَدَ إليك للتوِّ مهمةَ قائدِ وحدة. على الأقل تَشْكره على ترقيتك في الوظيفة».

أومأ ساشكا بارتياح، وعاد ثانيةً إلى غرفة ڤـيتكا. وقف شيز عند العتبة، مُرتدِياً مِعطَفاً قصيراً غريبَ الطراز، وخلف ظهره تدلَّت حقيبةٌ صغيرة، وفي يده إبريق الشاي. وانتعل كذلك حذاءً دافئاً واعتمر قبعةً رمادية طويلة تَحْمي الأُذنَيْن، تشبه قبعات عناصر الحوَّامات في الشتاء.

سأله ڤـيتكا، وهو يَحِيد بنظره جانباً، بمحاذاة ساشكا: «ألَن تبرد؟»

هزَّ ساشكا كتفَيْه، وفجأةً راح ينظر إلى نفسه؛ فرأى نفسه صغيراً مُقارَنةً بشيز الطويل، مع نَدْبةٍ على صَدْغه، وعينَيْن سوداوَيْن، وشعر قصير جداً. يرتدي سترةً عسكرية قَذِرة ورَثَّة. تنهَّدَ وهو يُلقِي بحقيبته على ظهره، ويشير إلى شيز.

- «هيَّا بنا».

خرج الأربعة إلى الشارع. أخذ ساشكا نفَساً عميقاً، مستغرباً برودةَ الجو في الشارع. صقيعٌ حقيقيٌّ؛ تحوَّلَت البِرَكُ الصغيرة إلى مَمرَّاتٍ زَلِقة، وغشَّتِ المصاطبَ الإسمنتيةَ طبقاتٌ رقيقةٌ من الجليد.

قال فجأةً وقد أتعبَتْه الأمطار والضباب: «يا للروعة!»

اندفع يورا أمام الجميع، يَتْبعه الكلب وساشكا، وراح شيز يتلكَّأ في المؤخرة. يسير ساشكا مُفعماً بشعورٍ من الخفَّة، شيء يُشبِه السعادة. حدَّثَ نفْسَه: «لقد انتهى كل شيء، ها نحن راحِلان. آه، أيتها المدينة! ظلِّي من دوننا!»

اجتازوا في الظلمة الأنقاضَ، والساحةَ، وبعضَ الخطوط الزراعية الضَّحْلة على الحدود، وأخيراً الأسلاك الشائكة. كان عبورُها سهلاً؛ فقد كثرت فيها الفتحات. وأمامهم، على مدِّ البصر ترامَت السُّهوب الشاسعة. تتلاعبُ ريحٌ

قارسة بالثلج على الأرض، وصبغَتْ إشراقةُ الفجر السُّهوبَ بأطيافٍ حمراء، فبَدَت كأنها تحت طبقةٍ رقيقة من الدم.

قال الكلب: «على مسافةِ عشرة كيلومترات جنوباً بلدةٌ لأصحاب المَزارع». ثم أردف وهو يمدُّ الصُّرَّة التي كان يَحْملها بيدَيْه: «هذه مُعلَّباتٌ أرسَلَها كيشا. قال إنه سيتدبَّر أمرَه من دونها. وداعاً، يا يِرخوف».

أجاب ساشكا: «شكراً لكم».

سار شيز في المقدمة صامتاً، يدبُّ على الجليد الذي كان أحياناً يَتكسَّر تحت ثِقَل جسمه. جلس ساشكا القُرْفصاء على مهل، وفتَحَ جيبَ حقيبته، فتناوَلَ النابَ المحنَّط، وناوَلَه لمكسيم.

- «أَعْطِه لكاتيا منِّي، وقُلْ لها إنه للذكرى».

سأله الكلب: «وإنك تحبها، وتَعْتذر منها أيضاً. هل أقول لها ذلك؟»

هزَّ ساشكا رأسَه نافياً، ومضى مُسرِعاً لا يَلْوي على شيء.

أومسْك 2001-2003

Notes

[1 ←]

ساشا، ساشكا، ساشِنكا، سانيوك، سان... جميعها صِيَغُ تحبُّبٍ وتصغيرٍ مُشتقَّة من اسم ألكساندر.

* (جميع الهوامش والشروح في هذا الكتاب للمراجع ن.ن.).

[2 ←]

مؤسَّسةٌ عسكرية تعليمية تَقبل الفتيانَ منذ سن الثالثة عشرة ليتخرَّجوا فيها جنوداً وضباطاً مُحترِفين.

[3 ←]

ڤوڤكا، ڤوڤوتشكا، ڤولوديا... صِيَغ تحبُّبٍ وتصغيرٍ من اسم فلاديمير.

[4 ←]

برَّاكات، مفردُها برَّاكة: بيوتٌ من الصفيح أو التوتياء، توجد في الأحياء أو الضواحي الفقيرة، أو في ورشاتِ عملٍ مُؤقَّت.

[5 ←]

قوَّاتُ المغاوير وَحداتٌ عسكرية حسَنة التدريب والإعداد، تقوم بمهامَّ قتاليةٍ صعبة، وعملياتِ اقتحام، وإنزالٍ مِظلِّيٍّ أحياناً. تختلف تسمياتها بين بلدٍ وآخَر، وهذه القوات هنا مجموعاتٌ من المراهقين المرتزقة.

[6 ←]

يُلقَّب باسم كروليك، وهذه الكلمة تَعْني بالروسية الأرنبَ المنزلي.

[7 ←]

تيسيراً لفَهْم كلامِ الألثغ الأرنب «إيديك كروليك»، اكتفينا بوضْعِ حرفِ اللام محلَّ حرفِ الراء في كلماته المكتوبة بخطٍّ مائل.

[8 ←]

شيز مِن اسمِ المرض النفسي شيزوفرينيا، أي الفِصامي، المُصاب بالفِصام.

[9 ←]

كيشا، كيشينكا... من صِيَغ التصغير والتحبُّب من اسم إنوكينتي.

[10 ←]

من الكلمة الإنجليزية (Hippie /hippy) حركة شبابية سِلّمية، متمرِّدة على نمطِ الحياة والقِيَم والأخلاق السائدة في المجتمع. نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع ستينيات القرن العشرين، ثم انتشرَت وبلغَت ذُروتَها أواخرَ الستينيات ومطلع السبعينيات. مِن شعاراتها البارزة: «انشغلوا بالحب، لا بالحرب».

[11←]
الجيفيُّون أشخاصٌ أو عِصاباتٌ تَنبش القبورَ بحثاً عن الذهب والأشياء الثمينة، وتسرق جثامينَ القتلى أو ثيابَهم وما فيها، بعد المعارك، والاضطرابات، والكوارث الطبيعية.

[12←]
اشتقاق من اسم ليف.

[13←]
تصغير مشتق من اسم يِفغيني.

[14←]
ڤولك (Volk) بالروسية تعني الذئب.

[15←]
اسمُ نوعٍ من الثعالب.

[16←]
ڤيتكا، ڤيتيا... تصغير اسم ڤيتالي.

[17←]
كوستيا كوستيك: اشتقاق من اسم قسطنطين.

[18←]
تصغيرٌ مشتق من اسم پاڤل.

[19←]
تصغير مشتق من اسم أندْريه.

[20←]
اشتقاق من اسم سيرْغي.

[21←]
«سفر التكوين»، الإصحاح 1.

[22 ←]
تصغير مشتقّ من اسم قسطنطين.

[23 ←]
رواية للكاتب الألماني هيرمان هيسَّه (1877-1962).

[24 ←]
المَطَرَةُ: قِنِّينَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ لَهَا سَدَّادَةٌ، يَضَعُ فِيهَا الْمُسَافِرُ الْمَاءَ. (قواميس اللغة العربية).

[25 ←]
اشتقاق من اسم إيليا.

[26 ←]
«الغدَّار» فيلمٌ من أفلام الرعب (2011).

[27 ←]
تصغير اسم غريغوري.

[28 ←]
كاتيا، كاتِنكا... اشتقاق من اسم يكاتِرينا.